بين آدم وحواء

كتاب زكي مبارك المجهول

تحقيق ودراسة

محمد رضوان

مكتبة جزيرة الورد

بين آدم وحواء

كتاب زكي مبارك المجهول

تحقيق ودراسة

محمد رضوان



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **بين آدم وحواء .. كتاب زكي مبارك المجهول**

تحقيق ودراسة : محمد رضوان

رقم الإيداع : ١٥٢٣٨/ ٢٠١٨

الترقيم الدولي: ٦-٠٧١-٨٣٤-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٨



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

مقدمة المؤلف

زكي مبارك... الأديب المظلوم

بقلم: محمد رضوان

ترك د. زكي مبارك (١٨٩١ – ١٩٥٢) تراثاً أدبيًا ونقديًا ثريا تميز بالعمق والقيمة العلمية الرفيعة، تراوح بين الأدب الذاتي وأدب التراجم والنقد الأدبي والتحقيق العلمي والأدبي، بلغ أكثر من عشرين مجلدًا منها: « النثر الفني في القرن الرابع الهجري » و«التصوف الإسلامي» و«الموازنة بين الشعراء » و«الأخلاق عند الغزالي» و«البدائع» و«ليلي المريضة في العراق» و«الأسمار والأحاديث و«وعبقرية الشريف الرضي» و«العشاق الثلاثة» و«مدامع العشاق» وغيرها من روائع المؤلفات الأدبية والنقدية كما أسهم بنصيب موفور في التحقيق الأدبي والتاريخي لعدة مؤلفات من عيون التراث الأدبي العربي.

ولكن كانت هناك عشرات المقالات والدراسات التي نشرت في الصحف والمجلات الأدبية في الفترة ما بين عامي (١٩٢٠و ١٩٥٢) تملأ عدة مجلدات كان ينوي أنم يجمعها وينشرها في كتب. وأعلن عنها مثل: «أدب الشواطئ » و«أكواب الشهد والعلقم» و«الحديث ذو شجون» لكن لم يسعفه العمر تلك المؤلفات وغيرها وضاعت معظمها بين بطون الصحف والمجلات القديمة وإن كانت ابنته الوفية كريمة زكي مبارك قد جمعت بعض مقالاته المتناثرة ونشرتها في كتب خاصة كتابه «الحديث ذو شجون» وإن لم يشمل كل أحاديثه ذات الشجون.

ومنذ أصدرت كتابي « صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك » عام ١٩٧٤

في كتاب الهلال بفضل تشجيع ومساندة الشاعر الكبير صالح جودت (١٩٠٨-١٩٧٦) وأنا دائب البحث عن تراثه المجهول المتناثر هنا وهناك على صفحات الجرائد والمجلات قبل أن تبلى الأوراق ويطويه النسيان .

وقد وفقني الله لجمع بعض آثاره المجهولة مثل كتاب «رسائل مجنون سعاد» الذي نشره على حلقات عام ١٩٣٩ في مجلة الصباح القاهرية بتوقيع الدكتور بديع الزمان . وكتابه الثاني « بين آدم وحواء» الذي نشره في حلقات بمجلة الرسالة عام ١٩٤٢ وقد آثر أن ينسب الكتابين لأسماء مجهولة لاعتبارات اجتماعية وعائلية .

وأذكر أنني عكفت على الجرائد والمجلات التي كان ينشر فيها زكي مبارك مقالاته مثل الهلال والرسالة والصباح والبلاغ ومسامرات الجيب وغيرها من سبعينيات القرن العشرين لأنقل تلك المقالات بقلمي على الورق في عشرات الصفحات حيث لم يكن التصوير الضوئي قد انتشر مثل الآن .

ويعلم الله كم أنفقت من وقتي وجهدي ومالي من أجل جمع تراث هذا الأديب المظلوم الذي أحببته وأكبرت فيه جهاده وعصاميته منذ قرأت مقالاته في مجلة الرسالة وأنا ما زلت طالبا في المرحلة الثانوية في ستينيات القرن العشرين بل قمت بعمل دراسة موسعة عنه عام ١٩٦٥ تحت عنوان « عبقرية زكي مبارك» لم يقدر لها أن تنشر إلا في عام ١٩٧٤ .

واليوم إذ أقدم في هذا المجلد بعض تراث زكي مبارك يتضمن ثلاثة كتب هي: « بين آدم وحواء – رسائل مجنون سعاد – رسائل الحب والجمال » . فإنما أقدم بعض تراثه الأدبي الرائع قبل أن تطويه يد النسيان والإهمال .

أقدم هذا الكتاب هدية لروح الدكاترة زكي مبارك وتقديرًا لكفاحه وعصاميته وتفرده وهو الذي حصل على ثلاث شهادات دكتوراة من جامعة القاهرة وجامعة

السربون بباريس وكان ينوي أن يحصل على الدكتوراه الرابعة من جامعة فؤاد «جامعة الإسكندرية» عام ١٩٤٤ ولكن العمر لم يسعفه لإتمامها وتقديمها للكلية، ورغم ذلك ظلم هذا الرجل في عمله ورحل عن الحياة وهو على الدرجة الثالثة في وظيفته «كمفتش على المدارس الأجنبية» بوزارة المعارف «التربية والتعليم الآن».

لقد عاش زكي مبارك مظلوما ومات مظلوما فما أجدرنا بتكريم هذا الرجل بعد رحليه بعد أن عز تكريمه في حياته رغم عطائه وجهاده وعصاميته وعبقريته المتفردة .

***

وإذا كان زكي مبارك قد قدم رائعته القصصية «آدم وحواء» في عام ١٩٤٢، فإن أدبه الوجداني كان قبل ذلك التاريخ وبعده يدور حول علاقة آدم وحواء والمصاولات العاطفية والفلسفية والأدبية التي تدور بينهما من خلال شخصية زكي مبارك نفسه الذي يمثل شخصية آدم وبنات حواء في القاهرة والإسكندرية ، والمنصورة، وبغداد وباريس ، وما دار بينه وبينهن من قصص الحب بكل أطواره وألوانه في حالات الفراق والوصال والبغض والحب والدلال والهجر واللقاء حيث كان زكي مبارك يرى أن سعادته في نعيم الحب لا تعادلها سعادة أخرى مهما عانى من متاعب وأهوال من ربات هواه .

ومن هنا جاء هذا التراث الأدبي الوجداني الذي أقدمه هنا حلقة من حلقات مغامرات زكي مبارك في دنيا الحب والغرام!

محمد رضوان

القاهرة مايو ٢٠١٨

زكي مبارك .. عاشق الجمال

بقلم : صالح جودت (*)

رحم الله قلب زكي مبارك ..

كان قلبا كبيرًا ، يعيش للحب ، ولا يعرف الكراهية ..

كان إذا مر بقوم في الصباح ، لم يقل لهم ما يقوله سائر الناس : صباح الخير .. وإنما كان يقول : صباح الهوى ..

وكان إذا مر بقوم في المساء ، لم يقل لهم ما يقوله سائر الناس : مساء الخير ..وإنما كان يقول : مساء الهوى ..

وكان من خيرة الناس .. أولئك الذين لا يجعلون قلوبهم وسطا بل يتطرفون في عواطفهم ، إن حبا وإن حربا . .

على أنه كان إذا حارب ، حارب في الحق ، وعن إيمان ، وفي غير حقد وكان لا يخوض معركة أدبية إلا ليخرج منها منتصرًا ، وسلاحه في النصر : وفرة علمه ، وقوة ذاكرته ، ولطف أسلوبه ، وبراعته في السخرية ولهذا كان النقاد يخشون المساس به أو الدنو منه حتى لا يفترسهم بقلمه ..

أذكر مرة أن ناقدًا معروفًا أراد أن ينال منه ، فكتب مقالا يهاجمه ، ولم يوقع باسمه ، بل باسم مستعار ..

وعرفه زكي مبارك من أسلوبه ، وكتب في الرد عليه يقول له :

(*) صالح جودت (١٩٠٨ - ١٩٧٦) : شاعر وأديب وروائي وكاتب صحفي اصدر عدة كتب ودواوين شعرية منها : أساطير وحواديت - الهمشري - ناجي - بلابل من الشرق ومن دواوينه الشعرية : ليالي الهرم - حكاية قلب - أغنيات على النيل . الله والنيل والحب . تغنى كبار المطربين بقصائده وكلماته (كتب مقدمة كتابي الأول «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك» سنة ١٩٧٤ .

« لقد عرفتك بلحن القول » ..

أي أنه عرفه من أخطائه اللغوية ..

وأشار إلى هذه الأخطاء وعددها ، فسكت الناقد ولم يملك أن يحري جوابا ..

***

عرفت زكي مبارك في وقت مبكر .. في مطالع عام ١٩٣٢ ، عن طريق جمعية أبوللو التي أقامها يومئذ المرحوم الدكتور أحمد زكي أبو شادي لرفع شأن الشعر ونشر حركة التجديد فيه ، وقد جعل على رأسها أمير الشعراء أحمد شوقي ، وحشد حولها أعلام الشعر والأدب والنقد في ذلك العصر ، وفي طليعتهم الدكتور زكي مبارك ، كما حشد من حول هؤلاء شعراء الشباب المأمولين ، وكان فيهم على محمود طه وإبراهيم ناجي وم . ع . الهمشري وحسن كامل الصيرفي ومختار الوكيل وكاتب هذه السطور.

وازدادت معرفتي به عن طريق صديق لنا مشترك ، هو المرحوم الأستاذ مصطفى القشاشي صاحب مجلة «الصباح» .

كنت يومئذ طالبًا بكلية التجارة ، وكنت أكتب مقالا أسبوعيًا بمجلة الصباح وكان لكل من أصدقاء صاحب «الصباح» في ذلك الوقت صفحة أسبوعية أو شبه أسبوعية في مجلته ، وفي مقدمتهم الدكتور زكي مبارك ، والدكتور سعيد عبده صاحب المقالات المعروفة «خدعوك فقالوا» .. إلا أنه كان في ذلك العهد يكتب في الأدب لا في الطب ، ويمارس الزجل والمواليا والنقد .. وكنا في أماسينا نصحب صاحب «الصباح» إلى سهراته العامرة في المسارح والملاهي ، أو في بيته حيث يجتمع نجوم الفن وأعلام الصحافة . فنسمر ونتحدث ونستوحي حتى مطلع الفجر في أكثر أيام الأسبوع .

وكانت فتنة صاحبنا الدكتور زكي مبارك هي «ليلي» .. التي طالما سهر من أجلها ، وبكى من أجلها ، ونظم ونثر من أجلها .. وما كان اسمها ليلي .. وإنما هذا هو الاسم الذي اختاره لها .. كانت ليلاه نجمة من نجوم المسرح ، شده إليها أكثر

من عامل ، وأولها أنها بنت بلدته «سنتريس» وأنها مثقفة وذكية وقارئة للشعر وفيها جاذبية خاصة لا تتوفر لكثير من النساء ، وإن لم ينم مظهرها عن ذلك .

ولهذا افتتن بها أكثر من اسم من الأسماء الكبيرة في دنيا القلم يومئذ ، فتزوجت أول ما تزوجت ، علما من أعلام الصحافة وأصحاب المدارس الكبيرة في مجالها ثم أحبها شاعر من أكبر شعرائنا المعاصرين ، هو المرحوم الدكتور إبراهيم ناجي ، فأحبها حبا كبيرًا ، استلهم منه أروع أعماله ، قصيدة «الأطلال» .. التي تغنيها أم كلثوم وقد وجه إليها إهداء هذه الملحمة ، وكان إهداء مرا ، قال فيه: «إلى التي تركتها أطلال جسد ، وتركتني أطلال روح »(*) .

أما زكي مبارك، فقد كانت هي حبه الكبير الذي استمد منه مادة إلهامه طول عمره ، ولكني لا أحسب أنه كان حبها الكبير ، فقد أخذها عليه الإشفاق أكثر مما أخذها الحب .

على أن هذه السيدة ، إذا كانت عذبت قلب صاحبنا الدكتور زكي مبارك عذابا طويلا ، فإن هذا العذاب هو الذي ألهب قلبه وخياله ، وكان من وراء هذا اللهيب ، أن أضيفت إلى الأدب المعاصر كنوز كبيرة من شعر زكي مبارك ونثره وأحاديثه الطويلة عن مدامع العشاق .

***

على أن هذه السيدة لم تكن ظاهرة الاستلهام الوحيدة في حياة زكي مبارك وإن ظلت هي العامل العميق المحرك لشاعريته وهذه سمة نجدها في حياة كثير من الشعراء : يكون في حياتهم حب كبير ، ولا يمنعهم هذا استلهام الجمال حيث وجد ، ولكنهم يجدون في كل جمال جديد صورة غير محسوسة من المنبع الأصيل الذي

(*) هي الممثلة زوزو حمدي الحكيم (١٩١٢-٢٠٠٣) وقد تزوجت الكاتب الصحفي محمد التابعي (١٨٩٦-١٩٧٦) في العشرينيات ولم يستمر الزواج طويلاً وقد قيل أنها هي التي ألهمت ناجي قصيدته «الأطلال» وأن نازعتها الفنانة زوزو ماضي (١٩٢٠-١٩٩٦) في ذلك وأكدت أنها ملهمة قصيدة «الأطلال» ، وقد أنكرت كريمة زكي مبارك أن زوزو حمدي الحكيم هي حب زكي مبارك وإنما كانت مجرد معجبة بأدبه.

حرك أحاسيسهم أول ما تحركت ، لقد أحب ناجي مثلا ، في أول حياته ، حبا كبيرا ..

وكانت بطلة هذا الحب هي إحدى قريباته ، وهي التي رمز إليها في أحد دواوينه بحرفي : «ع . م »(*) .

وأحب بعدها عشرات النساء ، أكثرهن من بنات الفن ، ولكن المحرك الأول لكل هذه الغراميات هو أنه كان يرى في كل هؤلاء الجديدات ظلالا من حبه ، وإن اختلفت الوقائع والتفاصيل ..

وكذلك كان زكي مبارك ..

كان يهزه كل وجه مليح ، وكل روح عذبة ، وكل جمال جديد ، ولكن غانية سنتريس كانت هي المحرك الداخلي لكل ما نظم أو نثر في غرامياته الجديدة .

***

على أن الظاهرة الجديرة بأن يقف عندها القلم إجلالا لذكرى زكي مبارك ، أنه كان رحمه الله كبير النفس ، لم يبذل كبرياءه من أجل الحب ، كما لم يبذل كبرياءه من أجل الرغيف .

لقد عاش زكي مبارك ، فقيرًا ، وقاسى كثيرا من الحرمان وهو في أوج مجده ، من أجل كبريائه .

لقد حارب كبراء ووزراء وأدباء أعلاما وأصحاب أسماء جهيرة ، من أجل رأي آمن به ، أو معتقدًا دان به ، فحورب من أجل ذلك في رزقه ورزق أولاده لو أنه هان على نفسه لاستطاع أن يظفر بالنعمة مقابل كلمة زلفى يقولها أو يكتبها لواحد من هؤلاء ولم يعوضه عن شيء مما فاته من مال أو منصب ، إلا أنه كان يعتبر عزة النفس أكبر ألوان الثراء ، وإلا أنه كان قليل المطالب في الحياة ، لا يهمه مظهره ولا هندامه ولا مكان جلوسه .. لا يهمه إلا أن يجد نفسه بالقليل الذي معه، في حانة متواضعة بميدان توفيق ، وأمامه كأس يغرق فيها همومه ولو كانت من أرخص الأنواع ، وحوله

(*) المقصود بها «عنايات محمود الطوير».

آذان تستمع إليه وقلوب تحبه ولو كانت من عامة الناس .

وقد اندفع زكي مبارك إلى الكأس في أخريات أيامه بعنف ، لأنه رجل عصامي ، كافح كفاحًا بطوليا في سبيل أن يتعلم ويتفوق ، وكافح كفاحا بطوليا من أجل عقيدته الأدبية ، وأنشأ مدرسة أدبية لا شك في وجودها وكيانها ، ومع هذا ، فإنه لم ينل نصيبه من الدنيا ، ولم يلق من معاصريه القادرين على إنصافه إلا الجحود ، وهكذا راح يغرق همومه في الكأس ، ويذيب آلامه في سعيرها المحموم .

ومات زكي مبارك فلم يذكره أحد من معاصريه إلا بكلمات عابرة تذهب مع الريح . ولهذا أكبرت هذا العمل الذي بين يدي القارئ ، والذي شاء الأديب النابه محمد رضوان أن يضرب به مثلا في الوفاء أعده من أكرم الأمثلة لأنني لا أحسب أنه رأى زكي مبارك ولا عرفه عن قرب ، ولكنه عرفه عن حب هو أسمى أنواع الحب .. حب الكلمة الخالصة ، والروح الشفافة ، والأمانة للأدب والتاريخ .

وهكذا خرجت هذه الدراسة الموضوعية الواعية لحياة زكي مبارك ، جامعة لكل نواحيه كفلاح أصيل نشأ في عمق أحضان الريف المصري ، وشق طريقه بأظافره الصلدة حتى وصل إلى أعلى مستويات العلم في الأزهر ، ثم في الجامعة المصرية ، ثم في باريس ، وجاهد من أجل العلم والدين والعروبة في مرابع القاهرة ، ومراتع بغداد وملأ الدنيا بصيحة القومية العربية وكشف عن كنز مجهول من كنوز التراث العربي في كتابه : « النثر الفني في القرن الرابع الهجري» .

***

وبعد ، فهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ ، تتعادل فيه روح الوفاء مع روح البحث ، وتتجمعان كطاقة من الزهور يضعها الأديب الناقد محمد رضوان على قبر زكي مبارك . فتنشر عبيرها في صدور الأجيال القادمة .

صالح جودت

القاهرة – ١٩٧٤

مأساة زكي مبارك... الفنان والإنسان ! (*)

بقلم : أنيس منصور (**)

أنا أشعر بالعطف الشديد على كاتبنا الكبير زكي مبارك . فهو مفكر من نوع خاص ، وهو شديد الحساسية وله مواقف كثيرة تقليدية . ولم يكن حريصا على أن يكون في الطابور . فمتعته هي أن يخرج على الإجماع . أي يقف بعيدًا عن الناس ويسخر من الجميع ولكنه في جميع الأحيان له اجتهاد . بعض هذه الآراء تصدمك . وبعضها مثل لسان طويل يلعب به في أكثر المواقف جدية. أنه على كل حال فقيه وفنان وأستاذ ومزاج خاص .

وقد أمتعني كتاب (صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك) للأديب محمد محمود رضوان فالمؤلف قد أعجب هو أيضًا بزكي مبارك ، ثم تابعه برفق ورافقه بحرص شديد على أن يقدم لنا صورته شفافة وأحيانا عارية . فقد عاش في القرية وتزوج بها وخرج منها وسافر إلى أوروبا وعاد ممزق النفس حائرا بين الذي تعلمه وبين الذي يرفضه الناس . واختار حريته ومزاجه الخاص . ولأن التحديات كانت شديدة ، كان صوته عاليا ونبرته حادة واستراح إلى إغضاب الناس والكفر بهم ، ولكن وراء هذه التحديات نفسا معذبة ، فقد كان يريحه أن يقف إلى جانب الناس .

(*) نشرت في صحيفة الأخبار في ديسمبر ١٩٧٤ .

(**) أنيس منصور (١٩٢٤ - ٢٠١١) ولد بقرية كفر الباز مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية - حصل على ليسانس الآداب قسم الفلسفة من كلية الآداب جامعة القاهرة (١٩٤٧) وعمل معيدا بالكلية حتى سنة ١٩٥٥ ثم تفرغ للأدب والصحافة . من مؤلفاته : حول العالم في ٢٠٠ يوم - عاشوا في حياتي - في صالون العقاد - شارع التنهدات - أعجب الرحلات في التاريخ.

ولكن الناس دفعوه إلى أن يحـاربهم وشـجعوه عـلى أن يكـون نـافرا وناشـزا ، وفي مؤلفات د . زكي مبارك اجتهادات كثيـرة وكتابـه (النثـر الفنـي) هـو أروع أعمالـه الأدبية .

وفي هذا الكتاب متحف جميل لقضاياه الفكرية والبلاغية والذي يعـاود قـراءة هذا الكتاب يلاحظ أن د. زكي مبارك يصرخ كثيرا ، ولكن نحن لا نعرف نوعيـات الناس الذين يلعنهم وينسـى النـاس كثيـرا مـا يقولـه هـذا الرجـل الممتـاز – ولا يذكرون إلا لسانه الطويل وإلا شذوذه عنهم . إن عظماء كثيرين سـبقوه إلى الظلـم إلى أن يظلمهم الناس : سقراط وأوسكار وايلد وأندريـه جيـد وجـان جينيـه وأبـو نواس ومايكل أنجلو وغيرهم كثيرون لم يغفر لهم الناس سـقطاتهم ولم يشـفع لهـم عند الناس هذا الجهد الهائل مـن التجديـد والثـورة عـلى القـديم والخـروج عـن الصفوف التي مات عليها الفكر والإبداع في كل العصور .

***

وقد كانت مقدمة صالح جودت لهذا الكتاب جميلة .. رقيقة ولم يشـأ أن يـذكر أشياء كثيرة ، نقطا سوداء في الثوب الأبيض اعوجاجا في خطوط لوحته الفنية .

إن مؤلف الكتاب شاب قد اختار رجلا من جيل سابق على جيلـه وكـان هـذا الاختيار نوعا من استئناف الحكم في قضية زكي مبارك ، وصورة من صور العـدل أو طلب العدل ورفع الغضب عن فنان كبير عـاش مظلومـا ، ومـات مظلومًـا . إن هذا الموقف من المؤلف الشاب محمد رضوان ليس فنيا فقط ، وإنما هـو موقـف أخلاقي أيضًا .. لأنه لم يختر فنانا كبيرًا ، وإنما اختار إنسانا شقيًا بنفسه وبـالآخرين .. ومن الغريب أن شقاوته هذه أمتعت وأسعدت كل من يقرأ حياة زكي مبارك !

أنيس منصور

القاهرة ١٩٧٤

سيرة زكي مبارك



تعد حياة الدكاترة زكي مبارك (١٨٩١ - ١٩٥٢) حياة حافلة بالكفاح والعصامية والاعتماد على الذات ، منذ كانت بدايته في بلدته سنتريس بالمنوفية حتى وصل إلى أعلى درجات العلم والثقافة بعد أن أصبح كاتبًا وناقدًا وحصل على ثلاث شهادات للدكتوراه من القاهرة وجامعة السربون بباريس وكان يعد للدكتوراه الرابعة لولا رحيله المفاجئ عام ١٩٥٢ ولقد وجدت أوفى ترجمة لسيرته وثقافته وعصاميته هذه الدراسة التحليلية التي كتبها الأديب سعد حامد مستعرضًا فيها كتابي «صفحات مجهولة في حياة زكي مبارك» الذي صدر في سلسلة كتاب الهلال بالقاهرة عام ١٩٧٤ ، يقول سعد حامد(*) :

في «دائرة معارف الشعب» كتب الدكتور جمال الدين الرمادي دراسة قيمة عن الكاتب الكبير المرحوم زكي مبارك استهلها بهذه السطور :

« حصل من الدرجات العلمية على أعلاها وأرقاها ، وفاق بدرجاته أقرانه ولداته ، فأصبح هدفا لحقد الحاقدين ، وحسد الحاسدين ، وقد أضرته درجاته العلمية أكثر مما نفعته .. عرف بين الناس «بالدكاترة» زكي مبارك ، فكان في هذا عزاؤه وهناءته في الدنيا ، وبه ازدهي وافتخر .

(*) مجلة قافلة الزيت السعودية : سعد حامد : أديب مصري معاصر له عدة مجموعات قصصية منها : «البحث عن النسيان » و«الخوف من الحياة» وقد نشر هذا المقال عرضا لكتابي «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك» فور صدور الكتاب في سلسلة كتاب الهلال عدد أكتوبر ١٩٧٤ .

حصل زكي مبارك على الدكتوراه من الجامعة المصرية عام ١٩٢٤عن رسالته « الأخلاق عند الغزالي» وحصل على دكتوراة ثانية عام ١٩٣١ من جامعة السربون في فرنسا عن كتابه «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» ، وحصل عام ١٩٣٧ على دكتوراه ثالثة من الجامعة المصرية في طورها الجديد عن كتابه «التصوف الإسلامي» ، ولكن العلم يغني العقول والقلوب ولا يغني الجيوب ، ولذلك عاش زكي مبارك طيلة حياته يخدم الأدب ، ويؤلف الكتب ، وينظم الشعر ثم فارق الحياة لا يملك من متاع الدنيا إلا الذكر الحسن .. والذكر للإنسان عمر ثان ! » .

والحق الذي لا يمارى فيه منصف أن الدكتور زكي مبارك كان أديبا عظيمًا ، واسع الثقافة .. كتب في كل فنون البيان ، وأثار كثيرًا من القضايا ، وحرك الحياة الأدبية في مصر والبلاد العربية ، وقدم صفحات رائعة من الأدب الخالد الباقي بأسلوب بلغ الغاية من الطلاوة والبلاغة .

وعن هذه الحياة الحافلة الخصبة أصدر الأديب محمد محمود رضوان كتابا جديدًا عنوانه «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك » وقد صدر هذا الكتاب في سلسلة «كتاب الهلال» في شهر أكتوبر ١٩٧٤ التي تصدر عن «دار الهلال» في القاهرة .

وقد أثار هذا الكتاب كثيرا من الأحاديث ، وحرك كثيرًا من الأدباء ليكتبوا عن زكي مبارك فكتب أنيس منصور بعد صدور الكتاب بأيام في بابه المشهور «مواقف » بجريدة الأخبار المصرية ، وأشاد بأنه أمتعه متعة فريدة .. قال :

«إن مؤلف الكتاب شاب قد اختار رجلا من جيل سابق على جيله ، وكأن هذا الاختيار كان نوعا من استئناف الحكم في قضية زكي مبارك ، وصورة من صور العدل أو طلب العدل ، ورفع الغضب عن فنان كبير عاش مظلوما ، ومات مظلوما. إن هذا الموقف من المؤلف الشاب ليس فنيا فقط ، إنما هو موقف أخلاقي أيضًا .. لأنه لم يختر فنانا كبيرًا ، وإنما اختار إنسانا شقيا بنفسه وبالآخرين .. ومن الغريب أن شقاوته هذه أمتعت وأسعدت كل من يقرأ قصة حياة زكي مبارك » .

وكتب الدكتور عبد الله خورشيد في العدد ١٦ من مجلة «الثقافة» المصرية الصادرة في يناير ١٩٧٥ مقالا عنوانه «زكي مبارك زعيم وجداني» . وبالرغم من أنه لم يشر إلى الكتاب إلا إشارة عاجلة في سطور قليلة هي هذه السطور ..

«كتاب محمد محمود رضوان (صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك) الذي صدر في القاهرة أخيرًا جاء بمثابة تنبيه إلى ذلك الأديب حقا المنسي فعلا .. وكلمتنا هذه ليست أكثر من مشاركة في هذا التنبيه » .. إلا أن كل ما في المقال قد أخذه الكاتب عن كتاب محمد محمود رضوان !!

وفي العددين ١٧ ، ١٨ من مجلة «الثقافة» الصادرين في فبراير ومارس ١٩٧٥ كتب الكاتب الكبير والوزير السابق الأستاذ فتحي رضوان دراسة رائعة بالغة الروعة بعنوان « ظاهرة زكي مبارك» عن الكاتب الكبير أشاد فيها بكتاب محمد محمود رضوان ، واعتبره مرجعا قيما هاما ، ونقل منه فقرات عديدة أشار إليها .

ولقيمة هذا الكتاب الأدبية ، وللضجة التي أثارها آثرت أن أقدمه للقراء .

يقول الأستاذ الكبير صالح جودت في مقدمة هذا الكتاب :

«مات زكي مبارك ، فلم يذكره أحد من معاصريه إلا بكلمات عابرة تذهب مع الريح . ولهذا أكبرت هذا العمل «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك» والذي شاء الأديب النابه محمد محمود رضوان أن يضرب به مثلا في الوفاء أعده من أكرم الأمثلة لأنني لا أحسب أنه رأى زكي مبارك ولا عرفه عن قرب ، ولكنه عرفه عن حب هو أسمى أنواع .. حب الكلمة الخالصة ، والروح الشفافة ، والأمانة للأدب والتاريخ ، وهكذا خرجت هذه الدراسة الموضوعية الواعية لحياة زكي مبارك، جامعة لكل نواحيه كفلاح أصيل نشأ في عمق أحضان الريف المصري ، وشق طريقه بأظافره الصلدة حتى وصل إلى أعلى مستويات العلم في الأزهر ثم في الجامعة المصرية ثم في باريس ، وجاهد من أجل العلم والدين والعروبة في مرابع القاهرة ومراتع بغداد وملأ الدنيا بصيحة القومية العربية » (ص١٢) .

ويقول مؤلف الكتاب في التصدير الذي يلي المقدمة والذي أطلق عليه عنوان «زكي مبارك .. ذلك المجهول» :

«لقد عرضت في هذا الكتاب لمواقف زكي مبارك الفكرية الأصيلة على الصعيد المصري والعربي والإسلامي ، ولقد اتخذ موقفا صلبا شجاعا في فترة كانت تموج بشتى التيارات الوافدة والمذاهب الهدامة فضلا عن تلك الدعوات الإقليمية الضيقة كالفرعونية والفينيقية وغيرها ، فعارض كل ذلك وسبح ضد التيار ، وسجل آراءه وأفكاره في مواجهتها ، وظهر وجهه العربي المشرق الأصيل، فزادت الحملة ضراوة عليه وحاولوا النيل منه وتحطيمه ، واستغلوا في تحقيق هدفهم ذلك الطابع الذاتي عنده والحديث عن النفس واعترافاته الوجدانية مما أعطى انطباعا خاطئًا لدى البعض عن قيمة مواقف هذا الرجل وإضافاته الخصبة العميقة في مجالات الثقافة والأدب والفكر (ص١٤) .

«ولقد أردت بكتابي هذا إبراز بعض الجوانب المجهولة الغامضة في حياته والوصول إلى (مفتاح شخصيته) وهو (الصدق والصراحة) وقد انعكس هذا على أدبه الذي اتسم (بالصدق الفني) مما اكسب أدبه صدقا وحرارة وعمقا ، وبذلك ألقيت الأضواء على الكثير من مواقفه وكتاباته) (ص١٥) .

ثم يقول :

«في هذا الكتاب تحدثت عن الحياة الأدبية والنفسية والوجدانية للدكتور زكي مبارك ، واستخدمت المنهج النفسي في أدب التراجم والسير الذي يعني بالتركيز على النفوذ إلى صميم خفايا النفس الإنسانية للوصول إلى (مفتاح شخصية) المترجم له ومن ثم إلقاء الأضواء على ما يكتب فربطت بين زكي مبارك الكاتب والإنسان وحللت شخصيته على ضوء تموجات نفسيته من خلال ما كتبه في أطوار حياته المختلفة » (ص١٦) .

***

وقد قسم المؤلف كتابه إلى خمسة فصول :

حياته وثقافته – المرأة في حياتـه – ملامـح شخصـية – معـارك زكـي مبـارك الأدبية– مأساة عاشق الجمال .

في الفصل الأول يقول المؤلف إن زكي مبارك ولد في أغسطس ١٨٩١ بقريـة «سنتريس» بمحافظة المنوفية ، وكانت ملاعبه بين ربوع تلك القرية الحالمة التـي تنام في أحضان النيل فتفتح خياله عـلى تلـك الطبيعـة الخضـراء الحالمـة . وكـان يقضي أيامه بين الحقل حيث يساعده أباه في زراعة الأرض وبين السامر الذي كان ينصب في «الجرن» في بعض الليالي القمرية ، وألحق زكي بالكتاب في سـن مبكـرة فحفظ القرآن كله وجوده . وفي يفاعته كان يشهد مجالس الصـوفية وكانـت لأبيـه صلات روحية بأهل الطريق ، ولذا درج زكي مبارك على احترام أرباب الصوفية .

وفتن زكي مبارك بالشعر منذ طفولته فكـان لا يجـد كتابـا يحـوي أبياتـا مـن الشعر إلا انكب عليه وحفظ ما فيه عن ظهر قلـب حتـى وقـع في يـده ديـوان أميـر الشعراء أحمد شوقي فقرأه بشغف واهتمام وحفظ قصائده ، وقـرأ في تلـك الحقبـة العديد من دواوين الشعراء وكتب التراث القديم فضلا عن القـرآن الكـريم الـذي كان له أكبر الأثر في صقل موهبته الأدبية وإثراء أسلوبه .

وتزوج زكي مبارك في سن مبكرة وهو في السادسة عشرة من إحدى قريباتـه ، وكان ثمرة هذا الزواج خمسة أبناءهم سليمان وعبد المجيد وعبـد السـلام وزينـب وكريمة .

وبرغم الفارق الثقافي الكبير بين زكي مبارك وزوجته ورغـم البـون الشاسـع بين الأديب الكبير والزوجة الريفية البسيطة إلا أن حياتهما كانـت هادئـة سـعيدة ، وقد كرست هذه السيدة حياتها لإسعاد زوجها وحفظت قلبه من الهمـوم فـاعترف لها بالجميل في قوله :

«يسرني أن أسجل اعترافي بالجميل لزوجتي الفلاحة التي سارت سـيرة أمهـا

وأختها فحفظت قلبي سليما من الهموم التي تزلزل عزائم الرجل » .

وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره رحل إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر الشريف ، وكان ذلك حوالي عام ١٩٠٨ ، وفي الأزهر نهل من التراث العربي ، وبدأت مواهبه تتفتح وبرز على أقرانه ، وأثناء دراسته بالأزهر تمرد على علومه وما يدرس له فاتجه إلى روض الأدب يقرأ روائع الشعر العربي قديمه وحديثه ، ودرس اللغة الفرنسية معتمدًا على مجهوده الشخصي وأجادها وقرأ بها روائع الشعر الفرنسي ، وأخذ ينظم الشعر بغزارة واتسم شعره وقتئذ بالقوة وجزالة اللفظ ومتانة ثقافته الأزهرية ثم بدأ شعره يتجه نحو البساطة والسهولة والرقة وجمال الموسيقى بعد قراءاته لروائع الشعر الفرنسي القديم والحديث ، وكانت معظم منظوماته من شعر الحب والجمال .

وهكذا مضت حياة زكي مبارك في الأزهر أكثرها حرمان وعذاب وضني حتى أتم دراسته به ونال شهادته عام ١٩١٥ ، وكان قد اتصل بالجامعة المصرية القديمة في نوفمبر ١٩١٣ بصفة غير رسمية ثم انتسب إليها بصفة رسمية عام ١٩١٦ والتحق بكلية الآداب ، وكان لإتقانه اللغة الفرنسية أثر بعيد في اتصاله بالثقافة الفرنسية فاستقى من منابعها وبدأ يقرأ أمهات الكتب في الأدب الفرنسي القديم والحديث .

وعندما اشتعلت ثورة عام ١٩١٩ كان زكي مبارك وقتئذ طالبا في الجامعة المصرية ، فاشترك فيها ، واكتوى بنارها ، وشهد آلام التشريد والاعتقال شهورا طويلة ، وكان واحدا من خطبائها المبرزين .

عاد زكي مبارك إلى الجامعة مرة أخرى بعد خروجه من المعتقل في أكتوبر عام ١٩٢٠ وانتظم في دراسته ، وقد أسقطه الدكتور طه حسين في الليسانس مرتين، وأخيرا نال شهادة الليسانس في العلوم الأدبية والفلسفية عام ١٩٢١ ، وفي عام ١٩٢٢ بدأ في إعداد رسالته في الدكتوراه عن «الأخلاق عند الغزالي» ونوقشت الرسالة مناقشة علنية في مدرج كلية الآداب بالجامعة المصرية في ١٥ مايو عام

١٩٢٤ وكان جو الامتحان عنيفا ، وكان الدكتور طه حسين من المشتركين في لجنة المناقشة ، وفي نهاية المناقشة ظفر بدرجة الدكتوراه بتقدير جيد جدا فكان أول من ظفر بدرجة الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة .

وقد اتصل زكي مبارك بالصحافة منذ سن مبكرة ، وكان في كل أطوار حياته كاتبا جريئًا صريحا يكره المداورة ويبغض النفاق ، وكان يكتب مقالاته وينشر أشعاره في صحف ومجلات متعددة .

وبعد حصوله على ليسانس الآداب ثم الدكتوراه عمل معيدا بكلية الآداب عام ١٩٢٥ ثم صمم على أن يكمل دراسته وأن يذهب إلى باريس ، وكان قد تزوج قبل عام ١٩١٠ حين خاف أهله عليه أوهام العاطفة فأقام حياته وأنجب أبناءه الخمسة ، وترك زكي مبارك وراءه زوجته وأبناءه في مصر ، واتجه إلى باريس عام ١٩٢٧ليواصل دراسته العليا هناك على نفقته الخاصة في عصامية فريدة نادرة ، وكان يعيش في باريس عيش الكفاف ، فينفق كل ما معه على شراء الكتب أكثر مما ينفق على طعامه وشرابه ، وبجانب ذلك كان مسئولا عن أسرته في القاهرة .. وزوجته وأولاده الخمسة ، وبرغم أنه أحب باريس حبا يفوق الحد إلا أنه كان يشعر «بالاغتراب الروحي» فيها .. وكان لا يعاني من الغربة بسبب خذلان في حب أو إخفاق في مجد أو غدر الأصدقاء ولكنه كان يشعر بغربة موحشة في كل أرض .. وفي هذا يقول : «وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بر عند الفجار ، وفاجر عند الأبرار ، فأنا في كل بيئة أجنبي ، وفي كل أرض غريب» .

وكان زكي مبارك يسكن في غرفة متواضعة بباريس ، وفي تلك الغرفة ألف رسالته «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» وطلب قرضا من الجامعة المصرية ليطبع رسالته الضخمة التي سيقدمها إلى جامعة السربون والتي أنجزها في سبع سنوات ولكن لم يستجب له مجيب ، وبعزيمة أمضى من الصخر كافح بمفرده وقاسى في غربته حتى طبع الرسالة ، ونوقشت الرسالة ومنحته جامعة السربون درجة الدكتوراة بدرجة «مشرف جدا » ثم عاد إلى مصر يحمل معه أرفع الدرجات

العلمية : دبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية ، ودرجة الدكتوراه بتقدير «مشرف جدا » من جامعة السربون عن رسالته «النثر الفني» .

عمل زكي مبارك بالجامعة المصرية ، وكان يكتب في صحيفة «البلاغ » مقالات بعنوان «الحديث ذو شجون» ، وفي تلك الأيام دارت معركة عنيفة بينه وبين الدكتور طه حسين ، فقد سئل طه حسين عن رأيه في كتاب «النثر الفني» فكتب في مجلة الرسالة يقول عنه : «أنه كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتاب» ! وكان هذا تجاهلا صريحا لهذا الكتاب النفيس ، وكان من أسباب غضب طه حسين أن بالكتاب هجوما عنيفا ودحضًا لآرائه في نشأة النثر الفني وإرجاعه الفضل للفكر اليوناني . وامتشق زكي مبارك قلمه ورد على طه حسين ودارت معركة عنيفة بينهما ، وعاد زكي مبارك إلى منصبه في الجامعة المصرية عام ١٩٣٣ إبان الفترة التي كان فيها طه حسين خارج الجامعة فلما عاد طه حسين إلى الجامعة عام ١٩٣٤ رفض تجديد عقد زكي مبارك وقال : « أنا لم أستشر في تعيينه فلا أستشار في تجديد عقده ! » وكانت مأساة محزنه . أبعد زكي مبارك عن منصبه ووراءه مسئوليات جسام وكان عليه أن يدبر رزقه ورزق أبنائه الخمسة . وكتب زكي مبارك والألم يمزقه مقاله المعروف «طه حسين بين البغي والعقوق» والذي قال فيه جملته الشهيرة «لو جاع أولادي لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه!!».

ومضى زكي مبارك يشق طريقه بعزيمة يسعى لرزقه بعد خروجه من الجامعة في مجال آخر ، فعمل بالصحافة والأدب ثم عينته وزارة المعارف مفتشًا للمدارس الأجنبية في مايو ١٩٣٧ بعد حصوله على الدكتوراه الثالثة في أبريل من نفس العام عن «التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق» بمرتبة الشرف ، وكان عميد كلية الآداب وقتها الدكتور طه حسين .. وقد قال زكي مبارك عن ذلك : «هل أنسى أنني انتزعت أجازة الدكتوراه من كلية الآداب وأنا في خصومة عنيفة مع عميد كلية الآداب » وبعد هذه الدكتوراه الثالث أطلق الشاعر محمد الأسمر (١٩٠٠-١٩٥٦) على زكي مبارك لقب الدكاترة زكي مبارك !

وفي الفصل الثاني «المرأة في حياة زكي مبارك » يقول المؤلف : كان الدكتور زكي مبارك عاشقا واله القلب قوي العاطفة قضى حياته يتقلب على سعير الوجد ووهج العاطفة ، وقد طاب له أن يفصح عن سرائر روحه وأسرار قلبه فملأ الدنيا غراما وتشبيبًا ، وقد جعل حديثه عن الحب شريعة من شرائع الوجود فعاش إلى آخر نسمة في حياته يتشوف إلى أفنان الجمال ويغرد للحب.

ومن آثاره الوجدانية التي استلهمها من تجاربه المتعددة في عالم الحسن ودنيا الجمال كتبه : «مدامع العشاق» و«ليلي المريضة في العراق» و«العشاق الثلاثة» وديوان «ألحان الخلود» .

وهو لا يريد إلا الصدق في تصوير العواطف والأهواء ليكون في ذلك مادة تنفع في الدراسات الأدبية والنفسية ، ويشرح مذهبه في إبداع الوجدانيات فيقول :

«إن حديثي عن الحب صار مذهبا أدبيًا أشرّح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء ، وأنا أريد أن أخلق جوا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان . نحن لا نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح من أقدم عهود الوجود .. وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ؟ » .

إن قوة العاطفة عنده هي التي أملت هذه الأحاديث الوجدانية الصادقة ، ومنحتها الجمال والأصالة والعذوبة . وقد عاش طيلة حياته يعزف أجمل أغاريد الحب وأعذبها ، كان جذوة من الوجدان والعاطفة وكان لصبابته أثر بعيد في ثقته بأثر المرأة القوي في حياة الفنان وإنتاجه .

وقد أورد المؤلف صفحات عدة من وجدانيات زكي مبارك .. من كتبه ورسائله ، وهي لون فريد في أدبنا العربي المعاصر ، وقد أفصحت عن نفسية كاتبنا وأظهرت سرائر روحه وأسرار قلبه بصدق وأمانة وحرارة كما أنها تبين الكثير من أفكاره وآرائه في الأدب والمجتمع والحياة . وكان دائمًا في حبه عاشقًا عذريًا أراد أن يحب امرأة خيالية مثالية رسمها في خياله فاصطدم بالواقع والحقيقة .

وفي الفصل الثالث «ملامح شخصية »يقول المؤلف :

«من أبرز ملامح شخصية الدكتور زكي مبارك أنه كان إنساني النزعة صافي القلب خفيف الظل ولكنه رغم طيبة قلبه وصفاء نفسه ووداعته كان مناضلا عنيفا صلبًا إذا دخل في سجال لا ينكص على عقبيه أبدًا ولا يلين . وكان يكره الماديات ولا يأبه باقتنائها حتى بعد أن يسرت له أسباب الحياة ولكنه كان يقتني مكتبة ضخمة تحوي ما يزيد عن عشرين ألف كتاب » .

ثم يستطرد المؤلف قائلا :

«ومن العناصر الرئيسية في تكوين شخصيته عنصر العشق فكان لامتحانه بالهوى والغرام ولبلائه في العشق أثر كبير في أدبه الوجداني ، وهو مؤمن عميق الإيمان صافي القلب والوجدان ، ومن الخطوط البارزة في شخصيته تمسكه الشديد بآرائه وصراحته وصدقه واعتداده بكرامته ، وكان يكره النفاق والمداراة ، ومن ملامح شخصيته الاعتراف بالخطأ ومواجهة عثراته وعيوبه بصراحة وشجاعة ، والحزن العميق ، وقوة العاطفة » .

وفي هذا يقول زكي مبارك :

«أنا رجل مؤمن بأن القلب أدق ميزانًا من العقل وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة على حين لا يهتدي العقل إلا بالبراهين وهي في الأغلب تقوم على مقومات لا تخلو من تضليل » .

وهو حائر في تحديد حقيقة نفسه ، وفي هذا يقول :

«أنا متهم بالعقل ومتهم بالجنون .. فمن وصفني بالعقل فهو متلطف ، ومن وصفني بالجنون فهو مسرف .. لأني في حقيقة أمري إنسان يعيش بثورة العواطف فوق ما يعيش بقوة العقل ، وهي حالة تجعل أمري وسطا بين العقل والجنون ، والتوفيق الذي ظفرت به في حياتي العلمية مدين لحياتي الوجدانية ، فقوة الوجدان هي التي حملتني أن أستقتل في الدراسات الأدبية والفلسفية » .

وكان زكي مبارك وفيًا إلى أبعد حدود الوفاء ، وقد أحب كل بلد حل فيه ، وكان وفيًا لأسرته وأصدقائه ووطنه .

ومن أظهر خصائص أدبه «قوة الذاتية» ويرى الدكتور زكي مبارك أن الذاتية الأدبية هي أن تكون أنت أنت فيما تكتب وفيما تقول بحيث يشعر من يقرأ لك أو يستمع إليك أنك تنقل عن قلبك وضميرك وأن لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها سواك وأنك لو نشرت مقالا بدون إمضاء لنم عليك الروح قبل أن ينم عليك الأسلوب » .

وكان يعتز بذاتيته أيما اعتزاز .. يقول :

«أنا أؤمن أنه لا يمكن لأحد أن يكون أكتب مني إلا إذا استطاع أن يكون أصدق مني ، ومن المستحيل أن يكون في الدنيا أحد أصدق من نفسي» .

ومن ملامح شخصيته أيضًا الوطنية الصادقة ، فمنذ شبابه المبكر كان شابا ثائرًا وطنيًا يحب مصر ويدافع عنها ، وشارك مشاركة فعالة في ثورة عام ١٩١٩ ، واعتقل وشرد ، ولم يتنازل عن وطنيته رغم ضروب العذاب والاضطهاد .

وفي الفصل الرابع «معارك زكي مبارك الأدبية» يسرد علينا المؤلف معارك زكي مبارك ومساجلاته الأدبية التي كان فيها شديد العنف صلب العود قوي العارضة . وأبرز ملامح معاركه الفكرية ومساجلاته أنها اتسمت بالعنف والتحدي كما اتسمت بطابع السخرية اللاذعة والفكاهة الحلوة والاعتداد بالنفس ثم بالطابع العاطفي ، وكان لعنفه وصراحته آثار سيئة فصراحته وصدقه حملاه متاعب كثيرة وأثارا حوله الأراجيف والأباطيل فحورب في رزقه وعمله ، ويصور كيف تحول من الأدب الوجداني إلى النقد الأدبي فيقول :

«لقد ابتدأت حياتي الأدبية بأناشيد الحب والجمال ، ولو تركني الناس وشأني لعشت بلبلا وديعا لا يسمعوا منه غير أنغام الحنين ، ولكن لؤم اللئام حولني إلى إعصار عاصف» .

وكان شديد الإيمان بالتراث الإسلامي والثقافة العربية والقومية العربية ، وخاض معارك متعددة مع دعاة التغريب ومع أعداء الثقافة العربية والإسلامية ودعاة الشعوبية . وكان يرى أن الخصومات تزكي عزيمته وتمد دمه بفيض من قوة الحديد «كيف آنس بالسكون وأنا أعتقد أن السلام ضرب من الموت» .

ويجمل لنا المؤلف معارك زكي مبارك مع طه حسين وعباس العقاد وإبراهيم المازني وأحمد زكي «باشا» الملقب بشيخ العروبة ، وأحمد أمين ومحمد لطفي جمعه وسلامه موسى .

وفي الفصل الخامس والأخير وعنوانه : «مأساة عاشق الجمال» يقول المؤلف :

«لقد أراد زكي مبارك أن يغاير التقاليد ، لقد كره النفاق والخداع .. لقد أراد أن يكون الأديب الصريح الصادق في أدبنا الحديث .. وبدأ التجربة ، ومن هنا كانت مأساته .

«تعرض لمتاعب ومضايقات كثيرة في حياته ..

«كان صريحا في التعبير عن عواطفه ومشاعره الوجدانية ، وكان صريحا في التعبير عن آرائه في الآخرين بغض النظر عن كونهم رؤساءه سواء كانوا في منصب كبير أم صغير . لم يكن يلتفت إلى هذه الناحية فجرت عليه صراحته الكثير من المتاعب والمضايقات . اتهم بأنه من أنصار الأدب المكشوف ، فعندما أصدر كتابه «مدامع العشاق» عام ١٩٢٤ قال عنه الدكتور طه حسين في جريدة «السياسة»: «أنه كتاب يحرض على الشهوات » ووصف زكي مبارك بأنه «حاد الشباب عنيفه» ، وكان الأدب عند زكي مبارك كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد حتى لا يفتر ، ويصور مذهبه الأدبي الصريح فيقول :

«ما أردت إلا الصدق في تصوير العواطف والأهواء ليكون في ذلك مادة تنفع في دراسة علم النفس ، ومن المستحيل أن أريد الدعوة إلى الفجور والمجون لأني

بحكم أعمالي الرسمية من رجال التربية ، أدعو إلى مبادئ خلقية سامية أغشيها بالفنون كما يصنع الطبيب في تغشية «البرشامة المرة» بغشاء من الحلواء» .

ولقد اتخذ خصومه مما كان يكتبه في أدب الوجدان ومن اعترافاته ووجدانياته سلاحا في يدهم شهروه في وجهه لمهاجمته والنيل منه خاصة في أعوامه الأخيرة .

وظل زكي مبارك يجاهد في حقل الصحافة الأدبية سعيا لرزقه ورزق أولاده ثم ما لبث أن عمل بوزارة المعارف ولكنه لم يترك صراحته وجرأته فلقى صدمات عنيفة من بعض وزراء المعارف ومن رؤسائه الذين لم تعجبهم صراحته وصدقه فلاحقوه بالاضطهاد ، وقبرت جهوده في وظيفته مفتش بالوزارة ورأى نفسه رغم حصوله على أرفع الشهادات العلمية يتخلف بينما يرى الآخرين من هم أقل منه يسبقونه في الوظيفة بفضل الحزبية والنفاق والمداراة ، فأحس بالظلم والألم وشعر بالمرارة وهتف يقول : « كيف فاتني أن أنافق في عصر لم يعش فيه غير النفاق؟ » .

وتركت تلك الصدمات العنيفة أثارا سيئة في نفسيته ، فكفر بالكثير من القيم التي طالما آمن بها ، وأحس بالمزيد من المرارة وهو يرى كفاحه في سبيل الأدب ضائع وكفاحه في ميدان التعليم ضائع فقال :

«ليذكر أن الدكتور زكي مبارك لو أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء، ولكنه – بلا أسف – سيموت فقيرًا لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي» .

وكان للمرأة أيضًا أثر كبير في مأساته .. لقد كان يحلم بالحب الكبير .. وبالمرأة التي صورها بصورة مثالية في أدبه .. وقد افتقد ذلك في الواقع .

أحس زكي مبارك بالمرارة والضياع ، وهاله أن يجد نفسه في المؤخرة وقد كافح كفاحا علميًا دؤوبا ونال أرفع الشهادات من جامعة القاهرة وجامعة السربون ، وكانت صراحته وصدقه سبب بلائه ، فقد جرت عليه الكثير من المتاعب ..

يقول أحمد حسن الزيات :

«لو استطاع زكي مبارك أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئًا من «فن الحياة» لاتقى كثيرًا مما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة» .

وفي أعوامه الأخيرة هام بالعزلة ، وكلف بالوحدة ، وانطوى على نفسه بعيدا عن المجتمع في وحدة ممضة قاسية ثم راح يذوب تدريجيًا وأصبح حطاما يدب على الأرض ، وأخيرًا خبت هذه الشعلة المتأججة بالقوة والجمال والوفاء والحب في ٢٣ يناير ١٩٥٢ عن ستين عاما ودفن في بلدته الأثيرة «سنتريس» .

رحم الله الأديب الكبير ، وكتب لذكراه المجد والخلود ، وتحية للأديب محمد محمود رضوان على المتعة الفريدة الرائعة التي أحسست بها وأنا أقرأ كتابه القيم الممتع .

***

هكذا استعرض الأديب القصصي سعد حامد سيرة حياة زكي مبارك وسيرته العلمية والأدبية من خلال عرضه لكتابي «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك» الذي صدر في أكتوبر عام ١٩٧٤ واستعرضه الكاتب في مجلة قافلة الزيت السعودية بعدها بفترة قصيرة.

اعترافات زكي مبارك



«الدكاترة» زكي مبارك

أدب البوح عند زكي مبارك



امتاز د. زكي مبارك بصراحته وصدقه ، فأصبح من الأدباء المعدودين في أدب البوح الاعترافي ، حيث سجل على الورق أسرار نفسه وسرائر وجدانه فروى لنا سيرة حياته منذ الطفولة حتى وصل إلى أعلى درجات العلم والثقافة ، كما أبان لنا سرائر روحه وقلبه ، وقدم لنا أسرار مغامراته العاطفية ، ودخائل نفسه ومشاعره بقلم سلس جذاب ، مما جلب له الكثير من المتاعب في عمله وحياته ، فحورب في رزقه وفي عمله ، ولم يأخذ حقه في حياته ، ماديًا أو معنويًا ، لكنه ترك لنا ذخيرة أدبية ثرية بالمشاعر الصادقة والأحاسيس الرفيعة التي وضعته في أعلى المراتب بين أدباء البوح في أدبنا العربي المعاصر .

وقد أحببت هذا الرجل وتفاعلت مع كتاباته لأنني أحسست بالصدق في كل كلمة باح بها لنا على الورق ، فكان زكي مبارك مثالا للكاتب الصادق والأديب الصريح الذي يكره الغش والمداراة والكذب والمخاتلة، ومن هنا كانت مأساة حياته ، لأنه أراد أن يتمثل الأدب العربي القديم والأدب الفرنسي في صدقه وصراحته المطلقة ، لكنه أدرك بعد فوات الأوان أن كل ذلك قد جلب له المتاعب في حياته وفي عمله ، وبين أهله وناسه ، فكانت المأساة التي حطمته في عنفوان قوته وفتوته!

وسوف أقدم هنا بعض نماذج من اعترافاته الصريحة التي تحرى فيها الصدق والأمانة .

أنا نفسي(*)



نعم ! أنا نفسي ، واسمي زكي مبارك ، وفي كل مكان ما قلت وما نظمت وما أنشأت كنت شخصًا واحدًا اسمه زكي مبارك .

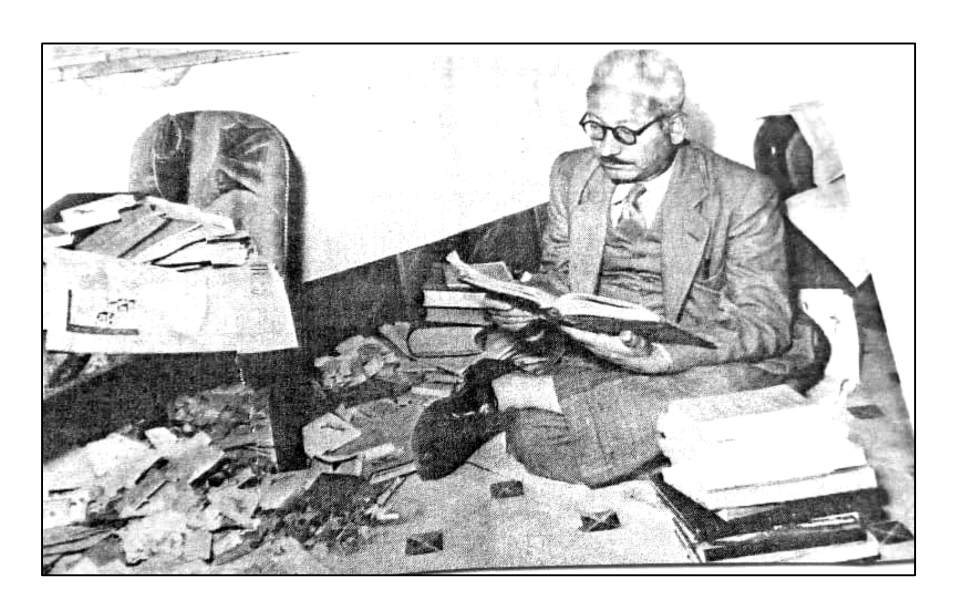
لبست العمامة ، ثم الطربوش ، ثم البرنيطة، وأكلت بأصابعي ثم أكلت بالشوكة والسكين ، وفي جميع الحالات أشعر صادقًا بأني أنا نفسي لم أكن صورة لأحد من الناس ، ولم أتلون في المشاعر والحواس بغير اللون الأصيل لشخصية الإنسان الذي تصوره أعمالي وأقوالي ، الإنسان الذي اسمه زكي مبارك ، وهو اسم يحبه أقوام ويبغضه آخرون .

والدليل على ذلك أني قضيت الحياة بلا ناصر ولا معين ، فما أذكر أني كنت ظلاً لأحد ، ولا أذكر أني خدمت حزبًا من الأحزاب ، ولا فكرت يومًا في التلطف إلى فلان أو فلان ، وإنما أحب من أحب وأبغض من أبغض وفقا لهواي الخاص ، وأشعر حين أحب أني متفضل بالحب ، وأشعر حين أبغض أني أنوي البطش بمن أعاديه .

وما أقول هذا حبًا في الزهو والخيلاء ، وإنما الواقع أني درست نفسي فرأيتها غير صالحة للارتياض بآداب الناس ، وما زلت أعجب كيف استطعت أن أعيش في دنيا لا صديق لي فيها ولا حبيب ، ولعل السر في صلاحيتي للعيش إني أصادف أقوامًا رماني الدهر بما رماني فائتلفنا كما يأتلف الوحوش .

(*) الهلال – ديسمبر ١٩٣٨ (زكي مبارك – أنا نفسي) .

ومع هذا لا أنكر أني معرض للتخلـق بـأخلاق مختلفـة ، في بعضـها قـوة وفي بعضها ضعف ، غير أني مع ذلك أقرر أن هذا الاختلاف هو أيضًا صورة من نفسـي أيكون معنى هذه الأحكام القاطعة إني عرفت نفسي ؟ هيهات !



حياته بين الكتب والورق

تجاربي في الحُبّ (*)



وهل عرفت الحب ، حتى أتحدث عما لقيت فيه مـن مفـاتن وطيبـات ، ومـا عانيت من مكاره وأهوال ؟

إنها إشاعة لفقها المرجفون الآثمون زوروا باسمي كتابا اسمه «حب ابن أبـي ربيعة» وكتابًا اسمه «مدامع العشاق» .

أنا أحب ؟ ومن الذي يحمل أثقال الواجب ، وأعباء الحياة ؟ بـل مـن الـذي يصحح كراريس التلاميذ ، وينشئ المقالات للصحف والمجلات ، فيقضي النهار في الدرس ، والليل في الإنشاء ؟

أنا أحب ؟ ومن الذي يحقد ويبغض ويؤذي خلق الله في الصباح والمساء ؟

أنا أحب ؟ وكيف وكبدي أقسى من الصخر ، وقلبي أصلب من الحديد؟

قولوا غير هذا ، واطلبوا تجارب الحب من رجل سواي

فإن كنتم في ريب من جهلي بالحب ، فانظروا كيف أصف الحب ، لتعلموا أني ما ذقت الهوى ولا الجوى ، ولا عرفت الشغف ولا الشعف .

الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس . الحب لغـة روحيـة يفهمهـا القلب عن القلب ، وينقلها الروح إلى الروح ، وتسـري نشـوتها في الأفئـدة سـريان الصبا في الغصن .

(*) الهلال – يناير ١٩٣٧ – ص ٢٥٧ (تجاربي في الحب) .

الحب معنى نبيل ، في لفظ نبيل . الحب قبس من الصهباء في كأس من الماس. الحب لمحة من لمحات السحر الذي يفيض به الوجود في ليلة قمراء .

الحب أرق وأنضر وأطيب من مطلول الأزهار ومنضور الرياحين . الحب نغمة حلوة عذبة تناغى السرائر وتناجي القلوب .

الحب هو الكأس التي عناها سلطان العاشقين إذ يقول :

يقولون لي صفها فأنت بوصفها　　خبير ، أجل عندي بأوصافها علم

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا　　ونور ولا نار وروح ولا جسم

على عمره فليبك من ضاع عمره　　وليس له فيها نصيب ولا سهم

الحب نعيم يلبس ثوب البؤس ، أو بؤس يلبس ثوب النعيم . الحب عاطفة ماحقة ما يدري الرجل أهي نعمة أم نقمة ، ولا يعلم أهي هدى أم ضلال ، وإنما يعرف أنها كلمة سحرية تزلزل العزائم وتدك الجبال .

الحب هو ائتلاف روحين ، وامتزاج قلبين ، وانسجام نفسين . الحب هو أن تذوب القسوة في كوثر الحنان ، وأن تأنس الأسود إلى فتك الظباء .

الحب هو أن تصير قلبًا شفافًا تجرحه النظرة ، وتفتنه الخطرة ، ويأسره الدلال .

الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب ، الحب هو أن تخاطر بالملك في سبيل الحب .

***

أتروني وصفت الحب ؟لا أظن ، وكيف يصف الحب من لا يحب !

أشهد صادقًا أنني لا أعرف الحب ، ولكني مع ذلك أعترف بأن لي شمائل تشبه شمائل المحبين . فأنا رجل يفضل الحسن على القبح ، وهل في هذا بأس ؟ وأؤمن بأن الوجه الأصبح أجمل من الوجه الوقاح ، وهل يلام من يقول بذلك ؟

وأعتقد أن العيون النواعس أحب إلى القلوب من عيون الحلاليف ، وهل في هذا خلاف ؟ وأرى أن القد الرشيق أملح في العين من الجسم المغلوط ، وهل هذا الرأي غلط ؟ وأجزم بأن المبسم العذب أحلى وأعذب من الأفواه السود ، فهل أنا في هذا مخطئ يا أرباب العقول ؟

أنا لا أحب ، لا أحب ، ولكنني رجل فاتك النظرات ، وما كان ذلك عن فجور أو فسوق ، وإنما هي فلسفة لم يعرف مثلها الناس في شرق ولا غرب .

أنتم تؤمنون بحقوق الحواس فيما تأكلون وما تشربون وما تلبسون ، أنتم تحبون أن تكون منازلكم وملابسكم ومطاعمكم ومشاربكم دليلا على ما عندكم من ترف الأذواق ، وفيكم من ينفق ألوف الدنانير لينعم بالعيش في منزل أنيق ، وفيكم من يرحل من بلد إلى بلد ليظفر بأكلة شهية أو شراب عتيق !

فما رأيكم إذا قصرت أنا شهوات الحواس على حاسة واحدة ، هي حاسة البصر الغالي ؟ ما رأيكم إذا استغنيت عن أكل التفاح اكتفاء برؤية لونه في الخدود ما رأيكم إذا صدفت عن جميع التحف العاجية اكتفاء بحلاوة الجيد ، ما رأيكم إذا انصرفت عن جميع الغرائب الفنية اكتفاء بما أرى من بدائع الجمال ؟

أنتم تمتعون أسنانكم بالنهش والنهس ، والخضم والقضم ، وأنا أمتع عيني بالمنظر الجميل ، فيا بعد ما بيني وبينكم في دنيا المفاتن ، وعالم الأذواق ، أنتم ترحلون من مكان إلى مكان في السيارات وفوق ظهور الجياد ، وتتخيرون في الغالب أقصر سبيل ، وأنا لا أمشي إلا في الطريق الذي أعرف أن أرضه حنت وأنت تحت أقدام الملاح .

أنا لا أحب ، لا أحب أحدًا ، وإنما أحب نفسي .

ومن حب النفس أن لا تقع العين على ما يسوء ، وإنما تقع على ما يفتن ويشوق ، وهل يكون الطائر أعقل مني ، إن الطائر لا يقع إلا على الغصن الرطيب ! وهل يكون النحل أعقل مني ، إن النحل لا يمتص من الأزهار غير الرحيق !

من أنا في دنياكم يا بني آدم ، يا أكلة اللحم والبقل ، ويا خلفاء بني إسرائيل الذين زهدوا في المن والسلوى ، وسال لعابهم شوقًا إلى العدس والبصل والفول ، من أنا في دنياكم ، يا بني آدم ؟ أنا في دنياكم غريب ، لأني أعيش على الحب والنسيم.

أعيش على الحب ؟ لا ، أنا لا أحب أحدًا ، وإنما أحب نفسي ، وقديمًا قلت :

ولما صار ود الناس ختلا   وأوحش ربعهم من بعد أنس

ولم أظفر على جهدي بحر   تركت هواهمو وصحبت نفسي

أنا لم أحب ، ولم أعرف الحب ، لأن قلبي أعظم من أن يحب ، ولم يخلق إلى اليوم وجه يكافئ ما في قلبي من صراحة الصدق ، ونمير الحنان .. وأين يقع قلبي إذا شاء أن يحب ؟ أين يقع ولم يبق في هذه الأرض حسن مهذب ، ولا جمال مصون؟

وهل خلت الدنيا من المحاسن ، هيهات ! إن الدنيا تموج بالفتن ، ولكن الحسن الذي يضارع ما في قلبي من عناصر العطف والسحر والروعة والفتون لم يخلقه فاطر الأرض والسماء . وما أكذب الحسن ، فقد شهدت منه نماذج يدوسها قدمي وهي طيعة راضية ، ولكني ما زلت أتكبر وأتجبر ، وأطغى وأستطيل ، لأن الحسن الذي يأسرني لم يشهده هذا الوجود .

لا أكذب الحسن ، فقد قطفت منه أطايب نفيسة لم يقطفها أحد سواي ، ولكن كيف يدينني الحسن وفي قلبي شاعرية هي أنضر منه وأسحر وأفتك ، وفي نفسي كرم هو أبقى منه على الزمن وأجدر منه بالخلود .

فإن كنتم في ريب من ذلك فاسألوا كيف يعيش من قصرت عليهم هواي ، سلوهم كيف استطابوا الغفوات وأنا أساهر النجم لأناجي المعاني ، وأتحدث في الهوى ، فأشرح الجنون وماذا عند أهل الجمال ؟ إن الحب في قلب العاشق أشرف من الحسن في وجه الجميل .

أنا أحب ؟ قولوا غير ذلك ، واطلبوا تجارب الحب من رجل سواي .

ألست أنا الذي رفع الحجاب عن أصول الحقائق حين قال : إن الدمع في

عين العاشق كالسم في ناب الثعبان ، فإن رأيتموني أبكي من الحب فاعلموا أني أفعل ذلك لأخدر الفريسة كما يفعل الأفعوان حين يلدغ الفريسة ليخدرها بالسم فيبتلعها بلا عناء .

ماذا لقيت من الحب ؟ لا تسألوا ماذا لقيت ، فذلك حساب تثقل فيه الموازين ، ولكن اسألوا ماذا عانيت في الحب من سفه الطيش وعنف الفتون .

أنا اليوم صريع الغيرة ، أنا اليوم قتيل الهموم ، أنا اليوم شهيد الشجون .

اليوم يصحو المخمور ، ويستيقظ الغافي ، ويفيق المتبول .

اليوم أتلفت فأجد رفاقي تقدموا وتخلفت ، وأشهد أني كنت من الخاطئين .

ولو أنني أنفقت في سبيل المجد بعض ما أنفقت في سبيل الحب لكنت اليوم رئيس الوزراء.

وداعًا أيها الجمال وداعًا أيها الحب . وفي ذمة الله عمر ذهب ، وشباب ضاع !

وفي سبيل من ؟ في سبيل الغادرين الخاتلين من أهل الصباحة وأرباب الجمال .

تسألون عن تجاربي في الحب ؟ إنه تجارة خاسرة ، وأرض موات .

فإن كان في القراء من يعقل فليسمع الموعظة من رجل دفع ثمن التجربة من دم الصبا وعافية الشباب . لقد جربت الحب ، وهأنذا أخرج من دنياه صفر اليدين. فمن اغتر بالحب بعد ما حذرته وأنذرته فهو مضيع مغبون .

***

وكنت أحب أن أطيل في شرح هذه الموعظة ، ولكني مع الأسف مشغول القلب بغرام جديد ، ولعلي أحدثكم عن أهواله بعد حين !

أتحسبونني تبت ؟ هيهات هيهات !

أغرب ما رأيت في حياتي(*)



أنا متهمٌ بالعقل ومتهمٌ بالجنون . فمن وصفني بالعقـل فهـو متلطـف ، ومـن وصفني بالجنون فهو مسرف . لأني في حقيقة أمري إنسانٌ يعيش بثـورة العواطـف فوق ما يعيش بقوة العقل ، وهي حالة تجعل أمري وسطًا بين العقل والجنون .

والتوفيق الذي ظفرت به في حياتي العلميـة مـدينٌ لحيـاتي الوجدانيـة ؛ فقـوة الوجدان هي التي حملتني على أن أستقتل في الدراسات الأدبية والفلسفية ، وقد يأتي يوم أعترف فيه بالأسباب الوجدانيـة التـي جعلـت عقـلي يتفـوق إلى أبعـد حـدود التفوق في مثل كتاب النثر الفني أو كتاب التصوف الإسلامي .

وهذه الغرابة في تكوين عقلي وقلبي هي التي تحملني عـلى الجـرأة في تـدوين هذا الحديث ، وهو حديث كنت أفتضح به أشنع افتضاح لو نشرتُه قبـل سـنتين أو ثلاث ، يوم كان لي خصوم يسرهم أن تحاط حياتي بالأقاويل والأراجيف .

أما اليوم وقد قل خصومي بحيث لا يزيدون عن ألف أو ألفين ، فأنا أنشر هذا الحديث بلا تهيب ولا تخوف ، وليقل من شاء ما شاء .

***

كنت حين انتسبت إلى جامعة باريس أقضي أربعة أشهر من كل سنة في مدينـة النور ، ثم أعود إلى وطني لأجمع من الصحافة والتدريس ما أستطيع به الرجـوع إلى

(*) الرسالة : أغرب ما رأيت في حياتي / زكي مبارك / ٢ يناير ١٩٣٩ .

باريس من جديد ودام ذلك بضع سنين ، ثم عرفت أني لن أصل إلى غرضـي إلا إذا قررت بطريقة حاسمة ألا أفارق باريس إلا في أحد حالين النصر أو الموت .

وكانت الإقامة الدائمة في باريس تبدو من المستحيلات ، لأن أبي رحمـه الله لم يكن يقدر على إمدادي بكل ما أحتاج إليه . وكان ما ورثته عن أمي طيب الله ثراهـا لا يزيد عن بضعة قراريط ، وكانت أفقر مني ؛ ولم يكن لي في الحكومة المصرية عمٌّ ولا خال وفي هذه الظلمات استطعت أن أتفق مـع الأسـتاذ عبـد القـادر حمـزة عـلى مراسلة البلاغ من باريس بمرتب قدره خمسة عشر جنيهًا فتوكلت عـلى الله وقـررت الاعتكاف بالقبلة القديمة في السربون .

ولكن مراسلة البلاغ من باريس لم تكن عملاً ينفـع إلا في حـال واحـد هـو أن يشعر صاحب البلاغ بأني أقدم إليه محصولاً أدبيًا ينقل القراء من حال إلى أحـوال ، فقد كان الأستاذ عبد القادر حمزة قـد اشـتهر بـين أصـحاب الجرائـد بأنـه يحسـن الاعتذار إلى من يريد الاستغناء عـنهم مـن المحـررين والمخبـرين والمراسـلين ؛ وكنت جربت اعتذاراته الرقيقة قبل ذلك حين كنت أحرر في البلاغ الأسبوعي سنة ١٩٢٦ . ولكـن اعتذاراتـه في ذلـك الوقـت لم تكـن تـؤذيني لأن كنـت مدرسًـا في الجامعة المصرية ، وكنت بفضل تلك الوظيفة من المياسير .

***

ماذا أصنع في مراسلة البلاغ من باريس ؟

كنت أستطيع أن أرسل مقالات في الأدب العربي ، وأنا من أقطابه بلا جدال ، ولكن إرسال مقالات عن الأدب العربي من باريس كان ضربًا من السخف يقترفـه من يراسل البلاغ من باريس . وهل يعيش الأديب في باريس ليحـدث النـاس عـن ابن المقفع وابن العميد ؟!

ماذا أصنع ؟ ماذا أصنع لأنجو من تسلُّم خطاب رقيق من خطابات الاعتـذار التي يجيدها صاحب البلاغ ؟ ماذا أصنع لأظفر بخمسـة عشـر جنيهًـا أضـيفها إلى

المبالغ الضئيلة التي اكسبها من الدروس الخصوصية التي أعطيها للطلبة الضعاف في اللغة الفرنسية من أعضاء البعثات ، والنقود التافهة التي آخذها في مقابل المساعدة التي أؤديها لبعض المستشرقين الذين يهمهم أن ينقلوا النصوص العربية إلى اللغة الفرنسية ؟

ماذا أصنع ؟ ماذا أصنع ؟

لم يكن أمامي إلا مسلكٌ واحد : هو الاندماج المطلق في باريس لأحدث قراء البلاغ بأحاديث منتزعة من الحياة الواقعية في باريس .

وما هي إلا أسابيع حتى عرف صاحب البلاغ أنه لن يكتب إلى رجل مثلي خطاب اعتذار ، وحتى عرف قراء البلاغ أني أحدثهم بما لم يألفوه ، وأن البلاغ لن يستغني أبدًا عن صاحب «الحديث ذو شجون» .

***

ولكن الانتصار في هذا الميدان له تكاليف .

كان لابد من الاتصال الدائم بأساتذة السربون ومدرسة اللغات الشرقية لأظفر بما تساميت إليه من الألقاب العلمية .

وكان لابد من معاقرة الحياة في باريس لأنجح في مراسلة البلاغ أما الأساتذة فالظفر بثقتهم سهل ، لأني في الواقع من أصلح الناس لفهم ما أسمع من الخطب والمحاضرات ، ولأني كنت بالفعل شابًا ناضجًا له في الأدب والفلسفة مذاهب وآراء .

الصعوبة كل الصعوبة ، والعسر كل العسر ، هو في افتراع باريس لأصل إلى أوهام وحقائق أقيّد بها أذواق قراء البلاغ .

وكيف أصل إلى هذا الغرض الجليل ؟

هدتني الفطرة إلى قضاء أوقات الفراغ في الملاهي والملاعب والمراقص

والقهوات ، فكنت أقضي في هذه النزهة الطريفة ساعات من النهار وساعات من الليل .

كنتُ شابًا ، ورحمة الله على شبابي ، الشباب الذي بددتُه في طلب الحب والمجد .

كنت أذرع باريس بقدمي لأخلق لمقالاتي جوًا من الحقيقة لا من الخيال .

وأعانني على ما أسمو إليه لسانٌ مرن في اللغة الفرنسية مرونة عجيبة تقدر على جذب من أحاور من أسراب الظباء .

والفرنسيون يغفرون للرجل جميع الذنوب إذا أمدته العناية الإلهية بلسان فصيح .

وكان لي في باريس ثلاث قهوات ، قهوة صغيرة جدًّا في بولميش بجوار (قهوة الرحيل) التي كان يجلس فيها الدكتور طه حسين يوم كان طالبًا في جامعة باريس .

وكانت هذه القهوة الصغيرة مخصصة للمواعيد الغرامية ، التأملات الفلسفية فكيف صارت اليوم ؟ ليتني أعرف . أما القهوتان الأخريان فهما الروتوند والدُّوم في حي مونبارناس .

***

كيف كنتُ أصطبح وأغتبق بهاتين القهوتين ؟

كان مفهومًا عندي أن لا سبيل إلى معاقرة الحياة إلا في مونبارناس .

وإنما كان ذلك لأني كنت أتهيب مونمارتر تهيبًا يصل إلى الفزع والرعب ، فقد تشاجرت فيها مع أحد الشبان الفجار في سنة ١٩٢٧ وكاد اسمي يقيد في سجلات البوليس لولا لطف الله وكانت هذه التجربة القاسية كافية لأن أقنع بالضلال في حي مونبارناس .

وفي قهوة الدوم وقعت المأساة أو الملهاة التي أدونها في هذا الحديث :

دخلت ذات صباح فوجدت سيدة تطالع سفر الوجود بعينين زرقـاوين ينـدر أن يكون لهما شبيه أو مثيل .

وجلستُ بالقرب من تلك السيدة عساني أنهب منها نظرة أو نظـرتين أسـتعين بهما على إتمام بعض الفصول من كتاب (سحر العيون) الذي أرجو أن يظهـر بعـد قليل .

وما هي إلا دقائق حتى تلاحظنا برفق وعطف

ثم أشارت بأن أقترب فاقتربت .

رباه ! متى تعود أيامي ؟

وبعد أن دار كأس الحديث نحو عشرين دقيقة عرفت أنها من البغايا .

أعوذ بالله ؛ أعوذ بالله ، أعوذ بالله !!!

أمثل هذا الحسن يكون من نصيب الفَجرة الأوباش ؟

أتكون هذه الحسناء الفتانةُ شبيهةً بالشمس ينعم بضوئها من يشـاء ولـو كـان من الخفافيش ؟

أتكون هذه التحفة الفنية شبيهةً بكرائم الأنهار يشرب منها البهائم والدواب ؟

أتكون هذه العيون السواحر من نصيب من يسـاعده القـدر المخبـول فـيملأ جيبه بالدراهم لو كان من الأغبياء ؟

أتكـون هـذه الدُّميـة شـبيهةً بـالحجر الأصـم الـذي تسـجل عليـه حـوادث الأفاقين؟

ليتني مت قبل أن أشهد ذلك المنظر الأليم !

ليتني مت قبل أن أعرف أن مثل ذلك الحسن يباع !

ألك يا رباه حكمة في إذلال هذه الروائع الفنية التي زينت بها الوجود ؟

ارفع الحجاب مرة واحدة يا رباه لأعرف أسرارك العالية التي تسوس بها مخلوقاتك !

وهجمتُ على تلك السيدة الجميلة بعنف فقالت :

اسمع أيها السيد ، ليست الغواية من همي ولا من مناي أنا امرأة شقية خدعها شاب مثلك باسم الحب ، وكانت ثمرة الحب طفلا هو اليوم تلميذ في المدرسة (...) وقد هجرني الحبيبُ والدُ الطفل وتركني وحدي أربيه وأرعاه فأنا أتسول باسم الحب لأنفق على ذلك الطفل المسكين ، إلى أن يظهر أبوه ، إلى أن يظهر الوغد الذي هجر معشوقته وطفله منذ سبع سنين . فإن كنت تدعي الرجولة الصحيحة فتقدم لحمايتي ورعاية طفلي . وسترى كيف أجزيك عطفا بعطف وإخلاصًا بإخلاص .

وما كدت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت قدمي ومن أين أنفق على هذه السيدة وعلى طفلها وليس لي من جريدة البلاغ ومن الدروس الخصوصية إلا مبلغ ضئيل من المال لا يزيد على ثلاثة آلاف من الفرنكات ، والحياة قاسية أشد القسوة على الغرباء في باريس ؟

ثم نظرت فرأيت هذه المرأة تعرض مشروعًا نبيلا قد يرفع روحي بعد إسفاف . فصوبت بصري إليها وقلت : وكيف أضمن أن تتوبي عن حياة الرجس ؟

فقالت في استحياء : إن لغرفتي مفتاحين !

فقلت : وما معنى ذلك ؟

فقالت : لك مفتاح ولي مفتاح ، فخذني لنفسك وراقبني كيف تشاء ، فإن استطعت أن تشهد عليَّ ما يريب بعد اليوم فاقتلني والمهم أيها السيد أن ينجو طفلي من الجهل ومن الجوع .

وفي تلك اللحظة تذكرت عبد المجيد فغلبني الدمع .

تذكرت أني تركت في مصر الجديدة أطفالاً منهم عبد المجيد الذي كان

يزعزع كياني حين يقول (بابا) .

وما اسم ابنك يا سيدة ؟

اسمه موريس

هلم بنا إلى التسليم على موريس !

***

قد أنسى كل شيء ، ولكني لن أنسى طلعة موريس .

قد ينسيني الموت جميع ما حفظت من اللغة الفرنسية ، ولكني سأذكر في قبري عبارة باقية في اللغة الفرنسية حين طلع موريس فقالت له أمه : Embrasse papa

وتوهم الطفل أني أبوه فقبلني بحرارة والدموع في عينيه

- Papa
- Mon petit

وأستأذنا مدير المدرسة فسلم إلينا الطفل ليقضي معنا ليلة في مباهج باريس .

وسألني الطفل : أين كنت ؟ فأخبرته أني توجهت إلى الشرق لزيارة القاهرة وبغداد وبيروت ، واخترعت له أقاصيص تعجبه وتلهيه ، ولم يفتني أن أحدثه عن أخبار الجن والعفاريت .

وفي تلك الليلة هجر الطفل صدر أمه وسَكن إلى صدري لينام نوم السعداء .

وفي تلك الليلة شعرت أن روحي ارتفع إلى أجواز السماء .

كان موريس ورث عن أمه الفرنسية صفرة الشعر وزرقة العينين ، وكان ورث عن أبيه الهولندي شمائل من السجاحة واللطف ، وكان في جملته وتفصيله تحفة من تحف الوجود وقد وجد من عطفي وحناني كل ما يتمناه ويشتهيه فانطلق يحدث أترابه في المدرسة بالنعيم الذي يلقاه في يومي الأحد والخميس .

وفرحت مرجريت بما صارت إليه من راحة البال وصفاء النفس بعد الهيام الأثيم بأحياء باريس .

ومضت تقترح ما تشاء من المغامرات فعلمتني الرقص وطوفت بي على المكنونات من صناديق الليل .

وبفضل مارجريت عرفت من خبايا باريس ما لا يعرف الشياطين ولم نكتف بذلك ، بل نقلتني إلى رُوان والهافر وأطلعتني على المستور من شواطئ المانش ، وأقامت معي في الضواحي النائية أسابيع .

والله وحده يعلم كيف عاشرتُ تلك الحسناء ، فلو أني قلت أني كنت في حبها من الأطهار لما صدقني مخلوق ، لأن سمعتي تعرضتْ لأخطار كثيرة بسبب التهالك على أخبار الملاح ، ولكن الواقع أني كنت في صحبة تلك السيدة رجلاً نبيلاً ، وأجمل ما نلتُ منها لم يزد على قُبلة شهية طبعتها على جبيني حين أخبرتها أني لي أبناء وقد قهرتني على قبول هدية من العطر و«الكريم» أرسلتها إلى ابنتي أو زوجتي ، وقد قبلت الهدية ثم ألقيتها خِفية في نهر السين .

***

كانت مارجريت متعبةً إلى أبعد الحدود

قالت ذات يوم : أنت يا دكتور معرض للسمنة لكثرة ما تشرب من البيرة .

فقلت : هذا حق !

فقالت : ما رأيك في سياحة على الأقدام إلى ليون ؟

فقلت : وفي كم يومًا نصل على الأقدام إلى ليون ؟

فقالت : في نحو أسبوع .

فحملنا أثقالنا واتجهنا نحو ليون ماشَييْن .

وبعد يوم واحد تعبتُ ، فحلمتها على الرجوع بالقطار إلى باريس ليتني أطعت

مرجريت وذهبتُ ماشيًا إلى ليون لأعرف كيف يعيش الناس في الأقاليم الفرنسية ، ولأجدد الأنس بصحبة مرجريت يوم همنا على وجوهنا في الحقول النورمندية !

كانت مارجريت ضجرتْ من حياة الفتون .

وكنتُ ضجرتُ من حياة الفتون .

وكنا نتشهى أن نعرف معنى التصوف في الحب ، وكيف لا تتصوف في الحب وقلوبنا معمورة بحب الطفل العزيز موريس ؟

***

وبعد أن دام هذا النعيم النبيل خمسة عشر شهرًا وصلتُ إلى ما أريد في امتحانات مدرسة اللغات الشرقية وامتحانات السربون ، وصممت على الرجوع إلى أهلي وأبنائي ، ولم يكن بدٌّ من توديع مرجريت وموريس .

وأي توديع ؟!

كان من الواجب أن أردَّ المفتاح إلى مرجريت ، فرفضتْ والدمع في عينيها الزرقاوين ، وقالت : احفظ هذا المفتاح فقد تصل على حين غفلة إلى باريس .

وكانت مارجريت لا تزال معرَّضة للفقر والبؤس فوعدتها بإرسال سبعمائة فرنك في كل شهر لتستطيع الإنفاق على نفسها وعلى ابنها الغالي ، وأنا أفي إذا وعدتُ .

***

كانت الدنيا في ذلك العهد لا تخيفني وهل يخاف من يرجع مزودًّا بأعظم الألقاب من باريس ؟

ولكني لم أكد أصل إلى مصر حتى عَطلتْ جريدة البلاغ فأرسلتُ إلى مرجريت أستعفيها مما وعدتُ ، فكتبت تصفح عني وتسأل الله أن بفتح لي أبواب الرزق .

وما هي إلا مدة قصيرة حتى استجاب الله لدعوة مرجريت فكنت آخذ من

الجامعة الأمريكية ثمانية وعشرين جنيهًا ، ومن الليسيه اثنين وعشرين جنيهًا ، ومن البلاغ خمسة عشر جنيهًا بغض النظر عما كنت آخذه من المكتبة التجارية ومن مجلة الهلال .

ورأيت أن أزيد مرتب مرجريت فكنت أرسل إليها في كل شهر ألف فرنك .

وعرف موريس فضل (أبيه) فكان يرسل إليَّ في كل أسبوع خطابين .

حرسك الله يا موريس وكتب لك التوفيق !

***

وفي سنة ١٩٣٣ ذهبت إلى باريس لأحضر مؤتمر (الميسيون لاييك)نائبًا عن أساتذة اللغة العربية بمعهد الليسيه . ذهبت ومعي المفتاح لأزور مرجريت ولكني استكبرت عن زيارة مرجريت ، وهل يفكر الأساتذة الكبار في العطف على امرأة نكبتْها المقادير ؟

ولما رجعتُ من المؤتمر نقصت مرتب مرجريت من ألف فرنك إلى سبعمائة فرنك ، واعتذرت بأن مواردي نقصتْ وأني لم أعد أملك غير التدريس بالليسيه والتحرير في البلاغ .

فكتبتْ مرجريت تقول إنها ترضى مني بأن أعترف أنها استطاعت مرةً واحدة أن تدخل النور إلى حياتي .

أعترف يا مرجريت بأنك بددت الظلمات في حياتي.

طال العهد على لقاء مرجريت ، وطال العهد على لقاء موريس وحملني لؤم الطبع على التخلص من مرجريت وموريس ، وهل كانت مرجريت زوجتي ؟ وهل كان موريس ابني ؟ وهل كنتُ أول شاب أطاع الغواية في باريس ؟ يجب أن أقطع المرتب الذي خصصتُه لمرجريت وموريس ، ولكن كيف ؟

لذلك تاريخ سنراه في الأسبوع المقبل .

أغرب ما رأيت في حياتي (٢) (*)



كيف أقطع مرتب مرجريت ؟

وكيف أدخل البؤس إلى صدر موريس؟

كيف ؟ كيف ؟

المسالة في ذاتها هينة ، ولكنها مع ذلك بدت في غاية من التعقيد ، لأن اتصالي بمرجريت كان أثار حول اسمي شبهات أذاعها فريق من أهل الفضول في باريس ، وأظن – وبعض الظن إثم وبعضه غير إثم – أن ابنة صاحب البيت الذي كنت أقيم فيه كان لها دخلٌ في إذاعة الشبهات التي آلمتني في باريس .

كان ناس من المصريين يسألون عني من حين إلى حين فكانت تلك البنت تلقاهم بابتسامة خبيثة ، ثم تقول : المسيو مبارك رجل لطيف ، فهو لا يُلزم الخدم بترتيب غرفته غير مرة أو مرتين في الأسبوع !

ومعنى ذلك أني أبيت ليالي كثيرة في مكان مجهول .

وكان لي مع هذه البنت تاريخ جميل يغريها بأن تُلقي عليّ حقودها حين أغيب .

وكان المصريون في باريس يتعتّبون ويتلومون كلما رأوني ، ويحبون أن يعرفوا أين أقضي أوقات الفراغ .

(*) الرسالة : أغرب ما رأيت في حياتي / زكي مبارك / ٩ يناير ١٩٣٩ .

وكانت حجتي حاضرة ، ولكنها لم تكن تُقنع إلا من يريد أن يقتنع . كنت أقول إني تركت في مصر خمسة عشر مليونًا وما يهمني أن أراهم مرة ثانية في باريس .

والواقع أني أحسنت كل الإحسان في هذا المسلك ، فلم يكن لي أي نفع من تزجية أوقات الفراغ مع المصريين المقيمين في باريس ، فأكثر كلامنا حين كنا نلتقي لم يكن إلا ثرثرة سخيفة باللغة العربية حول السياسة المصرية وربما كنت المصري الوحيد الذي عاش في باريس ولم يعرف مكان السفارة المصرية في باريس.

والواقع أيضًا أن صلتي بمرجريت لم يعرفها أحد قبل اليوم غير شخص واحد هو الدكتور أمير بقطر الذي كلفتُه في إحدى السنين أن يمر على مرجريت ليحدثها عن أشياء لا يمكن أن تكتب في خطاب ، ومع خطورة هذه المهمة فرَّط الدكتور بقطر في زيارة مرجريت .

وهكذا يكون الإخوان في هذا الزمان !

والحاصل – كما يعبر أهل بغداد – أني كنت أحب أن أتخلص بصفة نهائية من مرجريت ، لأني كنت أخشى أن أفتضح في الأندية المصرية ، وتحقّ علىّ لعنة خصومي ، الخصوم الذين كانوا يعرفون كيف يلطخون سمعتي بالسواد بلا تعفف ولا استحياء .

كان يجب أن أقطع صلتي بمرجريت ، وهل بقيت بيننا صلة غير مئات الفرنكات التي أجود بها في كل شهر لأنقذ موريس من الجهل ومن الجوع ؟

كان هذا المرتب ثقيلاً جدًا ، وكان إرساله يضيعٌ على في كل شهر يومًا أو بعض يوم ، وقد اضطرني مرة إلى أن أصرخ بالفرنسية ! je m , ennuie

وكنت في كل مرة أتعرض لمكاره كثيرة من التحليلات النفسية ، كنت أقول إن قرابات كثيرة تعاني الضر والبؤس وهي أولى بكرمي إن كنت من الكرماء .

وكنت أقول إن مرجريت آوتْ روحي وقلبي خمسة عشر شهرًا ، وأمكنتني من

أن أصير أبًا كريمًا لطفل جميل .

وكنت أقول إن لمرجريت فضلا عظيمًا في مرونة لساني باللغة الفرنسية ، المرونة التي أمكنتني من أن أحاور هيئة الامتحان في مدرسة اللغات الشرقية خمس ساعات ، والتي أمكنتني من أن أصاول هيئة الامتحان بالسربون ثلاث ساعات ، وذلك مغنمٌ ليس بالقليل .

كنت أقول إن مرجريت هي التي عرّفتني بدقائق الحياة في باريس .

كنت أقول إني لم أحسن الأكل بالشوكة والسكين إلا بفضل مرجريت .

كنت أقول إن مرجريت بكت مرة وأبكتني يوم زرنا معًا مصانع ستروين ، حين وقفنا ننظر إلى فتاة تطرق الحديد وهي أرق من الزهر وأكثر إشراقًا من الصباح .

قالت مرجريت : ما رأيك يا محبوبي في هذه الفتاة ؟

فتعلثمت .

فقالت : قل الحق ، ماذا تدفع من الأموال لحديث ليلة مع هذه الحسناء التي تطرق الحديد ؟

فقلت : وهل هي أجمل من مرجريت ؟

فقالت : دع هذا الأدب المصقول وأجبني .

فقلت : أقدم حياتي ثمنًا لسمر ليلة مع هذه الفتاة .

فقالت : وهل تعرف كيف زهدت هذه الفتاة في فتنة باريس لتلهو بطرق الحديد .

فقلت : أحب أن أعرف .

فقالت : هذه فتاة تستعد لتكون ربة بيت ، فهي تطرق الحديد لتجمع من

الأموال ما يمكنها من أن تكون زوجةً لرجل شريف مثل المسيو مبارك .

ثم استغرقت في البكاء والنشيج .

بكيتُ يومئذ لبكاء مرجريت بكيتُ بكاء لو شهدته الملائكة لأضافت اسمي إلى أسماء الشهداء والصدِّيقين .

وفي تلك اللحظة جذبتُ يد مرجريت بعنف وقلت : لن نفترق يا مرجريت .

فقالت : وكيف ؟

فقلت : سأنقلك إلى مصر ، إن كان لي إلى مصر مَعاد .

فقالت : وماذا أصنع في مصر ؟ هل تراني أصلحُ لمعاونة مَدام مبارك على ترقيع الجوارب ؟

فقلت : إن مَدام مبارك لا ترقَّع الجوارب .

فقالت : كيف تقول هذا وأنت أبخل من اليهود ؟!

وضحكنا ضحكًا صنع بالدموع ما تصنع الشمس بآثار الغيث .

***

ذكريات مرجريت كلها لطيفة ؛ ولكن يظهر حقًا أن فيّ شيئًا من أخلاق اليهود، لأني عانيت في حياتي ما يعاني اليهود ، وهل يبخل اليهود بالطبع ولهم جدٌّ اسمه السموأل ؟

إنما يبخل اليهود بسبب الاضطهاد ، وأنا أبخل بسبب الاضطهاد كان أجدادي من أغنى أهل المنوفية فحملتهم النخوة العربية على التبذير والإسراف إلى أن صافحوا الإفلاس .

فأنا أجمع القرش إلى القرش لأصير من الأغنياء

وهل يتفق هذا مع الإنفاق على امرأة جميلة في باريس ؟

يجب أن أقطع مرتب مرجريت .

ولكن كيف ؟

أحب أن أعرف كيف أتخلص من مرجريت

***

كانت مرجريت تكتب إليّ في كل أسبوع خطابين ، وكانت تخاطبني بالكاف ، وكنت أبخل عليها بالمخاطبة بالكاف ، لأني كنت أخشى أن يكون في المخاطبة بالكاف ما يشهد بأني كنت مع تلك المرأة على صلات غرامية [1]

وكانت مرجريت تتألم من ألا أخاطبها بالكاف وتقول : إن بخلك عليّ بالمخاطبة بالكاف يوجب أن اخفي رسائلك عن موريس ، وهي كل ما في حياة هذا الطفل المسكين من عزاء .

حرسك الله يا موريس وبارك في حياتك الغالية .

وكانت مرجريت تتحدث في رسائلها عن أشياء دقيقة لا تذكر إلا في رسائل العشاق .

وكنت أتغافل عن تلك الأشياء حين أكتب !

وكان هذا يؤذيها أبلغ إيذاء ، فكانت تتهمني بالقسوة والله وحده يعلم كيف كنت أسيء الأدب في مراسلة مرجريت ، فأنا أعيش في القاهرة وهي تعيش في باريس.

أنا أحترس تخوفًا من بطش خصومي ، وهي تترسل بلا تخوف لأنها تعيش بين قوم يرون صيانة الحب من الشرائع .

وهل تعلم مرجريت أن محبوبها الغالي يحيا بين الناس بلا ناصر ولا معين ؟

---

(١) المخاطبة بالكاف تعبير عربي أصيل وهو يماثل الـ Tutoiement في الفرنسية .

هل تعلم مرجريت أن محبوبها يشتغل بالتدريس وهو عمل تكدره الشبهات ؟

هل تعلم مرجريت أني لا أصلح أبدًا لما صلح له فيكتور كوزان الذي كان أعظم أستاذ للفلسفة في باريس ولم تكن له زوجة وإنما كانت له خليلة تحرسه وترعاه ؟

إن مرجريت لا تفهم أني مصريٌّ يعيش في مدينة لها تقاليد غير تقاليد باريس .

يجب أن أقطع مرتب مرجريت وأن أتخلص من الأعباء النفسية.

***

وفي أثناء تلك الأزمة النفسية وقع حادث عجيب لم يهتز له في القاهرة قلب غير قلبي ، وقع حادثٌ لا يصدقه أحدٌ في الشرق ولكنه زعزع كياني .

وهو حادث لم يعلق عليه كاتب مثل المازني أو العقاد أو الزيات ولم يلتفت إليه مصطفى عبد الرازق ولا منصور فهمي ولا طه حسين ولكنه زلزل قدمي وهدَّ بنياني .

وهل يقع في الدنيا حادث أغرب وأعجب من أن يجئ المسيو ميللران رئيس الجمهورية الفرنسية الأسبق ليطالب في المحكمة المختلطة بالقاهرة عن حق إحدى الغواني بالميراث في تركة أحد الأمراء ؟

قد أنسى كل شيء ، ولكني لا أنسى أني اعتذرت عن دروسي بالجامعة المصرية لأشهد دفاع المسيو ميللران وماذا قال المسيو ميللران في ذلك اليوم ؟

قال إن موكلته امرأة شريفة

وما كاد ينطق بهذه الكلمة حتى صُعِقتُ ، فقد فهمتُ أن من حقها أن تحب ، وقد أحبتني مرجريت فمن حقها أن تطالبني بالنفقة الشرعية حين تشاء .

ماذا أملك حتى تطالبني مرجريت ؟

أملك سمعتي، وهي كل شيء ، وبفضل تلك السمعة أتسامى لدرجة

الأستاذية في الجامعة المصرية .

وقد آن أن أعترف بالخطر الذي كان يهددني في جميع أطوار حياتي فأنا رجل من كبار العلماء ، وستمرّ أجيال وأجيال قبل أن يوجد لي في البحث والاطلاع شبيه أو مثيل[1] ولكني وا أسفاه مولعٌ بدرس سرائر النفس الإنسانية ، وأغراني بذلك إني كنت أول دكتوراة في الفلسفة من الجامعة ، وهذا المعنى هو الذي حملني على الصراحة فيما أسجّل وأقيّد من الأفكار والمعاني ، وأغلب الظن أني سأكون أشرف ضحية للدراسات الفلسفية ولا يغريني إلا شيء واحد هو الشعور بأني أنقذ الأدب العربي من كابوس الرياء والنفاق ولكن الأدب العربي يحيا لأموت .

والحاصل – مرة ثانية – أني عرفتُ وتيقنتُ أني لا أملك قطع مرتب مرجريت.

هل أستطيع الوقوف بالمحكمة المختلطة بالقاهرة أمام محام يطالبني بحقوق مرجريت ؟

وما هو مبلغ السبعمائة فرنك حتى أهرب من وجه مرجريت ؟

إن أصغر مبلغ أتقاضاه على المقالة الواحدة لا يقل عن جنيهين فما الذي يمنع من أن أنفق على مرجريت مما أتقاضاه من مقالاتي في مثل مجلة الرسالة أو مجلة الهلال ؟

وما الذي يمنع من أن أنقذ سمعتي بمبلغ ضئيل هو مئات من الفرنكات ؟

ولي مع ذلك تعزية صغيرة هي شعور موريس بأن له أبًا هو المسيو مبارك الذي استأنف سياحاته في مصر والشام والعراق .

---

(١) مع الاعتذار لقراء الرسالة عن هذا الإسراف الذي علله الأستاذ الزيات أحسن تعليل .

ولي تعزية ثانية هي رسائل مرجريت التي تحدثني عن غرائب الأشياء في باريس .

ولي تعزية ثالثة هي الشعور بأن لي غرفة في باريس أدخلها على غير موعد حين أشاء .

ولكن مع الأسف الموجع كنت أشعر بأني قد نزلت إلى أسفل دركات الانحطاط لأني كنت أقدم المرتب إلى مرجريت بفضل الخوف لا بفضل الوفاء .

***

وفي صيف سنة ١٩٣٧ كانت لي فرصة لزيارة باريس بمناسبة المعرض ، وكانت مرجريت تلح في أن أزور ذلك المعرض لأراها وتراني ، وقد شجعني سعادة الأستاذ محمد العشماوي بك على زيارة المعرض لأكتب عنه مقالة أو مقالتين ، ولكني رفضت

رفضتُ فرارًا من مرجريت

فماذا صنعت مرجريت ؟

ماذا صنعت مرجريت ؟

كتبت خطابًا تقول فيه :

«عزيزي مبارك

يسرني أن أخبرك أن موريس نال إجازة الدراسة الثانوية وقد وجد عملا بمكتبة .. بمرتب قدره ثمانمائة فرنك ، وبعد أيام سأقف مع المسيو ... بكنيسة المادلين لأداء مراسيم الزواج ، فأرجوك أن تبقي المبلغ الذي تتفضل به شهريًا ، فقد ينفعك في تربية أبنائك ، ويهمني أن تعرف أنك أشرف رجل عرفته في حياتي ، وأن تثق بأن خطيبي لا يغار منك ، فقد صارحته بكل شيء ، وهو في غاية الدهشة

من أدبك العالي ، وكل ما نرجوه أن ترسل عبد المجيد لنتولى تثقيفه في باريس ».

«أنا أقرأ خطاباتك مع زوجي . فهل تقرأ خطاباتي مع زوجتك .

صديقتك العزيز جدًا

مرجريت

آمنت بالله والحب !

لقد أنقذتني مرجريت من العذاب الأليم

وفرتُ سبعمائة فرنك قبل رحيلي إلى العراق ، وفرتُّها وأنا لئيمٌ بخيل .

وفرتُ سبعمائة فرنك لأحرم نفسي وقلبي من أبوّة موريس.

وفرت سبعمائة فرنك لأرجع إنسانًا سخيفًا لا يعرف الهيام بأودية المعاني .

مرجريت ! مرجريت !

أذكريني بالشعر يوم أموت

هل الله عاف عن ذنوبٍ تسلَّفتْ   أم الله إن لم يعفُ عنها يعيـدها

على ميعاد



هذا ربيع ، وهذا صيف ، وهذه ليالي النسائم الرفيقة بمصر الجديدة والجيـزة والمعادي وحلوان والزيتون فأين صبواتك يا قلبي ..؟ ..

وأين أيامك ؟ .. وأين لياليك ؟ وأين أحباب كنت معهم على ميعاد ؟

لقد بخلت الأقدار بالتلاقي ، وتركتنا نصـطرع في لجـج اليـأس العجـاج ؟ .. مضى الشتاء وأورقت أشجار ثم أزهـرت ، ، ومالـك يـا قلبـي أمـل في إزهـار ولا إيراق.

الوجود كله ربيع ، فأين نصيبك من هذا الربيع يا قلبي ؟

ربيعك هنالك ، فامض إليه إن اسـتطعت ، وإن اسـتطاعت تلـك الأزهـار أن تطمس أبصار الرقباء .

سيمر زمن وأزمان ، وستفعل المقادير ما تفعل بمصاير ممالك وشـعوب ثـم يبقى لك هواك يا قلبي ، هـواك الـذي لا يجـوز عليـه الخمـود، لأنـه مـن أقبـاس الخلود.

وهل يعرف أحبابك هناك أنك معهم على ميعاد ؟ .. لقد يئسوا من وفائـك يـا قلبي ، لأنك آثرت الكتمان ، فمتى تفتضح في هواهم ليعودوا مع الربيع ؟ [1]

(١) زكي مبارك ، الرسالة ١٩٤٢ ، الحديث ذو شجون .

أظرف يوم ؟



انتظر أبنائي سيارة الليسيه خمسين دقيقة أو تزيد . انتظروها على باب البيت ، بين المطر المنهمر والريح العَصُوف .

وحين أشفقتْ أمهم فدعتهم إلى الدخول أجابوا ضاحكين :

هذا أظرف يوم !

ثم جاءت السيارة فأقلتهم برفق إلى معهدهم المحبوب ، ولعلهم لم يحبوا معهدهم بأكثر مما أحبوه في هذا اليوم ، فلن تكون الدروس غير حكايات وأقاصيص ، ولن يكون المدرسون غير أطفال كبار يفرحون بمنظر المطر الهتّان !

وبقيت في البيت أسائل نفسي عما أصنع ، فما يجوز أن أخرج في مثل هذا اليوم ، وهو لا يصلح لغير اقتناص الأوابد من الذكريات .

لم يكن المطر غريبًا عليّ ، فقد تمتعت به أعوامًا في الديار الفرنسية ، ولن أنسى فضله يوم دخلت مدينة الهافر أول مرة في سنة ١٩٢٧ ، فقد أتاح الفرصة لمحادثة ريحانة مطلولة على ميعاد .. نظرت غليها بعين الغريب الحائر وقلت :

Madame est – ce quil pleut souvent ici ?

وبين السؤال والجواب تلاقي روحان ، وكان المطر سبب التلاقي .

وفكرت في «المطرية»التي نسيتها على سُلَّم البيت المحبوب في باريس ، يوم فارقتها آخر مرة في صيف سنة ١٩٣٣ (١)

(١) المطرية هي الكلمة التي اختارها ترجمة لكلمة Parapluie ويخطئ من يسميها شمسية .

وعلى محطة ليون تذكرت تلك «المطرية» وجاءت فلانة لتوديعي ، فلانة التي كانت قالت : ! Docteur vous vous trompez

يومئذ أوصيت فلانة بأن ترجع إلى البيت المحبوب لتأخذ المطرية التي نسيتها هناك .

تذكرت وتذكرت

تذكرت أني حين رجعت إلى بغداد في صيف سنة ١٩٣٩ مع « وفد مصر » للاشتراك في تأبين الملك غازي رأيت في شارع الرشيد إنسانة تشبه تلك الفلانة ، فطوّفت حولها مرات إلى أن صرخت : ! Tiens ! Je ne vouspas reconnu

فقلت : لا غرابة في أن لا تعرفيني ، فشمس بغداد تزيغ عيون الباريسيات .

كان أمر هذه الفلانة عجبًا من العجب ، كانت فتاةً غريبة الروح ، وقد تركت دينها لتعتنق ديني ، بعد مصاولات روحية يضيق عن شرحها هذا الحديث .

وما السبيل إلى قضاء لحظات أعرف بها كيف تحدَّرتْ هذه الموجة إلى بغداد؟

-ندخل هذا الفندق؟

-لا ، فهو فندق مطروق !

-وهذا الفندق ؟

-هو فندق حوله شبهات !

وإلى أين نتجه يا شيطانة ، وقد عرفتِ من خفايا بغداد أضعاف ما أعرف ؟

-إلى فندق مود

وكان فندق مود هو الفندق الذي نزل به «وفد مصر » ، وكان اجتماعي بها فيه يُعَدْ فضيحة في أنظار المصريين والعراقيين .

قال حمد باشا الباسل : ما تلك بيمينك يا دكتور مبارك ؟

فأجبت : هي حيّة هديتها إلى الإسلام يوم كنت في باريس !

ثم دارت بيني وبينها كؤوس من الشراب الحلال وهممت بدفع ثمن الكؤوس فاعترض الأستاذ عبد المسيح وزير ، وتلَّطف حمد باشا فقال : لو رأيتكما بمصر لجعلت «قصر الباسل» مقركما إلى آخر الزمان !

ثم دعاني حمد باشا إليه في جانب من بهو الفندق ليُسر في أذني كلمات :

-ما هذا الذي تصنعه بنفسك يا دكتور مبارك ؟

-وماذا أصنع بنفسي يا باشا ؟

-ما قدومك علينا بهذه المخلوقة المتبرجة ؟

-هي التي قدمت عليَّ من باريس

-أنت عرفت هذه الفتاة في باريس ؟

-وهديتُها إلى الإسلام

-أنت تَهدي إلى الإسلام ؟

-اسألها تخبرك !

ثم نظرت إلى حمد باشا وقلت :

-هل تعرف «الحَلُوبة» ؟

-وما الحلوبة؟

-هي أمطار عنيفة مزلزلة تفاجئ العراق في بعض أيام الشتاء

-فهمتُ فهمت !

-ماذا فهمت يا باشا ؟

-فهمت أن هذه حلوبة تقع على قلبك في الصيف لا في الشتاء

-نعم ، وبهذا تتم المعجزة في الحياة العراقية !

ثم عاد حمد باشا فقال :

-أيطول هذا المجلس ؟

-أي مجلس ؟

-المجلس الذي يدور فيه الغزل بطريق العلانية !

ثم التفتْ فرأيت الجارم بك يوغل في التنكيت ، ورأيت الدكتور عزام يـروي أشعارًا ، فأخذت بذراع الفلانة وانصرفت ولكن إلى أين ؟

إلى الفندق الذي تقيم به مع خطيبها العراقي ، وكانت حدثتـه عنـي أحاديـث شوّقته إلى أن يراني .

-دكتور ، أنت الذي سميت هذه الفتاة ليلي ؟

-وأنا الذي علمتها كيف تكتب اسمها بحروف عربية

-وترى أن أقترن بها ؟

-وأرى أن «تتطوق» بها ؟

-إيش لون ؟

-تلك عبارة مصرية ، ستفهمها بعد حين

ولم أدر ما جدّ في الدنيا بعد ذلك اليوم ، وإنما أذكر أني تلقيت خطابًا من (لـيلي المريضة في باريس) تقول فيه :

قُتِل السيد رستم حيدر ، وكان النصير الأوحد لخطيبي ، فمـا الـذي تـرى في مصيره ومصيري ؟ » .

في تلك اللحظة تذكرت سعادة الأستاذ طه الراوي ، وهو غاية في كرم النفس وشرف الروح .. هل أكتب إليه بخبر فلانة وفلان ؟

وأسرعت الدنيا فأثارت الحرب ، وأمست أحاديث المحبين عبثًا في عبث ، ومجونًا في مجون !

كانت الحرب هي « الحُلوبة » الدنيوية لا العراقية ، والعراق مظلوم في اتهامه بالشقاق ، فتاريخه في أسوأ أحواله أهدأ من تاريخ الأمم التي تدِّعي الشوق إلى السلام والقرار والاطمئنان .

حلوبة العراق لا تدوم غير ساعات ، أما حلوبة الغرب فلا تنقضي إلا بعد سنين .

ما هذا الذي أرى ؟ ما هذا ؟ ما هذا ؟

هذه أمطار وبروق ورعود !

لم يبق من تقليد مصر للغرب إلا أن تتشبه بجوه في هذا الهذَر الممقوت !

وأنظر فأرى صدري ينقبض حين يخفْ المطر لحظة أو لحظتين ، وكان المظنون أن أفرح بميل الجوّ إلى الاعتدال

ما السر في هذه النزعة الغريبة ؟ ما السر في الفرح بهطول الأمطار في بلاد أغناها النيل عن الغيث ؟

لعل ذلك يرجع إلى أن «الإنسان الأول » يحتل صدورنا من حيث لا نعرف ، وإلا فكيف جاز لأبنائي أن يقولوا إن هذا اليوم هو أظرف يوم ؟

كان الماء من أسباب الوقاية عند القدماء ، الوقاية من غارات السباع والوحوش ، وكانت المياه سببًا في انتصار المصريين في أعظم معركة من معارك الحروب الصليبية ، وهي المعركة التي اشترك فيها النيل ، فقد أحاط بالأعداء من كل جانب ، وقضى عليهم بالخذلان .

وهنا أذكر حوارًا دار فوق منبر الأزهر في أيام الثورة المصرية سنة ١٩١٩ :

حضر الخطيب محمد بك أبو شادي ذات ليلة ليحدثنا عن الأخطار المخوفة من سيطرة الإنجليز على السودان ، فقال فيما قال : إن تلك السيطرة قد تكون سببًا في منع مياه النيل عن الأراضي المصرية .

عند ذلك علوت المنبر وقلت ينبغي أن نبحث عن أسباب منطقية لاحتفاظ مصر بالسودان ، وأنا أرى أن مسألة المياه قليلة الأهمية، لأن الحياة السودان في تحدر مياه النيل إلى الأراضي المصرية . ولو وجد السودان من يساعده على احتكار مياه النيل لتعرض لآفات من الحميات لا يعلم أذاها غير علاَّم الغيوب .

ثم ماذا ؟

ثم طافت بالقلب خواطر حول شعور المصريين بظواهر الوجود وأقول بصراحة إن الذين ينظمون الأغاني يخطئون أبشع الخطأ في الإكثار من التغني بالرياض والبساتين .

إن المصريين لا يفهمون هذه الأشياء ، ولن يذوقوها لو فهموها ، لأن مصر خضراء في جميع الفصول ، وهي من أجل هذا لا تشعر بقدوم الربيع ، لأن دهرها كله ربيع .

الروض كلمة غير مفهومة ، أو كلمة لا تذاق ، في الديار المصرية على نحو ما يفهمها ويذوقها شعراء العرب في البلاد التي تتأذى بالشتاء .

المصري لا يدرك تقلبات الجو إلا في أندر الأحوال ، وهل في مصر جوٌّ يتقلب ؟

دخلت على المسيو دي كومنين وأنا محزون في يومٍ مطيرٍ فقال :

Mon cher ami . aujoud.hui il pleut . demain il fera beau .

ولكن المطر لم ينتظر إلى الغد ، فقد صفت السماء قبل أن ينتهي الحديث .

والمسيو ودي كومنين يلازم سرير المرض منذ أسابيع ، ولم أفكر في عيادته لأني أكره رؤية الآساد وهي مراض .

سمعت أيضًا أن الأستاذ محمد الههياوي مريض ، وأن أطباء مستشفى الدمرادش قد احتجزوه عامدين بعد الشفاء ، لأنهم علموا أن أحد أبنائه مات ، وليس من المصلحة لمريض في د ور النقاهة أن يدخل بيتًا شعاره السواد .

هل يعرف أبناء هذا الجيل أن الههياوي كان أخطر مفنِّد لمشروع «ملنر» في السنين الخوالي ؟

عند الله جزاؤك يا صديقي ، لا عند الوطن ، فقد كدت أومن بأن الوطن المصري لا يحفظ الجميل .

الههياوي مريض ، وسيعافى بإذن الله حين يقرأ هذه الكلمات ، فلعل دواءه في أن يجد صديقًا يذكره بالخير وهو عليل .

ما هذا الجو العبوس ؟ وما هذا المطر الهتُون ؟

وما شقائي بمرض الأستاذ محمد الههياوي ومرض المسيو دي كومنين ؟

وأين الأستاذ محمد عوض جبريل ؟

أين إخوان عرفتهم يوم كانت الدنيا تسمح بأن يأنس صديق إلى صديق ؟

إن الأستاذ أسعد داغر مريض منذ شهرين ، وهو صورة من صور الوداد الصحيح ، فأين من توجع لعلته بقصيدة في جريدة الأهرام ، وهي تنشر قصائد في التوجع لمرضى الروس واليونان ؟

ثم ماذا ؟

ثم أنتهز هذه الفرصة لتوضيح حقيقة غفل عنها أكثر الباحثين فأقول :

ليس في مصر أحزاب بالمعنى الذي يفهمه الأوربيون ، لأن جو مصر لا

يوحي بالاختلاف كما يوحى بالائتلاف .

وإذن يكون النجاح الحزبي في مصر مقصورًا على الجماعات التي تعرف كيف تأتلف ، وهذا هو الواقع بالفعل ، فما فازت جماعة في مصر إلا بمراعاة ما في الجو المصري من الثبات .

والفرد كالجماعة في مصر ، ففي مقدور كل فرد أن ينجح إذا مشى في طريق واحد إلى آخر الشوط ، أما التنقل من حال إلى أحوال فهو نذير الانحلال .

الإنسان ابن جوه ، وجو مصر لا يعرف التقلب ، ولو راجعنا تواريخ الفائزين في معترك الحياة المصرية لرأيناهم جميعًا من أهل الثبات في الأفكار والآراء .

إن المصري يتكلف ويتصنع حين يرائي ، لأن جو مصر لا يساعد على الرياء .

والحقد الأسود في مصر لا يقع إلا من رجل نَسبُه في مصر مدخول ، وبكلمة واحدة تصفى ما بينك وبين خصمك من أبناء هذه البلاد ، لأن فطرة المصري منقولة عن جوه وهو غاية في الصفاء .

ولكن ما هذا اليوم «الملخبط» ؟

إني أخشى أن يجعل مقالي هذا «لخبطة في لخبطة» !

هو ذلك ، فقد انتقلت من حديث إلى أحاديث بلا نظام ولا ترتيب .

سيصفو الجو ، سيصفو بعد ساعات ، لا بعد أيام

الإنسان ابن جوه ؟

كذلك قلت ، فما بالي أعاني شجونًا تحترب في جميع الأحايين ؟

ما حالي في دنياي ؟ وما نصيبي من الجو المفطور على الصفاء ؟

لا بأس ، فبحرف أو نصف حرف أبدد ما حولي من المصاعب حين أريد ، ولن أريد ، لأن الصراحة في الخصومة معنّى نقلتُه عن وطني ، وأنا لوطني أوفى

الأوفياء.

أعظم عيب في مصر هـو أنهـا لا ترضـى عـن التفـاوت في المواهـب فهـي لا تلتفت أبدًا إلى الأوساط من الرجال في أي ميدان

وهذا العيب فضيلة عبقرية ، ونحن به فرحون .

لن نترك فرصة تمرّ بلا رهان على صحة البنوّة لهذه السماء وما صَحتْ في غير مصر سماء ، فتقشّعى أيتها الغيوم الدخيلة على سماء هذه البلاد

هذا أظرف يوم ؟

نعم هو أظرف يوم ، لأني أسلمت فيه العنان للقلم الجموح .



عندما يوافيني الموت (*)



هذا موضوع مزعج ولكنه طريف ، والموت نفسه طريف لأننا لا نراه إلا مرة واحدة ، نحن الشجعان ، أما الجبناء فيرونه في كل يوم مرات !

يجب في مطلع هذا البحث أن نؤكد للقراء أن الموت أهون مما يظنون ، فإن الذين يعانون سكرات الموت لا يتألمون ، كما نتوهم ، وإنما تأخذهم غيبوبة عميقة لا يشعرون فيها بطعم الموت ، وإن ظن من يحيطون بهم أنهم يقاسون أعظم أهوال العذاب . ومن شك في ذلك فليجرب .

وما بعد الموت ؟ هو أيضًا أهون مما تظنون ، لأن الله أعظم من أن ينصب الموازين لمن ترون من المخلوقات ، ومن أنتم يا بني آدم حتى ينصب لكم ميزان؟ من أنتم وقد عجزتم عن إقامة العدل فشهدتم على أنفسكم بالضياع ؟ من أنتم حتى تفتح لكم أبواب الجنة أو أبواب الجحيم ؟ لقد عرفناكم وعتبنا على الله يوم جعلنا منكم ، وليته يتفضل ، فيذهبكم ويأتي بخلق جديد !

ماذا أقول يوم يوافيني الموت ؟ أترونني أخشع وأضرع وأضعف على نحو ما وقع للشاعر المسكين الذي خاطب صاحبيه ، فقال :

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فاحفرا ترائبه إني مقيم لياليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي وردا على عيني فضل ردائيا

(*) الهلال – عندما يوافني الموت – زكي مبارك – ديسمبر ١٩٣٦ ص ١٤٥ .

ولا تحســداني بــارك الله فيكمــا   من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

خــذاني فجــراني ببــردي إليكمــا   فقــد كنــت قبــل اليــوم صــعبًا قياديــا

أترونني أستوحش من الغربة فأقول كما قال هدبة العذري:

ألا علــلاني قبــل نــوح النــوائح   وقبل اطــلاع الــنفس بــين الجــوانح

وقبل غد يـا لهـف نفسـي عـلى غـد   إذا راح أصــحابي ولســت بــرائح

إذا راح أصـحابي تفـيض دمـوعهم   وغـودرت في لحـد عـلى صـفائحي

يقولـون هـل أصـلحتمو لأخيكمـو   وما القبر في الأرض الفضاء بصـالح

لن أقول شيئًا مـن ذلـك ، لأن النـاس أهـون مـن أن أشـعر بعـدهم بوحشـة الاغتراب . وهل أنست بهم وأنا أغاديهم في كل صباح ، وأراوحهم في كل مساء ؟!

كنت أجد للدنيا طعما قبل عشر سنين ، يوم كـان لي أصـدقاء وأحبـاب ، ثـم مرت أحداث تبينت فيها أن بنـي آدم لا يرعـون العهـد ، ولا يحفظـون الجميـل ، وأصبحت وأنا موقن أني أعيش في مسبعة لا ألفة فيهـا ولا صـفاء .. ولعـل الله عـز شأنه أراد بي خيرًا – وما أحسبه يريد إلا الخير – لعله أراد بي خيرًا فأراني مصـارع ما أحب من المعاني ، حتى لا يبقى لي يوم الموت شيء أبكيه ، ولماذا نبكي ؟

لقد استرحنا من عتاب الأصدقاء ، وأين الأصدقاء ؟!

ماذا أقول حين يوافيني الموت ؟

سأذكر أنني أديت واجبًا مهما حين حذرت الناس من الناس ، فأنـا مـن أكثـر الكتاب حديثًا عما يعتور بني آدم من الغدر والعقوق ، وسيذكر الناس ما كتبت وما نظمت ، فإن لم يقـرؤوا رسـائلي وأشـعاري فلأمهـاتهم الثكـل ، ولأبنـائهم اليـتم ، ولأزواجهم الأرمال !!

وسأذكر يوم أموت إني كنت غصة في حلوق الأدعيـاء ، فمـا تركـت دعيـا إلا كويت جبينه ، وأقذيت عينيه ، وأنمته على الشوك في رعاية الأفاعي والصلال .

وسأذكر يوم أموت أنني كنت أوفى صاحب وأكرم صديق ، فما جاملني إنسان إلا سقيته الشهد ، وظللته بسحائب العطف ، وأغدقت عليه نمير البر والحنان .

إي والله . سأذكر أنني كنت أوفى صاحب وأكرم صديق ، وستموت يوم أموت شمائل من المروءة لم يعرفها أهل هذه الأرض ، أنا الرجل الذي أعرف صاحبي في النعيم والبؤس ، والمحضر والمغيب ، أنا الرجل الذي أعرف معنى الصدق ، وأفهم معنى الوفاء ، وأجزم بأن الله خلقني خلقة نقية لا نظير لها ولا مثيل ، فإن كان لي ما أبكي عليه يوم وفاتي فهو ذلك المعنى ، سأذكر أن الدنيا كان فيها رجل واحد يشقى ليسعد الصديق ، ويموت ليحيا الصديق .

سأذكر ما بقى من أحبابي في المشرق والمغرب ، وسأهدي إليهم عند النزع آخر ما أملك من التحيات ، ولن يكون لي يومئذ ما آسى عليه إلا انقطاع المقت الذي أصبه على الأعداء ، ولكن هل يأمن الأعداء شري بعد أن أموت ؟ هيهات ، لقد خلدت تحقيرهم في صحائف لن تموت .

أنا أموت ؟ إنكم مخطئون !

لن يذهب من الوجود غير هذا الهيكل الذي يذرع الأرض من سنتريس إلى باريس ، أما زكي مبارك الكاتب والشاعر فلن يذهب أبداً ، ستبقى أفكاري لتعين الشيطان على إضلال الناس .

سأعيش ألوفا من السنين ، وسأغزو خلق الله بغير رفق ، فأثير فيه معاني الشر والإثم والطغيان ، ففي رسائلي وأشعاري ومؤلفاتي أقباس من الضلال هي وحدها خليقة بأن تغمس هذا العالم في أوحال الرجس ، وتلقيه فوق أشواك الارتياب .

فإن ارتاح إنسان يوم الموت لأنه كان رجل خير ، فسأرتاح لأنني كنت رجل شر ، وما يسرني أن أكون ملكا ، لأن الملائكة لطاف ظراف ، وإنما يسرني أن أكون شيطانا لأن للشياطين وجوها بشعة ترتعد منها الفرائص وتنخلع القلوب .

ومن يدريكم ؟ لعلي أجد «وظيفة» في جهنم بعد أن أموت ، أتظنون أن الأمر استقر في دار العذاب ؟ سأجعل هذا من همي فأبحث عن «وظيفة» عند الرجل الشهم الذي اسمه مالك ، ولن أفكر في صحبة الرجل الظريف الذي اسمه رضوان.

فإن وصلت إلى «وظيفة» في جهنم فسترون وستعلمون ، سترون يا بني آدم كيف أكبكم على وجوهكم في النار ، وكيف أعاقب اللصوص في عالم الشعر والنثر والتأليف ، وستعلمون كيف أنتقم من السفهاء الذين يكذبون ويفترون ويظلمون بلا تورع ولا استحياء .

سيمر هذا كله بخاطري يوم أموت ، وأنا لست بالرجل الهين ، فلي دلال على الله ، لأني أقرب إليه من جميع الناس بعد الأنبياء ، فإن كنتم في ريب من ذلك فتذكروا أن ناسًا حلا لهم أن أذوق البؤس ، فنصرني الله عليهم ، وكتب لي سعادة العيش ، وهم راغمون .

سيكون طريقي إلى جهنم بإذن الله ، وسأقيم هناك محكمة أؤدب بها من فاتني تأديبهم في هذه الدار ، وسأصدر هناك الطبعة العاشرة من كتاب « أكواب الشهد والعلقم» لأني لن أصدر منه في هذه الأرض غير تسع طبعات .

ثم ماذا؟ .. سأذكر حين أموت أنني كنت من أكرم خلق الله في رعاية الجمال!

وسأذكر أن الله اصطفاني لهذه الرسالة الروحية حتى صح لي أن أقول :

وكم حبيب براح الريق أسكرني   وكم جميل بورد الخد حياني

سأذكر أني كنت أصدق شاعر ساير نهر النيل ، ونهر السين ، وهل اتفق لشاعر قبلي أن يقضي في صحبة نهر السين ألف ليلة ؟ إن ميسيه نفسه لم يصنع ما صنعت ، ولا مرتين لم ينعم برحيق السين كما نعمت . لقد كان السفهاء يظنون أني أقضي الليالي على شاطئ السين لأفر من تكاليف المراقص والملاعب ، وفاتهم أن صحبتي لنهر السين كانت صحبة وجدانية تركت في فؤاد ذلك النهر أعنف

الأشواق إلى فتى سنتريس .

سأذكر يوم أموت أنني كنت شاعر الحب والجمال ، وأنني عبدت الله أصدق العبادة ، فقد أثنيت مخلصًا على ما صنع وما أبدع حين جعل الدنيا غرائب وعجائب من الصنع البديع .

وإن كان لي ما آسى عليه فهو الحزن الموجع على أن لم يتلطف الله فيجعل الدنيا كلها شارعا واحدًا اسمه «بولفار سان ميشيل» إي والله سأتحسر وأتوجع على مصير بني آدم الذين كتب عليهم أن يمشوا في شوارع لا تقع فيها العين على وجه أصبح ، ولا قوام رشيق .

سآسى عليكم يا بني آدم حين أموت فقد كان في نيتي أن أسعى لتحقيق فكرة السوبرمان لتعيشوا في دنياكم عيشة شعرية ، ولكن ماذا أصنع ؟ لقد أراد الله أن يكون في الدنيا قبح ولؤم وشح وإسفاف ، وأنا كما تعلمون لا أملك فسحة الأجل ولا طول البقاء .

سأتحسر يوم أموت على ضياع هذه الثروة الشعرية التي تمرح في قلبي ووجداني ، ولن يكون لي إلا عزاء واحد : هو أن الله شاء أن يحرم العالم من رجل كله قلب ووجدان ، لأن العالم لا يستحق أن يحيا فيه قلب مثل قلبي ، ولا يستأهل أن يعيش فيه رجل يملك ما أملك من عظمة النفس وقوة الروح .. والعالم بعدي هباء في هباء .

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

أترونني أبكي على أطفالي ؟ هيهات ! لقد ورثتهم خير ميراث حين ربيتهم على العنف والقسوة وحين أفهمتهم أن العالم لا يسعد فيه غير الأقوياء ، فإن تسلحوا بالقوة فقد انتفعوا بما ورثتهم ، وإن استسلموا للضعف فعليهم ألف لعنة ، وأنا منهم برئ .

وقد عودت أطفالي أكل اللحم في كل يوم لينشأوا على قسوة الحيوان

المفترس ، فإن لانت نفوسهم بعد ذلك فعلى أنفسهم جنوا ، وللضعيف الضيم والهوان .

وقد نشأت في قوم أقوياء ، وكان أبي أشجع رجل رأته عيني ، وكان أجدادي وأعمامي من نماذج القوة والبطش ، ولم يكن فيهم رجل مظلوم ، وإنما كانوا دائما ظالمين ، فإ، شاء أبنائي أن يكونوا لأبيهم وأجدادهم وأعمامهم ، فالدنيا أمامهم واسعة الأرجاء ، وإن ضعفوا فليذهبوا غير مأسوف عليهم .. وفيهم بحمد الله فتيان يقرؤون هذا الكلام ، فليعرفوا أن أباهم عاش عزيز الجانب لأنه كان قوي النفس ، وليتذكروا أن أباهم لن يموت يوم يموت إلا وهو أشجع الرجال .

أما بعد فسأذكر يوم أموت حقيقتين : الأولى أن الموت مظهر العدل ، لأن الناس جميعًا يموتون ، وسيستوي الحظ بيني وبين الرجل الظريف الذي كان يركب معي (المترو) وفي ثوبه وردة حمراء ، ثم دارت الدنيا فصارت سيارته تخطف بصري وأنا على قدمي في الطريق .

والحقيقة الثانية أهم وأعظم ، فسأستطيع الإفصاح عما لم أستطع الإفصاح عنه في مجلة الهلال وجريدة البلاغ ، سيرفع الحجاب بيني وبين الله ، وسأسأله بلا تهيب : كيف رضى أن يخلق بعض من خلق في هذا الوجود ؟ . متى أراك يا رب الأرباب . ليطول بيني وبينك الحساب ؟

أأنت الذي جعل هذه الدنيا وردًا سائغًا للكاذبين والخائنين ؟ أأنت الذي قضى بأن يكون في الدنيا شح ولؤم وغدر وعقوق ؟

أخشى أن تغلبني في الجدال والحجاج ، ولكن يعزيني أنه لم يغلبني أحد غيرك ، وأنا رجل كريم لا يسوءني أن ينتصر من أحب ، وإليك الثناء من أشرف من خلقت .





غراميات زكي مبارك

- -



المرأة في حياة زكي مبارك



كان الدكتور زكي مبارك عاشقًا واله القلب قوي العاطفة قضى حياته يتقلب على سعير الوجد ووهج العاطفة ، وقد طاب له أن يفصح عن سرائر روحه وأسرار قلبه فملأ الدنيا غرامًا وتشبيبًا ! ..

وقد جعل حديثه عن الحب شريعة من شرائع الوجود ، فعاش إلى آخر نسمة من حياته يتشوف إلى أفنان الجمال ويغرد للحب ! ..

وقد أطال شاعر الحسن والجمال حديثه عن بلائه في الحب .. وكيف لا يشقى بالحب من ظل يهتف للحب ويغرد للجمال طيلة حياته ؟ ..

كان صادقًا في حبه غاية الصدق ، وقد رسم صورًا عذبة صادقة لخفقات قلبه وترانيم وجدانه ..

ولكن ما رأى زكي مبارك العاشق المفتون في «الحب» ؟

رسم صورة رائعة ساحرة للحب تفصح عن نفسية مشرقة مضيئة ، تفهم الحب فهمًا دقيقًا ، وتصوره تصويرًا قل أن يتاح إلا لمحب عركه الحب ، ولمس أعماقه وسبر أغواره ومس شغاف قلبه ! ..

وهذه هي فلسفة زكي مبارك في الحب كما صورها في هذه اللوحة الشاعرية الساحرة [1].

---

(١) الهلال : تجاربي في الحب : أول يناير ١٩٣٧ .

«الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس » .

«الحب لغة روحية يفهمها القلب عن القلب ، وتنقلها الروح إلى الروح ، وتسري نشوتها في الأفئدة ، سريان الصبا في الغصن » .

«الحب معنى نبيل ، في لفظ نبيل ، الحب قبس من الصهباء في كأس من الماس ، الحب لمحة من لمحات السحر الذي يفيض به الوجود في ليلة قمراء ».

«الحب أرق وأنضر وأطيب من مطلول الأزهار ومنضور الرياحين » .

«الحب نغمة حلوة عذبة تناغي السرائر وتناجي القلوب» .

«الحب هو الكأس التي عناها سلطان العاشقين إذ يقول :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هواء

ونور ولا نار وروح ولا جسم

على عمره فليبك من ضاع عمره

وليس له فيها نصيب ولا سهم

«الحب نعيم يلبس ثوب البؤس ـ أو بؤس يلبس ثوب النعيم » .

«الحب عاطفة عاصفة ماحقة ما يدري الرجل أهي نعمة أم نقمة ، ولا يعلم أهي هدى أم ضلال ، وإنما يعرف أنها كلمة سحرية تزلزل العزائم وتدك الجبال ».

«الحب هو إئتلاف روحين وامتزاج قلبين ، وانسجام نفسين » .

«الحب هو أن تذوب القسوة في كوثر الحنان ، وأن تأنس الأسود إلى فتك الظباء » .

«الحب هو أن تصير قلبا شفافًا تجرحه النظرة ، وتفتنه الخطرة ، ويأسره الضلال » .

«الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب » .

«الحب هو أن تخاطر بالملك في سبيل الحب» .

«نحن لا نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود ، وما قيمة الدنيا إذ خلت من الحب ؟ وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية ؟

«الحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء .. وهو يساور قلوب الجنود ، في أصعب أوقات الحروب ، والجندي الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبدا للاستشهاد في سبيل الوطن الغالي ، لأن الوطن الغالي لا يغلو إلا في صدور أرباب القلوب».

«الحب جده جد وهزله جد ، ولا يتجاهل هذه العاطفة النبيلة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ في تكوين الوجود» .

«وبأي حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب» .

«إن التوقر الذي يصطنعه بعض الناس ، قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية ، وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد ، يوم كان لنا شعراء لا يعترفون بغير أوتار القلوب ، فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية ، وأتعقب أخباره وآثاره في كل ما أرى وأسمع» .

إن قوة العاطفة عند شاعر الحسن والجمال هي التي أملت هذه الأحاديث الوجدانية الصادقة ومنحتها الجمال والأصالة والعذوبة ، بحيث يعد هذا الأدب من أعمق وأجمل ما كتب أديبنا العاشق حتى بعد أن جاوز طور الشباب ، فقد ظل شاب القلب والروح حتى آخر نسمة في حياته .

إيفا

وهذه إحدى الحسان الألمانيات التي وقع زكي مبارك في غرامها أثناء دراسته في باريس وقد تعرف عليها في دروس المسيو (توتلا) أستاذ الأدب الألماني

بالسربون وكانت دروس هذا الرجل تستهويه كل الاستهواء . فقد كانـت تنقلـه إلى آفاق من الفكر لا يصل إليها في صحبة رجل سواه وفي هذه الـدروس عـرف سـيدة ألمانية لم تكن مع زوجها على وفاق وكانت فيما حدثته من شاعرات برلين ويقـول زكي مبارك (وكانت ملامحها وشمائلها تشهد بأنها على صلة وثيقة بشياطين الشعر الجميل ويظهر أن الزوجية قيد لا يستريح إليه بعض هذا النوع من الجنس اللطيف ولم يكن للشاعرة بد من رجـل تشـكو إليـه جهالـة زوجهـا الغبـي البليـد ، فهـدتها الفراسة على أن أذني أصلح الآذان للترحيب باغتياب الأغبيـاء والبلـداء ، وكـذلك أخذت تصب في أذني شكايات هي أعذب وأخطر مـن صـهباء الرضـاب .. كنـت أعرف أن الغيبة من الكبائر ، وأن السامع شريك القائـل في الإثـم ، ولكـن نسـيت الأدب مع الشرع ، لأن تلك الكبيرة كانت تسـاق إلى أذني في لغـة فرنسـية ملحونـة وأنا أعبد اللحن في اللغة الفرنسية إذا صدر عن الألمانيات الملاح ، وهل في الدنيا لغة أحلى وأعذب من لغة باريس حين تمضغها ظبية مـن بـرلين ؟ واتفـق في تلـك الأيام أني كنت مشغول الفكر والقلب بدرس طوائف الشعراء العشاق منهم ألفريد دي ميسيه ، وقد كتب في تأريخ هواه عشـرات مـن المؤلفـات الجيـاد ، فحـدثتني النفس بأن أحج إلى قبر ميسيه مع تلك الألمانية الحسناء ولأذوق حـلاوة النجـوى في رحاب ذلك (الشهيد).

وكذلك مضينا إلى مقبرة بير لاشيز في صباح يوم مطير لا يدفع غيومـه الثقـال غير ما في قلبونا من صفاء ثم يقول :

(وما هي إلا لحظات حتى التفتت رفيقتي فرأت عينـي مغـرورقتين بالـدمع ، ورأتني لا أطيق الجواب من فطر الحزن والذهول وصوبت الرفيقة بصـرها إلى مـا صوبت إليه بصري فرأتني أحدق في لوحة رقمت فوقها هذه العبارة الصارخة :

-فرنسا تذكري- وهي عبارة مسطورة فوق قبر رجل استشهد في الـدفاع عـن الإلزاس أيام حرب السبعين .

فقالت : وماذا يهمك من هذه العبارة ؟ فأجبت : أشتهي أن أوجـه مثـل هـذه

العبارة إلى وطني) .

ماري

ومن مغامراته العاطفية في باريس تلك المغامرة الطريفة .. في ذات صباح جلس الدكتور زكي مبارك في قهوة الدوم في حي مونبارناس .

(فرأيت فتاة فصيحة العينين تجالس رجلا فانيا ، فأخذت أداعبها بنظراتي ، وكنت فتى فصيح العيون يرسل بعينيه إشارات وخطابات وبرقيات إلى من يشاء ، وكانت الفتاة تفهم عني فتعبس تارة وتبتسم تارة وفقًا لسياق الحديث ورآها ذلك الشيخ موزعة بين الابتسام والعبوس ، فسألها فلم تنكر ، فأشار إلى أن أقترب فاقتربت ، فقال بلهجة صارمة : ماذا تريد ؟ .. وقد أزعجني السؤال ، وتخوفت العواقب ، فقد كنت في كل أدوار شبابي أبغض الذهاب إلى الشرطة ، ولو لتأدية شهادة ، وتلطف الله عزت قدرته فستر عيوبي ، وأعفاني من ذل الاستجواب في مراكز البوليس .. وكنت في تلك الساعة أتصور بشاعة الذهاب إلى إدارة التحقيق فاضطربت وتعلثمت وأعاد الشيخ سؤاله : ماذا تريد ؟ خبرني ماذا تريد ؟ فجمعت قواي وقلت : سيدي ، أنا شاب من الشعراء ، أنا من سلالة العباس بن الأحنف ؟

فهدأ الشيخ قليلا وقال : ومن العباس بن الأحنف ؟ فأجبت : هو الذي يقول:

أتأذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر

لا يضمر السوء إن طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر

وترجمت له البيتين ترجمة مقبولة فابتسم وقال :

ومعنى ذلك أنك تحب أن ترى وجه هذه الفتاة وتسمع صوتها ؟ قلت إن سمح سيدي ..

فقال : لا مانع

ففهمت إشـارته ودنـوت فزاحمـت بركبتـي ركبتـي الفتـاه ربـاه ! متـى تعـود أيامي..؟

وفهمت أنه شاعر سويسري ، وأنه لا يرجو من هذه الفتاة إلا أن تكون مصدر الوحي .

وتلطف فقال أنه يسمح لي بمصاحبتها حين أشاء .. فقلت : عفوا يـا سـيدي ، فجيبي يعجز عن تكاليف الحب .. فقال : لك الحب وعلى التكاليف .

فأهويت على يده فقبلتها قبلة ما سمحت بمثلها لشيوخي في الأزهـر الشـريف .. وكانت فرصة عرفت فيها أن الغيرة لها حدود .. ولن أنسى ما حييـت عبـارات ذلـك الشيخ الجليل ، فقد كان يسألنا بعد كل نزهة : ماذا صنعتم يا أطفالي ؟ .. فكنت أقـول مثلا : رأينا بارك سان كلو ، وطربنا لجمال الطبيعة هناك فيقول : ثم ماذا ؟

فأجبت : ثم رجعنا فيقول في ألم وسخرية : وهذا كل مـا صـنعتم ؟ .. وتفهـم الفتاة ما يريد الشيخ فتقول – أؤكد لك يا مولاي أن المسيو مبارك ليس من العقلاء .. وكان يدهشني أن يستريح الشيخ لهذا التصريح فأمضى وأقص مـا افترعنـا مـن المغامرات .. رباه متى تعود أيامي ؟ ولم يدم هذا النعيم غير أربعة أشهر . ثم سـافر الشيخ والفتاة إلى جنيف) .

***

مادلين

وهذه ملهمة أخرى اسمها مادلين عرفها في باريس وكانت بينهما قصـة حـب ويتحدث عنها فيقول :

(أتحدث عن روح لطيفة عرفتها في باريس .. روح جميلة لها في حيـاتي تـاريخ وتواريخ وكان اسمها مادلين فسميتها ليلى ودعتني في محطـة ليـون ، وأرسـلت لي برقية على الباخرة (شامبليون) ثم أخذت مادلين تواليني بالرسائل اللطـاف ، وبلـغ بها الوجد مبلغًا قضى بأن تنظم الأشعار في حبي حتى شاء هواها أن تـزور القـاهرة

لتراني .. فلما لقيتني قالت : متى نتزوج ؟ فقلت لها أنني متزوج ولي أبناء) .

***

سوزان

ويذكر أنه تعرف على فتاة غريبة الروح في باريس وقد تركت دينها لتعتنق الإسلام بعد مصاولات روحية عنيفة بينهما وقد أطلق عليها ليلي المريضة في باريس) . ويقول زكي مبارك :

ستأسو عذارى النيل آثار ما جنت   عليك عذارى السين حين تعود

وغير هذه قصص ومغامرات عاطفية عاشها في باريس وسجلها بصدق وأمانة وحرارة حتى حق له أن يقول :

(لو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لي ضريح يزوره العشاق في باريس) .

جنية الشاطئ

وكانت للدكتور زكي مبارك غراميات عديدة في مصر موطن الهوى والجمال فكانت له محبوبات في الزمالك ومصر الجديدة والمعادي وجاردن سيتي والمنصورة والإسكندرية وسنتريس .

وفي الثغر الجميل في الإسكندرية كانت له غراميات وأحباب .. وهذه قطعة وجدانية رفيعة ترسم صورة لإحدى محبوباته في الثغر الجميل (غناء وغناء) ومنها يصور مبلغ إحساسه بالوحشة والاغتراب لغياب المحبوبة وهي تصوير لقلبه العاشق المفتون ويرحم الله أرباب القلوب .. يقول في تلك القطعة الوجدانية الرقيقة .. (في مكان يستبق إليه ضياء الشمس ونور القمر ، وهدير الأمواج وقفت أنتظر وفاءً بميعاد هو الميعاد .

وأقبلت الروح الملائكية في سمة إنسانية ، كما يطيب للملائكة أن تتشكل بصور الناس في بعض الأحيان .

ودار حديث أعذب من رنين الكؤوس ، وأرق من وسوسة الحلي ، في لحظات الصفا ثم دار عتاب ، كعتاب القلوب للعيون ، فماذا قلت وماذا قالت تلك الروح ، وقد أصغى البحر واستمع الوجود ؟ لو تجمع ما أثار البحر من عواطف على اختلاف الأجيال ، ولو اعتصرت الحياة ما يجري في أعوادها من رحيق الحب ، لكان هذا وذاك دون ما أضفينا على الكون من بهجة النعيم ولو دعينا لأداء الزكاة عن تلك اللحظات لكان من القليل أن تقضي العمر في شكران من قضت حكمته بأن يجعل الحب سيطرة روح على روح وانجذاب روح إلى روح .

كان ضجيج المدينة أضعف من أن يحجب سرار القلوب ، وكان القمر بفضل عليائه أشرف من أن ينم عن خلوة حبيب بمحبوب ، في شهر يونيه تقوم غمامة تحجب القمر في لحظة لا تنتظر ظلال السحاب .. فنفهم أن للحب والشعر آلهة ، كما تقول أساطير القدماء .. كانت الدنيا كلها في يدي وكان هواي هو الهوى وزماني هو الزمان ، وكانت لغة الوجد فوق الأصوات والحروف ، وهل يعرف أحد ما لغة الأنفاس الحرار ؟ وكيف وما كانت اللغات إلا تعابير عما يجوز البوح به من سرائر الأرواح ؟ وأين اللغة التي تعبر فرضا بالحب في تلك اللحظة الوجدانية ؟ أين أين ؟ وهي لحظة ما ظفر بمثلها عاشق في قديم ولا حديث ؟ هي زاد العمر كله فليتمرد الهجر كيف شاء بعد ذلك الوصال .. لو مرت تلك اللحظة بالناس في ماضيهم البعيد لظفرت اللغات بألفاظ وتعابير تفوق الوصف ، ولكن من السهل أن أشرح ما يوصى به ذرع (الرمل) على نعمات الموج في صمت الليل .. ثم نفترق ، فمتى نلتقي يا روحا لا يحيا بدونه روحي ؟ .. للوجود كله غناء ولنا وحدنا غناء ، وروحك هو غريد البلبل وحفيف النسيم ، وهدير الموج ، وعربدة الكهرباء ثم نفترق وقد تحيرنا بين النور الأحمر والأزرق ، وهذه إشارة لا يفهمها غير أساري هذين النورين في (دار الوجد والمجد) عليها أطيب التسليمات .. فمن فاته أن يعرف سر هيامي بوطني فليقرأ هذه السطور بروحانية وإخلاص .

الإسكندرية هي المثال المصور لسرائر النعماء ومن لم يزر الإسكندرية فليس

من حقه أن يزعم أنه عاشق لحظة من زمان .

ولي في الإسكندرية دار تشكو جفائي ، ولم أكن من الجافين ، دار أساورها بلا استئذان حين أريد كأنها دار الهوى في سنتريس أو بغداد أو باريس .

في الصبح قرات مقالاً في جريدة الأهرام عن إيطاليا بعد ثلاث سنين فتذكرت أني عرفت تلك الروح في اليوم الذي أعلنت فيه إيطاليا الحرب قبل ثلاث سنين وما أبعد الفرق بين إيطاليا وبيني ! ..

مرت بها موجات هزمتها ومرت بي موجات نصرتني ؟ أفي الحق أننا لم نتعارف إلا قبل ثلاث سنين ؟

أنت يا جنية الشاطئ رفيقة روحي منذ أزمان وأجيال ، وأنت مناي من الهوى قبل أن يتنفس صبح الوجود .. لابد للإسكندرية من حبيبين ، فلنكن هذين الحبيبين ، ولتفرح بنا الإسكندرية فرح الليف بالأليف .. يا مثال الحسن ومثال اللطف ، ويا ريحانه مطلولة في صباح من أصبحة أذار ! ..

يا تلك الروح في تلك المدينة تذكري ثم تذكري .. تذكري (سبعة أبحر) في لغة العراق و(سبعة أرادب) في لغة السودان ، وتذكري الأبيات التي أمليتها من لغة الفرنسيين وإلى اللقاء في شباب الوجدان ...) .

ما رأيكم في هذه العاطفة الجياشة ؟ ألا تشمون عبيرًا غامضًا أخاذًا .. ارجعوا إلى هذا القصيد السيمفوني مرة أو مرتين أو مرات ثم اسألوا أنفسكم : كيف لون هذه اللوحة الفنية تلوينًا أخاذا قضت بأن نغيب في نشوة علوية سامية ؟

ملهمة الإسكندرية

وملهمة أخرى تعرف إليها في الإسكندرية وعشقها عشقًا مبرحا وأبدع الغناء .. وهذا الحب الجديد يصور حقبة من حياة الدكتور زكي مبارك عندما نشبت أوار الحرب العالمية الثانية في نهاية سنة ١٩٣٩ فملأت هذه الملهمة فراغ حياته

وألهمته أن يبدع صورًا شعرية فريدة في هذه المحنة العصيبة .

كتبت إليه هذه الملهمة خطابا تقول فيه أنها مضت إلى الإسكندرية لتصطاف وأنها تحب أن تراه هناك وفي وسط الحرب والغارات الجوية تزعج المصطافين أشد الإزعاج أسرع الدكتور زكي فسافر وبحث عنها في الشواطئ إلى أن اهتدى إليها وهي تسبح في مياه البحر بقوامها الرشيق .. فقضيا العصرية في نزهات مختلفات . وبعد المغرب أشار إليها أن يقضيا السهرة في منزله ليسترها من ضجيج الجنود في أوقات الشراب وقالت وهي تنصرف : لقد شعرت بسعادة عظيمة لقاء الليل بالقرب منك وأرجو أن أظفر مرة ثانية بمثل هذا الحظ السعيد (رجعت إلى الإسكندرية بعد أشهر الشتاء في العنفوان ، رجعت وحدي ، فانقبض صدري ، وشعرت بوحشة تزلزل القلب أعنف الزلزال .. وأخذت أسرى عن نفسي بمطالعة كتاب (الأسمار والأحاديث) وفيه نسخة مقيمة بمنزلي هناك ولكنني أفاجأ بالعواصف تثور من جميع الجوانب وتكاد تقتلع البيت ، فأطفئ النور ، وأفتح الشبابيك ، لأرى كيف يكون هول الرعود والبروق والأمطار في ظلام الليل .. والمكان نفسه موحش لأنها ليست فيه فكيف لا يوحش مع تلك الأهوال .. ؟

وكانت أخبار هذه الملهمة انقطعت عنه ثلاثين يوما مع أنهما كانا يلتقيان في جميع أيام الثلاثاء .

(لقد عشقت تلك العصفورة عشقًا لم يسبق له مثال . كان تلاقينا بمصر الجديدة وفي أيام الثلاثاء تلاقى شخوص تتحارب بالعيون . ولكن التلاقي روحًا على روح لم يقع إلا بمنزلي في الإسكندرية بالقرب من هدير الأمواج .. إن الشوق إلى تلك العصفورة يعتصر قلبي . كيف كنت أعيش لو لم تنبت هذه الزهرة في صحراء حياتي ؟ وكيف كنت أعيش لو لم تلمع هذه النجمة في ظلماء وجودي ؟

رسائل الحب والجمال



رسالة وجدانية

ألوان وألوان «للكاتب المجهول» (*)



مولاتي !

كان الظن أن ينتهي ما بيننا بعد الجدال الذي ثار في الليلة الماضية ، أو السنة الماضية ، فما أدرى متى التقينا آخر مرة . وكيف أدرى واللحظة القصيرة من الفراق تتمثل لقلبي وكأنها أجيال وتواريخ ؟

كان الظن أن ينتهي ما بيينا فلا تعود أحلامه ولا أهواله ، ولا ترجع أيامه ولا لياليه ، ولا يمر بالخاطر في لحظة من زمان .

كان الظن أن نفترق ، بعد أن تشهينا أن نفترق ، ومعاقرة الكأس توحي بصدع الكأس فكيف أراجع هواك يا ظلوم ، بعد أن نويت المتاب ، على أعظم حال من الشوق إلى المتاب ؟!

قد تشهينا أن نفترق ، فمتى نفترق ؟ ومتى نذوق طعم الأمان من عدوان الأشجان ؟

كان اللقاء الأخير بلية من البلايا المواحق ، فقد تناظرنا بشراهة تفوق الوصف ، وكأننا نريد أن نلتهم ما بقى من زاد الحب ، وأن نتزود للأعوام البواقي ، وأن نقول إننا لا نواجه بيداء الصدود بغير زاد .

لقد أخطأنا فيما صنعنا ، والمحبون أطفال كبار لا يدرون عواقب ما يصنعون

(*) الكاتب المجهول وكاتب كبير : هو زكي مبارك .

من مرارة الافتراق ، وهو غير الفراق !

لن ينقضي ما بيننا أبدًا ، ولـن تبيـد تلـك الألـوان ، ألـوان الأثـواب وألـوان القلوب .

كنت تلقيني في كل مرة بثوب جديد ، وكنت ألقاك في كل مرة بقلـب جديـد ، وما أبعد الفروق بين ألوان الأثواب وألوان القلوب !

لن ينقضي ما بينا أبدأ ، وبالرغم منى أن يكون ما بيننا أوثـق ممـا بـين العـين والضـياء ، فلـك بـدوات تجعـل الإيمـان بحنانـك أضـعف مـن الإيمـان بأمانـة المحتالين .

لم تكن لي يدٌ فيما صرنا إليه ، فقد فررت من هواك ألـف مـرة ، وانتقلـت مـن محلة إلى محلة ومن إقليم إلى إقليم ، لأنجو بنفسي ، فهل نجوت ؟

إن الشمس تلاحقني حيثما توجهت ، فأين الفرار من وهَج الشمس ؟

لا المتاعب الشخصية تشغلني ، ولا الحوادث الدولية تشـغلني ولا شـيء في الدنيا يصرفني عن التفكير فيما صِرت إليه بعد الافتراق ، يا أجمل ريحانة في روض الوجود .

ألـوان أثوابـك لا تفـوق ألـوان قلبـي ، إلا أن يقـال إن المصـنوع أجمـل مـن المطبوع.

ألوان ثوبك لها أمثال ، وليس لقلبي أمثال ، وأنت تعرفين ثم تعرفين .

إذهبي إلى أبعد الآفاق ، واعرفي جميع الخلائق، فلن تكوني لغيري أبـدًا ، ولـن يكون للغواية سبيل إلى المليحة التي وسمت جبينها بغرامي .

لن أجود عليك يومًا بنعمة الحرية ، وستظلين في إساري إلى آخر الزمان .

جرّبي التحرر ، جربيه ، إن كانت لك بالتحرر ومن ثاقي يدان .

دنياك بعدي بئرٌ مسمومة ، فانظري ما تصنعين .

لن ينقضي ما بيننا أبدًا ، ولـن يكـون لنـا غيـر مـا خُـطَّ في صـحيفة الخلـود ، وهيهات ثم هيهات أن يمحي سطرٌ خطَّته الأقدار في صحيفة الخلود !

ما في كل يوم ، ولا كل عام ولا كل جيل ، ينعطف قلب إلى قلب كما ينعطـف قلبك إلى قلبي ، فنحن الغاية المنشودة من الوفاق الصحيح بين الأرواح والقلوب.

دنيانا التي أعرف وتعرفين أصبحت قفراء ، فمتى نلتقي لتعود زهراء ؟

خبريني متى نلتقي ؟ ومتى نعلن الانتصار على عوادي الزمان ؟ لطف الله بك يا ظلوم ، وحفظ عليك نعمة الوجه الوهاج .

متى نلتقي ؟ وهل افترقنا ؟ أنت بين يديْ وإن حجبتْك عني فيافٍ وسهوب .

«الكاتب المجهول»

لقد هان هذا الخطب ! (*)

للكاتب المجهول



لقد هان هذا الخطب ، وما كنت أنتظر أن يهون ، ولكن الدنيا بصروفها الغرائب تهوِّن الخطوب ، وكان من شيمتها أن تجسِّمَ الخطوب !

هان خطب القطيعة ، هان ثم هان ، واستشعرتُ رَوْح الخلاص ، وكنت أبغض الخلاص ، فيا عجبًا لزمن يجعل بعدي عنكم شهوة يطمح إليها فؤادي !

ما بكيت على نفسي حين ودعتكم ، وإنما بكيت عليكم بكيت على دولة الحسن التي ذهبت إلى غير معاد ، وبكيت على اللطف الذي حُرِمتموه كما تحرَم الزهرة من العِطر بعد الذبول .

ما تمثلتُ أيامكم إلا تعجبت مما تصنع الدنيا بأهلها ، فما كانت لكم نظائر في الحُسن واللطف ولا كانت لكم أشباه في سماحة النفس وصفاء الروح .

وبكيت أيضًا على نفسي ، فهذا مُلك ضاع من يدي ، مُلكٌ أضاعه الدهر الغادر الذي لا يُبقي على شيء ، والذي يستمد سطوته من قدرته على إدالة دولة اللطف والجمال .

حُرِمتُ بقطيعتكم آخر أمل يرجوه من يقف على المقابر ليؤدي التحية إلى أموات يحسبهم أحياء يتلقون تسليمات الأحياء .

(*) الرسالة : ٢٨ فبراير ١٩٤٤ .

المقابر تسمع ولا تجيب ، وأنتم تجيبون ولا تسمعون بدليل أنكم تخطئون في الجواب .

لو أنني كنت البادئ بهذا الحب لرأيت لكم عذرًا في الصدوف عني فما يتصدَّق الأغنياء على الشعراء في كل وقت ، وإنما كنتم البادئين وهذا فضلٌ لن أنساه إلى آخر الزمان ، فكيف تهدمون ما بنيتم ، وكان غاية في متانة البناء ؟

هل تعود ليالينا ؟ هل تعود ؟

لن تعود لياليَّ معكم يا غادرين ، لأنكم لم تعودوا صالحين لإدراك ما يشتجر في قلبي ، ولأن هواكم قد مات ، وما كنت أحسب أنه مما يجوز عليه الموت ، وقد كذبت على نفسي حين توهمت أن الهوى لا يموت .

وأنا مع هذا فرح جذلان ، لأني واثق بأنكم لا تعانون من آثار القطيعة بعض الذي أعانى ، ومن هواي أن تكونوا في عافية من ثورة الوجدان ، لتعيشوا في سلام .

هل كان حبنا مزاحًا جد به الزمن فانهزم ؟

أنا كنت أجد ، وما خطر في بالي أنكم كنتم هازلين وجِدَّ الهوى جد ، وهزله جد لو كنتم تعقلون .

هل كنت حين أناجيكم أناجي وثنا بلا روح ؟

لو ناجيت الصخر لأنطقته بألطف المعاني ، فكيف عجزت عن رياضتكم على الوفاء ؟

ما أشد حزني على ما ضيَّعتُ من لياليَّ وأيامي !

لم نكن نعرف ما النهار وما الليل

أيامَ لا أدري وإن سألتِ ... ما الفرقُ بين جُمعة وسبْت

ولم نكن نعرف أن للدنيا غدرات ينبو فيها جنب عن جنب ، وقلب عن قلب ، فترحلون عن مصر الجديدة إلى حلوان ، وهي بهجركم أبعد من أسوان .

لو كنت أعرف أن فيكم خيرًا لجعلت داركم داري ، ولو سكنتم في مقبرة تُشرف على عالم الفناء ، ولكن القدر أراد ما أراد فانتزع حبكم من فؤادي ، فأنا اليوم بلا حب وبلا فؤاد .

إن إقامة صرح فوق أثباج البحر أبقى وأثبت من الحب الذي أقمته فوق روحكم ، والرُّوح من الرَّوح وهو النسيم ، وليس للنسيم ثبات .

انقضى عهد الحب ، انقضى بالرغم منى ، فما فارقتكم إلا بعد أن صح عندي أن هواكم لم يكن إلا أسطورة لفّقها الخيال .

أينتهي غرامنا بمثل هذه النهاية فلا أسأل عنكم ولا تسألون عني ؟

وهل كان البهاء زهير ملهمًا حين عبَّر عما أريد فقال :

ملكتموني رخيصًا فانحط قدري لديكم

فأغلق الله بابًا دخلت منه إليكم

حتى ولا كيف أنتم ولا السلام عليكم

لن نتصافح إذا التقينا مصادفةً في شارع فؤاد ، فالمصافحة من الصفح ، ولن أصفح عنكم أبدًا، ولو ضمنتم أن تعود معكم أيامي السوالف وليالِيّ الخوالي .

أنا فرح بما صرتم إليه ، فقد أنجاكم الله مما ابتلاني .

ولكني حزين مما صرتم إليه ، فلن تعانوا اشتجار العواطف بعد فراقي ، واشتجار العواطف هو أثمن ما تتغذى به القلوب .

وإني لأشكر لكم صنيعكم ، فقد رحمتموني من هاوية كنت سأتردى فيها إن طال حبي لكم ، وكان ثورة وجدانية تزلزل أقطار السماء .

انتهينا من العتاب ، أليس الأمر كذلك ؟

وانتهينا من ليالي مصر الجديدة وليالي حلوان ، وانتهينا من الظُّهريات الجميلة بحديقة الشاي في حدائق الحيوان .. هل تذكرون يا غادرين ؟

وانتهينا من جمع كُسارات الكأس المصدوع ، في تلك الليلة ، وهي ليلة لن تعود ، ويا ليتها تعود ، فلو صرتم رمة بالية لرجوت أن أستروح منكم روح العطر النفيس .

لا تسألوا عني بعد اليوم ، فقد تُبت توبة نهائية عن الغرام بالتماثيل ، وهي بلا أرواح .

أنا أحسنت الظن بمن لم يكونوا لحسن الظن بأهل ، فلتعاقبني المقادير بما تشاء ، وعدلٌ من الله كل ما صنع ، كما قال أستاذنا العباس بن الأحنف ، عليه رحمة الحب !

كانت غايتكم أن تستأثروا بقلبي ، وقد حاولت النجاة بقلبي فلم أفلح ، ثم كانت العاقبة أن نصير إلى ما صرنا إليه ، وما أفظع ما صرنا إليه ؟

الغدر مسخكم فأحالكم صورة ميتة برقشتها ريشة رسام جهول .

هل تذكرون تأريخ العيون الكحيلة ، وكانت أجمل ما رأت العيون ؟

استفتوا المرآة ، ثم حاسبوا ضمائركم ، إن كانت لكم ضمائر لتعرفوا أن سواد عيونكم لم يكن إلا منحة خلعها عليكم سواد قلبي ، وهو قلب يمنح الرهبة والسحر لسواد الليالي وسواد الخيلان .

وقد استرددت تلك المنحة بعد أن أيقنت أني خلعتها على من يكفر بالجميل ، ولست أغني من الله مع غناه عن الثناء يؤدب من ينعم عليهم فيطالبهم بالثناء .

تخطَّروا إن شئتم في شارع فؤاد ، وانظروا هل تلتفت إليكم عين أو يخفق لكم قلب ؟

أنا أبدعتكم إبداعًا لا نظير له ولا مثيل ، وغاب عنكم جميلي فجحدتم جميلي ، وغضبة الله والحب على من يجحد الجميل .

لن أبكي عليكم ، ولكني سأبكي على أخلاقي ، وهي جديرة بالبكاء .

كنت أعتقد أني من رجال الأخلاق ، ثم ظهر أن في صدري غريزة وحشية تشتهي الاقتتال والافتراس ، وإلا فما الذي يمنع من أن أنتصر على كبريائي فأسعى

إلى داركم لأسأل عنكم ولأخلع عليكم بياض الوجوه وسواد العيون ؟

كنت أبدع البشاشة في أرواح الملاح ثم صرت المنتقم الفاتك بأرواح الملاح ، فما أفظع جُرمي ، وما أسوأ صنيعي !

سأقتحم داركم بعد أيام أو أسابيع ، فما أدرى متى أنتصر على كبريائي .

انتظروني ، انتظروني ، لتعرفوا أن خطب الفراق لم يَهُن ولن يهون .

سأصافحكم بيدي ، ألم أحدثكم أن المصافحة مشتقة من الصفح ؟

غفرت ذنوبكم ، غفرت ، ثم غفرت ، وأنا أول من يغفر ذنوب الجمال .

عَرْبدَ الحُسن بكم فأسأتموني ، والحسن عِربيد ، ومن واجبي أن أغفر ذنوب العرابيد .

كان لي منكم تاريخ هو أجمل التواريخ ، وكان رزقًا ساقه الله إليّ ، والله حين يتفضل يمنح بلا حساب .

أنا لا أعرف متى نتصافح ، لأن هذا لن يكون إلا بعد أن أتنازل عن كبريائي ، وهذا أملٌ بعيد المنال .

سلامٌ عليكم يا أحباباً وفَوْا ثم خانوا .

أنا أعبد الجمال ، على شرط أن يعرف الجمال حقوق الوفاء.

لن أزور داركم أبدًا ، ولن أراكم ولن تروني ، فقد حلّ عليكم غضبي وغضب العاشق الصادق نقمة تنزل من السماء .

شرِّقوا وغرِّبوا في طلب المستحيل ، فصفحي عنكم هو المستحيل .

سأبدع بدائع جديدة ، وسأخلق في دنيا الحب مالا تعلمون ، فتناسَوْا عهدي ، لتعيشوا في أمان ، من جزع الوجدان .

لن تستطيعوا الفرار من انتقامي ، ولن تتخطروا بعد اليوم في شارع فؤاد ، ولن تكونوا نهبة لأعين الحاسدين ، وألسن العاذلين ومن حق من يَخلق أن يُميت .

سلامٌ على الهوى وسلامٌ عليه ، وألف سلام .

***

أنتم تمردتم على سجن الحب ، فتمتعوا بالحرية التي اشتهيتموها جاهلين بالعواقب ، فما يتمرد على سجن الحب غير الصائرين إلى الفناء ...

كانت كلمتكم في ساعة التمرد : Vous disposez de moi

وهذا صحيح ، فقد كان من حق الهوى أن أتصرف تصرف الملك بالملوك .

لا تظنوا أنكم خرجتم من يدي ، ولا يخطر لكم في بال أني سأترك واجبي في دفن حسنكم الذاهب إلى غيابات الفناء .

هان خطبكم ، ثم هان ، وما كنت أحسب أنه سيهون، ألم أقل إن الدنيا تصنع الغرائب ؟

أنا واثق بأنكم سترجعون إليَّ قبل أن أرجع إليكم

الشعر عندي والجمال عندكم ، والشعر أفتن من الجمال .

أما بعد فمن أنتم ؟

أنا أعرفكم بأكثر مما تعرفون أنفسكم ، فقد كنتم الغاية لما تشتهي الأرواح والقلوب ، وما اشتهيت عيناي أفضل مما اشتهيت منكم ، يا نهاية النهايات في سحر العيون .

أنا بنيتكم بيدي ، ولن أهدمكم بيدي ، والباني لا يكون من الهدَّامين .

سلامُ عليكم ، فما ألقاكم إلا إن تنازلت عن كبريائي .

احرسيني يا ليلي ، احرسيني ، قبل أن أقول : « عليك مني السلام» .

«الكاتب المجهول »

إلى ....



مولاتي

إليك أقدَّم نجوى القلب وحنين الروح ، ثم أعتذر عنك إن سمحتِ ، ففي رسالتك الكريمة ألفاظ تحتاج إلى اعتذار ، فليس من الصحيح أني أصانع فلانًا وأتوسل إلى فلان ، كما تتوهمين ، وإنما أنا رجلٌ مرٌّ العداوةُ حلو الوداد ، ومن كان كذلك فهو خليقٌ بأن يوغل في مخاشنة أعدائه حتى يوصَم بالإفراط في القسوة والعُنف ، وأن يُكثر من محاسنة أصدقائه حتى يُتهم بالإسراف في الرفق واللين .

ومع أني أنزه نفسي عن اختلاق المعايب لأعدائي فأنا أترفق في ابتداع المحاسن لأصدقائي ، ولست من الذين يستبيحون إيذاء أصدقائهم باسم الحرص على منفعة المجتمع ، أو الصوالح القومية ، لأن الصداقة عندي مبدأ من المبادئ ورأى من الآراء وعقيدة من العقائد ، وأنا أعدّ الاستهانة بحقوق الأصدقاء جريمة روحية تعرِّض القلب لعقاب الله ذي العزة والجبروت .

أنا يا مولاتي أومن بأني مسئول أمام الله عن واجب التلطف مع أصدقائي ، بل أنا مسئول عن وجوب الاعتقاد بأنهم منزَّهون عن المآثم والعيوب ، فاحترسي من اتهامي بالتقرب والتزلف ، فلله غَضَبات تنصبُّ على رؤوس من يَتهمون الأبرياء ، حماكِ الله من التعرض لغضَبات السماء !

وقد يقع أن أصوِّب سنان القلم إلى زميل أو صديق ، ثم أظلَّ مع ذلك سليم القلب ، أمين الروح، لأن لي رأيًا في البرِّ بأصدقائي ، وذلك الرأي يحتم الاهتمام بآثارهم الأدبية والعقلية من حين إلى حين ، لأني أومن بأن النقد البريء من

الغرض صورة جميلة من صور العطف والرفق والإعزاز ، وأصدقائي يرون في هـذا المسـلك مـا أراه ، إلا أن ينحرفـوا عـن القصـد فيـروه مـن مـذاهب الاسـتطالة والكبرياء، كالذي وقع من فلان وفلان وفلان . على أيـامي في صـحبتهم ومـودتهم سلام الروح وتحية الفؤاد !

أما بعد فما هذا الذي تقولين ؟

كنتِ مريضة منذ شهور طوال ؟؟؟

لله الحمد وعليه الثناء ، فما كان المرض أهول ما أخاف ، وإنما كنت أخـاف عيكَ بغى الغدر وعُدوان العقوق .

كان قلبي في تلك الشهور يهتف بالشوق إلى الروح اللطيف الذي كان يتصدق عليَّ بالسؤال من وقت إلى وقت ، ثم انقطع عني مع قدوم الصيف ، كأن لم يكَف مـا حلّ بنا من المخاوف مع قدوم الصيف ! كان قلبي يقول ويقول ويقول ، لقـد قـال كل شيء ، ولم يقل إنك مريضة ، ولو أنه قال لقدمته فداء لأظرف فتاة فهمت أسرار قلبي وسرائر روحي .

كنتُ يا مولاتي أرجو دائمًا أن أصل من الهتاف بالحب إلى محصول نفيس من فهم ما في الوجود من تيارات خفية تصنع ما تصـنع في وصـل القلـوب بـالقلوب ، والأرواح بالأرواح ، بلا جهد ولا مشقة ولا عناء .

فهل أستطيع القول بأن قلبك الغالي كان من نفائس ذلك المحصول ؟

وأعيذك أن تظنـي – وبعـض الظـن حـق – أني أسـتهدي لمحـة جديـدة مـن لمحات العطف ، فأنا راض بأن تظلي محجوبة عنـي ، مـا دام لـك هـوَى في ذلـك الحجاب ، فهو على كل حال فرصة ثمينة لمن يزدهيها أن تقول : أتحداك أن تعرف من هي « ليلي من الليالي» .

وأنا يا مولاتي أعرف ، فلقلبي أرصاد وعيون يطَّلع بها على الذخائر التي تفـرَّد

بها وطني ، الوطن العظيم الذي ينجب عرائس لها أرواح في مثل روحك العذْب الجميل .

وهل خَفِي عني منك شيء ؟

في كل لفظة من رسائلك الكريمة عَروسٌ تتخطَّر وتميس في دلال وكبرياء ، وفي كل نبرة من صوتك الرنَّان – ولم أسمعه إلا عن طريق التليفون – في كل نبرة من صوتك لحنٌ ينقل قلبي برفق ولطف إلى أجواز الخلود .

فإن كنت فتاة حقيقية ، فأنت البشير بأملٍ معسول ، وإن كنت فتاةً خيالية ، فأنت المطلَع الجميل لأنشودة رائعة من وحيٍ الخيال ...

ولي غرضٌ من هذا التشكيك ، فما أحب أن تكوني أنتِ أنت ، لئلا يعرف السفهاء باب التطاول على نجمِ السماء .

إن الغرض الأصيل من نجوانا هو خَلق روح جديد في الأدب الحديث ، ولابدّ من أن نقول مثل هذا القول دفعًا لمكايد الرقباء ، وهل يكون السياسيون أعقل منا وهم يستبيحون تسمية الأشياء بغير أسمائها لغرضٍ مدفون ؟

المهمُّ هو أن تعرفي بالرغم من هذا الرياء المصنوع أن قلبي أبرُّ وأعطف من جميع القلوب ، ألم أقل ألف مرة إني أوَّل من تقرَّب إلى الله بالرياء ؟

وأنا مع ذلك أشهد بأني لم أكن أصدِّق أن في مصر فتاةً ترجع إلى مقالات صدّها عنها المرض في شهور طوال ، ثم تفكر في تقسيمها إلى لوحات فنية مختلفة الظلال والألوان .

ولكن ما السبب في أن أطرب لرأيك الجميل كل هذا الطرب ؟

أيرجع السبب إلى أنه يزدهيني أن أشعر بأن هناك قلوبًا يسرُّها أن أكون في دنيا الصبابة آمرًا يطاع ؟

أم يرجع السبب إلى أنها أول مرة أشعر فيها بقسوة الحرمان من نشوة

الافتضاح ؟

لو تعرفين أيتها الروح بعض ما أعرف لسرّك أن أكون في الحب من أبطال الرياء !!

ولو فهمتِ بعض الفهم لما آذاك أن أكون فيما تحدثت عن زيارة المنصورة من المرائين .

اسمعي ، أيتها الروح الطروب .

قِيل وقيل : إن طيارات الأعداء قد تنتفع من النور الضئيل إذا أضيف بعضه إلى بعض، لأنه عندئذ يكوِّن هالة نورانية تدلّ على المستور من المنازل والقصور .

وأنا كذلك أبخل بالكتابة عن الحب في جميع الأحاديث ، كما تقترحين ، لأن ذلك لو وقع سينتفع به الحاقدون من أعداء الأدب الرفيع .

ومن هذا الحديث تفهمين أني أعرف هُويتك الصحيحة ، فأنت طفلة بالتأكيد، لأنك تجهلين عواقب الافتضاح .

أنا افتضحتُ وسلمتُ – إن كنت سلمتُ– لأني أقمت أدبي على أصول من الرمز والإيماء ، فما هواكِ في أن أدلّ عليك بلا ترفق ولا استبقاء ؟؟

ومن يستُرنا إذا افتضحنا يا ظَلوم ؟

ومن يستر الشمس إذا أطلَّت بوجهها على الوجود ؟

الحب هو الشمس ، والرياء هو السحاب ، وللشمس قدرة سحَّارة على تمزيق أردية السحاب ، فإن زعمتِ أنكِ مستورة بسحاب من فوقه ظلمات ، فاعرفي يا شقية أن ظلام الحب يعقُبه صباح ، وسنلتقي ولو بعد حين ، وسنتذوق أذى الناس ولو بعد أزمان !!

نحن أيتها الروح غرباء في هذا الوجود ، وآية ذلك أني لا أستطيع التسليم

عليك في صبيحة العيد ، لأني – وفقًا للعُرف- لا أمتَّ إليك بغير الوشيجة الروحية، وهي وشيجة مجحودة الأصول والفروع عند أكثر الناس .

فمن يعزِّي المحروم من طلعتك البهية وصوتك الرخيم في صبيحة العيد ؟

ومن يواسي الهائم الحيران وهو من الهُيام والحيرة في شقاء وعناء ؟

أمَا والله لو تَجدين وجدي جمحتِ إليَّ خالعَة العذارِ

وهل كانت الحياة إلا في الشعور بألا تعيش روح إلا مجذوبة إلى روح ؟

ما هذا الذي أقول ؟ وما الذي أجترح بهذا القول ؟

أمن الصحيح أننا لا نجد السعادة الحق إلا إذا تلاقينا في صبيحة العيد وجهًا لوجه ، وتصافحنا يدًا بيد ، وآذنا الناس بما نحن عليه من وداد وصفاء .

أشعر يا مولاتي بأن موازين الأحكام الروحية قد اختلت بعض الاختلال ، وإلا فما بالُنا لا نصدِّق بالتصافي التام إلا إذا تصافحت الأيدي وتلاقت الوجوه ؟

وماذا يصنع مثلي إذا ابتُلي بهوى فتاة روحانية ترى الأنس في أن تلقاني في مقالاتي ومؤلفاتي ، وأن ألقاها فيما تكتب إليَّ من رسائل معطَّرة بعَبير الرفق والحنان ؟

إننا غلبنا أسلافنا بكثرة الإنتاج الأدبي ، ولكننا لم نصل بعدُ إلى مسابقتهم في ميدان الخلود، لأن أدبهم على قلته مطبوع بطابع الصدق ، فقد كان فيهم من يقضي العمر وهو مجذوب إلى صورة لا تطمع في رؤيتها العيون ؛ أما نحن فنيأس وننصرف لأول بادرة من بوادر المنع ، ويكون من أثر ذلك أن تُحرَم أكبادنا قسوة اللوعة والاحتراق ، وهي قسوة لطيفة محبوبة لا يتذوق عُذُبتها غير الأديب والفنان .

ومن يدري ؟ فلعل لي غرضًا في العزلة يشبه غرضك في الاحتجاب ، والإنسان حيوانٌ لئيم . وهل أجد نفسي إلا حين أخلو إلى قلمي ؟

وما سرّ تلك الخلوة ؟ وما أخبارها ؟

هي خلوة أقترب فيها من نفسي بعض الاقتراب ، وأشعر بمواجهة اللهب المقدَّس الذي يمنّ به الله على أحد الأرواح في إحدى الأحايين ، وأسمع صرير القلم بلهفة وشوق ، لأن كتاباتي لها في أذني وقْع ، وفي قلبي وَقْع ، وما خططتُ حرفًا إلا وأنا مشغوف بتعرف ما يتسامى إليه من ألحان وأغاريد ، ولو شئت لقلت إن طاعة القلم هي التي تجذبني إليه ، فهو لا يَصدُر إلا عن أمري ولا يَصدح إلا بما أشاء ، وهو لا يخطئ حين يخطئ إلا وهو مؤمن، بأن أخطائي أصدق وأجمل من الحق ومن الصواب .

فمن كان في صدره عتاب أو ملام لانصرافي عن محضّره الأنيس فليذكر هذا القول ، فأنا لا أصادق من يتوهم أني رجلٌ يخطئ كما يصيب ، وإنما أصادق من يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن العيب حين يقع مني هو الغُرة في هلال شوال . وهل كانت لي عيوب إلا في أوهام الذين أبنيهم ليهدموني ؟ جزى الله بعض الزملاء «خير» الجزاء !

وماذا نصنع إذا التقينا يا شقية ، يا شقية ؟

سيهمُّك أن تعرفي الفرق بين زكي مبارك المؤلِّف وزكي مبارك المحدِّث (؟!)

وسيهمني أن أعرف الفرق بين الفتاة التي تكتب إليّ من بُعد والفتاة التي أراها من قُرب (؟!)

وعندئذ آثمُ وتأثمين ، لأن شريعة الحب تبغض هذا الفضول ألم تقولي في إحدى رسائلك إني أصانع فلانًا وأتوسل إلى فلان ؟

وأين كان التوسل والتصنع وقد صبرت على الحرمان من وجهك الجميل

أكثر من عامين ؟

وهل حُرِمت منك عامين أو شهرين أو يومين أو ساعتين ؟

الجواب عند ليلي ، فاسألي ليلي ، ليلي المريضة في العراق ، اسأليها تخبـرك أن صدها عني لم يكن إلا فنًّا من فنون الوصل ، والصدّ المقصود ليس قطيعـة ، وإنمـا هو آية من آيات العطف ، لا حَرمَنى الله تعتُّب ليلاي هنا وليلاي هناك !

أين أنا مما أريد ؟ وهل ترينني أفصحتُ بما أريد ؟

ما نظرت في رسائلك إليّ إلا زاغ بصري وطار صوابي ؟

فهل من الحق أنك تخافين عواقب التصريح باسمك المكنون ؟

أنا لم اجترح معك غير هفوة واحدة يوم استبحت تسجيل صـورة مـن خطـك البديع في الكتاب الذي تعرفين ، وقد نهيتني فانتهيتُ ، فما تحجُّبُـكِ عـن المحـب الذي «أدَّبَتْهُ عقوبة الإفشاء» فتاب وأناب ؟

على أنني راضٍ عمَا صرنا إليه من الاكتفاء بمصافحة القلوب ، أدام الله عليك نعمة العافية ، وجعلك مصباحًا وهَّاجًا لبيتك الرفيع ـ ولا أراني فيك إلا ما أحـب ، يا زهرة الشباب في الوطن المحبوب ، ويا أصدق شاهد على صحة مـا قـال قاسـم أمين وهو يُهدي كتاب «المرأة الجديدة» إلى سعد زغلول .

***

ثم ماذا ؟ ثم كيف العطف النبيل في منحي لقب «أمير البيان» فهل تـرين هـذا اللقب على سموّه يستوجب الـدخول في خصـومات كـالتي عاناهـا شـوقي «أميـر الشعراء» ؟

إن لقب «أمير البيـان» أضـيف إليَّ أول مـرة عـلى سـبيل السـخرية في إحـدى مجلات لبنان ، ثم أضيف إليَّ مرات على سـبيل الإنصـاف في بعـض جرائـد مصـر

والعراق ، فماذا ترين أن أصنع في حراسة هذا اللقب الرفيع ؟

أنا أومن يا مولاتي بأنه لا يمكن لأحد أن يكون أكتب مني ، إلا إذا استطاع أن يكون أصدق مني ، ومن المستحيل أن يكون في الدنيا أحد أصدق مني ، وهل هان الصدق حتى يكون لي فيه منافسون من أبناء الزمان ؟

الصدق يحتاج إلى تضحيات عظيمة جدًا ، ومن تلك التضحيات ما تعرفين وما تجهلين ، ولو علمت الغيب يا شقية لعرفت أن الصدق جرَّني إلى معاطب ومهالك لا يصبر على محرجاتها ومُؤذياتها إلا من كان في مثل إيماني ، وقد صبرتُ وصبرتُ حتى اتهمني الغافلون بالبلادة والجمود ، لأنهم لم يعرفوا أن دنيا الأدب فيها مبادئ تروض أهلها على الترحيب بمكاره الظمأ والجوع ، إن جاز القول بأن الله رضي لحظة واحدة بأن أحس مكاره الظمأ والجوع ، ولن أموت إلا مقتولاً بنعمة الترف في الطعام والشراب ، فليغفر الله ما أدّعيه زورًا من الترحيب بمكاره الظمأ والجوع وهو الغفور التواب .

وهل أنسى يا شقية أن الصدق حرمني نشوة الاستصباح بوجهك الوهاج؟

هل أنسى أن الصدق جعل لأعدائي حججًا دوامغ في مقاومة مؤلفاتي ؟

الصدق في الدنيا غريب ، وأنا في الدنيا غريب ، والله هو المسئول عن رعاية الغرباء !

أما بعد ، ثم أما بعد ، فسأظل إلى الأبد عند ظنك الجميل ، وسأغفر لك التطاول عليّ من حين إلى حين ، لأني آخر من يتذوَّق تجاهل المحبوب لأقدار الحبيب .

من نِعم الله أن نعيش قلبًا إلى قلب ، لا جنبًا إلى جنب ، فما كان الهوى العذريّ إلا الروح المكنون في قصيدة الوجود

وإلى اللقاء يا شقية في عالم الفكر والوجدان .

ولكن متى ؟ متى ؟ متى ؟ وأنت تؤمنين بأن البخل أشرف خلائق الملاح !

قالوا عشقتَ فقلت كم من فتنة لم تغن فيها حكمة الحكماء

إن الذي خلق الملاحة لم يشأ إلا شقائي في الهوى وبلائي

زكي مبارك



تلك الروح وذلك اليوم



بعد جفوة مسبوقة بنذير يئس القلبُ أثقل اليأس ، واليأس يتجسم أحيانا فيصير أثقل من الجبال ، وأبرد من الثلوج .

ثم بدت الحياة لعيني وكأنها بيداء قفراء ، ليس فيها نبات ولا ماء ولا ظلال .

كنت أسير في شوارع القاهرة فأراها تموج بالبِشر والإيناس ، وأرى القاهريين كما عهدت مسرورين منشرحين ، كأن الدنيا ليست في حرب شعواء ، وإنما هي حرب خفيفة الظل ، هي الحرب بين العيون والقلوب .

وكنت أنظر فأراني وحيدًا شريدًا ، وإن كان من يراني يتوهم أني ماض إلى ميعاد، فقد كانت القاهرة فيما سلف من أيامي ملاعب للمواعيد اللطاف .

لقد اغتربت أسابيع كانت لهولها أطول من الآباد ، بفضل الجفوة المسبوقة بنذير من تلك الروح ، وكنت أخشى أن يطول اغترابي فيما بقى من أطياف حياتي ، فما حياتي بعد تلك الروح غير أطياف .

هذا هو اليأس ، وذلك طعمه المرير ، وتلك أيامه السود وحاولت أن أعيش في ظلال الذكريات فتكدر عيشي ، لأن تلك الروح لا تزال بعافية ، وهي صائرة إلى غيري إن ضاعت من يدي ، فما في الدنيا جمال يعيش بلا عاشق ، ولو كان مقدودًا من الصخر الجلمود .

لابد من رجعة أعنف من رجعة السيل ، لابد من اقتناص تلك الروح من

جديد لأحميها من الضيم وأحمي نفسي من الموت .

قلت لنفسي : إن هناك غنيمة مضمونة وهي سماع صوتها في الهتاف ، فما نطقتْ كلمة «ألو» إلا تمثلتً أنها بُلبل جماله كله في الحَلْق .

وبكلمتين تواعدنا على التلاقي ، فأين النذير ؟ وأين الجفاء ، وأين اليأس ؟

إن عقول المحبين عقول أطفال !

كان يجب أن أنتظر في حديقة البيت ، وأن يكون في يدي كتاب ، مع أني لن ألقي تلك الروح في ضوء المصباح .

وتخفق أرواح في الطريق فلا ألتفت ، لأن الروح التي أنتظرها لن تغيب عني ، وإنني لأشعر بخطواتها على أبعاد الألوف من الأميال .

ما هذا الذي أراه ؟

إن الروح ثقيل وقد تجسمت في عروس من عرائس البحر في دمياط ، وأنا أتلقاها بقلب قبستُ ناره من كهرباء الوجود .

-أنت؟

-أنا ؟

-ومن أنت ؟

-أنا العاشق الذي صبر فظفر بعد صبوة دامت أكثر من عشر سنين .

-وتستحق عطفي عليك ؟

-إن رأيت يا روحي أن تؤدي زكاة الجمال

ثم يدور الحديث بما يعجزني ، لأن الروح تقول :

«لقد أوحينا إليك»

فما هو إيحاء تلك الروح ؟

أمرتني أن أصف لحظات التلاقي ولحظات العتاب ، وتلطفتْ فلم تأمرني بوصف وجهها الوهاج ، ولو أني أطعتها لاكتفيت بكلمة واحدة ، وهي أني بها أعيش ، ولها أعيش ، فما للحياة بدونها مَذَاق .

غنائمي من حياتي هي التعرف إلى تلك الروح ، وانتظار عطفها في أوقات الكروب ، وليس في الوجود بجانب عطفها كروب .

***

ثم صحونا فوجدتها تشكو عدوان أظفاري . كتب الله عليها أن تشقى إلى الأبد بعدوان أظفاري ! إن كنت جرحت جسمها فقد جرحت قلبي .. والجروح قصاص .

أنا صحوت ؟ هو ذلك ، وما الذي يمنع من أن أخادع نفسي ؟

قضيت اليوم التالي وأنا لا أصدّق أن ما وعته الذاكرة من وقائع الليلة التي مضت كان وقع بالفعل ، فما تسمح الدنيا النادرة بمثل ذلك النعيم ، إلا أن يكون حلمًا من الأحلام .

وأستنجد بالهتَّاف لأسمع «ألو» ولأعرف أن ما وقع حقيقة لا خيال ، فيكون الجواب بالإثبات مصحوبًا بالاستغراب من شطحات صوفية وأنها تلك الروح بوادر جنون .

وآخذ بتلابيب الفرصة فأدعو إلى لقاءة ثانية لأقيم البرهان على أني عاقل لا مجنون .

اللقاءة الثانية بالنهار لا بالليل ، وبالصحراء لا بالبيت ، ثم يدور الحديث :

-أنت مصرّ على أن الوجود ليس فيه فضاء ؟

-نعم

-وما دليلك؟

-الدليل حاضر ، وهو أن ما نراه فضاء هو في الواقع مسكون بالأربطة الكهربائية التي يتماسك بها الوجود ، وهو باعتراف الجميع مسكون بالهواء ، فهو ليس بفضاء .

-سلّمتُ إلى أن أجد ما ينقض رأيك ، ولكن الذي لن أسلم به أبدًا هو إصرارك على أن كل موجود فيه حياة حتى الجماد .

-الجماد كلمة اصطلاحية فقط ، ولكنه في الحقيقة يحيا ، كما يحيا الحيوان والنبات ، وأنا سأجد الشواهد من الحجارة المنثورة في الصحراء .. انظري هذه زلطة في حجم ثمرة الدوم وشكل ثمرة الدوم .

-أتظن أنها دومة تحجرت ؟

-هو بالفعل ... ثم انظري فهذه زلطة في حجم الخيارة وشكل الخيارة.

-هي أيضًا خيارة تحجّرتْ؟

-نعم

-ولماذا لا تتحجر جميع الثمار؟

-لأنها ليست جميعًا في قابلية متساوية ولا فاعلية متساوية

-والنتيجة ؟

-النتيجة أن الجماد الذي يتحول من وضع إلى وضع لا يتم له التحول بدون حيوية وقد جهل أبو العلاء حين قال :

والذي حارت البرية فيه　　　حيوانٌ مُسْتَخرجٌ من جماد

-وما رأيك في الآية الكريمة :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ .

-القرآن يعرض الظواهر التي تعارف عليها الناس لتكون الحجة على القـدرة الإلهية أقوى وأوضح ، فمن العجب في نظر من لا يعرف أن تكون البذرة الخرساء أصلاً للدوحة الشمّاء ، وأن تكون البيضة الصغيرة أصلاً لطائر جميل يغرد أو يصيح ولكن البذرة قد تفسد فلا يصدر عنها شـجر ولا نبـات ، والبيضـة قـد تفسـد فـلا يصدر عنها طائر ولا حيوان .

-ليس في الوجود فساد ، وإنما هو تحول ، فالبذرة الفاسدة والبيضة الفاسـدة تتعرضان إلى تعفن تعيش به خلائق .

-آمنت بالله وكفرت بفلسفتك

-لن تؤمني بالله إلا يوم تدركين حقائق هذه الفلسفة يا محبوبتي الغالية .

-وأصدْق أن الحجر فيه حياة ؟

-نعم ، في الحجر حياة ، وأثمانه تتفاوت لهذا السبب ، فـالحجر الـذي يبـاع رخيصًا في هذا اليوم لأنه لين ، سيباع غاليًا بعد ألف سنة لأنه صـلب ، وإن صـبرنا عليه مليون سنة فقـد يتحـول إلى جرانيـت ، وهـذا هـو الفـرق بـين محـاجر طـره ومحاجر أسوان .

-بدأت أفهم

-وأنا لو شئت أفهمت جميع الأغبياء

-أنا غبية ؟

-اسمعي يا غبية ثم اسمعي ، هذا البناء الشاهق ممَّ يتـألف ؟ إنـه يتـألف مـن جمادات يأخذ بعضها برقاب بعض ، لأنها جميعًا أحيـاء ، فـالجبس يعشـق الطـوب والأسمنت يعشق الحديد ، وبفضل هذا التعاشق تنهض هذه البنايـات الشـواهق ، كما تبتسم الخمر حين يصافحها الماء .

-وأنت بالأمس أنكرت الموت ، وهذا أغرب ما سمعت من الآراء .

-ليس في الوجود موت ، فالدجاجة التي ذبحناها وشويناها ماتت في نظر الناس، فكيف تستطيع وهي ميتة أن تثير فينا النشاط حين نأكلها في صباح أو مساء ؟ واللحوم التي تَرِد إلينا من استراليا محفوظة في علب هي لحوم حيوانات بعضها ذُبح قبل أعوام طوال ، ونحن نأكلها فنشعر بنشاط وأريحية ، فكيف نصدق أنها ماتت ؟

-إننا نرى بأعيننا ناسًا يموتون ، ونـدفنهم ونترحم عليهم ، ونقيم لفراقهم الحِداد

-إنهم يموتون موتًا عُرفيًا ، وهم في الوقع أحياء ، فلو بدا لرجل أن يأكل قطعة متعفنة من جثة ميت لأصابته نوبة تؤدي به إلى الهلاك ، وهو نقله من حالة اسمها الحياة إلى حالة اسمها الموت في عرف الناس .. وهنالك صورة أوضح من هذه الصورة في تأكيد الحياة لمن نتوهم أنهم أموات وهي خلود الفكر وتأثيره الموصول من مكان إلى مكان على اختلاف الأزمان ، فأفلاطون لم يمت ، والغزالي لم يمت ، والمتنبي لم يمت ، لأن هؤلاء بتأثيرهم الروحي أحياء غير أموات .

-والدكتور زكي مبارك ؟

-هو أيضًا لن يموت ، وسيحيا بفكره وروحه حياة لا يعروها فناء، وسيقال فيما يلي من الأجيال إنه أول شارح لنظرية وحدة الوجود .

-ولكنها نظرية غير إسلامية

-قلت ألف مرة إنني أتكلم باسم الفلسفة لا باسم الدين ، فلا تثقلي عليَّ بأمثال هذا الاعتراض ، فأسلافنا ظلموا أنفسهم حين قالوا إن الفلسفة لا تخالف الدين ، وكانت النتيجة أن يعقّوا الفلسفة والدين .

-بدأت أفهم

-ألم أقل إني لو شئت أفهمت الأغبياء !

-أنا غبية ؟ أنا ؟

-لو لم تكوني غبية لما كدرت هذه الساعة اللطيفة بهذه الاعتراضات .

-وهل يؤذيك أن أدعوك إلى شرح آرائك الفلسفية ليرعوي من يتهمونك في عقيدتك الدينية ؟

-الناس لا يهمونني في شيء ، فمصايرنا جميعًا محتومة بصورة أزلية ، وليس للمؤمن ولا الكافر إرادة فيما صار إليه ، وليس هناك تعليل واضح لسحر هذه العيون .

-عيوني؟

-عيونك وعيون ليلي المريضة في العراق .

-يظهر أن تهمتك بالجنون لها أصل

-نعم ، ومجنون ليلي يتعجب من أن تغْزوه ليلي بعينيها الكحيلتين وبينها وبينه مسافات تعجز عن اختراقها الشياطين .

-اسكت يا مجنون!

-وهذا الفضاء الذي بيني وبين بغداد ليس بفضاء ، وإنما هو مجال لأسهم سحرية ترسلها ليلي في كل وقت ، وإني لأراها معي في هذه اللحظة كما أراك معي .

-اسكت ، اسكتْ ، فأنا أخاف أن تقتلني الغيرة

-تغارين من الوهم يا غبية ؟

-ليس هذا بوهم ، إن ليلي تطاردني في كل يوم وتحاول أن تسدّ طريقي إليك .

-ومن أجل هذا يا محبوبتي أنكر المكان وأنكر الزمان

-ماذا تقول ؟

-ليلي معنا ، أليس كذلك ؟

-بلى ، وأنا أغار منها أعنف الغيرة

-إذن فليس هناك مكان ، وهل تغارين مما وقع بيني وبينها في سنة ١٩٣٧ ؟

-أغار ، أغار

-إذن فليس هناك زمان

-خبلتني ، خبلتني

-كذلك كانت تقول ليلي ، زادك الله وإياها خبالاً إلى خبال !!

-هذا الحوار ينتهي بنا إلى وحدة الوجود ؟

-إن فهمت مرادي يا أجمل غبية رأيتها في حياتي

-تلميذتك لا تكون غبية

-إذن فاسمعي ، ثم اسمعي ، ليس في الوجود فضاء ولا سكون ولا موت .

-آمنت وصدَّقت

-وليس في الوجود زمان ولا مكان

-آمنت وصدّقت

-وليس في الوجود ماضٍ ولا مستقبل

-ما معنى ذلك ؟

-معناه يا طفلتي أن الوجود كلهُ خلِق دفعةً واحدة ، فالماضي والحاضر

والمستقبل صور لحقيقة أبدية لا تُحول ولا تزول

-لم أفهم

-ستفهمين ، هل تؤمنين بالأحلام ؟

-أومن بالأحلام

-تؤمنين بأن الرؤيا قد تتحقق بعد سنين ؟

-هو ذلك ، ولي مع الرؤيا تواريخ ، فقد رأيتك في منامي قبل سنين ، وكان في الرؤيا أنك تمزج بين المجادلة والمغازلة لأنخدع لك باسم العقل

-وأنا أيضًا رأيتك في منامي قبل سنين ، وكان في الرؤيا أنك تلميذتي لا معشوقتي

-وانخدعت لك ؟

-تلك أضغاث أحلام !

-أسرع وحدثني عن رأيك في الأحلام

-اسمعي ، الأحلام واقعة بلا ريب ، ولها تفاسير أختصرها في تفسيرين اثنين: التفسير الأول هو تفسير بعض علماء النفس ، وهو أنها تعبير عن رغبات مكبوتة نعبّر عنها في منامنا لنراها بعد أيام أو أسابيع ، والتفسير الثاني : هو تفسير الدكتور زكي مبارك ، وهو أن لنا حاسة دقيقة تخترق المستقبل في بعض الأحايين فتحدثنا بما سيكون بعد أزمان طوال .

-وكيف نعرف ما سيكون بعد أزمان طوال ؟

-كما يعرف علماء الفلك أن الشمس ستُكسَف أو أن القمر سيُخسف بعد عدد من السنين ، ومعنى ذلك أن الوجود كله خُلق دفعة واحدة ، وأن الرجل

الملَهم قد يرى في منامه ما سوف يقع ، لأنه سوف يقع ، ولو طال الزمان .

***

تلك الروح ، وذلك اليوم ، وآه ثم آه من تلك الروح وذلك اليوم ! تلك الروح ملك يدي ، وإن باعدت بيني وبينها مسافات لا أعترف لها بوجود .

وذلك اليوم ملك يميني ، وهو يومنا الهائم بمجاهل الصحراء إنه يوم تجسَّم فيه إيماني بوحدة الوجود ، وأعلنت فيه إشراكي بأوهام الغافلين .

قيل إنه يومٌ ذهب ، وأقول إنه يومٌ لن يذهب ، لأنه سيلاحقني إلى البواقي من أيامي ، وليس لأيامي نهاية ، لأني قَبَس من كهرباء وحدة الوجود .



ليلى المريضة في الزمالك



ليلي المريضة في الزمالك لها أحاديث وأحاديث . لقد عشقها عشقًا عنيفًا مبرحًا وألهمته رسائل وجدانية رقيقة .. قيسها من روحه وأودعها أشواقه ومشاعره وعواطفه وتلك الرسائل قطعة من الأدب الوجداني الرفيع .

نجد في تلك الرسائل اللوعة المحرقة والعاطفة القوية .

ولكن من هي ليلي المريضة في الزمالك .. ؟

هل تكون شخصية خيالية ؟ هذا مستحيل .. فما يقضي شاعر عاشق مثل الدكتور زكي مبارك الأعوام الطوال في التغني بمحبوبة من صنع الخيال ؟ وهو قد روى لنا غرامة معها والليالي الساحرة التي كان يقضيها معها يقول :

(ما أجمل تلك الليالي القمراء وقد قال أخوها : أحب أن أقضي معكما السهرة لأرى كيف يتناجى العاشقان في الليلة القمراء ..

كان ذلك بعد لحظات قضيناها في (مدينة الملاهي) إن تلك الشقية تحبني إلى حد الجنون أهلا وسهلا ..) .

كتب زكي مبارك في سنواته الأخيرة يبكي ذكريات هواه مع زوزو فيقول[1] :

كان آخر العهد بدار الهوى في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٧ قبل الهجرة إلى العراق ، وفي تسعة أشهر صنع الدهر بها ما صنع فلم أجدها حين رجعت في آخر

(١) البلاغ ، ٢٧ مارس ١٩٥٠ .

حزيران سنة ١٩٣٨ إلا أطلالاً باكيات لا أطلالا باليات فما يجوز البلى ، على دار محبوبتي ولو صنعت بها المعاول ما يصنع الناس بالقلوب .

هدمت الدار ، هدمت ، هدمت ، ولم يبق من معالمها الأصيلة غير صراخ الذكريات ، ذكريات الهوى النبيل الذي رفرف عليها بجناحيه الطاهرين عددًا من السنين هي في حكم الهوى لحظات أقصر من غفوة الرقيب !

«أفي الحق يا دار الهوى أني لن أراك ؟

«أفي الحق أن حديقتك الغناء ذهبت إلى غير معاد ؟

«أفي الحق أن الرقباء في شارع «...» قد استراحوا من تعقب خطواتي في أعقاب الليل ؟

«أفي الحق ، يا دار الهوى ، أن هذا آخر العهد ؟

«الدار باقية ، لأن ذكرياتها باقيات .

«الدار باقية ، لأني أطوف بها كل يوم ، وأتمثل هيامي بأرجائها في كل لحظة ، وأسوق إليها تحياتي وتأوهاتي مواكب خلود .

«هدمت الدار ، هدمت ، هدمت ، فابك ما طاب لك البكاء يا أليف الديار الباكيات .

«أين المال لأشتري قطعة من تلك الدار أدفن فيها يوم أموت ؟

«البلى أعجز وأضعف من أن ينالك بسوء يا دار الهوي والدنيا كلها فداء لماضيك المحبوب يوم كنت مرقص أحلام وملعب آمال ؟

«كيف صبرت أيتها الدار ، على كيد الليالي ؟

«كيف صبرت أيتها الدار ، على فراقي يوم هاجرت إلى بغداد ؟

«أنت صبرت على فراقي ؟ معاذ الهوى ، فقد كنت شغل القلب في يقظتي

ومنامي وكان مثالك سطورًا فوق أمواج دجلة والفرات ؟

«وهل أنسى أنك صاحبة الوحي لمحبوبك الغالي يوم كان ضيف باريس ؟

«أنت دنياي يا دار الهوي ، وطلولك المقفرات أعز عليّ من مؤلفاتي وأشعاري ؟

«رقمت صورتك الغالية بأصباغ من نور وخلود فوق سواد قلبي ، فلا خوف عليك من الفناء ، وعفا الحب عمن استغلوا غيبتي في بغداد فحولوك إلى أطلال باكيات » .

***

ليلى المريضة في الزمالك فنانة مشهورة وقتئذ ولكن لظروف ما حدثت قطيعة بينهما وافترقا بعد غرامهما العنيف وذكر أنهما افترقا لأنها لئيمة لا تحفظ العهد وقد أوحت هذه القطيعة إلى قلم الدكتور زكي رسائل وجدانية رقيقة هي صورة شعرية لونت بالشعر والفلسفة والكبرياء.

وهذه مناجاة حارة لمحبوبته الظلوم يقول :

(كنت أتشهى أن أرى النور المتوهج في جبينها المشرق كنت أتشهى أن أقضي معها سهرة في زورق يترنح فوق أمواج النيل كنت أتشهى أن أخاصرها في بساتين الجيزة الفيحاء .

كنت أتشهي أن نهيم على وجوهنا في حي القصر العالي الذي يسميه الجهلاء (جاردن سيتي) .. كنت أتشهي أن أرى معها البيت الذي كنا اصطفيناه بحدائق القبة : كنت أتشهي أن أهصر فودها بحي الزيتون .. كنت أتشهي أن نغرق معا في النيل عند القناطر الخيرية ولكن من الذي يدرك كل ما يتمناه ؟

أنا أعيش بروح سماوية وهي تعيش بروح أرضية ، مع أنها والله حورية نزلت إلينا من الفردوس ..

إن ليلاي بالزمالك لا تعقل لأنها حسناء ، والحسن يغري بالجنون ..

سأحارب ليلي بالزمالك .. سأحاربها بقلمي ، كما حاربت انجلترا بقلمي وأنا رجل يحارب الظلم في جميع الأشكال) .

وهذه بعض الرسائل النفيسة التي استوحاها من الفراق وقد قبسها من نار قلبه ونور وجدانه نرى فيها حرقة الوجد وصدق العاطفة وقوة الوجدان والحسرات في هذه الرسائل حسرات شاعر عاشق خلق ليكون أميرًا للعشاق .

وهو في تلك الرسائل الوجدانية عاشق متأجج يبكي حبه ويخشع أمام ذكريات الهوى والغرام .

وقد كتب هذه الرسائل سنة ١٩٣٨ إلى ليلي المريضة في الزمالك بعد القطيعة التي حدثت بينهما بعد عودته من العراق .



رسائل إلى
ليلي المريضة في الزمالك



الرسالة الأولى

سيدتي :

أشكر لك الخطاب الرقيق الذي نشرته في مجلة الصباح ، وأتمنى أن أقرأ لك مثله من حين إلى حين ، فأمثال هذه الرسائل هي آخر ما أظفر به من نعيم الحب في الزمالك .

وما كنت أظن أن الدنيا ستصل إلى هذا الحد من الإقفار والإيحاش ، ما كنت أظن أن تفسد الدنيا حتى أحبس نفسي عن رؤية الزمالك أربعة أسابيع بعد أن طال اغترابي في العراق ، واشتقت إليك وإلى الزمالك أشد اشتياق .

كان الوهم يحدثني أن الأرض سترقص تحت قدميك حين تسمعين بقدومي، كنت أتوهم أني سأموت مقتولاً بأريج الأزهار في قصرك المنيف ، كنت أحسب أن حسابي سيطول على ما قدمت وما أخرت ، وأن العتاب سيقتل الليالي المطولة حين نلتقي .. فما الذي وقع من كل ما توهمت وحسبت وظننت ؟

لم يقع شيء . ولم تطأ قدماي أرض الزمالك ، لأني عرفت بوحي القلب أنك انتقلت من رياض الملائكة إلى حظائر الشياطين ، وأنا الجاني على نفسي حين تركت الثمرة الشهية لتنوشها البوم والغربان !

ليتك تعرفين يا سيدتي ما صنع الدهر بقلبي !

ليتك تعرفين أني لم أعد ضحاكًا بسامًا على نحو ما كنت في الليالي الخوالي !

كان هواك يا غادرة ينير الدنيا أمام روحي ، وكنت كلما تشكيت بلائي بليلى المريضة في العراق منيت النفس بالعيش السعيد حين ألقي ليلى المريضة في الزمالك ، ولكني عرفت فيما قرأت في بعض المجلات أن قصرك فتحت أبوابه فدخلته وجوه مشئومة لا تصلح لمجد ولا حب ، وعرفت أن الأكواب في قصرك العالي لمستها أفواه كان يكثر عليها أن تظفر بالماء القراح !

أترين أن الدنيا تصلح مرة ثانية فأرى أني حين اتهمتك كنت من الظالمين ؟

أيجيء يوم أرى فيه أنك لا تزالين نقية القلب طاهرة الوجدان ؟

أكتب هذا وأمام قلبي خيال اليوم الذي دفعنا فيه مرة حساب النور لقصرك العالي ، فقد عجبنا حين رأينا حساب الكهرباء يصل إلى عشرة جنيهات فنظرت إليك وقلت : ولكن قلبك يا شقية لا يزال ظلامًا في ظلام !!

كنا نلهو ونلعب ، وكانت الدنيا من حولنا تلهو وتلعب ، وكان للقمر رقصات تميدها راسيات الجبال من الرفق والحنان .

فمن يعيد تلك الأيام السوالف ؟

من يعيدها لأرى جبينك المشرق وهو يتوهج ويتألق ؟

من يعيدها ، يا ليلى ، من يعيدها يا روح القلب الذي شرده الزمان !

إن قلبي يموج بالوساوس والأوهام والأضاليل .

فهل يكتب الله أن أراك وعلى وجهك نضرة الصيانة والوفاء ؟

هل يكتب الله أن أقف بين يديك لأستغفر من سيئات الظنون ؟

الأمر إليك يا ليلى ، إن كنت لا تزالين على كرم العهد .

لا تظني أبدًا أني سأعبر الزمالك بعد اليوم إلا حين يصح عندي أني كنت في سوء الظن من الخاطئين .

اعرفي يا ليلى وتيقني أني أصبحت أحمل كاهلي همومًا لا تحملها الجبال .

اعرفي أنك ملأت الدنيا سوادًا في وجه عاشق مخلص كان ملأ الدنيا نورًا في وجهك الوضاح .

اعرفي يا ليلى ما تعرفين ، وانكري ما تنكرين ، ولكن تذكري أني لم أكن إلا رجلاً كريمًا يحفظ العهود والمواثيق .

وتحدثك الغيرة بأني أحضرت معي ليلى المريضة في العراق .

فما الذي يمنع من أن تفاجئيني بزيارة في غسق الليل لتعرفي ما تضم داري من ملاح الليليات ؟ ليتك تحضرين مرة على غير موعد لتعرفي أن أنيسي في داري هو صورتك الباسمة التي انتهبتها منك انتهابًا في ليلة مقمرة من ليالي الربيع الأسبق !

تعالي مرة يا غادرة وانظري كيف صارت تلك الصورة وثنًا يعبده القلب .

تعالي ترى صورتك مصحوبة بصورة عزيزة غالية هي صورة أختك العزيزة الغالية صورة ليلى المريضة في العراق .

تعالي وانظري كيف جمعت بين الصورتين لينعم القلب بجحيمين !

تعالي مرة ، تعالي ، تعالي واستغفري من ذنبك في الصدود لا في العقوق ، فمازلت أرجو أن يكون ارتيابي في وفائك المعهود أضلولة من أضاليل الخيال .

تعالي ، يا ليلى ، تعالي ، تعالي نقرأ معًا بريد بغداد !

أحبك يا ليلى ، أحبك وأحب بغداد ، وليلاي في العراق .

أحبك بلا أمل ولا رجاء ، وإن كنت أشتهي أن أقبل ذلك الوجه مرة ثانية ، قبلة أثيمة تنزعج لها شياطين الأرض وملائكة السماء .

أحبك يا ليلى ، فتعالي خذيني ، خذي الطفل الكبير الذي لم تؤدبه الأيام ولا الليالي ، ولم يعرف أن الثقة بعهود الملاح ضرب من الخيال .

تعالي يا عروس الزمالك تعالي إلى قلبي وروحي وضميري تعالي إلى الرجل

العارم الذي لا يزال على ما تعهدين من العنف والجموح .

تعالى يا ليلى ، تعالي تعالي نقرأ معًا بريد بغداد لتعرفي أن ليلاي هناك تسأل عني وهي ترتاب في وفائي كما ترتابين ولكنها تقول فيمن أحب :

«أفوقهم بإخلاصي »

تعالي وانظري هذه الجملة «أفوقهم بإخلاصي» لتعرفي أن الإخلاص لـه في عالم الحب ميزان .

***

الرسالة الثانية

لم أكن أعرف ، وليتني ما عرفت !

لم أكن أعرف أني قادم على سعير العذاب حين فكرت في إغناء الأدب العربي ، بألوان من الصور الشعرية التي تصور عذاب الأرواح والقلوب .

لم أكن أعرف أني سأضع قلبي بيدي فوق جمرات الصبابة ثم أنظر إليه وهو يتنزى ويتوثب عساه يظفر بالخلاص ، ولا خلاص !

لم أكن أعرف أني سأجد ليلى في طريقي ، ليلى ، ليلى التي عذبت روحي وأحرقت قلبي .

لم أكن أعرف أن الهيام بالعيون السود سيسوقني إلى الهيام في غيابات الليالي السود .

لم أكن أعرف أن الأقدار تدخر لي هذا النصيب الضخم من العناء والشقاء .

وهل يصدق أحد أني صرت لا أعرف غير الحيرة والضلال في يقظتي ومنامي؟

هل يصدق أحد أن الدنيا تحولت أمام عيني إلى منادح من الهول والعذاب ؟

أين من يصدق أني أقضي الأيام والليالي في أحزان وكروب ؟

وفي سبيل من ؟

أحب أن أعرف في سبيل من ؟

في سبيل المخلوقة التي تقيم في الزمالك عليها غضبة الحب !

لم أكن أعرف أن ليلى التي نقلت قلبها من مكان إلى مكان ، وعلمتها كيف تناجي النجوم وتصافح الأزاهير وتباغم البلابل ، وتسامر الأحلام ، وتراود الأماني، لم أكن أعرف أن هذه الإنسانة الظلوم ستسقيني أكواب العلقم بعد أن سقيتها أكواب الشهد .

إنك يا ربي تعلم أني لم أكن سيئ القصد فيما صنعت .

كنت أحب أن أقيم في دنيا الشرف هيكلاً يعبد فيه الجمال .

كنت أحب أن تقوم دولة في عالم الأدب العربي للقلوب والأحاسيس .

كنت أحب أن يشعر شبابنا بأن لغتهم لا تزال غنية وأن فيها كتابًا وشعراء يعرفون مواسم القلوب .

فكيف كان جزائي ؟

كنت كالطبيب الذي يحمل المشرط ليداوي جرحاه فينقل إليه المشرط جراثيم الهلاك .

ليتني أعرف كيف أصور بلائي بما أسلفت من جميل !

إن اللغات كلها تعجز عن وصف ما أعاني ، وما أخطر ما أعاني !

وما خفقت أرواح النسيم ولا برقت لوامع النجوم ، ولا هتف هاتف بالوجد في صباح أو مساء ، إلا حسبت ذلك لمحات من وميض قلبي .

أمن أجل ليلى أصير إلى ما صرت إليه ؟

ومن أنت يا ليلى ؟ من أنت ؟ أتملكين شيئًا غير عينين سوداوين ، وخدين أسيلين ومبسم يتلألأ بسحر البريق ، وقوام يترنح وما سقوه الصهباء ؟

ومن أنت يا ليلى ؟ من أنت ؟

من أنت حتى تحولي دنياي إلى أمواج من الظلمات ؟

تذكري ما تملكين من شواهد الحسن التافه السخيف !

هل تملكين غير ذلك الدلال الذي يزلزل قلبي وعقلي ؟

هل تملكين غير ذلك الصوت المتكسر الناعم الرقيق المقتول الذي يذل الأسود ؟

اسمعي يا ليلى .. اسمعي .

سأزور الزمالك بعد أسبوع أو أسبوعين ، فإن دار رأسك من حيث لا تحتسبين فاعرفي أن روحًا شفافًا يزور ذلك الحي الجميل ولن يكون ذلك الروح غير روحي المشرد الذي أشقاه الغرام بالملاح .

ستطوف بالدنيا قلوب وأرواح ، ويبقى في عالم الخلود قلبي وروحي .

لن يكون لك أثر في الوجود إلا بفضل العاشق الذي تكوين فؤاده بنارك الحامية .

ستفنى محلة الزمالك ، ويبقى ما قلت في عروس الزمالك .

اصنعي ما شاء لك الغدر والجحود ، ولكن تذكري أن غضب الحب سيحل عليك وسيذلك الهوى فتسألين عني بعد حين .

أستغفر الحب :

فما أتمنى إلا أن تعيشي بخير وعافية وان تظلي ريحانة مطلولة تبسم للشروق والغروب ، وتطالع الدنيا بالنضرة والنعيم .

أحبك يا ليلى ، أحبك يا غادرة ، وأحب من أجلك جميع الملاح .

وسلام الحب على الجدائل المعطرة التي كانت ذكراها تؤنس وحشتي في أيام الاغتراب ، وسبحان من لو شاء لأرضاني وأرضاك عني .

هل تملكين غير ذلك الصدر المشرق الذي يغرق الناسك في بحار الضلال ؟

هل تملكين غير تلك الطلعة البهية التي تخجل الأقمار والأزاهير ؟

ماذا عندك حتى أصير إلى ما صرت إليه من الجنون والفتون ؟

ماذا عندك وماذا تملكين ؟

***

أنا الذي خلقت بقلمي وخيالي كل ما وصفك به الواصفون من حسن وإشراق .

أنا الذي جعلتك ريحانة الدنيا ، وأنس الوجود .

أنا صاحب الفضل على ليلى المريضة في الزمالك وليلى المريضة في العراق .

ولكن أين جزائي ؟

أين جزاء العاشق المهجور الذي صار حظه أشد سوادًا من قطع الليل ؟

كل حظي أن أتلقى خطابًا فيه خصلة من الشعر أتذكر بها سواد حظي في غرامي .

كل حظي أن أصبح وأمسي مبلبل الخاطر ، مقروح الكبد ، مفطور القلب .

ولكن لا بأس .

فقد أومن بأني أواسي بحبي فتاةً لا تأنس بجمالها غوافل القلوب إلا كما تأنس العيون الرمد بضوء الشمس .

كنت أشعر أني أخلق هذه الفتاة خلقًا جديدًا ، وكنت أرى من الوطنية أن أشيد بمحاسنها ومفاتنها لتجد مكانها في عالم الصباحة والجمال .

أما أنا فقد كان مصيري في هواها مصير من يعبد النار ، وعابد النـار يؤججهـا بيديه لتحرقه حين يداعبها وأن ترفق وتلطف !

وما أنكر أني عرفت بفضل هذه الفتاة ما لم أكن أعرف .

عرفت أن النبات الجميل قد يكون أمر من الصاب .

عرفت أن البحر لا يروي الظمآن لأن ماؤه ملح أجاج .

عرفت أن الثقة بعهود المرأة تشبه الثقة بعهود الزمان .

وعرفت ما هو أعظم من كل أولئك :

كنت بالرستمية ذات مساء مع أعضاء «نادي القلم العراقي » ومضينا نستروح بسكون الليل حول نهر ديالة فراعنا أن تنبح الكلاب بنزق وطيش .

قال أحد الزملاء : ما أقبح نباح هذه الكلاب !

فقلت : هذا النباح صورة من صور الجمال !

فقال : وكيف ؟

فقلت : لأنه يكمل صورة الليل .

وكذلك تصنع المرأة الغادرة ، فهي تكمل صورة الوجود .

آه من زمني ومن دنياي !

***

ورجعت أسائل نفسي : ماذا غنمت من حب ليلى التي تقيم في الزمالك ؟

لقد ظفرت بمغانم كثيرة سأنتفع بها فيما بقى من حياتي .

والظاهر أني لا أخلو من لؤم ، لأني أحب اللئام من الملاح .

وإنما كان الأمر كـذلك لأني قضـيت أكثـر مـن عشـرين سـنة في الدراسـات الفلسفية ، فالمرأة الرقيقة القلب لا تؤنسني إلا قليلاً ، لأن عقلي أكبـر مـن قلبـي ، وأنا أشتهي المرأة اللئيمة التي يكون غرامي بها فرصة لدراسـة القلـوب والنفـوس والعقول .

أردت مرة أن أساهم في نفقات البيت فقالت : أنت تريد أن تحتل بيتي .

وتلك نظرة دقيقة قد يغفل عنها السياسيون .

وهجمت عليها ذات مرة فدفعتني بعنف وهي تقول : إن مظهـر القـوة يـذكر الضعفاء بالذلة ويغريهم بالعصيان .

أشهد أن هذه اللئيمة على جانب عظيم من الذكاء ، واللؤم باب من الذكاء .

أحبك يا لئيمة حبًا لئيمًا ، ولا يفل الحديد إلا الحديد .

***

آه من زمني ومن دنياي !

أنا اليوم في خلاف مع ليلاي .

هي تريد أن تنتصر فتنقلني إلى الزمالك وأنا أريد أن أنتصـر فأنقلهـا إلى مصـر الجديدة وطن الملائكة والشياطين .

إن آدم عليه السلام انتقل في سبيل حـواء مـن الجنـة إلى الأرض ، فلأنتقـل في سبيل ليلى من مصر الجديدة إلى الزمالك .

ويظن الناس أن آدم باء بالخسران حين انتقل من الجنـة إلى الأرض في سـبيل حواء ، وهم والله جاهلون ، فلو بقى آدم في الجنـة لعـاش أغلـف القلـب ، خامـد الإحساس .

إن نزول آدم إلى الأرض كان فرصة لمعرفة الشهوات والضـغائن والأحقـاد ،

والعلم مع الشقاء أفضل من الجهل مع النعيم .

سأرجع إليك يا ليلاي ، سأنتقل من مصر الجديدة إلى الزمالك في سبيل البحث عن سرائر الروح الإنسانية .

وسترضين عنى يا شقية لأحترق في كوثر الوصال .

ولكن ما هو الوصال .

هو أن تكشفي الحجاب عن قلبك الغادر لأرى ما في الوجود من حقائق وأباطيل .

أحبك يا ليلى .

أحبك يا ليلاي .

وأستبيح الشرك ، فأحب معك الإنسانة النقية التي امتعتني بخطابين كريمين ولم تظفر بجواب .

لا تغاري من تلك الإنسانة، فبيني وبينها أهوال، ولن تراني إلا في عالم الخيال.

أيتها الإنسانة التي تخاطبني فلا أجيب !

أنت كل شيء في دنياي ، ولو كرهت ليلى المريضة في الزمالك .

وسأوقد نيران الغيرة في صدور من هنا ومن هناك إلى أن يقضي الحب بما هو قاض ، وأنا راض بحكمه وإن كان أظلم الحاكمين .

أكتب هذا وقد طلع الصبح ، ولا تزال ظلمات الهجران تسيطر على قلبي .

***

ودامت دنيانا في قبض وبسط وبؤس ونعيم ، إلى مساء اليوم الثامن عشر من الشهر التاسع سنة ١٩٣٧ .

ففي ذلك المساء تفضلت ليلى فدعتني إلى تناول العشاء لتمنحني القبلة

الموعودة قبل رحيلي إلى العراق .

وكانت لحظة من الحياة لن أنساها ما حييت وإن كدرتها ليلى بعد ذلك .

أحبك يا ليلى . أحبك لتلك اللحظة التي بلبلت نجوم السماء .

أحبك يا ليلي ، وإن صيرت حياتي بؤسًا في بؤس ، وشقاءً في شقاء .

أحبك يا صغيرة القلب ، ويا ضعيفة العقل ، ويا قليلة الوفاء .

أحبك يا مثال النزق والطيش والجنون .

أحبك لتلك اللحظة القصيرة التي بددت أضواؤها ظلمات قلبي .

***

وفي اليوم التالي رحلت إلى بغداد وأطياف الزمالك تؤنس روحي .

ثم سمعت ليلاي في الزمالك أنى تعرفت على ليلى المريضة في العراق .

فماذا صنعت الحمقاء ؟

أرادت أن تنتقم مني ففتحت أبواب قصرها للواغلين من أدعياء الأدب والبيان ولم تكتف بذلك بل أعلنت غضبها في رسائل نشرتها في مجلة الصباح .. وأسرفت الشقية في الحمق فنشرت في مجلة المصور أخبار سهرة تناول فيها السامرون عندها أكواب الصهباء .

وكانت الشقية تعلم أن ذلك سهم سيصيب صدر حبيبها في العراق .

ولكني تجلدت وتماسكت وكتبت إليها في رفق ولطف .

فأجابت الحمقاء :

«هل كنت تنتظر أن أضع يدي على خدي إلى أن ترجع من بغداد ؟ » .

خبر أسود !

خبر أسود !

خبر أسود!

كذلك هتفت كما يهتف الفلاح المصري حين ينزعج – وعبارات الفلاحين تسبق إلى لساني حين يثور غضبي – .

إن ليلى المريضة بالزمالك لا تريد أن تضع يدها على خدها حتى أرجع من بغداد ، وهي تعرف أني هاجرت إلى العراق لغرض نبيل هو توثيق علائق المودة بين مصر والعراق .

وهل تفهم المرأة هذه المعاني ؟

آمنت بالله ، وكفرت بالحب !

***

أما بعد فقد انتهى ما بيني وبين ليلى المريضة في الزمالك ، وقد حرمت على نفسي رؤية الزمالك إلى أن أموت ، فحدثوني يا رفاقي عن أضواء الزمالك وأيام الزمالك وليالي الزمالك ، حدثوني كيف يغني الكروان في الزمالك ، حدثوني كيف تكون أشجار الزمالك في الليل ، حدثوني كيف يثب النيل ليقبل أقدام الزمالك ، حدثوني كيف تصبر عني ليلاي في الزمالك ، حدثوني كيف تصبر عني ليلاي في الزمالك ، حدثوني كيف تغيب الشمس عن الزمالك ، وكيف يطلع القمر على الزمالك ، وكيف تثور عواصف الحب والبغض في الزمالك ؟

حدثوني ، حدثوني ، حدثوني .

انتهى حلم الحب ، وانتهت أيام الزمالك ، وانقضت ليالي الزمالك .

تلك الزمالك لم تكن إلا قطعة من وطني ، ولو شئت لقلت إنها قطعة من كبدي. في الزمالك تعلمت طب الأرواح والقلوب .

وبالزمالك شقت روحي ومرض قلبي .

الرسالة الثالثة

صديقي ...

سألتني أن اكتب كلمة عن ليلى المريضة في الزمالك فأثرت في صدري لوعة محرقة كنت أرجو أن تصير بفضل الكتمان والتناسي إلى الخمود .

وماذا يهمني من أمر تلك الإنسانة الظلوم؟

إن الدنيا كلها سخف ، والحب كله بلاء في بلاء ، فلتمض تلك الذكريات إلى جحيم النسيان والجحود .

وقد تعلمت في حياتي أشياء ، وكان أثمن ما تعلمت هو اليأس من وفاء القلوب .

وأقسم بالله ، والحب، ما خططت هذه العبارة إلا وأنا أقاوم طغيان المدامع ، فمن الحسرة واللوعة أن أنفض يدي من العواطف بعد أن جعلت الكتابة في العواطف مذهبًا أدبيًا له أنصار وأشياع في سائر الأقطار العربية .

ولكن خيبتي في الحب لها أسباب .

وآه ثم آه من الاعتراف بالخيبة !

ليت ضلالي في هواي كان دام حتى أخرج من دنياي وأنا موصول العطف على الملاح !

فإن سألت عن أسباب القطيعة بيني وبين ليلى المريضة في الزمالك ، فإني أحدثك بأن تلك الأسباب ترجع في جملتها إلى شيء واحد هو العظمة الحقيقية التي فطر الله عليها قلبي .

ومعاذ الأدب أن أكون من المفتونين أو المخدوعين، فلي قلب ما عرف الناس مثل جوهره النفيس في قديم أو حديث .

هو قلب فطر على الحب والعطف والوفاء .

وقد شاء هذا القلب أن يبسط حنانه على ليلى المريضة في الزمالك .

فماذا صنعت تلك الحمقاء ؟

***

لا تسأل كيف كنا إلى خريف سنة ١٩٣٧ ؟

كنا عاشقين .

وما أسعد العشاق !

كنا نعرف أطايب الخلوات على شواطئ النيل !

كان قلب ليلى أصغر من قلبي .

ولكنها مع ذلك كانت تملأ قلبي ، وهو قلب يرضى بالقليل في بعض الأحيان.

وكنت أتلقى القليل من عطف ليلى بالحمد والثناء .

والذوق كل الذوق أن نفرح بالقليل من الملاح .

كانت ليلى تعد وتخلف ، وكنت أرى إخلافها من الدلال .

وكنت أروضها بنفسي على الإخلاف ، لأني كنت أحب أن أخلق منها دمية روحانية أعاقر في محياها كئوس النبل والصفاء .

وكان ما أردت وأراد الحب العذري حينًا من الزمان .

أردنا مرة أن نؤلف رواية ...

ليتنا ألفنا الرواية !

آه من ليلى ومن زماني !

فأين السبيل إلى الرجاء بل أين السبيل إلى اليأس ؟

أحبك يا غادة الزمالك ، أحبك يا غادرة ، وأعشق ضلالي في هواك النبيل وهواك الأثيم .

ليلاي ، ليلاي ..

ما زال روحي الظامئ يحوم على وردك ، فارحمي الطائر الذي يرفرف حول حماك في السحر والضحى والأصيل ، ويخفق بقلبه وجناحيه كلما لذعه الشوق إلى صهباء الرضاب .

أنا مشتاق إلى الكوثر الممنوع الذي كانت قطراته تسكر روحي وتعقر فؤادي. أنا مشتاق إلى النار التي كوت كبدي ، فمتى أواجه النار العصوف ؟

سأقبل قدميك حين أراك يا شقية ، ولكن متى أراك ؟ متى أراك ؟

أفي الحق أننا تخاصمنا إلى آخر الزمان ؟

أفي الحق أن عربدة الهوى لن تعود ؟

لقد شمت فينا الشامتون فمتى يندحر الشامتون ؟

إنني واثق بطهارة قلبك يا شقية ، ولولا ذلك لأصليتك نار العقوق .

فحدثيني متى ترجعين إليّ ؟ متى ترجعين ؟ متى ترجعين ؟

***

ليلى ، ليلاي التي خرجت من حماها كما خرج آدم من الفردوس أجيبي .

مضت أعوام وأنا أتلقى منك تحية رمضان ، فأين تحية رمضان ؟

إن الناس يذكرون موتاهم في هذه الأيام يا معبودتي ، وأنا قتيل الهوى فمن يذكرني إذا صدفت عني ؟

لا تؤاخذيني بما جنيت في حب ليلى المريضة في العـراق ، فمـا كانـت لـيلاي هناك إلا صورة من صور الطهر والنبل والعفاف .

أحب ليلاي في العراق ، وإن تأذيت بذلك ، فاصنعي ما تشائين .

أيتها الحمقاء في الزمالك !

لا أحب أن أرك إلا يوم تعرفين أني صاحب الفضل على جميع الملاح ، فلـولا قلمي ، ولولا بياني لصارت الصبابة ألعوبة من الألاعيب .

أنتظر أن تكون دنيا الصباحة والملاحة طوع يدي .

فإن لم تفعلي – وستفعلين – فودعي دنيا الرفق والحنان .

ليلى ، ليلاي .

إلى صدري يا عروس الزمالك .

إلى صدري يا جارة النيل .

إلى صدر العاشق الوفي الأمين .



عاشق مصر



عشق «زكي مبارك » مصر عشقًا مبرحًـا وظـل طيلـة حياتـه مشـردًا في حبهـا مضللا في هواها .. يبثها أشواقه وحنينه وحبه يناجي مصر فيقول :

(أحبك يا وطني .. أحبك بأعظم مما أحبك مصـطفى كامـل ومحمـد فريـد وسعد زغلول .. أحبك يا وطني وأستعذب عذابي فيك لأنك في عيني وقلبي غاية في روعة الجمال فلم يعان أحد من الظلم في وطنه ما عانيت فما زادني ذلك الظلـم الأثيم إلا عرفانا بجمال وطني وهل رأيتم جميلاً غير ظلام .. » .

وهو يرى أنه يخدم وطنه خدمة قومية حين يتغنى بما فيه مـن مفـاتن وألـوان الحسن وأطايب الجمال :

(دنيانا في مصر تخضع لخطوب وصروف خلقها الحقد على البلابل والعنادل فيخلو الجو لنعيب البوم مع أن البوم قد انعدم في مصـر منـذ أجيـال وأجيـال كمـا انعدمت الثعالب والذئاب .. وقـد أردت أن أتغنـى بأزهـار الصـباحة في وطنـي .. الوطن الذي لا تقع فيه العيون على غير ما يزيغ البصائر ، ويضل العقول فلم أظفـر مع طهارة القلب بغير الاصطباح باللوم الاغتباق بالتثريب .. لابد لي من يوم أغر في خدمة وطني وهو اليـوم الـذي أهتـف فيـه بـأن مصـر هـي الـوطن الأول للشـعر والجمال والفتون ..) .

ويفخر بوطنه قائلاً باعتزاز وزهو (لن تضام مصر ولن يضام أهلها ولن تجف أقلامها ولن يكون لها بين المظلومين مكان .. لا أقول أن مصر باقية ما بقى النيـل

ولكني أقول أن مصر باقية ما بقى الوجود .

مصر شرعت لجميع الأمم مذاهب الفكر والرأي والبيان وستظل بإذن الله مصدر الفكر والرأي والبيان) .

ويناجي زكي مبارك مصر مناجاة حارة يقول :

(وطني .. إن لم أحمل السيف في حمايتك فقد حملت قلمي في الدفاع عنك والقلم أبقى من السيف وفضلك في الدنيا هو فضل القلم قبل فضل السيف ، وقد أقسم الله بالقلب لا بالسيف فعش إلى الأبد حجة العالم وبرهان الزمان .. وطني .. أنت تذكر أنه ما استطاع أمير ولا وزير أن يأجرني في العصبية لك لأنك وطني وحدي ولأني لا أسمح لأحد بأن يسبقني في الوصول إلى مواقع هواك .

وطني .. وطني .. إن عشت لك فسأحمل رايتك في المشرقين والمغربين وسأكون سفيرك في كل أرض يصل إلى أسماع أهلها قلمي .

فإن مت قبل أن أدرك في خدمتك ما أريد فسأكون برغم الحوادث بطل الوطنية والإخلاص .. وسلام الله على أبرار الشهداء ..) .

ويقول : (متى أرجع إلى تدوين الملاحة في البلاد التي يسقيها النيل الوفي الأمين ؟ ..

متى يتسع الوقت لدرس ما في مرابع الوطن الغالي من غرائب السحر والفتون؟

ما هل بلد في وجه القطار إلا وثب القلب .. فما في وادينا بلد خلت أرباضه من آثار الحروب بين العيون والقلوب حتى كدت أومن بأن كل بلد في مصر هو صورة من صور سنتريس أو بغداد أو باريس ..وطني .. أنا أحبك أنا أحبك ..) .

ويبت أشواقه لوطنه فيناجي مصر قائلا في حرارة :

(وطني .. لقد شقيت بعظمتك ومن أجل هذا أحبك وأستعذب الصبر

والعلقم في هواك ! .. وطني ! .. إليك أسلمت قلبي وعقلي ، فخذ بزمامي إلى حيث تشاء يا أنضر دوحة تغنت فوقها البلابل ، ويا أجمل روضة رنت فيها القبلات، ويا أطهر بقعة أقيمت فيها المحاريب . ويا أشرف صحيفة أرهفت آذانها الواعية لصرير القلم البليغ ..) .

وقد رسم زكي مبارك صورًا عديدة لكل بقعة جميلة من بقاع مصر فصورها تصويرًا جميلا خلابا وقد رسم العديد من الصور للقاهرة والإسكندرية والمنصورة وسنتريس وغيرها من مرابع الوطن الغالي وكان ينظر إلى القاهرة نظرة عاشق مفتون ويراها أجمل بقعة من بقاع الأرض يقول : (لم يبق شك في أن القاهرة أجمل مدينة في الشرق وقد تكون فيها خصائص لا تعرفها باريس ولا برلين وترجع تلك الخصائص التي تفردت بها القاهرة إلى ما فيها من اختلاف الألوان والأذواق فهي ملتقى للحضارات الشرقية والغربية ومجتمع للصحيح والعليل من العقائد والمذاهب) .

من الذي يصدق أن في القاهرة ألف خطيب في فصاحة سحبان ؟ ..

من الذي يصدق أن الأمان ذهب من القاهرة بسبب الإفراط في المنافسة والنضال ؟ ..

من الذي يصدق أن زكي مبارك سيؤلف كتابا في مثالب زكي مبارك ؟) .

وهو يرى أن القاهرة ملاذ كل خائف ومأمن كل ملهوف يقول :

(ويسألونك عن القاهرة قل القاهرة بغداد الأمس وباريس اليوم .. اكتب هذه الرسالة وقد هربت من ضجيج القاهرة في مساء العيد .. نعم هنا القاهرة ولكن أين الأديب في المدينة التي أصبحت عاصمة الشرق هنا في القاهرة زاد العقول والقلوب والعواطف والأحاسيس فأين مكان الأديب يا قاهرة ليؤدي ما أداه عشاق بغداد في القديم .. وعشاق باريس في الحديث .

وسأذكر بعد فوات الوقت أني جنيت على شبابي حين أضعته بين سواد المداد

وبياض القرطاس في زمن لا ينفع فيه غير الاتجار بالتراب .

وهل يستطيع قاهري أن يمضي يومًا واحدًا بلا كفاح وهو يعيش في مدينة مقدودة من صخور الصبر على مصاولة الحياة .

في مثل هذا العيد من سنة ١٩٣٢ كذبت على أبي وأمي ولم أكذب عليه غير تلك المرة .. كتبت إليه أقول أني سأقضي أيام العيد في الإسكندرية ولم يكن ذلك إلا حيلة لأحبس نفسي أيام العيد في البيت لأكتب فصلا من فصول (النثر الفني) وهو الفصل الخامس بتطور السجع في اللغة العربية .

إنما أنا قاهري يحبس نفسه في البيت يوم عيد ليحفر بسنان القلم ثقبًا يتطلع منه على ضوء العظمة في القاهرة عساه يقنع القاهرة بأنه رجل مجتهد يستحق أن يعيش) ويقول : (لو كان الماضي ينفع لرجل مثلي أن يعتمد على ماضيه في خدمة الحياة الأدبية والفلسفية .. ولكن القاهرة تعبس في وجه الرجل الذي يعتمد على ماضيه لأن ذاكرتها تضيق عن مراجعة الأسماء .. أسماء المجاهدين الذين عطروا باسمها أرجاء الشرق. هي حسناء لعوب لا تعرف حتى العاشق المزود بأطايب الثروة والعافية ..)

هذه هي القاهرة كما رآها زكي مبارك .

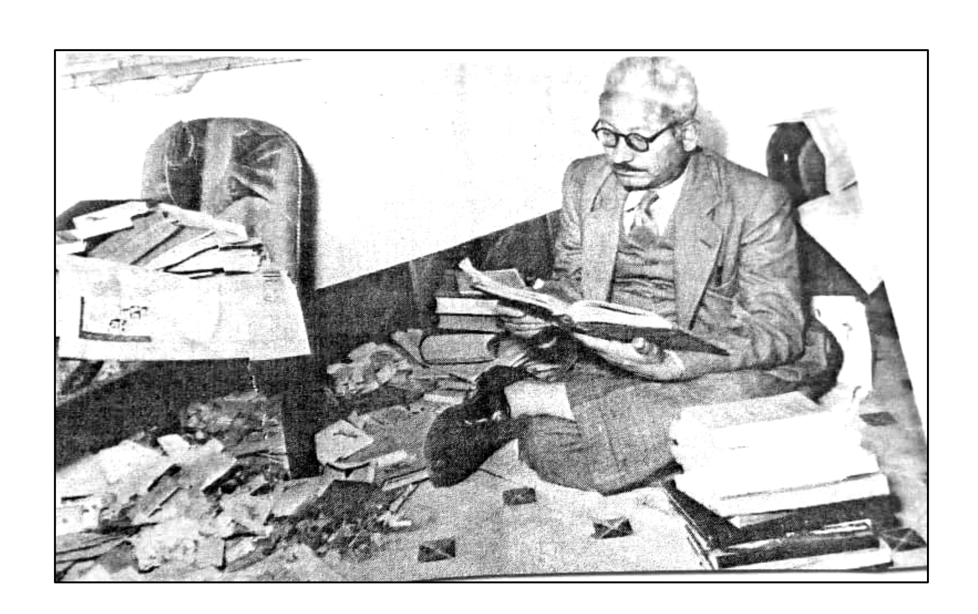
***

وأما الإسكندرية فقد كان مفتونًا بها وكان يسافر إليها دائمًا وأوحت إليه العديد من المقالات والقصائد ، وكان يرجع سبب عشقه للإسكندرية أنه أمضى فيها فترة من عمره أسيرًا بعد ثورة ١٩١٩ يقول عن السر في حبه للإسكندرية : (السبب يرجع إلى أني دخلت الإسكندرية أول مرة وأنا حزين دخلتها في قفص دخلتها في سيارة مقفلة من سيارات السلطة العسكرية الإنجليزية في أيام الثورة المصرية ..دخلتها في الظلام فلم أر من جمالها غير أطياف .. ثم نقلت من ذلك السجن المتحرك إلى مقر الاعتقال في ضاحية نائية هي اليوم صبابة ومدارج فتون

ومن يصدق أن ضاحية سيدي بشر كانت معتقلا يسجن فيه من هتفوا باسم الحرية والاستقلال ؟ .. وفي سنة ١٩٤٣ كتب الشيخ محمود أبو العيون يقـول : أن زيـارة الشواطئ تفسد الأخلاق ودعا إلى الثورة على شواطئ الاصطياف .

فامتشق زكي مبارك قلمه وكتب[1] ليرد على الشيخ أبو العيون بلهجـة سـاخرة (أن الشيخ أبو العيون يغرق في كوز ماء فكيف نسمع كلامه في البحر المحيط ؟ ..

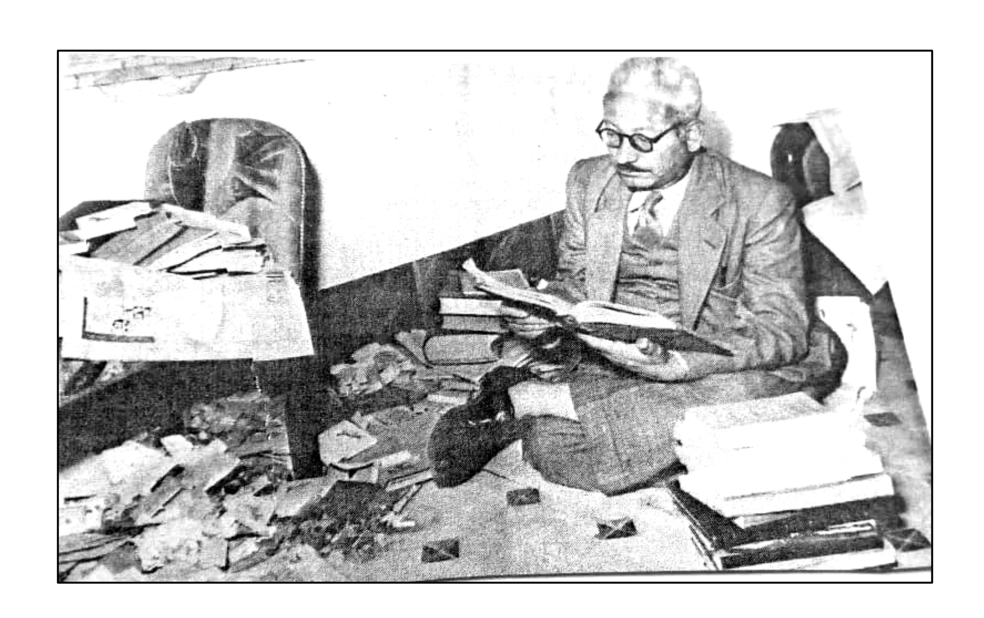
هل تعرفون أن الشيخ أبو العيون لم ير الشواطئ مع أنه يعيش في الإسـكندرية منذ سنين ، ومع أنه أبو العيون ؟ ..



(١) الرسالة: الحديث ذو شجون، أغسطس ١٩٤٣.



مأساة عاشق الجمال



لماذا تحطم زكي مبارك ؟



كان زكي مبارك صريحًا صادقًا في تصوير عواطفه وأحاسيسه وقد أفصح عن سرائر روحه وأسرار قلبه بصدق وصراحة وكان في ذلك «نسيج وحده » في أدبنا العربي ، لقد ترك لنا اعترافاته ومذكراته وأظهر لنا كل ما تخفي نفسه بصراحة وجرأة :

« إن الذي يخدعك هو أن الرجل الذي يخفي عنك أشياء ويظهر أخرى ، إنه الرجل الذي يداري أنيابه ويبدو لك في صورة الوقار والسماحة وهو مطوي الأضالع على الغل والحقد » .

لقد أراد زكي مبارك أن يغاير التقاليد فكره النفاق والخداع .. أراد أن يكون الأديب الصريح الصادق في أدبنا الحديث.. وبدأ التجربة ومن هنا كانت مأساته .

تعرض لمتاعب ومضايقات كثيرة في حياته ...

كان صريحًا في التعبير عن عواطفه ومشاعره الوجدانية ، وكان صريحًا في التعبير عن آرائه في الآخرين بغض النظر عن كونهم رؤساءه سواء كانوا في منصب كبير أم صغير .. لم يكن يلتفت إلى هذه الناحية .. فجرت عليه صراحته الكثير من المتاعب والمضايقات .. أتهم بأنه من أنصار الأدب المكشوف ، فعندما أصدر كتابه «مدامع العشاق » عام ١٩٢٤ قال عنه الدكتور طه حسين في جريدة «السياسة» : « إنه كتاب يحرض على الشهوات » ووصف زكي مبارك بأنه حاد الشباب عنيفه» وكان الأدب عند ذكي مبارك كالفن يجب أن يسمو على الأوضاع

والتقاليد حتى لا يفتر ويضوي بوضعه تحت رحمة المتزمتين . ويصور مذهبه الأدبي الصريح فيقول :

«ما أردت إلا الصدق في تصوير العواطف والأهواء ، ليكون في ذلك مادة تنفع في دراسة علم النفس ، ومن المستحيل أن أريد الدعوة إلى الفجور والمجون، لأني بحكم أعمالي الرسمية من رجال التربية ، ولأني رجل متأهل ولي أبناء .. قد يكون في القراء من يخفي عليه أني أدعو إلى مبادئ خلقية سامية أغشيها بالفتون ، كما يصنع الطبيب في تغشيه «البرشامة المرة» بغشاء من الحلواء » .

ثم يتحدث عن مذهبه الأدبي بصورة أوضح ، فيقول: [1]

«أنا أتحدث عن الحب بصفة جدية ، وأتعقب أخباره وآثاره في ما أرى وأسمع .. إن سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندعي النيابة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء ؟ نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم . نحن نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل ، بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية ، نحن نفكر في خلق عصبية أدبية ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول . وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس ، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء ويطعمنا في الخلود » .

ولقد اتخذ خصومه مما كان يكتب في أدب الوجدان ومن اعترافاته ووجدانياته سلاحا في يدهم شهروه في وجهه لمهاجمته والنيل منه ، خاصة في أعوامه الأخيرة في ذروة مأساته بعد أن عجز عن الرد عليهم بنفس القوة والعرامة التي كان عليها في عنفوان شبابه ورجولته .

***

لقد قضى زكي مبارك جل حياته في التدريس وفي مجال التعليم ، وقد بدأ

(١) الرسالة : ١٩ فبراير ١٩٤٠ .

حياته بالتدريس وظل يعمل في هذا الحقل حتى وصل إلى منصب مدرس في كلية الآداب . ثم أخرجه الدكتور طه حسين من الجامعة عام ١٩٣٤ ، بسبب انتقاد الدكتور زكي مبارك لآراء الدكتور طه حسين في كتابه عن النثر الفني ، فرفض الدكتور طه تجديد عقده وقال : « أنا لم أستشر في تعيينه فلا أستشار في تجديد عقده». ومن هنا بدأت معركة عنيفة من جانب الدكتور مبارك فكتب يقول[1] :

«لقد ظن طه حسين أنه قد انتزع اللقمة من يد أطفالي ، فليعلم حضرته أن أطفالي لو جاعوا لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه ، ولكنهم لن يجوعوا ما دامت أرزاقهم بيد الله » . وتأثر لذلك كبار الكتاب والأدباء حين رأوا الدكتور مبارك الذي جاهد في الخارج حتى حصل على أرفع الشهادات العلمية بمجهوده الخاص ، يخرج من الجامعة وليس له أي مورد آخر وأسرته كبيرة ومسئولياته ضخام ، فكتب المازني موجهًا الكلمة إلى الدكتور طه حسين ، فقال :

«إني أرى الدكتور طه قد خرج من زمرتنا معشر الأدباء الأحرار ودخل في زمرة الملقبين وذوي الجاه والسطوة والسلطان » ..

«يعز عليّ يا صاحبي أن أقول إنك ما كدت ترجع إلى الجامعة حتى صببت نقمتك على الدكتور زكي مبارك تلميذك القديم ، أنت إذن من أصحاب السلطان الذين يملكون أن يقطعوا أرزاق العباد أو يصلوها ، إنما أنت رجل يدني ويقصي ويضرب اليد التي ترتفع باللقمة إلى الفم فيطيرها ويوقعها في التراب .

«إني لأحدث نفسي أحيانا بأني لو كنت أقول الشعر في هذه الأيام لرثيت طه حسين ، فإنه يخيل إلى أنه مات طه حسين ، الذي عرفته وأحببته وأكبرته ، وجاء غيره الذي أنكره » .

ومضى زكي مبارك يجاهد في حقل الصحافة الأدبية سعيًا لرزقه ورزق أولاده، ثم ما لبث أن عمل بوزارة المعارف العمومية ، ولكنه لم يترك صراحته

(١) البلاغ : ١٩٣٤ .

وجرأته فلقي صدمات عنيفة من بعض وزراء المعارف ومن رؤسائه الذين لم تعجبهم صراحته وصدقه فلاحقوه بالاضطهاد وقبرت جهوده في وظيفة مفتش بالوزارة ، ورأى نفسه رغم حصوله على أرفع الشهادات العلمية يتخلف ، بينما يرى الآخرين من هم أقل منه يسبقونه في الوظيفة بفضل الحزبية والنفاق والمداراة، فأحس بالظلم والألم وشعر بالمرارة وهتف يقول : « كيف فاتني أن أنافق في عصر لم يعش فيه غير النفاق؟ » ولاحقه وزراء المعارف بالاضطهاد ، فعندما وقع الخلاف بينه وبين السنهوري أخرج من وزارة المعارف لأنه موظف بعقد ، ثم لاحقه أيضًا عندما عمل أستاذًا للأدب العربي بالمعهد العالي لفن التمثيل، فكتب السنهوري كتابًا يقول فيه : إن التدريس بالمعهد العالي مقصور على المدرسين بوزارة المعارف فأنت مفصول .

وقال زكي مبارك : «خرجت والدمع يتفجر من قلبي قبل أن يتفجر من عيني» كما لاحقه إسماعيل القباني أيضًا بالاضطهاد .. وكانت صراحته هي التي جرت عليه هذه المتاعب والمضايقات ...

«إن وزراء المعارف تكاتفوا على مخاصمتي لأني قلت كلمة الصدقِّ فنفوني من وزارة المعارف .. دخلت وزارة المعارف وأنا أعظم الرجال وخرجت منها وأنا أعظم الرجال .. من الوزر جاء اسم وزارة المعارف » .

وتركت تلك الصدمات العنيفة آثارًا سيئة في نفسيته فكفر بالكثير من القيم التي طالما آمن بها وأحس بالمزيد من المرارة وهو يرى أن كفاحه في سبيل الأدب ضائع وكفاحه في ميدان التعليم ضائع ورأى نفسه وقد أحاطته الدسائس والأراجيف من كل ناحية . حينئذ أحس بالمرارة والأسى وندم على تركه صحبة الفأس يوم كان فلاحا في سنتريس ، وقال إن الاتجار بالتراب كان أجدى له من صحبة القلم ، يقول :

«ليذكر أن الدكتور زكي مبارك لو أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ، ولكنه – بلا أسف – سيموت فقيرًا ، لأنه أنفق نشاطه في خدمة

الأدب العربي » .

ولقد أعيد زكي مبارك عندما عين على أيوب وزيرًا للمعارف إلى دار الكتب ، ثم أعاده الدكتور طه حسين إلى التفتيش في وزارة المعارف ، ورجع إلى التفتيش بعد تولي زكي العرابي الوزارة عام ١٩٥٠ في الدرجة الثالثة ، كما كان وضعه عام ١٩٣٧ ، وكان زكي مبارك إذ ذاك يقترب من الستين فغامت الدنيا في عينيه وسحقه اليأس، وقد هزته تلك الصدمات المتوالية هزًا عنيفًا ، وكان يتقاضى مرتبًا ضئيلاً لا يكفيه هو وأسرته الكبيرة .

وكانت مأساة زكي مبارك أنه لم يكن صنيعة حزب من الأحزاب ، ولم يكن له سناد من الأسندة التي رفعت كثيرًا من أدباء مصر ، فعرفوا راحة البال وعاشوا في حماية الأحزاب ، مثل المنفلوطي ، والعقاد ، وطه حسين وهيكل ، وغيرهم ...

***

وكان للمرأة أثر كبير في مأساة زكي مبارك .. لقد كان يحلم بالحب الكبير .. وبالمرأة التي صورها بصورة مثالية في أدبه .. وقد افتقد ذلك في الواقع ، فقد زوجوه في سن مبكرة وهو طالب في الأزهر وحدثت فجوة كبيرة بين الأديب الفنان المرهف الحس ، وتلك الزوجة الطيبة البسيطة ، ولكنه رغم ذلك ظل يفخر بزوجته الفلاحة التي حفظت عرضه مصونا ، وقلبه مصونًا ، ثم ذهب إلى باريس ورأى من صور الحرية والحياة والانطلاق ما رأى ، وهو الرجل المحافظ المتزوج .. وهنا أحس بالتناقض والأزمة ، وقد مر بنفس التجربة والأزمة بطل قصة «أديب» للدكتور طه حسين وهو صديق للدكتور طه اسمه « جلال شعيب» الذي أصيب بالجنون في نهاية حياته بعد تجربة عاصفة في باريس .. وأرى أن هناك ملامح من حياة زكي مبارك وجلال شعيب في كثير من نواحي حياتهما .

ولم يجد زكي مبارك في أزمته الأخيرة عاطفة حب كبيرة تعوضه عن إحساسه بالنقص في أوضاعه الاجتماعية والمادية والعاطفية كما أن الملهمة التي كانت

«الحب الكبير » في حياته وهي « زوزو » أو ليلى المريضة في الزمالك تخلت عنه في أعوامه الأخيرة ، واتجهت إلى أضواء السينما والمسرح بعد أن تعرض للاضطهاد في عمله .

وكانت هناك ظروف غدر وهجر من محبوباته فشرع قلمه يهاجم المرأة بعنف وقسوة ، وكتب في بداية مأساته في عام ١٩٤٢ كتابًا بعنوان «بين آدم وحواء» في مجلة الرسالة هاجم فيه المرأة بأسلوب ملفوف ، ثم عاد وهاجم المرأة في أعوامه الأخيرة بأسلوب عنيف قاس ودعا إلى الحذر منها وعدم الاطمئنان إليها فكتب يقول عنها :[1]

« إن الخراب الذي ينتظر البيوت التي يسيطر عليها «الجنس اللطيف » ونعوذ بالله من شر هذا الجنس ، فهو في كل مكان وفي كل زمان مصدر البلاء .

«وخلاصة القول أن الرجل لن يذوق طعم السعادة أو الشرف إلا إن كان السيد الأول والأخير في البيت » ! وقال في أسى ومرارة :

«إن الحب تجارة خاسرة ، وأرض موات ... »

(١) الرسالة / ٢ فبراير ١٩٤٢ .

مأساة زكي مبارك



أحس زكي مبارك بالمرارة والضياع ، وهاله أن يجد نفسه في المؤخرة وقد كافح كفاحًا علميًا دؤوبًا ونال أرفع الشهادات من جامعة القاهرة وجامعة السربون، وكانت صراحته وصدقة سبب بلائه ، فقد جرت عليه الكثير من المتاعب .. يقول أحمد حسن الزيات :

«لو استطاع زكي مبارك أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئًا من «فن الحياة» لاتقى كثيرا مما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة » .

بعد أن تعرض زكي مبارك للاضطهاد في عمله وتخلى محبوباته عنه ، وتخلى بعض أصدقاء عمره الذين طالما دافع عنهم ، وأحسن إليهم . ومما زاد محنته ، وأثار أساه وأحزانه ، أن صديقه أحمد حسن الزيات فتح صفحات «الرسالة» عام ١٩٤٤ لنفر من المتعصبين الجامدين أمثال محمد أحمد الغمراوي ، والسباعي بيومي ، ومحمود قراعة للهجوم على زكي مبارك ، فاتهموه بالإلحاد والمجون والتخبط ، فتناوبوا الهجوم عليه ، وحاولوا تأويل كتاباته خاصة من كتابيه «النثر الفني » و« التصوف الإسلامي » لمحاولة تحطيمه ، وإثارة الرأي العام عليه ، متمسحين بالدين الإسلامي فكتب الغمراوي عن القرآن في كتاب النثر الفني » وجه في مقالاته التهم جزافا للدكتور زكي مبارك واعتسف في أدلته ، فاتهمه بالدعوة لوحدة الوجود ، وإنكار إعجاز القرآن ، وبالتناقض ، وشارك في تلك الحملة المنظمة السباعي بيومي ، ومحمود قراعة ، وعبد المتعال الصعيدي وامتدت حتى سنة ١٩٤٥ ، وكتب زكي مبارك ردًا على جوقة الحاقدين يقول لهم

فيها ممثلين في الغمراوي :

«آرائي في إعجاز القرآن بكتاب النثر الفني آراء تقنع المستنيرين بإعجاز القرآن ، وهم الفئة التي تخاف عليها من الارتياب في إعجاز القرآن .

«لا خوف من إلحاد العوام ، فإيمانهم لن يتعرض لأي زلزال ، ولكن الخوف من إلحاد الخواص ، وقد أقنعتهم في كتاب «النثر الفني» بصحة إعجاز القرآن هؤلاء الخواص كانوا في بالي وأنا أؤلف كتاب «النثر الفني» أ فأشبعتهم إيمانًا بإعجاز القرآن ، ولن يرضيهم كلام غير كلامي .

«ثم ماذا ؟ لم أترك محاسبتك على حقدك ، ولا أرجو الله أن يغفر لك ، فما لمثلك مكان في فردوس الغفران .

«وإن بدا لك أن تعاود الإصرار على اتهامي في إسلامي فأقول بعبارة صريحة إن إسلامك مدخول ، وإنك تستر جهلك بدعوى الغيرة على الدين الحنيف

«وما غرامك بأن تفهم قراء الرسالة أني أحارب القرآن ؟

«وما هذا الغرام الأثيم بإيذاء المؤمنين يا هذا الشخص المسلم بالصورة لا بالوجدان ؟

«إن آرائي في إعجاز القرآن شرحت صدور الألوف من المسلمين ، وأقنعتهم بأن القرآن قوة روحية لا قوة لفظية ، وأن روحانيته هي السر في ظفره بالخلود

«اترك تكفير الدكتور زكي مبارك ، وتكفير الدكتور طه حسين .

«يا هذا الفلان ، واشغل نفسك بمصيرك ، يا شخصًا لن يكون له نصير ، ولو اعتصم بالخيوط الفانية مما ينسج السراب .

«أنا أقنعت المثقفين بإعجاز القرآن ، فماذا صنعت أنت ؟

ثم يختتم د. زكي مبارك كلمته في مواجهة تلك الحملة الشرسة الظالمة للتشكيك في إسلامه فيقول :

« أما بعد ، فهذا جوابي لقرائي ، وهو جواب رجل يقال إنـه ملحـد ، ردًا عـلى مفتريات يذيعها عني جهول يدعو إلى اتهامي في إسلامي .

«فلن أترك الرد عليك ما دامت مجلة الرسالة ترى أنك أهل لنشـر مـا تسـوق من المفتريات .

«رأيي هو الرأي ، ويكفيني مجدًا وشرفًا أني أقنعت المثقفين بإعجاز القرآن ، وعند الله جزائي ، وما عند الله أخلد من الخلود » .

وغض الزيات نظره على هذه الحملة الشرسة ضد صديقه زكي مبـارك الـذي طالما سانده ، وقامت الرسالة على أكتافه ، وكان الهدف هو إخراج زكي مبارك من الرسالة ، وبالفعل توقفت مقالات زكي مبارك في الرسـالة في مطلـع عـام ١٩٤٥ ، وانتقل للكتابة في صحيفة «البلاغ » حتى رحيله .

وقيل أن الزيات قـد اسـتجاب لـوزارة المعـارف بـإخراج زكـي مبـارك مـن الرسالة بعد مسـاجلاته مـع وزراء المعـارف وحملتـه الصـريحة علـيهم، لحـرص الزيات على اشتراك الوزارة في الرسالة.

وإذا كان الزيات قد فتح صفحات الرسالة بلا رقيب لهذه الحملة عـلى زكـي مبارك ، وإثارة البلبلة والشكوك حـول إسـلامه مـن خـلال كتابيـه «النثـر الفنـي » و«التصوف الإسلامي» ولكن هل نسى الزيات ما كتبه عن زكي مبارك حين أصدر كتابه «التصوف الإسلامي » عام ١٩٣٩ ، حيث كتب الزيات يقول[1] :

«وفي رأينا أن هذا الكتاب «التصوف ألإسلامي » يؤرخ طورًا جديدًا من حيـاة صديقنا الدكتور : هو طور التأمل والتعمق والنفوذ إلى صميم الجد في الموضوع .

«وهو خليق بأن يسدل على ما تقدمه من مغامراته الجريئـة في الـرأي والفعـل ستارًا من الصفح الجميل .

(١) الرسالة / ١٩٣٩ .

«وإذا كان الله قد عود الشعراء والأدباء أنه يغفر لهم ذنوبهم ما تقدم وتأخر لبيت من الشعر أو خاطرة من الرأي ، فما أحرى زكي مبارك أن يُدخل معه الجنة على حساب كتابه ألفًا من الأدباء المحرومين » بعد تعرض زكي مبارك للاضطهاد في عمله بوزارة المعارف وتخلى محبوباته عنه ، وتخلى الأصدقاء عنه في أعوامه الأخيرة ، لجأ إلى الشراب يتخذه ملجأ وملاذًا يهرب به من واقعه المر الأليم لينسى مأساته وواقعه ، ولم يستطع أن يخوض المعارك والمساجلات ليرد على الذين استغلوا انهياره وهاجموه في ظروف محنته .

وفي أعوامه الأخيرة هام بالعزلة ، وكلف بالوحدة ، وانطوى على نفسه بعيدًا عن المجتمع في وحدة ممضة قاسية ، ولم يعد يكتب سوى خواطر متناثرة مشتتة في جريدة «البلاغ» تحت عنوان «الحديث ذو شجون» ليس فيها خفة ظل زكي مبارك ورقة بيانه .

ومن هنا كانت مأساة إنسان مرهف الإحساس رقيق العاطفة ، ومفكر كبير كان ضحية لظروف وعوامل قاسية عملت على تحطيمه وهدمه .. لم يفهم واقع المجتمع .. واتخذ من الصراحة الكاملة مذهبًا .. لقد أراد أن يغاير التقاليد ، وأراد أن يخلق فنا في أدب الحب والجمال ، وظن أن أحاديثه الوجدانية المستمرة عن الحب والجمال ستمر بلا عقابيل ، ولن تكون لها آثار مدمرة ..

لقد اتخذ خصومه من هذه الأحاديث الصادقة في الحب والجمال سلاحًا ناجعًا ليحطموه به في أعوامه الخيرة ، والحق أن أكثر هذه الأحاديث الوجدانية كانت من وحي أحلام قلبه وأوهام عاطفته ..

وفي إبان محنته القاسية (١٩٤٤ – ١٩٥٢) هاجم المرأة بعنف وقسوة ، ودعا على الحذر منها ، فازدادت الحملة عليه ضراوة ، وظن البعض أنه يتناقض في أقواله ويتذبذب في مواقفه ، فكيف يصرح بهذا الكلام من ملأ الدنيا غرامًا وتشبيبًا، ومن كان يقدس الحسن ويعبد الجمال .. هاجموه لتلك الخواطر الحزينة اليائسة وغاب عن بالهم ظروف محنته ومأساته ..

ويحس مبارك بالمرارة والندم على اشتغاله بالأدب (لو كنت اتجرت بالتراب لصرت اليوم من أكابر الأغنياء ، ولكني اشتغلت مع الأسف بالأدب فذرعت فضاء الله في فرنسا إلى أن سبحت في بحر المانش وذرعت فضاء الله في العراق إلى أن سبحت في شط العرب واشتغلت بالتدريس عشرين سنة فكانت صراحتي تقطع رزقي فأخرجني الأستاذ محمد حسن العشماوي من عملي وأخرجني الأستاذ عبد الرازق السنهوري من وزارة المعارف) .

ويصف عبد الله حبيب الدكتور زكي مبارك فيقول أنه (خلق بغير فرامل أو هو كالسيارة الضخمة التي لا تقوى فراملها على ضبط توازنها ودقة سيرها فهو إن سار لابد من حادثة تصادم) .



لن يموت زكي مبارك



كتب الأديب إبراهيم عبده سنة ١٩٤٥ مقالا في مجلة الاثنين[1] أراد أن يداعب فيه «زكي مبارك» فكتب تحت عنوان « زكي مبارك في ذمة الله» قال فيه :

«قضى اليوم المرحوم الدكتور «زكي مبارك» انهار بقضاء الله فيه ركن من أركان العلم والفضل والأدب .

«قضى الأديب الكاتب وهو في ميعة الصبا وشرخ الشباب مأسوفًا عليه من الخصوم والأصدقاء على السواء .

«استغفر الله ، فإن أديبنا العظيم لم يكن له خصوم في هذه الدنيا وأكبر الظن فلن يكون له خصوم في دار البقاء !

«قضى درة عصره وأطروحة عصره ، وقد خلف ميدان الأدب يتيما ، ينعي علمه الذي أقامه وبناه وشيعه الأدباء وقد أصبحوا من بعده ثكالي أو كالثكالي وفطر قلبنا بكاء الأستاذ أحمد أمين الذي كانت تربطه بالفقيد أوثق روابط الود والوئام .

«فإن زكي مبارك وظف قلمه الرقيق في الدعوة لزميله وتقريظ مؤلفاته وذكره بالخير في كل مكان ، وكذلك هزت عواطفنا تعليقات الدكتور طه حسين على هذه الوفاة ، فإن الفقيد الكبير كان صديقًا باراً لم يسيء إليه مرة أو يهون من مكانته بين العلماء .

«وكانت شهقات الأستاذ عباس محمود العقاد تثير في نفوس المشيعين

(١) الاثنين والدنيا ٣ أبريل ١٩٤٥ دار الهلال .

الأسى والعقاد قليل الحزن قليل البكاء ولكنه بكى وأبكانا معه على الفقيد الذي منحه العقاد احترامه الشديد وسماه «كاتب الشرق» وخلع عليه عمادة الأدب القديم والحديث .

«كان الدكتور زكي مبارك أديبًا متواضعًا جدًا لا يتحدث عن نفسه ويأبى على الصحف أن تذيع اسمه مهما تكن المناسبات !

«وكان يكره الألقاب العلمية كراهة التحريم ، وقد أصدر عدة كتب في الأدب والاجتماع وأغفل اسمه من أغلفتها ومن بواطنها .. ولولا تلاميذه ومريدوه لأسقط التاريخ اسمه الكبير .

«لقد عرضت إحدى دور النشر على الفقيد مقابل كبير أن تصدر كتابًا له بصورته الجميلة ، فأبى لأنه كان يكره أي لون من ألوان الدعاية مع أن صورته عند القارئ الفطن أعز من الكتاب .

ثم يمضي إبراهيم عبده في دعابته الثقيلة بادعاء وفاة زكي مبارك باعتبارها كذبة إبريل فيقول :

«كان رحمه الله ، فتى غض الإهاب ، إذا نظرت إليه أخذك الوجه النضر ، وجذبتك العينان الساحرتان ، وهزت قلبك الابتسامة الرقيقة ، وصرعك الدر المنفرجة عنه !

(وحسبنا الله ونعم الوكيل في شعره المجعد المصفف الذي أخذ طربوشه المصفى إلى الشمال قليلا . «ولم يكن صديقنا يؤثر في الشباب بأدبه فحسب ، بل كانوا يأخذون عنه بأساليب الأناقة فيتأثرون في اختيار رباط الرقبة وينهجون نهجه في تفصيل الثياب المحبوكة وتخير ألوانها .

«ويعجبون بأحذيته المثالية فينتعلونها مثلما ينتعل ، ويعتبرونه أسوة صالحة إذا ما تحدث أو أكل !

«كان الفقيد شديد الإيمان بربه ورسله واليوم الآخر ، ويكره الخمر ولا يحب أن يتذوقها ويكره البيرة خاصة .

(وكان مفتشًا في وزارة المعارف يحبه المدرسون حبًا جما ، وكان كريمًا سخيًا ينافس حاتم الطائي في كرمه وسخائه ، محسنًا بعيد الصيت ، مسرفًا في إحسانه لا تعرف يده اليسرى ما أعطت يده اليمني.

«نرثيه والقلم يرتعش في أيدينا ونذكره والخوف يملأ قلوبنا ، فأننا نخشى أن نكون قد أسأنا الرثاء » ولابد يومًا من لقاء في دار البقاء » !

وقد أثارت هذه الدعابة القاسية التي اتضح أنها كذبة أول أبريل ضجة واسعة، فعلق العقاد على هذه الدعابة بقوله : لو تقدم نعي د. زكي مبارك أسبوعًا لصدقناه ، ويا ليته تقدم أسبوعًا فقد كتب « زكي مبارك قبل نعيه بيومين مقالا حمل فيه حملة عنيفة على العقاد .

وقد اتصل الكثيرون بمنزل الفقيد ليستوضحوا موعدا الجنازة وكانت المفاجأة أن الدكتور زكي مبارك يرد عليهم بنفسه ويذكرهم بأنهم في أول أبريل » .

وقد حضر من سنتريس كثيرون من أقاربه منزعجين لهذه الوفاة المفاجئة كما انهالت عشرات البرقيات في رثائه .

وعندما ذهب د . زكي مبارك لإلقاء محاضراته في معهد التمثيل بعد إعلان وفاته المزعومة . وجد طلبته مجتمعين وبينهم خطيب يؤمن الفقيد فظهر د . زكي في وسطهم وقال لهم: «لقد أتيتكم من جهنم حيث تطيب الحياة لأمثالكم وكل سنة وأنتم طيبون في أول إبريل » .

وامتشق الدكتور زكي مبارك قلمه وكتب تحت عنوان «لن يموت زكي مبارك قال فيه[1] :

---

(١) الاثنين والدنيا ٩ أبريل ١٩٤٥ .

«قرأت الدعابة الطريفة التي تشرها د . إبراهيم عبده في مجلة الاثنين الصادرة في «أول أبريل » فتذكرت أشياء وقعت في أول «الأباريل» الماضية أشياء كانت أجمل ما وقع في حياتي ، وهي أسرار مجدي في حياتي » ففي شهر أبريل من سنة ١٩٢٤ تقرر قبول الرسالة التي قدمتها للظفر بالدكتوراة في الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة عن الأخلاق عند الغزالي .

«وفي اليوم الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٩٣١ ظفرت بالدكتوراة من جامعة باريس عن النثر الفني » .

«وفي اليوم الرابع من إبريل سنة ١٩٣٧ ظفرت بالدكتوراة في الفلسفة مع مرتبة الشرف من الجامعة المصرية الجديدة عن «التصوف الإسلامي» .

«وفي اليوم الأول من أبريل سنة١٩٤٥ نعاني الناعي مداعبًا في مجلة الاثنين فكانت فرصة أختبر فيها أخلاقي ، ولكن كيف ؟

«إن الدعابة قضت بأن يمشي في جنازتي حضرات الأساتذة أحمد أمين وطه حسين ، والعقاد !

«إنها لدعابة قاسية ، ولكنها مردودة على المداعب الظريف ، فما يجوز وهما أن يشمت هؤلاء الأساتذة يوم أموت ، فما أنصفهم قلم بمثل ما أنصفهم قلمي ؟

«ثم ماذا ؟

«ثم تكون كذبة إبريل شاهدًا بعظمة إبريل ففي هذا الصباح تنزعج روح غالية فتسأل بالتليفون عن موعد تشييع الجنازة فيكون المخاطب لصوتها هو صوتي ويكون الجواب :

لقد خفت أن يغتالني الموت بغتة   وفي النفس حاجات إليك كما هيا

«وأنا لن أموت قبل أن أظفر بما أريد من تلك الروح !

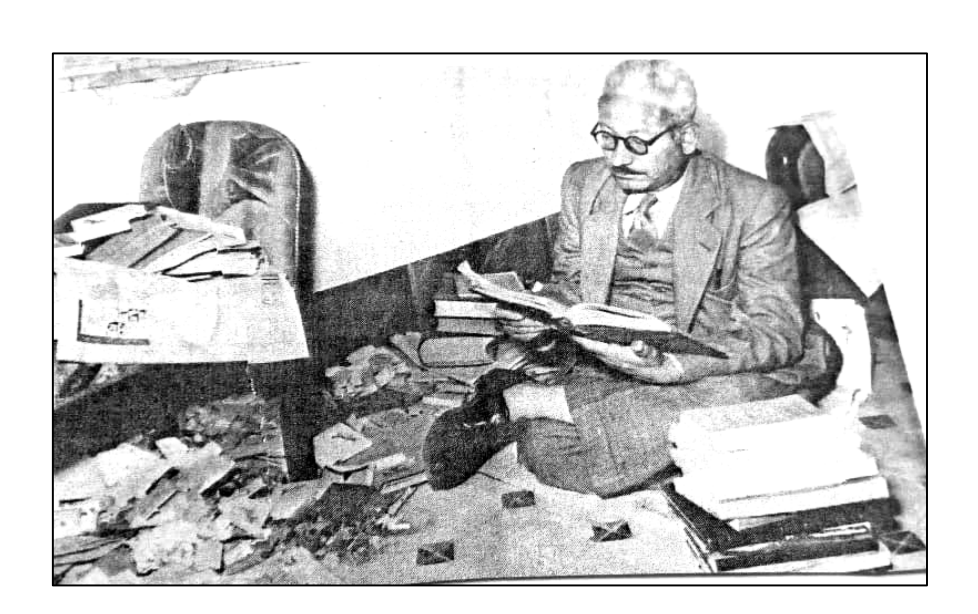
«وما هو الموت ؟

«وما هو تكريم الأموات ؟

«إن كان الموت أن يتهدم جسمي يوما فهذا سيقع ، وإن كان الموت أن آرائي ستموت فتلك أكذوبه من أظرف الأكاذيب ، فأرائي ستسيطر على النـاس إلى آخـر الزمان !

«قد أموت ، فما هي وصيتي لأبنائي ؟

«وصيتي إليهم أن يتخلقوا بأخلاقي العلمية !



نجوت من الموت



في سنة ١٩٤٨ تعرض الدكتور زكي مبارك للموت بالتسمم في الإسكندرية لو لا لطف الله وكان في تلك الحقبة من حياته يعاني من مصاعب عدة ويصور زكي مبارك تلك الحادثة بأسلوبه الطريف وخفة ظلة فكتب يقول : (١)

(لقد نجوت من الموت ولله الحمد والله يكرم من عباده من يريد خطر في البال أن يكون طعامي في إسكندرية من الأسماك فطلبت من المطعم الفلاني سمكة فقدم سمكة مشوية اسمها (المياس) وثمنها عشرون قرشًا . لقد تشاءت من السمكة فقد كان فمها مفتوحًا ولكن مدير المطعم أقسم أنها جديدة فأكلت منها قطعتين .

رجعت إلى البيت وأنا أشعر بالتسمم وهجعت لحظات ثم صحوت وأنا أقول لن يرثيني أحد يوم أموت فيجب أن أعيش لأغيظ أعدائي ! ..

ما الذي كانت تكتبه عني جريدة البلاغ ؟..

أظنها تقول : مات الدكاترة زكي مبارك واستراح منه القراء ! ...

حين شعرت بالتسمم تذكرت اختلاف النحويين في إعراب (أكلت السمكة حتى رأسها) فما بعد السيدة (حتى) يجوز جره ونصبه ورفعه وحتى اسم امرأة أعرفها ...

(١) البلاغ . الحديث ذو شجون . ٢٣ فبراير ١٩٤٨ .

ولم أصدق أنني نجوت ولكن المؤكد أنني نجوت من الموت ولله الحمد وعليه الثناء سألت نفسي : هل يكون في الجنة جريدة اسمها البلاغ وفيها صفحة أدبية أحررها بقلمي وهو قلم عجزت عن شرائه الدعاية البريطانية في أعوام الحرب ؟ أكتب هذا وأكرره على صفحات البلاغ فما استطاعت دولة أن تشتري ضميري وهو قلمي .

الفقر في الجيب ليس بعيب وإنما العيب هو الفقر في الأخلاق.

إنني أعتز بنفسي وبأخلاقي، فما رأيت أشرف مني وعلى خصومي أن يموتوا بغيظهم إن كانوا صادقين !

أنا نجوت من الموت ؟ .. نجوت ونجوت ونجوت ولله الحمد وعليه الثناء ، لقد عرفت السماء أنني مريض بالتسمم وقد أموت .. فقضت الليل والنهار في بكاء! ..

أنا متشكر أيتها السماء ! .. من الذي يصف ليالي الإسكندرية لو قضت الأقدار بأن أموت ! ؟ ..

وسألت نفسي من جديد : هل تكون في الجنة جرائد ومجلات ومطابع وقلم مطبوعات وأشعار نظمتها للتغني بالحور العين ! ؟

وهل يكون فيها محاكم ومحامون !؟ وهل يكون فيها مجمع لغوي !؟

أنا لا أستريح إلى حياة خالية من المشاغبات ، فإن كانت طريقي إلى الجنة فسأنشئ فيها جريدة ! .. وإن كانت طريقي إلى جهنم فسأنشئ فيها ثلاث جرائد ! .. والمنهاج مرتب منذ اليوم وقد اخترت المحررين المخبرين والمترجمين وجعلت الأفضلية لزملائي في جريدة البلاغ ! ..

أنا لا أكاد أصدق أنني نجوت ولكني بحمد الله نجوت وهذه الصفحات تشهد بنجاتي من شماته أعدائي !..

كنت أتوهم أن الجد في طلب العلم لا يظفر صاحبه بغير الإعزاز والتبجيل ويوم كنت أتخيل أن الكفاح في سبيل الأدب قد تنصب له الموازيين .. كنت طالبا وكنت مدرسًا بالجامعة المصرية من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٣٧ ودرت معها من ميدان الإسماعيلية إلى ميدان الفلكي ومن حي المنيرة إلى قصر الزعفران ثم إلى حديقة الأورمان ولم يزاحم هواها في فؤادي غير الأعوام التي قضيتها بكلية الآداب في جامعة باريس) .





أضاعوني .. وأي فتى أضاعوا !..



كتب زكي مبارك يقول في سنواته الأخيرة تحت هذا العنوان :[1]

«آه ثم آه ! .. وآه ثم آه .. ثم آه !

أضاعوني .. وليتهم عرفوا أي الفتيان أضاعوا ؟

«أضاعوا الأديب اللوذعي والكاتب الألمعي والبحاثة الذي لا يشق لـه غبـار .. وصاحب القلم الذي كتب «ألحان الخلود» وسجل لنفسه كل آيات الخلود» .

«آه ثم آه !

«أضاعوا الدكاترة زكي مبارك ولو كان الأمر مقصورًا على دكتور واحد لهـان الأمر ولكن الأمر يشمل الدكاترة الثلاثة الخالدين !

«بالله عليكم .. هل يصح هذا أيها الناس ؟

«أهكذا تضيع القيم ؟!

«وهكذا تضيع العبقريات ؟!

أنا ما ضـيعت في الأوهـام عمـري .. ولكنـي ضـيعته في الأبحـاث ولـيس في الشرق ولا في الغرب ولا في الهند ولا في السند رجل له جلد على البحث والـدرس مثلي وكان أستاذي في السربون يقول لي :

(١) مجلة مسامرات الجيب ، ٢٥ ديسمبر ١٩٤٩ .

«أنا أحسدك على نشاطك يا دكتور أنت لك من الجلد مثل ما لعشرة من الرجال !

«واسألوا عني ليلى المريضة في العراق تخبركم عني الخبر اليقين .

«ثم يأتون بعد ذلك .. ويضيعوني !

«آه ثم آه يا بلد !

«ولكن من الذين أضاعوني ؟

«هل فيهم من كتب مثل ما كتبت ؟ ونظم مثل ما نظمت ؟ أو دون مثل ما دونت ؟ أو بحث وحقق في العربية مثل ما بحثت وحققت ؟

«أنا رجل ذو ضمير ولو افترى المفترون !

«أنا رجل له ماضٍ وله حاضر وله مستقبل في الحياة . وفي التاريخ .

فهل لك أن تحدثني عن خصومي وعن أي ماضٍ لهم أو حاضر أو مستقبل ؟

«لن تجد إلا اسمي .. وأفعالي الغر الخالدات ؟

«أنا أسهر الليل كله ولا يستطيع الشبان أن يسهروه ثم أصل بالليل النهار !

«وأنا أستطيع أن أمشي عشرات الكيلو مترات وأين من هذه القوة الهرقلية من ميوعة شبان هذا الزمان .

« أضاعوني ! أضاعوني وأنا القائل :

يا ليلى يا يليلى يا ليل   يا ليلى يا ليلى يا ليل

آه ثم آه وآه !

ولكن زكي مبارك اسم لن يضيع !

وكان آخر مقال كتبه د . زكي مبارك تحت عنوان الحديث ذو شجون نشر

بعد رحيله يقول فيه :[١]

«كان يقال من علمني حرفًا صرت له عبدًا والدكتور طه حسين علمني ثلاثة حروف ألم تسمعوا أنني دكاترة ؟!

«الدكتوراة الرابعة من الإسكندرية وقد أعددت البحث وسأنجح ، فإن تجاهل الأساتذة منزلتي فسأهجوهم في «البلاغ» ، وهي فرصة لمقالة آخذ بها دنانير تنفع في استدعاء سعدية لقضاء ليال سود في إسكندرية ، ومن سعدية ؟

«يقال إنها فتاة تقيم بالزيتون، أتوكل على الهوى وأمضي إلى هناك لأقضي لحظات مع فتاة ألهمتني أجمل أشعاري ، فهي أوحت هذين البيتين :

أكاتم القلب وجدًا لو نطقت به ... لثار يسأل ما خطبي وما شاني

يا قلب دعني لكتماني أنادمه ... لم يبق لي من نديم غير كتماني

«إنها جمال يوحي ، والجمال الموحي هو الجمال .

«قضينا في الإسكندرية أسابيع نلهو ونلعب ، وأبو نواس يقول :

«رب جد جره لعب ! هو نفسه الذي قال :

لن أذود الطير عن ثمر ... قد بلوت المر من ثمره

«أنا مسافر إلى إسكندرية فهنئوني يا قرائي ، وسأرسل إلى البلاغ مقالة أصور بها آلامي في حياتي .

«فعل «مسافر» معناه بالفرنسية قطع الرجل أجزاء من حياته ، وأنا بهذا أقطع أجزاء من حياتي ، لأني مفتش المدارس الأجنبية بمصر ، وسأذرع فضاء الله من الشمال إلى الجنوب فأزور أسوان وأسيوط وإسكندرية والمنيا ومنفلوط .

قال زكي مبارك :

---

(١) البلاغ: الحديث ذو شجون، ٢٦ يناير ١٩٥٢.

بقيــة مــن صــباك الغــض باقيــة وجذوة مـن غرامـي وقـدها بـاقي
تعــالي نحيــي شــهيد اللهــو ثانيــة ونصرع الهم بين الكأس والساقي

«وهذا خطاب من أحمد فؤاد يذكر فيه أن زوجتـه تسـتغرق في الضـحك حـين تقرأ مقالاتي ثم تبكي بعد ذلك ، ويطلب توضيحًا لهذه الحالة الغريبة ! ..

الجواب عند زوجتك ، يا سيد فؤاد ! ..

وقد لقى زكي مبـارك صـدمات عنيفـة مـن بعـض وزراء المعـارف الـذين لم تعجبهم صراحته وجرأته فلاحقوه بالاضطهاد والظلم وقبـرت جهـوده في وظيفـة مفتش بوزارة المعارف ورأى نفسه رغم حصوله على أرفع الشهادات العلميـة مـن جامعة القاهرة وجامعة السربون يتخلف بينما يرى أنداده ومن هم أقل منه يسبقونه في الوظيفة بفضل الحزبية والنفاق فأحس بالظلم والألم وشعر بـالمرارة في أعماقـه فقال : كيف فاتني أن أنافق في عصـر لم يعـش فيـه غيـر النفـاق ورغـم أن جهـوده وعبقريته قد قبرت في هذه الوظيفة ورغم ثورته إلا أنه كان يريد أن يعيش لأنه فقير فصبر على خدمة الحكومة على مضض (اعلمـوا أن أخـاكم مكـره لا بطـل وأنـه لم يتمرغ في تراب الميري إلا وهو في فاقة وإملاق .

«وهل خلق الشعراء لهذا الاستعباد .. وهل كان ذلك هو المصير المنشود لمـن يؤمنون بفاطر النخيل والأعناب ؟ .. ولكن لا بأس فمن واجب الشاعر الذي أخضعه الفن للقوافي والأوزان أن يقبل الخضوع لقيود الوظيفة وقيود المجتمـع .. ومـا قيمـة الفلسفة إن لم تحسن تعليل الصبر على قيود الوظيفة وقيود المجتمع؟ ..)

واصطدم زكي مبارك بـبعض وزراء المعـارف مثـل السـنهوري وإسـماعيل القباني وفهمي النقراشي وكثرت الدسائس من حوله وأثيـرت الأراجيـف وانتهـى الأمر بإخراجه من وظيفته .. ونقله السنهوري إلى وظيفة صغيرة بدار الكتب فكتب زكي مبارك يقول له : لن أطيع أمـرك إلا يـوم يقـوم الـدليل عـلى أنـك وزيـر فقـد أسلمت أمور الوزارة إلى (قباني بلا ميزان) (يقصد إسماعيل القباني) فـأراد الـوزير

أن يقيم الدليل على أنه وزير بالفعل فأصدر قرارا بالاستغناء عن خدماتي ..)

وقد قابل الأديب محمود تيمور زكي مبارك في تلك الفترة ويروي محمود تيمور ذكرياته يقول أن الدكتور زكي مبارك قال له :

-اسمع مني مصداق ما تقول ماذا تعلم من أمر وكيل الوزارة فلان (إسماعيل القباني) الذي قلت فيه أنه قباني بلا ميزان ؟ ..

-هل جد في أمره جديد ؟ ..

-ترحم عليه ؟ ..

-لم أعلم بالنبأ .. متى ؟ ..

-ذهبت روحه أو قل ذهبت ريحه وأنا الذي قتلته وكفنته وواريته الثرى .

ثم استل إضمامة من الرزمة التي حملها وبسطها في يده فإذا هي تجربة لمقال عليها إصلاحات بقلمه وقال :

-هذه شهادة وفاته ستظهر غدا على رأس موضوعات مقالي (الحديث ذو شجون) .

فقال محمود تيمور : إنا لله وإنا إليه راجعون .. ولماذا لم تتركه يطول عمره قليلا يا دكتور ؟ ..

-لقد طويته ونشرته وهكذا أراد لنفسه أنه جحد حقي .. وتعرض لسخطي على أني أكرمته بهذه الميتة الأدبية الرفيعة .. من يمت بسيف زكي مبارك ناله شرف عظيم ..)

في تلك الفترة العصيبة كثرت الدسائس حوله وبعثت الضغائن وتربص له أعداؤه وقد قاضاه بنك مصر في تلك الفترة الحرجة لدين عليه وشركه مصر الجديدة وكان قد اشترى منها منزلا وامتنعت وزارة المعارف عن دفع إيجار مدرسته في سنتريس المقامة في منزله وكان الغرض تجويع زكي مبارك وإذلاله

ومحاربته في رزقه ليحني هامته ويخضع .

ولاقى المزيد من المتاعب حينما نقد خطبة العرش في افتتاحية الرسالة سنة ١٩٣٩ وحقق معه وطلب إليه أن يعتذر على صفحات الرسالة فرفض وقال : (لا أعتذر عن مقال كتبته وأنا أعتقد أنه حق) فألغى عقده مع وزارة المعارف .

وقال له الزيات : يعز على يا دكتور أن تخرج من عملك بسبب مقال في الرسالة وأرجو أن تقابل العقاد صديق النقراشي وقال العقاد أن النقراشي لن يستطيع إخراج زكي مبارك من التفتيش خوفًا من ألسنة الجرائد الوفدية ولكنه سيتعقبه بالتفتيش لعله يجد تقصيرًا يفسخ العقد .

(وفي تلك السنة ذرعت فضاء الله من الشمال إلى الجنوب وفتشت جميع المدارس الأجنبية وكتبت تقارير لم يسبق لها مثيل ..) ويقول زكي مبارك أنه عمل في دار الكتب سنة ١٩٢٤ فشرح الجزء الأول من الأغاني ثم دعاه الدكتور طه حسن لتدريس اللغة العربية في كلية الآداب فلما وقع الخلاف بينه وبين السنهوري أخرجته وزارة المعارف لأنه (موظف بعقد) ورأى السنهوري أنه ما زال ينتفع بأموال وزارة المعارف لأنه أستاذ الأدب العربي بالعهد العالي لفن التمثيل فكتب السنهوري كتابا يقول فيه : أن التدريس بالمعهد العالي مقصور على المدرسين بوزارة المعارف فأنت معزول .

يقول زكي مبارك : (خرجت والدمع يتفجر من عيني ...)

وكانت صدمة حياته ..

وكانت صراحته هي التي جرت عليه المتاعب والمضايقات يقول :

(إن كان وزراء المعارف تكاتفوا على مخاصمتي لأني قلت كلمة الصدق فيمن رأيت من وزراء المعارف فنفوني من وزارة المعارف ويقول :

(دخلت وزارة المعارف وأنا أعظم الرجال ، وخرجت منها وأنا أعظم

الرجال) .. من الوزر جاء اسم وزارة المعارف) .

وقد أحس بالمرارة في أعماقه لمحاربته في رزقه وعيشه يقول (إن الحكومة المصرية سخرت وزراءها ليخرجوني من أعمالي بلا مكافأة وبلا معاش ..) وكان الغرض هو تجويعه ووضع أنفه الأشم في الرغام ولكن زكي مبارك لم يهن وظل صلب القناة .

يقول : (وإن كان النقراشي والسنهوري استطاعا أن يخرجاني من عملي بوزارة المعارف لأجوع فليعرفا جيدًا أنني لن أجوع فالله القادر على كل شيء يعجز عن إخراجي من الملكوت وفيه أطايب الطعام والشراب) .

ودعاه محمد حسن العشماوي حينما عاد وزيرًا للمعارف إلى العودة فقال له بإباء : (لن ندخلها ما داموا فيها ...) .

وأعاده المرحوم على أيوب عندما جاء وزيرًا للمعارف إلى دار الكتب ثم أعاده طه حسين إلى التفتيش في وزارة المعارف ورجع إلى التفتيش سنة ١٩٥٠ في الدرجة الثالثة كما كان عينه المرحوم على زكي العرابي (باشا) عام ١٩٣٧ وكان إذ ذاك يقترب من الستين فغامت الدنيا في عينيه وسحقه اليأس وقد هزته تلك الصدمات العنيفة هزًا عنيفًا وأحس بالمرارة من محنته في حياته .

وخرجت رؤوس الأفاعي تثير حوله الأراجيف وتكيد الدسائس ورموه بتهم عديدة ونعتوه بالزنديق والملحد .. والفاجر ! ..

وتركت تلك الصدمات العنيفة آثارًا سيئة في نفسيته فكفر بالكثير من القيم التي طالما آمن بها وأحس بالمزيد من المرارة وهو يرى أن كفاحه في سبيل الأدب ضائع وكفاحه في ميدان التعليم ضائع .. ورأى نفسه وقد أحاطته الدسائس والأراجيف من كل ناحية حينئذ أحس بالمرارة والألم وندم على تركه صحبة الفأس يوم كان فلاحا في سنتريس وقال إن الاتجار بالتراب أجدى من صحبة القلم يقول :

(.. ليذكر أن الدكتور زكي مبارك لو كان أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ولكنه – بلا أسف- سيموت فقيرًا لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي ..) .

وبعد حصول زكي مبارك على الدكتوراه الثالثة سنة ١٩٣٧ من الجامعة المصرية أمل أن يتحسن وضعه فقالوا له لا يمكن أن تحصل على الترقية إلا بعد طبع الرسالة وقد كلفته الرسالة الضخمة أموالا كثيرة حين أعد منها خمس نسخ خطية فكيف يطبعها وهو فقير الجيب ولكن لم يتحقق شيء من ذلك يقول :

(حالي في مصر حال عجيب فقد عشت دهري مظلومًا وكان الظن أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انتزعت الدكتوراة من أنياب الأسود ؟ .. هل يصدق أحد أن وزارة المعارف المصرية لا تعطيني غير مرتب مؤقت إلى أن يطبع ذلك الكتاب ؟ .. هل يصدق أحد أنني لا أستطيع التعبير عن قيمة ذلك المرتب لئلا يشمت في أعدائي ولئلا يعرف الناس أن رجال الأدب في مصر قد يعيشون عيش الفاقة والإملاق ؟ ..

هل أستطيع أن أخبر بأن وزارة المعارف في مصر قدرت لي مرتبًا لا يكفي أن يكون مصروف جيب ولمن ؟.. لرجل متهم بالغنى ولا يصبح ولا يمسي إلا وهو مطوق بأغلال من التكاليف ؟ ..

وكانت مأساة زكي مبارك أنه لم يكن صنيعة حزب من الأحزاب ولم يكن له سناد من الأسندة التي رفعت كثيرًا من أدباء مصر فعرفوا راحة البال وعاشوا في حماية الأحزاب . ويرى أن أحدًا لم يعز أدبه كما أعز سعد زغلول أدب المنفلوطي والعقاد وكما أعز عبد الخالق ثروت باشا أدب طه حسين ولم تقم قيمته الأدبية على أساس من الشهرة السياسية ولم يصل إلى مركزه الأدبي بفضل الحزبية المعروفة إذ ذاك وعاش نظيف القلم نظيف القلب عف النفس لم يؤجر قلمه لحكومة مصرية أو غير مصرية ولم يسخر أدبه لحزب من الأحزاب فعاش فقيرًا رغم مكانته الأدبية

الرفيعة يقول : (إن راتبي في وزارة المعارف ضئيل وأنا أكمله بالمكافأة التي آخذها من البلاغ أجرا على مقالات لا يكتب مثلها كاتب ولو غمس يديه في الحبر الأسود ثم أنى أنفق نصف مكافأة البلاغ على كتب فرنسية وعربية ، فما الذي يبقى لأنفقه على نفسي وعلى أبنائي ؟ ! ..)

ودفعه هذا إلى الكتابة عن الذات وأيضًا في الوجدانيات وكتب رسائل غرامية وهمية إلى ملهمات مثل ليلى المريضة في العراق وليلى المريضة في أسيوط ومصر الجديدة وحلوان وغيرها .. هذا الانفصام بين الحقيقة والخيال في البيت ، وفي العمل وبين الصورة المثالية المتمثلة في مجال الحب قد سدت أبواب العمل أمامه ودفعته إلى العنف والأسى والحزن العميق .

ثم راح يذوب تدريجيًا .. وأصبح حطامًا يدب على الأرض ، وأخيرًا خبت هذه الشعلة المتأججة بالقوة والجمال والوفاء والحب في ٢٣ يناير عام ١٩٥٢ ، عن ستين عاما ودفن في بلدته الأثيرة «سنتريس » بالمنوفية .

وأخيرًا .. صمتت القيثارة الشجية التي أبدعت لنا أحلى ألحان الخلود ..

صمت القلب الذي غنى لبدائع الحسن ..

لقد عاش زكي مبارك للحب والجمال ..

ومات شهيد الحب والجمال !

ألوان من أدب الاعتراف

إلى الدكتور طه حسين بك

تشريح عاطفة الحب



أيها الأستاذ الجليل :

سألتني يوم لقيتك بوزارة المعارف في صباح اليوم الثامن من هذا الشهر عن سبب اهتمامي بالحديث عن الحب ، وقد جرى ذكر كتاب «ليلى المريضة في العراق » ، وكانت الابتسامة التي شعّ ضوءها في ملامح وجهك ، تحمل معنى التعجب من أن تسمح الدنيا بأن أعيش بقلب المحب المتيَّم المتبول !

فأجبتك بأن شواغلي في الحياة قد تجعل الحب آخر ما يشغل قلبي . ولكن حديثي عن الحب صار مذهبًا أدبيًّا أشرّح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء ، وأنا أريد أن أخلق جوًّا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان !

فابتسمت ابتسامةً لها معنى وقلت : اخلق البشاشة في الزمن إن استطعت !

ثم خضنا بعد ذلك في شجون من الأحاديث سأرجع إليها بالتدوين بعد حين.

ويهمني اليوم أن أشرح ما كان يجب أن أقول في جواب سؤالك لو رأيتك منشرح الصدر لا تشكو تدخّل بعض الناس في شؤون قد يجهلونها كل الجهل ، أو يتحمسون لها بعقيدة مدخولة وإيمان مصنوع .

ونحن لم نبتكر الكلام عن الحب، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود

الوجود ، وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ؟ ولأي غرض يحيا الناس إذا أصيبتْ أفئدتهم بالاعتلال فلم تحسْ ذلك الروح اللطيف ؟

وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية ؟

إن المتوقرين والمتزمتين يتوهمون أنهم وجدوا الحجج الدوامغ حين استطاعوا أن يقولوا : إن الدنيا في حرب ، وإن الظروف لا تسمح بالحديث عن الحب !

وأقول : إن ما هتفوا به لم يصدر إلا عن صدور مِراض ، فالحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء ، وهو يساور قلوب الجنود في أصعب أوقات الحروب . وهل كان عنترة بن شدَّاد ما جنًا ما حين قال :

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ   مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددتُ تقبيل السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسَّم

وما هتف به عنترة هتف به ضابطٌ مصريٌ سمحت له لجنة الأناشيد العسكرية بأن يقول :

مين زيّك عندي يا خضْرة   في الرقة يا غصن البان

ما تجودي عليَّ بنظرة   وأنا رايح عَ الميدان

وهذا الضابط اسمه عبد المنصف محمود[*] ، ولا أعرف كيف اهتدي إلى هذه الفكرة الطريفة وهو يعيش في زمن مثقل بآثار التصنع والرياء .

لقد قيل إن هذا النشيد لا يصلُح للجنود وهم يتأهبون للقتال وأقول إن هذا النشيد من شواهد العافية ، فلكل جندي في الجيش أوطار روحية يحن إليها حنين الأصحّاء ، وتلك الأوطار الروحية هي الحافز الأعظم للاستبسال في ميادين

(*) عبد المنصف محمود (١٨٩٦-١٩٧٢) : ضابط مصري وشاعر تغنى الموسيقار محمد عبد الوهاب بأغنيته «مين زيك عندي يا خضرة» من مؤلفاته: خير سني العمر – ٣٠ عامًا في مكافحة الجريمة – بحيرات مصر الشمالية .

الشـرف والوطنيـة والجنـديُّ الفـارغ القلـب مـن عاطفـة الحـب لا يصـلح أبـدًا للاستشـهاد في سـبيل الـوطن الغـالي ، لأن الـوطن لا يغلـو إلا في صـدور أربـاب القلوب .

وأنا أنتظر أن يسود ذلك النشيد على سائر الأناشيد ، فقد هتف به جنديٌّ سليم الجسد والروح ، وهو أفضل من الأناشيد التي ينظمها شعراء لم يعرفوا الفـرق بـين السيف والرمح ، ولم يسمعوا صوت المدفع إلا في ليالي رمضان !

من الفضول أن أحدثك عن أهمية الحب ، ولك فيه تاريخ ، ولكنـي أحـب أن أعرف كيف ينذُر أن نجد بين كتابنا من يهتم بتشريح عاطفة الحب ؟ وكيـف يرانـا من سيدرسون آثارنا الأدبية بعد جيل أو أجيال حين يظهـر لهـم أننـا كنـا نحسـب الحديث عن الحب فنًّا من فنون المزاح ؟

الحب جِدُّه جدّ ، وهزله جِدّ ، ولا يتجاهـل هـذه العاطفـة إلا الغـافلون عـن تأثيرها الحسن أو السيئ في تلوين الوجود .

الحبُّ جِدٌّ صُراح ، والاهتمام بدرسه يؤدي خدمات عظيمـة لعلـم الـنفس ، فكيف نسكت عن درسه وله قدرة قاهرة على الضـر والنفـع ، ولـه تـأثير شـديد في توجيه مصاير الرجال ؟

وبأي حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب ؟

وكيف يجوز أن يقهرني العيش في عصر التزمت على الدفاع عـن كتـاب «لـيلى المريضة في العراق» وهو كتابٌ أردت به خلق الحيوية الأدبية بين أبنا هذا الجيل ؟

إن التوقر الذي يصطنعه بعض الناس قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد يوم كان لنـا شـعراء لا يهتفـون بغيـر أوطار القلوب .

وأين نحن من العصر الذي عاش فيه عمر بـن أبـي ربيعـة ، أو العصـر الـذي

عاش فيه العباس بن الأحنف ، أو العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي ؟

وهل يمكن القول بأن الحاسة الدينية في هذا العصر تفوق الحاسة الدينية في أعصر أولئك الشعراء ؟

لا يمكن القول بذلك فنحن بشهادة رجال الدين أقلُّ حرصًا على الواجبات الدينية من الرجال الذين عاصرهم أولئك الشعراء ، والله يغفر لي ولك ولسائر أهل هذا الجيل !

الفرق بيننا وبين أسلافنا لا يحتاج إلى توضيح

كان أسلافنا أصحاء ، فكانت عصورهم تجمع بين أشرف صنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال ، وكان الرجل الدِّيان لا يتورع عن رواية أظرف قصائد الغزَل والتشبيب ، وكان هناك توازن بين حقوق القلوب ، وحقوق العقول ، فكانت الحياة أشبه بالحديقة الغنية التي تجمع في شِعابها بين حياض الأزهار والرياحين ومسارب الأفاعي والصِّلال .

وأين نحن اليوم من أولئك الأسلاف ؟

في مساجدهم رُوِيت طرائف الأشعار ، ونوقشت مذاهب الزيغ بلا تحامل ولا إسراف ، وفي بيوت أتقيائهم دُوِّنت أوهام القلوب والعقول ، وعلى ألسنة أصفيائهم جرتْ أحاديث الشك والارتياب ، وبفضل ذوقهم الأدبي والفني عاشت أضاليل لها صلات بحيوات الآداب والفنون .

أما عصرنا الذي أعرف وتعرف فهو عصر الرسوم والأشكال ، وأخشى أن يمر بلا أثر ملحوظ في خدمة العقل والقلب والذوق وإلا فأين الرجل الصالح الذي يقهرك روحه على التزام حدود الدين ؟

وأين المفكر الذي يقهرك إخلاصه للفكر على التزام حدود العقل ؟

وأين الأديب الذي يحدثك عن نفسه فتشعر بأنه صادق كل الصدق .

ومن أجل هذه الرخاوة الفكرية والأدبية والدينية فترتْ حماسة النـاس للفكـر والأدب والدين وأصبحت القلوب في مثل حال الشراب المقتول .

وهنا أجد الجواب عن سؤالك ، أيها الأستاذ الجليل

فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية وأتعقـب أخبـاره وآثـاره في كـل مـا أرى وما أسمع ، وآية ذلك أني لم أنته ولم أنزجر بعد أن رأيت غضبتك في جريدة السياسة يوم ظهر كتاب «مدامع العشاق» وقد قلت إنه يحرض عـلى الشـهوات ، سـامحك الله وغفر لك !

وأنا أجِدُّ في كل شيء ، أجد في الصداقة والعداوة، وأجد في الشـك واليقـين ، وليس أمامي مجال المزاح، وكيف يتسع وقتي للمزاح وما قضيت يومًا خاليًـا مـن الشقاء بالدنيا والناس ؟

فما أرضاك عني فهو حق ، وما نفَّرك مني فهو حق ، وما خصصـتك بغضـبي ورضاي إلا لأني أعرف أنك تعاقر من فرح الحياة وحزن الحياة بعـض مـا أعـاني ، وأنا موقن بأنك تفهم عني ما أريد ، لأنك تعرف من سريرتي مالا يعرف سواك

فما رأيك في الحب ؟

ألا ترى أنه عاطفة تستحق أن نتأثرها في جميع المسالك ؟

وإذا سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن نـدِّعي النيابـة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء ؟

وهل يرضيك أن نصيرَ إلى ما صار إليه مـن يختـارونْ المحفوظـات لتلاميـذ المدارس ، وقد تحاشوا جميع الأشعار التي تفصح عن أوطار القلوب .

لو كان جميع المعاصرين من «العـارفين بـالله » لخَـفَّ الأمـر وهـان ، ولكـن معاصرينا من الأساتذة يسمعون حديث الحب مـن المـذياع ، ويـرون آثـاره عـلى الشاشة البيضاء ، وفيهم من يتمنى لو سارت أشعاره بـين أغاريـد أم كلثـوم وعبـد

الوهاب !

يجب أن تعرف أني أخاطب الدكتور طه حسين الذي نقل أروع أحاديث الحب عن أهل الغرب ، الذي يحاول أن يطبع الجمهور المصري على تذوق الموسيقى الأوربية ، لأنها في رأيه من أصلح الأدوات للتعبير عن العواطف والأهواء .

والأوربيون الذين تعرفهم لا يرون الحب من المزاح ، وإنما يرونه عاطفة تنقل القلب من مكان إلى مكان ، وتسبغ عليه أثواب الصحة والعافية ، وتشريحٌ عاطفة الحب هو عندي باب لتربية العواطف .

تربية العواطف ؟

أعوذ بالله من الجهل بأخلاق زماني ومن التعرض لسفاهة الأقاويل وشناعة الأراجيف !

نعم ، أنا أدعو إلى الاهتمام بتربية العواطف ، وليقل من شاء ما شاء .

كل شيء في بلادنا موضع اهتمام إلا العواطف ، وإهمالُ العواطف ستكون له آثام أيسرُها رياضة الشبان على رذيلة «عدم الاكتراث» وهي أقبح الرذائل وأشدُّها تأثيرًا في قتل حيوية الشعوب .

وهل تستطيع القول بأن الرأي العامّ عندنا يحس هذه المعاني ؟

وما الرأي العام ؟ أليس صدًى لآراء الباحثين والمدرسين وهم عندنا قومٌ هيّابون خوَّافون يرون الحديث عن العواطف من فضول القول ؟

وخمود العواطف هو الذي قتل الشاعرية في مصر ، وهو الذي جعل المصريين أقل الناس إحساسًا بمعاني الوجود، وإلا فحدثني عما أقيم على شواطئ النيل من ملاعب ، وما أقيم فوق عبابه من سهرات يغنَّى فيها الشعر ويرقص الخيال ؟

هل عندك نبأ عن حدائق القناطر الخيرية ؟ وهل سمعت أن إحساس المصريين بالحياة حمل بعض الشركات على أن تنشئ فندقًا هناك ؟ ولن تقام الفنادق في تلك الضاحية السحرية وليس فينا رجل يشوقه قضاء الليل وهو يسمع هدير النيل في شهر آب ؟

وهل عندك نبأ عن حديقة الأزبكية ؟

ألم تسمع أن حديقة الأزبكية ليس فيها مكان تشرب فيه فنجانًا من القهوة أو الشاي إذا بدا لك أن تقضي فيها ساعة أو ساعتين لمحاسبة نفسك أو مداعبة خيالك ؟

ويتحدث الناس هذه الأيام عن بحيرة قارون بمناسبة زيارة جلالة الملك لإقليم الفيوم ، فهل تعرف أنه لا يمكن قضاء ليلة بجوار تلك البحيرة إلا في فندق أقامه هناك أحد الألمان ؟

وهل سمعت أو سمع أحد من أصحابك أن شاعرًا مصريًا قضى ليلة أو بعض ليلة وهو يداعب سمكات تلك البحيرة ؟

وما رأيك في (بحيرة التمساح) ؟

هل سمعت لها خبرًا في قصيدة أو رسالة أو كتاب لأديب من أهل هذه البلاد.

وهل خطر لك أن تقضي ليلة بجوار تلك البحيرة عساك تعرف شيئًا من أخبار مدينة الإسماعيلية ؟

ولا موجب لتذكيرك بالأقصر وأسوان : فالناس جميعًا يعرفون أن الأجانب هم الذين تشوقهم تلك المغاني ، وإليهم يرجع الفضل في إقامة أسواق الحياة بتلك المناسك ، على أيامها ولياليها أطيب التحية وأزكى السلام !

ومالي أبعد بك فأنقلك إلى تلك البقاع النائية ؟

هل أتفق لك أن تُلقي درسًا من دروسك بين الأشجار التي تحدق بكلية

الآداب ؟

وهل فكر أستاذنا لطفي باشا في محادثة طلبة الجامعة عن أرسططا ليس تحت الدوح كما كان يصنع فلاسفة اليونان ؟

ذلك يشهد بأن إحساسنا بالحياة يكاد يكون في حكم المفقود، فما رأيك في الدعوة إلى الطب لهذا المرض العضال ؟

وكيف نطب لهذا المرض ونحن نرى الحديث عن الحب ضربًا من المزاح ؟

كيف وقد تهيبت تقديم كتاب «ليلى المريضة في العراق» إلى محرري الجرائد المصرية لئلا أقرأ لأحدهم كلمة تؤذيني بلا موجب معقول ؟

وما رأيك إذا حدثتك بأني عجزتً في مصر عن بعض ما قدرت عليه في العراق ؟

كنت أحب أن أؤلف كتابًا عن «ليلى المريضة في الزمالك » أفصل به أسرار المجتمع وسرائر القلوب في هذه البلاد بطريقة روائية تفيض على شبابنا روحًا من أرواح الوجدان ، ولكني خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء .

فهل أرجو أن يصرْ قلمك بما تهيَّب منه قلمي ؟

لقد وضعت لك الخطة بكتاب «ليلى المريضة في العراق» . فأرني كيف تصنع وكيف تصوَّر عصرك وزمانك كما صوَّرتُ عصري وزماني . نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم ، نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية .

فهل أنت مستعد لاقتحام هذا الميدان ؟

نحن نفكر في خلق عصبية أدبية تعلو على العصبية الحزبية ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول ، وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس وتثقيف الشهوات

العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء ، ويطمعنا في الخلود .

ليتني أستطيع مصارحتك بكل ما أريد في خلق الحيوية الأدبية والفنية !

وكيف أستطيع وأنت كثير التلوَّم والتعتب ، ولا يصل إليك الرأي الصريح إلا مشوبًا بتهمة التحامل عليك ؟

أنت على كل حال من ذخائرنا الأدبية ، وأنا أقبلك على علاتك كما تقبلني على علاتي .

فهل يكون من الفضول أن أصارحك بأنك لا تُقبل على حياة الوجدان إلا وأنت خائف ، مع أنك قويٌّ العبارة في الإفصاح عن وساوس نفسك ، ونوازع قلبك؟

وما خوُفك وقد استقام لك أمر مصيرك الأدبي وصار اسمك من أظهر الأسماء ؟

ما خوُفك من الاعتراف بأن عاطفة الحب تستحق التشريح ؟

وما الذي يدعوك إلى الاحتراس حين أقترح عليك تأليف كتاب عما أحس شعراء العرب من النوازع الوجدانية ؟

أتخاف أهل الجمود ؟

اطمئن ، يا سيدي الدكتور ، فهم في شغل عنا بمصايرهم الدنيوية ، ولن يفرغُوا لنا إلا بعد أن تفرُغ من إعلام الناس بما نريد من شرح أوهام العقول والقلوب.

***

أما بعد فأنا أعلن عتبي عليك ، لأنك ابتسمت ابتسامة فيها طيفٌ من الاعتراض على اهتمامي بتشريح عاطفة الحب ، وأصارحك بأن هذا مذهبٌ أدبيٌّ

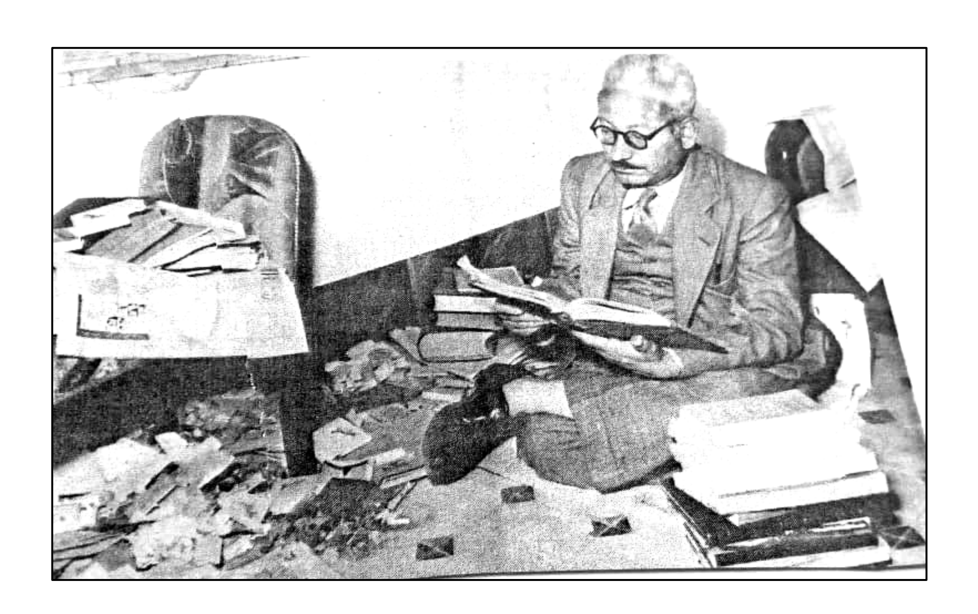
سأحرص عليه ما دمت أملك القدرة على تشريح العواطف والأحاسيس .

فافتح قلبك ، يا سيدي الدكتور ، لوحي الحياة والحب ، واعلم أن الابتسام الصادق هو أثمن ما يملك الرجال .

وقد شاءت المقادير أن أستطيع مقابلتك في كل يوم بعد أن صرت معنا في وزارة المعارف ، وسأحوَّلك إلى حزبنا ، حزب الأخوة الأدبية الذي يرى أقطار العربية جسمًا واحدًا إذا شكا منه عضو أسعدته سائر الأعضاء بالسهر والأنين .

وستُريك الأيام بعد قليل أن الميزان الذي كنت احتكمت إليه في تقدير العداوات والصداقات لم يكن أدق الموازين ..

والله المسئول أن يديم عليك عافية القلب وشباب الروح .



أعوذ برب الفلق من شر ما خلق

للكاتب المجهول



صحوت مع الفجر بعد ليلة حمراء ، وهي الليلة التي ولد فيها هذا العام الجديد ، صحوت ظمآن ، ولكني لم أستسغ الماء ، فقد شعرت أنه ذَوَّبٌ من ثلوج الشمال ، وعند ذلك هتفتُ :

«أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق» !

ولكن ما هو الفَلَق ؟

أهو الصبح ؟

وكيف وما كان ليلى إلا صبحًا في صبح ؟

هو إذن «واد في جهنم» ، كما قال بعض المفسرين ، وبالله أعوذ ، فما يدفع شرَّ جهنم غيرُ من خلق جهنم .

وجهنم التي أخاف هي الجنية التي أرادت أن تأسرني إلى آخر الزمان ، بالعقد الذي لا ينقضه الأحرار وهو عقد الزواج .

في عصرية الأمس قال خالها الفرنسي وهو يراني أضحك معها وألعب :

Je vous souhaite detre aussi heureux a Ioccasion de vos fiancailles que moi Durant les 42 annees de mon marriage .

وقد اعتصر الحزن قلبي في تلك اللحظة ، لأني كنت اعتزمت فسخ الخِطبة ،

بعد أن رأيت أن خطيبتي تنقلني إلى وطنٍ غير وطني ، وبعد أن رأيت أن أهلها صاروا أعزَّ عليّ من أهلي .

ومن حالي معها أدركت السر في أن تحرم الدولة المصرية على سفرائها أن يتزوجوا من أجنبيات .

وهل أنسى أني رفضت المشاركة في الاحتجاج على ما صنع الفرنسيون في بعض البلدان ؟

من أجل حبها أبيت أن أكتب حرفًا واحدًا في تقبيح ذلك الصنيع ، فقد بدا لي غير قبيح ، لأنه صدَر عن أهل سوزان ، وصدق شاعرنا العربي حين قال :

ومن بينات الحب أنْ كان أهلها أحبَّ إلى قلبي وعينيَّ من أهلي

إن الدرس الذي تلقيته عنها يفوق جميع الدروس ، فقد بدأت أومن بأن من يتعلم لغة أجنبية يهاجر عن وطنه بطريقة خفية ، وبدأت أفهم كيف صارت الوطنية شريعة عند الفرنسيين والإنجليز والألمان واليابانيين .

أولئك أقوام لا يعرفون غير لغاتهم ، فهم في أمان من احتلال الأفكار والآراء

وهل كان من العبث أن يقول جماهير المشرِّعين من المسلمين بعدم جواز الصلاة بغير اللغة العربية ؟

من المؤكد أنهم كانوا يعرفون أن الله يقبل الصلاة بأية لغة وبأي صوت ، ومن المؤكد أنهم كانوا يعرفون أن الله يسمع دبيب النمال كما يسمع قعقعة الرعود .

فكيف أوجبوا أن تكون الصلاة باللغة العربية ؟

إنهم أرادوا إنشاء قومية لها لغة واحدة ، ودينٌ واحد ، لتأمن احتلال الأفكار والآراء .

ذلك درس تلقيته عن خطيبتي ، الخطيبة التي ودعتها عند انتصاف هذا الليل، وإن لم تتلق مني أي جزاء

قالت ونحن نفترق : لن تراني بعد هذا الليل !

فقلت : سنلتقي بأقرب مما تظنين ، فلابد للجمر من وقود وأنت الوقود .

وماذا تريد أن تأخذ مني ؟

ألا يكفي أنها صيرتني أشهر الدعاة لوطنها الغالي . الغالي عليّ وحدي من أجل حبها ، فما تألم روحها يوم سقوط باريس كما تألم روحي . ولا هفا قلبها على فرنسا الجريحة كما هفا قلبي

وأنا برغم بخلها مُثنٍ على روحها اللطيف ؛ فقد علمتني كيف أدرك قيمة الصورة التي ساقها شاعرنا العربي حين قال :

تعطيك شيئًا قليلاً وهي خائفة   كما يمس بظهر الحية الفِرقُ

لن ينقضي عجبي من الفروق بين الأرض والناس

أرض فرنسا هادئة من قديم الزمان ، وهي قليلة التعرض للزلازل والبراكين ، وقد رأيت بعيني كيف جَلَّودا عِرقًا نبض من نهر السين وهم يُمرُّون من تحته قطار المترو بوليتان ، فكيف يكون أبناء تلك الأرض الهادئة الثابتة ثوَّارًا ومتقلبين في أكثر الأزمان ؟

وأرض اليابان معرضة في كل وقت للزلازل والبراكين ومع هذا عُرِف اليابانيون بالقرار والاطمئنان ، على اختلاف الأحداث والزمان ، فما هذا الذي نرى من الفروق بين الأرض والناس ؟

ولكن كيف عرفتُ أن اليابانيين أهل قرار واطمئنان ؟

كيف عرفت ذلك ولم أزر اليابان ، ولم أعرف من أوصاف أهلها غير أشياء لا تتصل بأعماق النفوس ؟

لو كان لي حظ التعرف بصديقة يابانية لأدركت شيئًا من السريرة اليابانية ، على شرط أن أتكلم لغتها الأصلية .

اللغات أنفاس ، فلا تصدقوا من يزعم أنه صافح روح شاعر وهو يقرأ شعره مترجمًا إلى إحدى اللغات ، ولا تصدقوا من يتحدث عن بلاد زارها وهو يجهل لغتها كل الجهل أو بعض الجهل ، وإنما نصصت على «بعض الجهل» ليفهم ناس من خلق الله أن الذي لا يتعمق في لغة من اللغات لا يجوز له أن يقول إنه يعرف تلك اللغة ، فالمعرفة الناقصة أخطر من الجهل لأن الجاهل يقف عند حده فلا يتزيد ولا يستطيل ، أما ناقص المعرفة فقد يوهمه الغرور أنه أعلم العلماء ، فيؤذي نفسه قبل أن يؤذي الناس .

وخطيبتي التي فارقتها بالأمس هي إحدى بنيّات لطيفات من اللواتي عرفت في القاهرة أو في باريس ، وحالي معها كان عجبًا من العجب ، فقد رضيت عنها ورضيت عني ، مع أن حياتنا سلمت من جميع الأسواء الروحية والوجدانية ، في زمان لا تأنس فيه روح إلى روح إلا بمعاقرة الأهواء .

كان الزواج هو الغاية التي تريد ، وقد كان يجب أن نسارع قبل أن تفضحنا الأقاويل ، فما الذي وقع في تلك الليلة الحمراء ، وقد سبقته تماهيد ؟

بدا لي أن لجاجة العاطفة وصلت إلى أبعد حدود العنف فرأيت أن أستعير خيالاً من العقل الذي عشت به سنين . وهل بقى لي من العقل إلا طيف من خيال؟

فكرت فيما تمناه لنا خالها العزيز ، وقد عاش اثنين وأربعين عامًا وهو سعيد بالزواج ، ثم افترضت أن سعادته الزوجية دامت لأنها بُنيت على الهدوء ، والعاطفة الهادئة تبني برفق ؛ فمالي أتعرض لعاطفة مجنونة الجموح ؟ وكيف أسمح لهذه الجنية بأن تزلزل الخيال الباقي من عقلي !

لقد راعني بكاؤها فبكيت

قالت بصيغة الاستفهام لا التقرير : ? Tout est fini enter nous

فأجبت بالصمت

ومن قال إني سأرجع ؟ ومن قال إني سأراجع ؟

ذلك فراق ، ليس بعده تلاق

لن يؤذيني أن تخرجي من سمائي ، فإني واثق بأني سأجد هواي حين أشاء ، وإنما يؤذيني أن أتصور أنك يئست من وفائي ، وأنك صرت يتيمة بعد أن خمدت نيران أشواقي ، ولن تخمد نيران أشواقي .

لن يصلح ما بيننا إلا إن سمعت شكواي : هذا الصدر يسير عاريًا في كل يوم ، كسائر النساء في هذا الجيل ، فكيف يهادن جميع الرجال ، ويحاربني وحدي ؟ وهذه العيون توجه نظرات وغمزات ، ولا تأسر أحدًا ، مع أنها تخاطب جميع الخلائق، فكيف تأسرني وحدي ؟

قلبي هو القلب ، وجمالك هو الجمال ، والناس ما عَدانا خيال في خيال .

لا تسأليني عن حالي ، فأنت حالي وأحوالي ، وأنت ماضي وحاضري ومستقبلي، وأنت ضميري المركوز في ضمير الوجود .

لن أيأس منك ، ولن تيأسي منى ، ولن يقول قائل إني فارقت هواي في لحظة من لحظات الغضب أو العناد أو العتاب .

أنا حاربت فرنسا وهي صحيحة ، وسالمتُها وهي جريحة ، وأنت الخيال الزائر من ذلك البلد المحبوب .

لن أشمت بفرنسا مع الشامتين ، ولن أذكرها بغير الجميل ، وإن جانبتِ الجميل .

قال الجنرال دي جول : لبنان وديعة في يدي وسأسلِّمه لفرنسا .

يقول هذا القول وهو مغلوب ، وتلك غاية الغايات في صدق الوطنية وأنا أمجِد هذه الوطنية ، وأتمنى مثلها لنفسي .

إن الاستعمار من أَنِصِبة الأمم القوية ، فمتى نكون من المستعمرين ، كما كان الآباء والأجداد ؟

آفة الاستعمار هي التسلط الغاشم ، تسلط الحاكم الجاهل الـذي يقـول كمـا قال بعض حكام فرنسا في الهند الصينية : Je suis le maitre

ولابد لنا من استعمار نجرّب فيه أخلاقنا السياسية ، وفي السياسة أخلاق ، إذا تولاها عظماء الرجال .

والاستعمار لم يَعْد صعبًا كما كان قبل أعوام قصار لاطوال ، كـان الاسـتعمار يحتاج إلى جيوش برية وبحرية ، وهو بعد اليوم سيكون في ميـدانين اثنـين : ميـدان الأدب وميدان الاقتصاد ، وسـلاح الأدب هـو الصـدق ، وسـلاح الاقتصـاد هـو الأمانة ، فلنحرص على أن نكون الصادقين الأمناء .

***

أما بعد ، فأنا لا أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، وإنما أعـوذ بـرب الفلـق من خير ما خَلق ، وهو الجمال .

ومعنى هذا أني سأراجع خطيبتي الغالية ، وهي الفتاة الملثوغة الراء .

إنها تحاول أن تنقلني إلى وطنها ، وأنا أحاول أن أنقلهـا إلى وطنـي ، وسـنرى بعد قليل من الغالب ومَن المغلوب .

للشَّعر في رأسها بريقٌ سرقت شعاعه من نيران قلبي .

والتموج في خدودها مسروق من تموج أشعاري .

وسحر عينيها الزرقاوين منهوبٌ من سحر عينيّ الخضراوين .

وتبارك الذي تفضَّل فجعل لون عيوني مما يهيج الحيات السُّود .

سنفترق ؟ سنفترق ؟

هو ذلك إن جاز أن تزهد العيون في الضياء

يا بنت فرنسا الغالية ، تذكّري ليـاليَّ وأيـامي ، وارحمـي مَـنْ يصـعب عليـه أن تجرحيه ، وهو الصديق الأوحد لوطنك الجريح لن نفترق .

لن نفترق ، وهل نستطيع أن نفترق ؟

وإذا أرادت الطبيعة أن نكون خائنْين ، فلنكن خائنين ، لنتحرر من مواثيق الجهلاء ، وما هي الطبيعة التى يتحدثون عنها جاهلين ؟

الطبيعة هي الصدق في تلوين ما خلق الله من حقائق الوجود .

وسيكون هوانا تعبيرًا أبديًّا عن ضمير الوجود .. ومقالتي هذه تصويرٌ لمحنة روحية لن تخمد قبل أن تخمد النيران الصوارخ في ضمائر الجبال.

«الكاتب المجهول»



لقد هان هذا الخطب!(*)

للكاتب المجهول



لقد هان هذا الخطب ، وما كنت أنتظر أن يهون ، ولكن الدنيا بصروفها الغرائب تهوِّن الخطوب ، وكان من شيمتها أن تجسَّم الخطوب !

هان خطب القطيعة ، هان ثم هانْ ، واستشعرتُ رَوْح الخلاص ، وكنت أبغض الخلاص ، فيا عجبًا لزمن يجعل بعدي عنكم شهوة يطمح إليها فؤادي !

ما بكيت على نفسي حين ودعتكم ، وإنما بكيت عليكم بكيت على دولة الحُسن التي ذهبت إلى غير معاد ، وبكيت على اللطف الذي حُرمتموه ، كما تحرَم الزهرة من العِطر بعد الذبول ما تمثلتُ أيامكم إلا تعجبت مما تصنع الدنيا بأهلها ، فما كانت لكم نظائر في الحُسن واللطف ، ولا كانت لكم أشباه في سماحة النفس وصفاء الروح .

وبكيت أيضًا على نفسي ، فهذا مُلك ضاع من يدي، مُلكٌ أضاعه الدهر الغادر الذي لا يُبقي على شيء ، والذي يستمد سطوته من قدرته على إدالة دولة اللطف والجمال .

حُرِمتُ بقطيعتكم آخر أمل يرجوه من يقف على المقابر ليؤدي التحية إلى أموات يحسبهم أحياء يتلقون تسليمات الأحياء .

المقابر تسمع ولا تجيب ، وأنتم تجيبون ولا تسمعون بدليل أنكم تخطئون

(*) الرسالة : ٢٨ فبراير ١٩٤٤

في الجواب .

لو أنني كنت البادئ بهذا الحب لرأيت لكـم عـذرًا في الصـدوف عنـي ، فمـا يتصدَّق الأغنياء على الشعراء في كل وقت ، وإنما كنـتم البـادئين وهـذا فضـلٌ لـن أنساه إلى آخر الزمان ، فكيف تهدمون ما بنيتم ، وكان غاية في متانة البناء ؟

هل تعود ليالينا ؟ هل تعود ؟

لن تعود ليالَّي معكم يا غادرين ، لأنكم لم تعودوا صالحين لإدراك ما يشـتجر في قلبي ، ولأن هواكم قد مات ، وما كنت أحسب أنه مما يجوز عليه الموت ، وقد كذبت على نفسي حين توهمت أن الهوى لا يموت .

وأنا مع هذا فرح جذلان ، لأني واثق بأنكم لا تعانون من آثار القطيعـة بعـض الذي أعاني ، ومن هواي أن تكونوا في عافية من ثورة الوجدان ، لتعيشوا في سلام .

هل كان حبنا مزاحًا جد به الزمن فانهزم ؟

أنا كنت أجد ، وما خطر في بالي أنكم كنتم هازلين، وجِدَّ الهوى جـد ، وهزلـه جد ، لو كنتم تعقلون .

هل كنت حين أناجيكم أناجي وثنًا بلا روح ؟

لو ناجيت الصخر لأنطقته بألطف المعاني ، فكيف عجزت عن رياضتكم على الوفاء ؟

ما أشد حزني على ما ضيَّعت من لياليَّ وأيامي !

لم نكن نعرف ما النهار وما الليل

أيـــــامَ لا أدري وإن ســـــألتِ　　　مـا الفـرقُ بـين جُمعـة وسـبْت

ولم نكن نعرف أن للدنيا غدرات ينبو فيها جنب عن جنب ، وقلب عن قلـب، فترحلون عن مصر الجديدة إلى حلوان ، وهي بهجركم أبعد من أسوان .

لو كنت أعرف أن فيكم خيرًا لجعلت داركم داري ، ولو سكنتم في مقبرة تُشرف على عالم الفناء ، ولكن القدر أراد ما أراد فانتزع حبكم من فؤادي ، فأنا اليوم بلا حب ، وبلا فؤاد .

إن إقامة صرح فوق أثباج البحر أبقى وأثبت من الحب الذي أقمته فوق روحكم ، والرُّوح من الرَّوح وهو النسيم، وليس للنسيم ثبات .

انقضى عهد الحب ، انقضى بالرغم مني ، فما فارقتكم إلا بعد أن صح عندي أن هواكم لم يكن إلا أسطورة لفَّقها الخيال .

أينتهي غرامنا بمثل هذه النهاية فلا أسأل عنكم ولا تسألون عني ؟

وهل كان البهاء زهير ملهمًا حين عبَّر عما أريد فقال :

ملكتموني رخيصًا ... فانحطَّ قدري لديكم

فأغلق الله بابًا ... دخلت منه إليكم

حتى ولا كيف أنتم ... ولا السلام عليكم

لن نتصافح إذا التقينا مصادفةً في شارع فؤاد ، فالمصافحة من الصفح ، ولن أصفح عنكم أبدًا، ولو ضمنتم أن تعود معكم أيامي السوالف وليالِيّ الخوالي .

أنا فرح بما صرتم إليه ، فقد أنجاكم الله مما ابتلاني .

ولكني حزين مما صرتم إليه ، فلن تعانوا اشتجار العواطف بعد فراقي ، واشتجار العواطف هو أثمن ما تتغذى به القلوب .

وإني لأشكر لكم صنيعكم ، فقد رحمتموني من هاوية كنت سأتردى فيها إن طال حبي لكم ، وكان ثورة وجدانية تزلزل أقطار السماء .

انتهينا من العتاب ، أليس الأمر كذلك ؟

وانتهينا من ليالي مصر الجديدة وليالي حلوان ، وانتهينا من الظُّهريات الجميلة بحديقة الشاي في حدائق الحيوان .. هل تذكرون يا غادرين ؟

وانتهينا من جمع كُسارات الكأس المصدوع ، في تلك الليلة ، وهي ليلة لن تعود ، ويا ليتها تعود ، فلو صرتم رمة بالية لرجوت أن أستروح منكم روح العطر النفيس .

لا تسألوا عني بعد اليوم ، فقد تُبت توبة نهائية عن الغرام بالتماثيل ، وهي بلا أرواح .

أنا أحسنت الظن بمن لم يكونوا لحسن الظن بأهل ، فلتعاقبني المقادير بما تشاء ، وعدلٌ من الله كل ما صنع ، كما قال أستاذنا العباس بن الأحنف ، عليه رحمة الحب !

كانت غايتكم أن تستأثروا بقلبي ، وقد حاولت النجاة بقلبي فلم أفلح ، ثم كانت العاقبة أن نصير إلى ما صرنا إليه ، وما أفظع ما صرنا إليه ؟

الغدر مسخكم فأحالكم صورة ميتة برقشتها ريشة رسام جهول .

هل تذكرون تأريخ العيون الكحيلة ، وكانت أجمل ما رأت العيون ؟

استفتوا المرآة ، ثم حاسبوا ضمائركم ، إن كانت لكم ضمائر لتعرفوا أن سواد عيونكم لم يكن إلا منحة خلعها عليكم سواد قلبي ، وهو قلب يمنح الرهبة والسحر لسواد الليالي وسواد الخيلان .

وقد استرددت تلك المنحة بعد أن أيقنت أني خلعتها على من يكفر بالجميل ، ولست أغني من الله وهو مع غناه عن الثناء يؤدب من ينعم عليهم فيطالبهم بالثناء.

تخطَّروا إن شئتم في شارع فؤاد ، وانظروا هل تلتفت إليكم عين أو يخفق لكم قلب ؟

أنا أبدعتكم إبداعًا لا نظير له ولا مثيل ، وغاب عنكم جميلي فجحدتم جميلي ، وغضبة الله والحب على من يجحد الجميل .

لن أبكي عليكم ، ولكن سأبكي على أخلاقي ، وهي جديرة بالبكاء .

كنت أعتقد أني من رجال الأخلاق ، ثم ظهر أن في صدري غريزة وحشية تشتهي الاقتتال والافتراس ، وإلا فما الذي يمنع من أن أنتصر على كبريائي فأسعى

إلى داركم لأسأل عنكم ولأخلع عليكم بياض الوجوه وسواد العيون ؟

كنت أبدع البشاشة في أرواح الملاح ثم صرت المنتقم الفاتك بأرواح الملاح، فما أفظع جُرمي ، وما أسوأ صنيعي !

سأقتحم داركم بعد أيام أو أسابيع ، فما أدرى متى أنتصر على كبريائي ؟

انتظروني ، انتظروني ، لتعرفوا أن خطب الفراق لم يَهُن ولن يهون .

سأصافحكم بيدي ، ألم أحدثكم أن المصافحة مشتقة من الصفح ؟

غفرت ذنوبكم ، غفرت ، ثم غفرت ، وأنا أول من يغفر ذنوب الجمال .

عَرْبدَ الحُسن بكم فأسأتموني ، والحسن عِربيد ، ومن واجبي أن أغفر ذنوب العرابيد .

كان لي منكم تاريخ هو أجمل التواريخ ، وكان رزقًا ساقه الله إليّ ، والله حين يتفضل يمنح بلا حساب .

أنا لا أعرف متى نتصافح ، لأن هذا لن يكون إلا بعد أن أتنازل عن كبريائي ، وهذا أملٌ بعيد المنال .

سلامٌ عليكم يا أحباباً وفَوْا ثم خانوا .

أنا أعبد الجمال ، على شرط أن يعرف الجمال حقوق الوفاء.

لن أزور داركم أبدًا ، ولن أراكم ولن تروني ، فقد حلّ عليكم غضبي وغضب العاشق الصادق نقمة تنزل من السماء .

شرِّقوا وغرِّبوا في طلب المستحيل ، فصفحي عنكم هو المستحيل .

سأبدع بدائع جديدة ، وسأخلق في دنيا الحب مالا تعلمون ، فتناسَوْا عهدي ، لتعيشوا في أمان ، من جزع الوجدان .

لن تستطيعوا الفرار من انتقامي ، ولن تتخطروا بعد اليوم في شارع فؤاد ، ولن

تكونوا نهبة لأعين الحاسدين ، وألسن العاذلين ومن حق من يَخلق أن يُميت .

سلامٌ على الهوى وسلامٌ عليه ، وألف سلام .

***

أنتم تمردتم على سجن الحب ، فتمتعوا بالحرية التي اشتهيتموها جاهلين بالعواقب ، فما يتمرد على سجن الحب غير الصائرين إلى الفناء ...

كانت كلمتكم في ساعة التمرد : Vous disposez de moi

وهذا صحيح ، فقد كان من حق الهوى أن أتصرف تصرف الملك بالملوك .

لا تظنوا أنكم خرجتم من يدي ، ولا يخطر لكم في بال أني سأترك واجبي في دفن حسنكم الذاهب إلى غيابات الفناء .

هان خطبكم ، ثم هان ، وما كنت أحسب أنه سيهون، ألم أقل إن الدنيا تصنع الغرائب ؟

أنا واثق بأنكم سترجعون إليَّ قبل أن أرجع إليكم.

الشعر عندي والجمال عندكم ، والشعر أفتن من الجمال .

أما بعد فمن أنتم ؟

أنا أعرفكم بأكثر مما تعرفون أنفسكم ، فقد كنتم الغاية لما تشتهي الأرواح والقلوب ، وما اشتهيت عيناي أفضل مما اشتهيت منكم ، يا نهاية النهايات في سحر العيون .

أنا بنيتكم بيدي ، ولن أهدمكم بيدي ، والباني لا يكون من الهدَّامين .

سلامُ عليكم ، فما ألقاكم إلا إن تنازلت عن كبريائي .

احرسيني يا ليلي ، احرسيني ، قبل أن أقول : « عليك مني السلام» .

الخطاب الذي احترق بسعير الأنفاس

«للكاتب المجهول»



هو خطاب تلقيته من «فلانـة» في سـنة ١٩١٩ فمـا صـبرُ القلـب عـلى غـرام مشبوب يدوم ثلاثة وعشرين عامًا هي كألف سنة مما تعدّون ؟ ما صبر القلب على «فلانة» وفي مثلها قال المجنون:

وشـاب بنـو لـيلى وشـب بنـو ابنهـا   وأعـلاق لـيلي باقيـاتٌ كمـا هيـا

كان الدهر سمح في غفلة من غفلاته بأن ألقاها بعد طول الفراق ، ثم اسـتيقظ الدهر فعرفت ما لم أكن أعرف ، عرفت أني لن ألقاها بعد ذلك ولـو انتظـرت إلى أن تشيب ناصية الزمان .

فمن يبيعني مثقالا من الصبر الجميل عساني أتناسي أحزاني وأشجاني ؟

وهل يباع الصبر في هذه البلاد ؟

وهل ترك الاتجار فيها فيما تحدث عنه القرآن من عدس وبصل وفول مجالا للاتجار بالصبر الجميل ؟

خذوا أملاكي وخذوا حياتي في سبيل لحظة واحدة أقضـيها في حضـرة «فلانـة» لأجدد التوبة من ذنوبي ، ولأجدد العهد ، إن كانت ترتاب فيما بيني وبينها من عهد .

أكان ذلك اليوم آخر أيامي ؟

أفي الحق أني لن ألقاها بعد الوشاية اللئيمة التي نفرتها مني ؟

دنيا من الأحلام تقوّضت في لحظـة أو بعـض لحظـة بفضـل كلمـة نقلهـا أو

اختلقها نمامُ أثيم ، فما ذنبي ولم أقل في «فلانة» غير الصدق ؟

ما ذنبي ولم أقل إلا أنها كانت على تطاول الأيام أحب إلى قلبي من سائر عرائس الشعر والخيال ؟

ما ذنبي ولو أوجه إليها في حياتي كلمة واحدة تجرح الذوق ؟

إنما الذنب ذنب من ائتمنته فخان ، وكنت أحسبه أهلاً لتلقي سرائر الروح الحزين ، وهل كنت أول عاشق خدعه الواشون والرقباء ؟

الله يعلم كيف انخدعت ، فقد حسبت أن طهارة القلب تُعدي ، وظننت لجهلي أن في الدنيا ناسًا يتذوقون أخبار الحب العفيف ، ولم أكن أدري أني أكتب لنفسي صحيفة الاتهام وأنا برئ ، وكم في السجن من أبرياء !

لن أرى ذلك الوجه الأصبح بعد اليوم لأن صاحبته لا تريد أن تراني .

وكيف أراها وهي تصدر أمرها المطاع بأن أرد إليها الخطاب الوحيد الذي طلَّت به قلبي سنة ١٩١٩ ؟

ومن يصدق يا فلانة أننا كنا رفيقين في ذلك التاريخ ؟

هو خطاب أحرقته أنفاس الوجد ولم يبق منه غير أطياف ، فما حرصك عليه وهو خيال في خيال ؟

سأردّ ذلك الخطاب بلا تسويف

لا ، لا ، لن أردّ ذلك الخطاب ولو قُطِّعت أوصالي ، فهو الوثيقة الباقية على أنك كنت رفيقة صباي ، يا مثال الشرف والطهر والعفاف .

سيوضع ذلك الخطاب ، في كفني يوم أموت ، فانبشي قبري وخذيه إن عرفت طعم الحياة بعد موتي ، يا قريبة العذول الذي أفسد ما بينك وبيني ، وهي أول مرة عرفت فيها عن تجربة أن الدخان القريب يُعمي العيون .

لو كنت فاجرًا لعرفت ذنبي واسترحت .

وهل يكون الفجور أشنع مما وقعت فيه ؟

أنا أسلمت زمام أسراري لمخلوق توهمته يدرك شرف الحب ، فكان منه ما كان ، فمن يصلح ما بيننا وقد ضاق في وجهي صدرك الرحب ، ونقلك الغضب إلى الوقوف في صف الزمان.

أنا حزين ، حزين ، حزين .

وما أحزن على نفسي ، فقد شبعت من الزمان وشبع مني ، ولم يبق لي ما أخاف عليه بعد أن عانيت في دهري ما عانيت ، وإنما أحزن لارتيابك في أمانتي ، وعنك تلقيت دروس الأمانة والصدق والوفاء .

فإن فقدت عطفك فقدًا أبديًا فقد خسرت بجانبه مودة ذلك العذول ، وكنت أحسبه أشرف الناس ، وهو لك قريب ، وظلم ذوي القربى أشد من وقع الجراز المصقول كما قال بعض القدماء .

الوداع ، يا رفيقة صباي ، وداع الزهر الظامئ لقطرات الغيث .. أما الخطاب فقد أحرقتْه أنفاسي ، وأما العذول فسيحل عليه غضب الله ولعنة الحب ، ولن يلقى في دهره غير الشتات ، وسيكون هو وأهله ومن يحيط به طعامًا لنيران الوشايات والأباطيل .

الوداع ، يا رفيقة صباي ، وداع الطفل لأمه الرءوم ، وداع الموجة المتكسرة على الشاطئ الأمين ، وداع الوليد للحياة وقد أعجله الموت في يوم الميلاد !!

لقيتك بعد يأس يا رفيقة صباي ، فكاد يقتلني الجنون ...

فما الذي سيجني الواشي وقد أفسد ما بينك وبيني بكلمة أقصر من ومضة البرق وأطول من كيد الزمان ؟

ومن أعجب العجب أن يكون ذلك الواشي أنضر من ظلمة الصباح في عين الشريد الذي طال شقاؤه بظلمات الليل، فما معنى ذلك ؟

هو الحية الملساء التي تسربت إلى رياض الفردوس لفتنة أبينا «آدم» وأمنا

«حواء»

هو السم المدُوف في طيات «البرشام» الملفوف

هو العذول الذي استعاذ من شره أقطاب الصبابة والوجد والحنين .

لن أراك ، يا رفيقة صباي ، بعد اليوم ، لأن قلبك أرق من أن يحتمل فظاظة الأراجيف ، ولأن لك زوجًا يؤذيه أن يكون لزوجته في العشق تاريخ

الوداع ، وداع القلب الخائف لأطياف الأمان

الوداع ، وداع الجسد للروح

الوداع ، وداع الشاعر لديوان من أشعار الوجدان أكلته النار في يوم عاصف

الوداع ، وداع المحب للمحبوب على غير أمل في اللقاء

الوداع ، وداع المحكوم عليه بفراق الأهل إلى أن يموت في غيابات السجون

لن نلتقي بعد اليوم ، يا رفيقة صباي ، إلا في الفردوس .

وأين أنا من الفردوس؟

وهل لمن باح بأسرار الحب أملٌ في الجنة والرضوان ؟

زعم الإنسان أنه أعظم من سائر الحيوان بفضل النطق ، وبالنطق هتكتُ أسرار الحب ، فضاعت مني رفيقة صباي ، فمتى أعرف فضل الصمت ؟

الوادع ، الوداع ، وداع الكاتب لبياض الورق وسواد المداد .

الوداع ، الوداع، وداع الشاعر لعباب النيل في ليلة قمراء من ليالي الصيف ، وإلى غير ميعاد ..

«الكاتب المجهول»

القلب الغريب في ليلة العيد



أخي الأستاذ الزيات

هل تذكر ما حدثتني به منذ سنين ؟ هل تذكر أنك تشـهيت مـرة أن توجِّـه إليّ خطابًا على صفحات البلاغ عنوانه «من غريب إلى غريب» وكنتَ الغريب في بغـداد وكنتُ الغريب في باريس ؟

ولم تحدثني عما أوحى إليك أن تفكر في إنشاء ذلك الخطاب ، فهـل أسـتطيع أن أرجِّح أن أن ذلك كان بعد أن نشرتُ أنا رسالة «من غربة إلى غربة بـين القـاهرة وباريس» تلك الرسالة التي فضحتُ بها مكتوم صدري ومكنون هواي » ؟

على أنني لن أكتب مثـل تلـك الرسـالة مـرة ثانيـة ، فقـد انتهـى عهـد الغربـة بالقاهرة، وقضي الحب أن أشهد كيف تنهمر دموع الملاح يوم رحيلي إلى العراق .

انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وحلَّ عهد الاغتراب عن القاهرة فمن يردّني إليها ليلة أو ليلتين لأقضي حق التحية ، تحيـة المغـاني الآهلـة التـي كانـت تتشـوق إلى العيد، لتراني مع العيد !

ليتك يا صديقي تعرف نعمة الله عليك في بلد فيه أهلٌ وأحبـاب ، ولا أراك الله حسرتي وعذابي وأنا أتجرع كأس الغربة في ليلة عيد !

ولكن هل من السياسة أن أعلن غربتي في بغداد ، وقد لقيتُ فيها أهـلاً بأهـل وجيرانًا بجيران ؟

إن قيل ذلك فأنا أعلن أني لاأعاني غربة العقل ، وإنما أعاني غربة القلب .

وكيف أعاني غربة العقل ومحاضراتي يشهدها المئات من عشاق العلم والبيان ، ولا أخطو خطوة إلا وأنا محوط بالعطف والإعجاب ، ولا أدخل ناديًا إلا تلقاني أهله وسامروه بالترحيب والتبجيل ؟

ولكن هل يكتفي مثلي بحياة العقل ؟ يا ضيعة العمر إن كُتِب علينا ألا نظفر بغير الثناء من عقلاء الرجال ، وما أضيق العيش إن كانت لا تلمع بروقة إلا من صرير القلم وسواد المداد !

إن الحياة العلمية ليست إلا خدعة يتلهي بها أرباب القلوب وهل يخفى عليك ما يعانيه رجل مثلي حين يعود وحيدًا إلى منزله بلا أنيس ولا رفيق ؟

هل يعزِّيه حينذاك أن يتذكر أنه كان منذ لحظات يعاقر الفكر والرأي ويلقي محاضرته على جمهور من العلماء والأدباء .

ليتك تراني وأنا أدخل إلى غرفتي شارد اللب فأزيح الستائر من على النوافذ ثم أطفئ الصباح لأقف وجهًا إلى وجه مع ظلام بغداد .

ويا رحمة الله من ظلام بغداد في لياليها الطوال !

ولكن ما الذي يدعوني إلى معانقة الظلام في بغداد ؟

لا أعرف ، ولكن يُخَيَّل إليّ أن الظلام يؤنسني بعض الإيناس ، لأنه يوهمني أني في فترة من الزمن تأنس فيها القلوب بالقلوب ، وتسكن الأرواح إلى الأرواح . وربما كان الظلام في غرفتي فرصة طيبة أتبين فيها بصيص النور في منزل قريب أو بعيد فأتمثل أخيلة النجوى والعتاب ، وأتوهم ضجيج المرح في ليالي الوصال .

***

أما بعد فهذا غروب اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان وهذا مكاني على المائدة في المطعم الذي تخيرته بشارع الرشيد ، وهذه أطياف ترِدُ على القلب ، من أحباب القلب ، أطياف من مصر الجديدة والزمالك ، تلك البقاع التي لم تر فيها

النجوم قلبًا مثل قلبي ، ولم تُسدل ستائرها على هوى أعنف من هواي ..

ولِيقُلْ من شاء ما شاء .

وأسأل جاري على المائدة : هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : سنعرف ذلك بعد ساعة أو ساعتين

وأخرج فأتصفح الوجوه في شارع الرشيد بلا نفع ولا غناء ، ثم أميل على الشرطي أسأله :

هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : لم تثبت ، ولكن المحكمة تنتظر برقية من النجف فأدمدم : برقية من النجف ؟ وهل يَسرُّ من في النجف أن يفطر من في بغداد ؟ إن كان الأمر لعلماء النجف فسيضيفون إلى الصوم يومين ، ولولا أن يفضحهم الهلال لزادوا الصوم أسبوعين وأذهب إلى نادي المعارف لأسمر لحظات مع الزملاء من المدرسين فيفرحون بلقائي ويسألون : كيف غبت أمس؟ فأجيب: غبت أمس لأحضر اليوم ولكن حدثوني هل عندكم أخبار عن الهلال ؟ فيجيبون : سنعرف ذلك بعد الساعة العاشرة فأقول : والشمس تغرب في الخامسة ، فهل يمكن أن يكون بين الخامسة والعاشرة مجال لرؤية الهلال ؟

وبعد لحظة تُحوَّل إبرة المذياع إلى مصر فأسمع فتاة تُباغِم المستمعين فتقول : سادتي وسيداتي ، هذا آخر العهد برمضان : فأقول : يا إخواني ، يا حضرات الأساتذة ، يا مسلمين يا أولاد الحلال ، هذه مصر ليلة العيد .

فيجيب أحدهم وهو يبتسم : علمت شيئًا وغابت عنك أشياء.. ألم تعلم أننا صمنا يوم الجمعة ، وصام المصريون يوم الخميس ، فهم حتمًا يسبقوننا إلى العيد؟

فأقول : من هنا تعلمون أن مصر تقدمت في كل شيء فلها السبق في الصوم ولها السبق في العيد . وأنصرف محزون الفؤاد .

هذه غرفتي موحشة لا يؤنسني فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين ، وسيكون الغد يوم عمل ، لأن يوم الوقفة لا عطلة فيه في بغداد ، وإذن فسأعطي غدًا درسًا في التفسير ، وهو درس متعب لأنه في الكشاف ، وفي آية يختلف فيها أهل السنة مع أئمة الاعتزال .

وكيف أُعدّ هذا الدرس، يا رباه ، وأنا أعرف أنها ليلة عيد في مصر الجديدة وفي الزمالك ، ويا ويلتاه من لوعة القلب حين أتمثل مصر الجديدة والزمالك ؛ وغضبة الله على من تمرّ بباله خاطرة ملام وأنا أردّد أسماء تلك المغاني ، حرسها الله ، وأدام لأهلها نَضرة النسيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾

قال جار الله الزمخشري ...

هذه طلقة مدفع !

وقال ابن حجر في الردّ عليه ...

وهذه طلقة ثانية !

وكيف نوفِّق بين القولين ؟

وهذه طلقة ثالثة !

ولكن ما الساعة الآن ؟

الساعة العاشرة ! إذن ليست هذه مدافع السحور ولا مدافع الرفع ، وإنما هي مدافع العيد .

وأطفأت المصباح ، وتلفتُّ إلى النافذة لأرى ظلام بغداد وقلت : هذه ليلة

عيد بالإجماع ، فَلأرحْ نفسي من الكشاف ، ولجاجة صاحب الكشاف ، ولأقبل على قلبي أتبينُ ما فيه من فُطور ونُدوب .

وتذكرت أنني كنت أكتب رسالة وجدانية في كل ليلة عيد ، ثم انقطعت رسائلي بعد إذ مات أبي يرحمه الله ، لأنني أَنِفتُ أن أبكي بعده على غرض مُضَيَّع أو هوى مفقود(*) .

ثم بدا لي في هذه الليلة أن أبي لا يسره في قبره أن تعيش مهجتي بلا لوعة ، ومقلتي بلا دمعة ، وكان يرحمه الله جذوة من الوجدان

وعُدتُ إلى الظلام أستلهمه وأستوحيه فلم جد من أحاور غير الرجل الحزين الذي اسمه أحمد ، أحمد حسن الزيات .

صديقي !

هل تذكر فكاهتك الطريفة إذ تحدّث إخوانك أنك عرفتني أول مرة عن طريقي البوليس ؟ هل تذكر أن البوليس دعاك مرة إلى زيارة المحافظ فتوجست خيفةً ، ثم رأيت أن الخطب هيِّن لأنك دُعيت لتتسلم رسالة من الشيخ زكي مبارك الذي اعتقلته السلطة العسكرية أيام الثورة المصرية ؟

ألا فلتعلم أن الحظ قضي عليك ألا تتلقى مني رسالة إلا في ظروف تحيط بها شبهات ، فإن كانت الرسالة الأولى في عهد ثورة فهذه أيضًا في عهد ثورة ، وربما كانت هذه أعنف وأفظع لأنها تحدثك عن صديق حزين يناضل الأرق والسهاد في ليلة عيد.

صديقي !

لأتعجب من رجل يضنيه الحزن والابتئاس مع أنه ينهض بأثقل الأعباء ،

(*) قبض على زكي مبارك أثناء ثورة ١٩١٩ في القاهرة، ورحلته السلطات الإنجليزية إلى معتقل سيدي بشر بالإسكندرية (رضوان).

فدنيا القلب غير دنيا العقل ، والشواغل الجسام لا تُلهي الرجل عما يساوره من لواذع الإحساس ، وأنا رجل يؤمن بأن القلب ادق ميزانًا من العقل ، وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة ، على حين لا يهتدي العقل إلا بالبراهين، وهي في الأغلب تقوم على مقدمات لا تخلو من تضليل

صديقي

هذه الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، وستقرأ هذه الرسالة فتذكر أنك أرقت في ليلة العيد بلا سبب معروف ، فلتفهم حين تقرأ هذه الرسالة أن ذلك الأرق إنما كان هدية أرسلها إليك الغريب في بغداد ، الغريب الذي يوحي الحزن إلى أشقياء الغرباء والآن أطفئ المصباح لأعانق الظلام في المدينة السحرية التي شقى بلياليها ملايين الرجال فلا أرى غير بصيص ضئيل لمصباح أقامته الحكومة على شاطئ دجلة، فأفهم أنني أخاطب الأموات لأن مصابيح الحكومة لا تدل على شيء ، ولا يهتدي بها غير لصوص الجيوب .

الآن تهدأ بغداد بعد أن تسدل أستارها على الغافين من السعداء والبائسين ، ويبقى المسهد الغريب الذي لا يعرف ربيع القلب ولا نعيم الجفون .

في هذه الليلة تهدأ جُنوب ، وتَقَلق جُنوب ، وجنبي هو الجنب الحائر تحت سماء بغداد

في هذه الليلة تتلفت عيون فلا تراني ، عيون كنت لها أمتع من إغفاءة الفجر ، وأنضر من بياض الصباح ، في هذه الليلة تشتاقني أكبادٌ رقاقٌ علمتها كيف تطيب ليالي الأعياد .

ولكن لا بأس ، فسنعيش حتى نردَّ ديون الهوي ، وسيعلم من أبكاهم الفراق أن الدمع لا ينفع ، وسنرجو ألا يسمحوا لنا بعد هذه المرة بالتعرف إلى محطة باب الحديد .

أخي الأستاذ الزيات

لا أنتظر منك دمعة عند قراءة هذا الخطاب ، ولكن لي إليك رجاء فاحفظ عهد أخيك ولا تمش في شوارع القاهرة إلا مشية الخاشعين ، فليس في تلك المدينة بقعة إلا ولي فيها صَبَوات ، وليس فيها شارع ولا مشرب ولا ناد إلا ولي فيه أحباب وخُلان

ولو شئت لكلفتك تبليغ التحية على أصفياء القلب في مصر الجديدة ، وفي الزمالك ، ولكنَّ مثلك واأسفاه لا يؤتمن على نقل التحية إلى أسراب الملاح ، فلتكن (الرسالة) رسولي إلى من أذالوا غاليات الدموع يوم رحيلي إلى العراق والسلام عليهم وعليك من الغريب الحزين .

زكي مبارك



منهاج الذاتية الأدبية



صديقي...

كتبت إليَّ تسأل عن المراد من « الذاتية الأدبية» وهي كلمة يكثر ورودها على سنان قلمي ثم تدعوني إلى رسم المنهاج إن كان لها منهاج .

وأجيب بأن الذاتية الأدبية هي أن تكون أنت أنت فيما تكتب وفيما تقول ، بحيث يشعر من يقرأ لك، أاو يستمع إليك ، أنك تنقل عن قلبك وضميرك، وأن لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها سواك ، وأنك لو نشرت مقالا بدون إمضاء لنمَّ عليك الروح قبل أن ينم عليك الأسلوب ، فإن الأساليب قد تتشابه في كثير من الأحايين تشابهًا يسمح بإضافة آثار كاتب إلى كاتب ، أو شاعر إلى شاعر ، أو مؤلف إلى مؤلف ، عند طيّ الأسماء .

أما التشابه في الأرواح فهو نادر الوجود ، ولعله لا يقع إلا عند ضعف الأرواح ، كما تتشابه الغرائز أو تتماثل عند صغار الطير والحيوان .

ولتوضيح هذه النظرية أذكّرك بمعلقة امرئ القيس ومعلقة لبيد ، فمعلقة امرئ القيس يمكن أن تضاف إلى غيره من الشعراء ، ويمكن لأي شاعر أن ينظم مثلها بلا عناء ، أما معلقة لبيد فهي شعر لبيد ، ولن يحاكيه فيها شاعر ، ولو قضى العمر في رياضة النفس على الاقتداء .

وبفهم هذه النظرية تتضح مشكلةٌ عجز عن حلها من تحدثوا عن المنحول من الشعر الجاهلي ، لأنهم يبنون أحكامهم على الأساليب لا على الأرواح ؛ فرقة

الأسلوب هي عندهم خصيصة حضرية ، وجزالة الأسلوب خصيصة بدوية ، وعلى هذا يقاس ، كما صنع سعادة الدكتور طه بك حسين .

الروح هو الأصل في تقدير القِيم الأدبية ، وعن الروح يتفرع الأسلوب ، ولو شئت لقلت إن لكل كاتب أساليب تختلف باختلاف مقامات الإنشاء ، كما تختلف نظرات العيون باختلاف مقامات الحديث ، وكما تختلف نبرات الأصوات لمثل تلك الأسباب ، ثم يبقى الروح الذي يدل على صاحبه في جميع الحالات بلا استثناء .

فانظر أين أنت من هذه الحدود : أينمّ عليك روحك ؟ أينمّ عليك أسلوبك ؟ أتنمّ عليك التبعيّة الذليلة في الروح والأسلوب لأحد الكتّاب أو أحد الشعراء .

انظر أين أنت ، فأنا أحب أن أعرفك بالروح قبل أن أعرفك بالأسلوب ، وافهمْ جيدًا أنه لا قيمة لأديب بلا روح ، روح أصيل تعرفه بسيماه ، ولو أقبل عليك ملثمًّا مع ألوف من الأرواح .

هل قرأت سورة يوسف ؟

في تلك السورة الكريمة آية صريحة في أن يعقوب وجد ريح يوسف قبل أن يصل القميص ، وأنه شُفِي من عماه عند وصول القميص .

فهل تفهم المراد من هذا الرمز الطريف ؟

هل تفهم كيف يدرك الأعمى أشياء بطريق لا سمع فيه ولا لمس ؟

هذا هو الروح الذي أُحب أن تلتفت إليه في حياتك الأدبية ؛ الروح الذي يدل عليك من أول سطر ، أو من أول حرف ، قبل أن يرى القارئ اسمك في خاتمة مقالك ، فإن وصلت إلى هذا فأنت من أصحاب الذاتية .

ولكن كيف تصل ؟

هنا يبدأ الحديث عن المنهاج :

يجب أولاً أن تحرر عقلك وقلبك وروحك من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل ، ومعنى هذه الوصية أنه يجب أن تنظر في جميع الأشياء وجميع المعاني نظرة استقلالية منزهه عن الخضوع لنظرات من سبقوك ولو كانوا من أعاظم الرجال ، لأن الغرض هو أن تصبح روحك جارحة من الجوارح ، وهي لا تصير كذلك إلا إن عودتها الفهم والإدراك بلا وسيط ، وهل تكون الروح أقل قيمة من الرِّجل ، يا بني آدم ، والرجل لا تمشي إلا إن عودناها المشي ؟

وإذا كان علم السباحة لا يُعرف بالوصف ، وإنما يُعْرف بالتدريب على مغالبة الماء في أيام أو أسابيع ، فَعِلْمُ الروح لا يُدْرك بالوصف ، وإنما يدرَك بتدريب الروح على التذوُّق والتفهم في أعوام أو أزمان .

أراد سابحٌ عبور النيل فغرق ، وأراد سابحٌ عبور المانش فنجح ، مع أن السابحين توأمان . فكيف نجح هذا وغرق ذاك ؟

يرجع الفرق إلى اختلاف التمرين والتدريب . وما يقال في القوة الجسمية يقال في القوة الروحية ، فعاوِدْ روحك بالتمرين والتدريب في كل وقت ، واحفظها من الغفلة عن إدراك دقائق الفروق بين الأشياء والمعاني ، وعوِّدها التفكير في جميع ما ترى عيناك ، وما تسمع أذناك ، وما يهجس به الخاطر في اليقظة أو في المنام ، فالنوم كلمة سوقية وليس له مع حياة الروح وجود .

إن عملت بهذه الوصية عامًا أو عامين ظفرت حتمًا بالحاسة الذوقية ، وهي مفتاح الظفر بالذاتية الأدبية ، فتوكل على الله وابدأ من هذا اليوم .

ويجب ثانيًا أن توطِن النفس على الغُربة الأبدية ، ولو كنت في دارك وبين أهلك ، فالمفكرون في جميع العصور غرباء .

لن يكون لك ظهير غير قلمك ، ولن يكون لك نصير غير روحك ، فاعرف أين تضع قدمك قبل أن تخاطر بنفسك فتصحب رجال القلم البليغ .

إن صُحبتنا متعبة ومضنية ومؤذية ، لأن طريقنا أشواك من تحتها أشواك ، وقد

رحَّبنا بالظمأ والجوع ، وبما هو أفتك من الظمأ والجوع ، في سبيل الذاتية الأدبية ، فانظر كيف نصنع إذا ضَعُفتَ عن السير في بداية الطريق ، أو في منتصف الطريق ، طريق الموت أو الخلود .

أنا أرحمك فأنهاك عن الاحتراق بنار الأدب ، وليتني وجدت من ينهاني قبل أن أحترق !

إن صريع الأمواج يجد من يمدّ له يد الإنقاذ والإغاثة ، أما صريع النيران فلا منقذ له ولا مغيث ، ونحن صرعى النيران لا الأمواج .

إن اللصوص يتعاطفون فلا يشهد بعضهم على بعض ، ولا يكيد أحدهم لأخيه ، ولسنا لصوصًا حتى نعِدك ونمنّيك وإنما نحن أدباء يكتب أحدنا لزميله صحيفة الاتهام ، بلا تورع ولا استحياء .

إرجع قبل أن تحترق ، أيها الخاطب لما يسمِّونه الأدب الرفيع .

ولو أنني أملك الرجوع لرجعت ، فارجع أنت قبل أن يصعب عليك الرجوع، وقبل أن تصير الاستغاثة فوق ما تطيق .

كان شيخنا العظيم «عبد الحميد بن يحيي الكاتب » زودّنا بنصائح تحفظ كرامة رجال الأقلام ، فهل سمعنا وأطعنا ؟

هيهات ثم هيهات !

لا يخدعْك السراب الخدَّاع فتتوهم أن احتراف الأدب أنفع من الاتجار بالتراب ، ولا تُطِع المضللين من أدعياء الأدب إلا إن ارتضيت إطاعة الشياطين .

لقد نصحتُك ونصحتك ثم نصحتك ، فإن رأيت أن هذا النصح لم يؤثِّر في نفسك ، ولم يصدْك عن عزمك ن فأقبلْ ثم أقبلْ على الاحتراق باللهب المقدس ، لهب الأدب ، فنحن وحدنا الأحياء ، ونحن وحدنا الخالدون ، ولأعدائنا الموت والفناء !

إنَّ كلمة تُضَمُّ إلى كلمة في ذكـاء ولوذعيـة أشـرف وأعظـم وأنفـع مـن كنـوز تضاف إلى كنوز ؛ وإن جود الله بالفكر والروح على من يصطفيهم من عبـاده ، لهـو أطيب الهبات ، وأكرم الأرزاق .

أقسمَ الله بالقلم ، ولم يُقسم بالمال ، ونحن بالله مؤمنون ! هل رأيت الله تخلَّى عن أديب سليم القلب قويّ الروح ؟

لقد خرج المتنبي هاربًا من مصر في ليلة عيد ، فكم ألوفًا من الـدنانير أنفقـت مصر في تعليم أبنائها حكمة المتنبي ؟

وقد مات محمد عبده بعلة أورثـه إياهـا عقـوق معاصـريه ، فكـم ألوفًـا مـن النفوس حاولت التشرف بأنها رأته قبل أن يموت ؟

وعانى مصطفى كامل الكاتب والخطيب أشتات التهم الأواثم ، ثم كـان مـن خصومه وحاسديه ومبغضيه من اشترك في صنع التمثال .

ومرَّت آلاف السنين ، والنـاس جميعًـا يستوحشـون مـن الليـل ، فكـان غنـاء المصريين : يا ليل .. يا ليل !!

***

صديقي :

أتراني شرحت المراد من الذاتية الأدبية ، ثم رسمت لك المنهاج ؟

هذه ومضة من ومضات ، وسأرجع إلى إرشادك بالتفصيل ، حـين اطمـئن إلى أنك أحد الأوفياء بالعهود .

الراية المصرية (*)



هي راية الفكر والرأي والبيان ، وهي أول هِبة منَّ بها الوهاب على هذه البلاد، ولعلها أول هِبة جاد بها الله على هذا الوجود .

مصر بطبيعة الفطرة أُمة سليمة الروح والوجدان ، ومن أجل هذا المعنى كان فقراؤها أغنى من الأنبياء ، وكان جهلائها أعلم من العلماء ، فما عرف الناس في شرق ولا غرب بلدًا يعيش على المواهب الطبيعية كما يعيش هذا البلد ، ولا سجَّل التاريخ أمجادًا أشرف من أمجاد هذا البلد ، ولا كان في الدنيا نهرٌ أوفى وأكرم من نهرها الفياض بمعاني الخصب والثروة والشعر والخيال .

عاصرت المدنيةُ المصرية مدنيات كثيرة في القديم والحديث ، فهل انهزمت أمام إحدى المدنيات ؟ وهل خضعت لعبودية الروح في أي وقت ، وإن جار الزمن فنال من استقلالها السياسي في بعض العهود ؟

صنع الدهر بمصر ما صنع في عهود الطغيان من الوجهة السياسية ولكن الدهر عجز عن غزوها في الميادين الأدبية والروحية والعقلية ، فظلت آية الآيات في سموّ الفكر والرأي والبيان .

إن مصر لم تخضع ولن تخضع لأي سيطرة تعتمد على الاستبداد ، وهل كان من العبث أن تُعرف مقابر من سيطروا على هذه البلاد ، ثم تختفي مقبرة الإسكندر المقدوني فلم يهتد إليها منقِّب ولا باحث ، مع أن صاحبها كان من أعاظم الرجال ؟

(*) الرسالة : ٢٦ أكتوبر ١٩٤٤ .

كانت مصر لأبنائها ، ولن تكون إلا لأبنائها وستمضي أجيال وأجيال ، وأزمان وأزمان ؛ قبل أن يجوز في الوهم أن الذاتية المصرية معرِّضة لاستعباد الجهل والبغي والطغيان .

في عصور الجاهلية الجهلاء كانت مصر منارًا يهدي اليونان والرومان ، وفي عصر الإسلام كانت ملاذًا للعلوم الإسلامية ، والحضارة العربية ، وفي العصر الحديث كانت مصر درعًا يقي الشرق من طغيان الغرب ، وستظل مصر إلى الأبد مصدر النور ومنبع الإشراق .

أكتب هذا وفي قلبي أشجان تعجز عن إثارة دموعي ، فقد قيل وقيل إن أيام الحرب تصدّ العقول عن الرأي ، وتمنع الأقلام من البيان .

هيهات ثم هيهات ، فالينبوع القاهر يفتك بالحواجز والأسداد ، والقلم العارم يصنع مالا يصنع النورُ في تبديد الظلمات .

لن تضام مصر ، ولن تضام أهلوها ، ولن تجف أقلامها ، ولن يكون لها بين المظلومين مكان .

لا أقول إن مصر باقية ما بقى النيل ، ولكني أقول إنها باقية ما بقى الوجود .

مصر شرَّعت لجميع الأمم مذاهب الفكر والرأي والبيان وستظل بإذن الله مصدر الفكر والرأي والبيان

قال الزعيم النبيل مصطفى كامل :

«لو لم أكن مصريًا لتمنيت أن أكون مصريًا »

وأقول إني أكره الافتراض الذي يبيح التخيل بأني لم أكن من المصريين

إن الظلم الذي يلاحقني في وطني لا ينسيني جمال وطني لأنه عندي أعزُّ من روحي ونفسي

أنا أرفع الراية المصرية حيثما توجهت ، ولن تضام مصر ولها أسندة ودروع من أبنائها الأوفياء .

وكم تمنيت أن أكون أول من هتف بهذه الآراء ، ليكون لي فضل الابتكار والإبداع ، ولكني أشرح آراء جادت بها عقولٌ كان لها فضل السبق في إحياء المواهب المصرية والعربية والإسلامية ، من أمثال : أحمد زكي باشا ، ومحمد مسعود ، والشيخ محمد عبده ، والسيد جمال الدين .

هي آراء بشَّر بها ودعا إليها أولئك الجهابذة الأعلام ولكنها حلَّت من نفسي محل اليقين ، فصرت أهتف بها هتاف المبدع الأصيل ، والمريد الصادق لا يقل إيماناً عن أساتذته النبلاء .

نحن لا نعمل لليوم الحاضر وحده ، وإنما نعمل للمستقبل القريب والبعيد ، وستظل سواعدنا قوية ولو احتواها الفناء .

نحن لا نهاب الرجعية الممثلة في أوهام الفانين ، ولا نهاب مصالحنا وهي جديرةٌ بأن تُهاب ، وإنما نهاب الحق ، ونراعي الوطن ، ونخاف الله ، وتلك معانٍ توجب أن نظل أوفياء لكرامة العقل ، وسماحة الروح ، وشجاعة الوجدان .

سنقف كرامًا حيث يقفنا الواجب ، ولن نرضى أبدًا بأن يعرِّض الفكر في بلادنا للخمود .

وستذكر مصر طائعة أو كارهة أن في أبنائها من وَفَوْا بالعهد ، في أيام ألهتْ جماهير الناس عن الفكر والرأي والبيان ...

ويسألونك عن القاهرة

قل القاهرة بغداد الأمس وباريس اليوم



أكتب هذه الرسالة وقد هربت من ضجيج القاهرة في مساء العيد . وهل في شوارع القاهرة في مثل هذا المساء موضع قدم لمن يريد أن يزوِّد قلبه وعينيه بما في أعياد القاهرة من مواكب السحر وملاعب الفتون ؟

هي دنيا من الغرائب والأعاجيب تسعد بها قلوب ، وتشقى بها قلوب . وهل يعرف حلاوة السعادة أو مرارة الشقاء غير قلب تنطوي عليه أحشاء القاهرة في يوم عيد ؟

يقال في كل أرض : إن النكتة المصرية هي أبرع ما عرف الناس من صور الذكاء . وهذا حق ..

ولكن هل فكر أحد في أسباب هذه الخصوصية ؟

إن النكتة هي النافذة التي نشرف منها على مروج الطرب والابتسام . ولو خلت حياتنا من النكتة لقتلنا الغيظُ على الأيام الجوائر التي لا يلتئم بها شمْل ولا يعتدل بها ميزان .

ولعل المقادير لوَّنت القاهرة هذا التلوين العجيب لتَطِبْ لقلوبنا الدامية ، القلوب التي مزَّقها الهيام بالحب والمجد فلم تعرف معنى القرار في صباح أو مساء .

قلت لقلبي : أيكون فرارك من ملاعب القاهرة في مساء العيد دليلاً على أنك

تُشْبه الطفل الذي يزهد في اللعب ؟

فقال : وما حكم الطفل الذي يزهد في اللعب ؟

فقلت : ينزعج عليه الأهل ، ويستقدمون له الطبيب ، لأن الطفل لا يزهد في اللعب إلا وهو عليل .

فقال : وأين أهل القلب العليل لينزعجوا عليه ويستقدموا له الطبيب .. ؟ وعندئذ عرفت أن قلبي يعيش في الدنيا بلا أهل !

***

هنا القاهرة !

نعم ، هنا القاهرة ، ولكن أين تقع القاهرة مما يريد القلب المفطور ؟

أين وهي أصل العلة التي ردْت الفؤاد وهو صديع ؟

كانت القاهرة في ماضيها مدينة محدودة النطاق ، وكان لها أسوار وأبواب . وكان حراسها يطوفون أرجاءها في ساعة أو ساعتين ثم يصعد رئيسهم فوق منارة ويصيح :

«ناموا ، أيها المسلمون ، فأنتم في أمان »

فأين نحن من ذلك الأمان وقد جَدَّت في دنيانا معاطب غير عدوان اللصوص على المتاجر والبيوت ؟

يستطيع كل قاهريْ أن يطمئن إلى أن منزله أو متْجره في أمان من سطوات الليل؛ ولكن أين الأمان من عدوان الشياطين ، شياطين الغرائز والنحائز والطباع ؟

من يضمن لك الأمان في مدينة مثل القاهرة وهي لليوم مَسْبَعَة عقليةٌ تصطرع فيها المذاهب والآراء ، ولا يغمض فيها جفن إلا وهو مروَّع بقلب ساهر لا يعرف السكون إلا يوم تمنّ عليه المقادير بالموت ؟

من يضمن لك الأمان في مدينة مثل القاهرة ، وأنت من نفسك في حرب ، ومن الزمان في قتال ، ومن الزملاء في نضال .

يجب أن تعرف أنك في دنيا جديدة لا يَسلم من خطوبها وصروفها غير من أمدته المقادير بالصبر عما في القاهرة من اصطراع العواطف واصطخاب الأهواء .

فهل أنت من الصابرين ؟ وكيف تصبر عن القاهرة ، وهي قاهرة وفي دمك وروحك أقباسٌ من سعيرها العَصُوف ؟

ألم تسمع ما وقع يوم أقيمت مباراة الأناشيد العسكرية ؟

تلقت اللجنة خمسمائة نشيد ولم تختر غير خمسة أناشيد . فقال القائلون : هذا شاهد جديد على أن دولة الشعر يكثر فيها الأدعياء !

وكان ذلك لأننا نعيش في القاهرة مدينة الأناقة والفخامة والزخرف والبريق، وفي مثل القاهرة تُقهر العواطف وتُظلم القلوب . وإلا فكيف جاز أن ينسى المحكَّمون ما في تلك الثروة الشعرية أو النظمية من الدلالة على حرارة الأفئدة وشهامة العقول ؟

خمسمائة نشيد ؟ معنى ذلك ، أيها الناس ، أن القاهرة فيها خمسمائة قلب ، وذلك مغنمٌ عظيم . ولكن أين من يقيم الميزان لَحيوات القلوب وهي لا تُوزن ولا تُقاس ولا تكال ؟

وهب يَشفى في المدائن العظيمة غير أصحاب القلوب ؟

***

هنا القاهرة !

نعم ، هنا القاهرة ، ولكن أين مكان الأديب في المدينة التي أصبحت عاصمة الشرق ؟

أين مكان الأديب في القاهرة وبفضل قلم الأديب صارت القاهرة عاصمة الشرق ؟ وهل خُلِّدت ليلى إلا بفضل أشعار قيس ؟

أين مكان الأديب في القاهرة ، ومن دم قلبه خُطَّ تاريخها الحديث ؟ بل أين من تسمح له القاهرة بأن يقول إنه في هواها مجنون ؟

إني وإياها كمفتتن بالنار تحرقه ويعبدها

هنا – في القاهرة – زاد العقول والقلوب والعواطف والأحاسيس ، فأين مكان الأديب يا قاهرة ليؤدي ما أداه عشاق بغداد في القديم وعشاق باريس في الحديث ؟

زرت حديقة الأزبكية في صباح اليوم وهو يوم عيد فلم أر فيها غير شراذم من غلف القلوب ، فأين الأديب الذي يُشعر الدنيا بأن في القاهرة حديقة اسمها حديقة الأزبكية ؟ وكيف جاز أن تخلو هذه الحديقة في يوم العيد من مواكب الحُسن الوضاح . والجمال الفضاح ؟ ومتى نعيش إذا ألهانا جِدُّ القاهرة عن مداعبة الملاح في يوم العيد ؟

متى تعيش إذا استطاعت مُحرِجات الحياة أن تقهرنا على التفكير في منافعنا الدنيوية في المواسم والأعياد ؟ وهل عُمرنا عمر نوح حتى نصبر عن مواسم الأفئدة إلى أجل قريب أو بعيد ؟

هي أيام نقضيها مشدودين بسلاسل وأغلال إلى «قطار المفاجآت » في هذه الحياة . فمتى نلتفت إلى ما أنبت الغيث في صحراء الحياة من أزهار ورياحين ؟

سيندم قومٌ على ما ضيّعوا من مواسم القلوب في القاهرة . وسأذكر بعد فوات الوقت أنني جنيت على شبابي حين أضعته بين سواد المداد وبياض القرطاس في زمن لا ينفع فيه غير الاتجار بالتراب . فهل أخرج من داري إلى معاقرة الحياة بالقاهرة في هذا المساء ؟ كيف ولي شواغلي تحرمني الحرية في مساء العيد ؟

وهل يستطيع قاهري أن يُمضي يومًا واحدًا بلا كفاح وهو يعيش في مدينة

مقدودة من صخور الصبر على مصاولة الحياة .

إن هذه المدينة التي تفتنكم لم تُخلق في يوم وليلة ، وإنما هي عُصارة العزائم الشداد في الأجيال الطوال . فمن أقام في القاهرة وله عقل وذوق فليحاسب نفسه على اللمحات واللحظات ليؤدي الزكاة عن قلبه وعقله وذوقه إن كان من الموفَّقين ، وإلا فهو نفاية ملفوظة في المدينة «القاهرة » التي تنكر خمود الغرائز وجمود الأحاسيس .

***

هنا القاهرة !

إي والله ، هنا القاهرة . وما أسعد من يرى القاهرة أول مرة !

لقد فتنت هذه «القاهرة» من زاروها في هذه الأيام للاشتراك في المؤتمر الطبي العربي ، وحمدوا الله على أن جعل للعروبة مدينة مثل القاهرة تتكلم اللغة العربية ، فإن لم تكن القاهرة أعظم مدينة في العالم كله فهي بالتأكيد أعظم مدينة في الشرق بفضل ما جمعت من الخصائص الذاتية التي تحكم لها بالفضل على جميع مدن الشرق ، وليس ذلك بالقليل .

ولكن أين من يعرف أننا بسبب هذه العظمة أشقياء ؟

أين من يعرف أن القاهرة لا تَعظُم من يوم إلى يوم إلا لتزيد أعباءنا في الحياة ؟ وإلى المنصفين من إخواننا في الشرق أقدَّم الظاهرة الآتية ليعرفوا في أي جحيم بعيش القاهريون .

في كل بلد من بلاد الشرق يستطيع الرجل الوسط أن يعيش لأن الدنيا في بلاد الشرق لا تزال تتسع للأوساط من الرجال .

أما مصر – ويرحم الله أهل مصر !– فليس فيها للرجل الوسط مكان .

العالم الوسط لا يستطيع العيش

والأديب الوسط لا يجد الرزق

والمغني الوسط يضيع

والطبيب الوسط لا يجد ثمن الدواء حين يمرض

والصحفي الوسط لا يملك الوصول إلى خبر صغير

والممثل الوسط لا يجد الفرصة لشهود رواية صغيرة ، فضلاً عن القدرة على الاشتراك في التمثيل .

القاهرة تقول في كل وقت : كن قاهريًّا

وهل يستطيع كل مصري أن يكون قاهريًّا ؟

أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الشعراء لأنهم لم يكونوا في عبقرية شوقي وحافظ وصبري ومطران ؟

أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الكتاب لأنهم لم يكونوا في عظمة محمد عبده وعلى يوسف وعبد العزيز جاويش ومصطفى المنفلوطي ومحمد المويلحي ؟

ومن كتّاب اليوم وشعراء اليوم ؟

عندنا مئات من الكتاب والشعراء ، ولكنهم سيموتون بغصة الحسرة على أنهم نشأوا في القاهرة لهذا العهد ، عهد الزحام العنيف الذي لا يسلم من كربه غير الفحول الصوّالين .

لقد قيل إن الرحمة فوق العدل . فأين نحن من الرحمة وأين نحن من العدل ؟ أين من يرحم الأديب الوسط أو يعدل في الحكم على الأديب الوسط فيقضي بأن من حقه أن يعيش لأنه قد يكون أقدر من بعض الذين خلّدهم أبو الفرج الأصبهاني؟

وأين الراحم أو العادل الذي يقول بأن في شعراء اليوم الشعراء الذين أخملتهم

القاهرة ، من يفوق عشرات من شعراء «اليتيمة» و« الذخيرة» و«قلائد العقيان» ؟

القاهرة لا تتسع أبدًا لغير الأفذاذ الذين يغلبون الزمان وهنا جواب السؤال الذي يوَّجه إليّ في كل يوم :

«كيف يتسع وقتك لكل ما يَصُدر عن قلمك من الدراسات الأدبية والفلسفية؟»

وهل عندي وقت وأنا موظف مسئول أمام الواجب ؟

إنما أنا قاهريٌّ يحبس نفسه في البيت يوم العيد ليحفر بسنان القلم ثقبًا يتطلع منه على ضوء العظمة القاهرية عساه يُقنع القاهرة : بأنه رجل مجاهد يستحق أن يعيش .

فإن رأيتم قاهريًّا يصنع مثل الذي أصنع فاعرفوا أنه رجل مكدود يحاول الظفر بكلمة ثناء من المدينة العاتية التي حكمت بألا يعيش فيها غير من يقدرون على أمواج المحيط في غضبة العواصف الهُوج ، ودهرُنا كله عواصف هُوج يتفزّع من هولها المحيط .

لا تصدقوا أبدًا أننا نسعى في سبيل المجد ، فذلك مَطلبٌ لا يخطر لنا في بال ، وإنما نسعى للخلاص من شماتة الشامتين وسفاهة الكائدين .

آه ثم آه !!

لو كان الماضي ينفع لجاز لرجل مثلي أن يعتمد على ماضيه في خدمة الحياة الأدبية والفلسفية ، ولكن القاهرة تعيش في وجه الرجل الذي يعتمد على ماضيه ، لأن ذاكرتها تضيق عن مراجعة الأسماء ، أسماء المجاهدين الذين عطروا باسمها أرجاء الشرق .

هي حسناء لعوب لا تعرف غير العاشق المزوَّد بأطايب الثروة والعافية ، فيا رب كيف أكون في وطني يوم يتعب قلمي فأنصرف عن الخلوة إليه في يوم عيد ؟

حتى يوم العيد نقضيه في نضال ؟

في مثل هذا العيد من سنة ١٩٣٢ كذبت على أبي مرة ولم أكذب عليه غير تلك المرة . كتبت إليه أقول إني سأقضي أيام العيد في الإسكندرية فلا ينزعج أهلي إن حرمتني هذه النزهة من الأنس بهم يوم العيد في سنتريس .

فهل قضيت تلك الأيام في الإسكندرية ؟

لم تكن إلا حيلة لأحبس نفسي في أيام العيد في البيت لأكتب فصلاً من فصول «النثر الفني» وهو الفصل الخاص بتطور السجع في اللغة العربية .

وهل يصنع بنفسه هذا الصنيع إلا قاهريٌ تقهره القاهرة على النضال المميت ليجد مجالاً في المدينة التي تصطرع فيها أقلام المازني والعقاد والزيات والبشري وهيكل وطه حسين ، ومن إليهم من الباحثين الذين سيموتون قبل الأوان بفضل الكفاح الموصول ؟

القاهرة لا تعرف الرجل الوسط فافهموا هذه الحقيقة يا أبناء هذا الزمان ، وإلا فهناك «سلة المهملات» تنتظر الألوف ممن يراسلون الجرائد والمجلات ؟

يمنّ علينا من يحمله التلطف على القول بأن القاهرة عاصمة الشرق ، فهل تعرف القاهرة أن أقلامنا هي التي صاغت لها تلك العقود من الثناء ؟ وكيف وعندها (سَفح المقطم) الذي وسع الألوف من أجسام العبقريين ؟

زرت سفح المقطم منذ أعوام لأستوحي روح ابن الفارض قبل أن أشرع في كتابة الفصل الخاص به في كتاب التصوف الإسلامي ، فراعني أن أعرف أن تلك الناحية هي أنفع مكان في القاهرة من الوجهة الصحيحة ، وكذلك أيقنت أن القاهرة تدخر أجمل بقاعها للأموات . وما أحسبها تصنع ذلك وفاء ، وإنما أخشى أن تكون أرادت التنبيه إلى أن عظمة الرجل في مصر لا تكون إلا بعد الموت !

يرحمك الله أيها القلب الذي يشغله الكفاح عن ملاهي العيد !

الآن ، وقد انتصف الليل أو كاد ، أفكر في مصيري بين قومي أفكر في الشباب المضيَّع بلا لهو ولا فُتون !

وهل كنت أول من ندم على الشباب المحروم !

ولكن ، هل أملك غير الذي صنعت وغير الذي سأصنع ؟

فيا أيها الوطن الغالي ، تذكَّر ثم تذكَّر أنني كنت ولا أزال مجنون ليلاك فإن رأيتني صدفتُ عن أفراحك في يوم عيد ، فاعرف أن ذلك لم يقع عن جهل أو عقوق ، وإنما هي إرادتك العالية التي قضت بأن يعيش أبناؤك وهم دائمًا في حومة قتال !

وما أدعوك ، أيها الوطن ، إلى التصدق عليَّ بنظرة عطف ، فأنا لا أقبل الصدقات ، وإنما أدعوك إلى مقابلة الجميل بالجميل ، فإن رفق الآباء يزيد في بِر الأبناء !

وطني... لقد شقيتُ بعظمتك ، ومن أجل هذا أحبك وأستعذب الصاب والعلقم في هواك !

وطني ! إليك أسلمتُ قلبي وعقلي ، فخذ بزمامي إلى حيث تشاء ، يا أنضر دوحة تغنَّت فوقها البلابل ، ويا أجمل روضة رنَّت فيها القُبلات ، ويا أطهر بقعة أقيمت فيها المحاريب ، ويا أشرف صحيفة أرهفت آذانها الواعية لصرير القلم البليغ .

قصر أنطونيادس(*)



هو أنطونياذيس ، بالذال لا بالدال ، في النطق اليوناني ونحن ننطقه بالدال على أسلوبنا بالمراوحة بين هذين الحرفين ، كما نقول : دا ، في مكان ذا ، وكما نقول دي ، في مكان ذي ، وكما نقول : خد ، في مكان خذ ... وكان ذلك لأن الدال أخف في النطق من الذال ، لا تحوجنا إلى بروز اللسان بين الأسنان .

أترك هذه الفائدة اللغوية لأواجه الموضوع فأقول :

كانت أيام الصيف الماضي أيام أعياد لقصر أنطونياذس ، فقد ورد اسمه مرات ومرات في الجرائد المصرية والسورية والحجازية والعراقية ، إلى آخر ما هنالك من الجرائد التي تصدر باللسان العربي ، ثم ورّد اسمه أيضًا مرات ومرات في الجرائد التي تصدر بالفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية واليابانية والصينية ، إلى آخر ما هنالك من الألسنة التي يهتم أصحابها بالمشكلات الدولية .

ونحن نعرف الأسباب التي جعلت لقصر أنطونياذس هذه المنزلة التاريخية ، فقد كان المكان المختار لمشاورات الوحدة العربية ، المشاورات التي اشترك فيها رجال يمثلون العراق والشام والحجاز .. ولو تمهلت الحوادث لاشترك فيها رجال يمثلون لبنان قبل أن ينتهي ذلك الموسم الجميل .

وأنتم رأيتم الصُّور التي سجلت بعض المناظر لأولئك المتشاورين . ففي الجانب المصري يجلس مصطفى النحاس باشا ومعالي الهلالي باشا وسعادة

(*) الرسالة : ٣ يناير ١٩٤٤ .

الأستاذ محمد بك صلاح الدين ، وفي الجانب العراقي أو السوري أو الحجازي يجلس من اختارتهم أمتهم لتلك المشاورات ، ثم يكونون ضيوف الحكومة المصرية في قصر أنطونياذس ، إلى أن تنتهي مهمتهم الرسمية .

فما هو قصر أنطونياذس الذي شغل الجرائد والمجلات والإذاعات والبرقيات عددًا من الأسابيع في الصيف الذي سلف ؟

أعترف بأني ما كنت رأيت ذلك القصر من قبل ، فما كان يهمني من الإسكندرية غير الشواطئ ، ولا كنت أتصور أن فيها مكانًا أبهج من محطة الرمل ، عليها تحية الحب !

الصورة التاريخية هي التي دفعتني إلى رؤية قصر أنطونيادس لأكتب عنه كلمة توضح بعض ملامحه لمن يجهل من أحواله ما كنت أجهل ، وما أكثر ما أجهل من أحوال بلادي !

منطقة شعرية :

أخذت العربة طريقها بمحاذاة نادي سبورتنج ، ثم اتجهت شرقًا إلى ناحية خفق لها قلبي ، القلب الذي تذكر أنه زار تلك الناحية في الليالي البواسم قبل أن تولول أبواق الحرب !

نعم ، هذا كازينو النزهة ، وهذي موسيقا الرقص في ضحوات الآحاد ، بعد أن امتنع فيه الرقص بالليل .

وتلك طيوف الماضي تعاودني برفق أو بعنف ، فقد كان لي في ذلك الكازينو ذكريات .

متى تعود أيامي ؟ متى تعود ؟

من حق الأيام أن تنتقم مني ، فقد أكرهتها على أن تكون في مذاقي رحيقًا في رحيق ، وهي بلؤمها تريد أن تكون غسلينًا في غسلين .

وهل استطاعت الحياة أن تنتقم مني ؟

وكيف وهي مثقلة بالديون لقلمي ؟

نحن نبتدع الحياة بأفكارنا وأحلامنا ، لنجد ما نصوره بأقلامنا ، فإن فكرت الحياة في أن تمن علينا فلتنزجر ولترتدع فليس لها في أعناقنا جميل ، وإنما نحن أصحاب الجميل .

إن الإنسان خليفة الله في الأرض ، ونحن لا نخترع هذا القول ، فقد جهر به القرآن المجيد فما مصير الحياة لو عاشت بلا أبناء ، ونحن وحدنا الأبناء الأصلاء؟

إن خطيئة أبينا آدم كانت نعمة على هذه الأرض ، فما كان للأرض تاريخ قبل أن يهبط إليها من الفردوس ، وما صنع إلا لأنه مجموعة نفيسة من الآراء والأهواء، والحقائق والأباطيل .

بإرادة إلهية خلقناك خلقًا يا هذه الأرض ، وصيّرناك مؤتمرات سلام وميادين حروب .

حديقة الورد:

هي حديقة نموذجية تذكرنا بالجوانب الوردية من حديقة لكسمبورج في باريس ، وقد هجعت الورود بسبب قسوة الشتاء .

الآن عرفت ما لم أكن أعرف

عرفت أن البرد يؤذي أهل الرقة واللطف ، وينفع أهل القسوة والعنف .

الآن عرفت كيف كان العرب يصفون المرأة الرقيقة بأنها «نؤوم الضحى» ومعنى ذلك أنها لا تستطيع الاستيقاظ في برد الصباح ، لأنها في رقة الورد ، والورد لا يستيقظ في ساعات البرد .

هل تذكرون حياة النمل ؟

إن النمال تكون من العمالقة في الصيف ، ثم تأوي إلى مساكنها المطمـورة في الشتاء .

ولا كذلك بنو آدم ، فقوتهم في الشتاء لا في الصيف ، ومن هنـا جـاءت فكـرة «عيد الميلاد» وهي تعبير عن نزهة إنسانية قبل أن تكون تعبيرًا عن نزعة مسـيحية ، فما يعرف أحد بالضبط في أي شهر ولد المسيح ، لأنه ولد قبل أن يلتفت الناس إلى تقييد المواليد .

البرد هو الذي نفع روسيا فنصرها على نابليون ، وقد ينصرها عـلى هتلـر بعـد حين .

وتأخر البـرد في هـذه السـنة آذى المـزارع المصـري بعـض الإيـذاء ، لأن في الدفء حياة للديدان ، وحياة للنمال ، وحياة للذباب ، وفي حياة هذه المخلوقـات جور على أرزاق الناس .

البدر هو الذي يعلمنا كيف نستعد لمقاومة التقلبات الجوية ، وهي تقلبات لا ينتصر عليها غير من يتدثرون بالأثواب والقلوب .

وآية «يا أيها المدثر» تدل على أن الرسول تفتح قلبـه للـوحي في ليلـة شـاتية ، وسنجد دليلاً على صحة هذا الافتراض ، إن كان يحتاج إلى دليل .

وهل تهجع الأرض في الشتاء كما يتصور الناس ؟

إن الحرارة تتحول إلى جوف الأرض فتعدها إعدادًا صالحًا للإنبات والإيراق والإزهار والإثمار ، وسبحان من لو شاء لكشف الحجاب عن حكمتـه العاليـة في مداولة الأيام بين الصيف والشتاء .

وهل تهجع شجيرات الورد كما تصورتها وأنا أجول في حديقة الورد ؟

إنها تستجم ، ولعلها تدير في نفسـها الصـور المنتظـرة للربيـع المقبـل ، كمـا يستجم الفنان ليدير في نفسه الصور المنتظرة لربيع الفكر والخيال .

لا نوم ولا موت في هذا الوجود ، لأن الله خلقه لليقظة والخلود .

لو زحزح الحجاب لحظة واحدة لرأينا جميع الموجودات في اقتتال أو اعتناق، وإن ظهر للعيون أنها غافيات .

لم يرحم الشتاء غير طائفة قليلة من الأزاهير ، فرأينا ما تصنع النحل، وتـذكرنا أن النحل تمنح وهي تنهب ، لأنها تشـعر الزهـر بمعـاني الحنـان ، والحنـان غـذاء الجمال .

تدخل النحلة إلى جوف الزهرة فتعتصر ما فيها من رحيق ، ثـم تنتقـل بسـرعة إلى زهرة ثانية وثالثة ورابعة ، ولا تكف إلا حـين تغلبهـا النشـوة فتميـل إلى القـرار والاطمئنان .

والنحل تترك الخلايا من وقت إلى وقت ، وتسافر في طلب الرزق ، ثم ترجـع بدون أن تضل الطريق ، فسبحان من أوحي إلى تلـك الخلائـق اللطيفـة مـا أوحـى سبحانه سبحانه ، وإن كان غنيًا عن الثناء .

التمثال :

دخلنا الروضة النائمة بسبب البرد ، فراعنا التمثال ، وأي تمثال ؟

ذلك وثن أقيم لفتاة عاريـة تتلقـى شـآبيب المطـر ، أو أكـواب الشـمس ، في لحظة صفاء .

تلك فتاة قتلت صباها وهي تخضعه لصانعي التماثيل ، وإلا فأين هي اليوم ؟

بعشرين جنيهًا وبثلاثين سمحت الفتاة المسكينة بالجلوس على تلك الصورة أسابيع وأسابيع ، ليصاغ منها ذلك التمثال .

قلت للجنّان : افتح صنابير النوافير لأرى كيف تغتسل هذه الشقراء .

لقد كادت الفتاة تستيقظ لتتعلق بعنقي ، فما تحدث عنها شاعر قبل أن تراني .

كان الماء يتساقط على شفتيها ، وكأنها عروس في ليلة حمراء .

أين النموذج ؟ أين ؟ إنها فتاة ذهبت إلى غير معاد ، فما يعمر مثل هذا الجمال، وهل تطول أعمار الورود ؟

ركعت هنالك طفلة ظريفة ، وهي تقول في بغام يشبه الحنين

La statue falt comm. Ca

فما عرفت أي الروحين أرق وألطف ، الروح الناطق ، أم الروح الصامت !

النموذج مات ، بدليل أنه سكت عن مطالبة البلدية بحقوقه في روضة الورد ، ولأن زيارته ميسورة بنصف قرش ، وما أهون الجمال الذي يزار بأنصاف القروش!

أين أنا مما أريد ؟

كان الغرض أن أصف قصر أنطونيادس فشرقت وغربت ، وأتهمت وأنجدت ، ولم أقل شيئًا عن القصر ذي الشرفات والروضات ، القصر الذي سمع نجوى القلوب الصوادق بأماني الأمم العربية ، حقق الله تلك الأماني .

وهل كان يجوز أن أتحدث عن ذلك القصر قبل أن أصف ما يحيط به من رياض هي ملاعب أهواء ، ومراتع ظباء ؟

كل شيء ينبض بالحياة في تلك المنطقة الشعرية ، وإليها تهفو الأرواح في ضحويات الشتاء ، وعصريات الربيع ، ولا ينافسها إلا رمال الشواطئ ، حين يقبل الصيف !

ما هو قصر أنطونيادس ، إن له عندي شجونًا من الحديث .

الصوم عن القاهرة في يوم العيد

[رسالة مهداة إلى الأستاذ الزيات ، وإلى من تعنيهم مكانة القلم البليغ]



كان من السنن الجميلة أن أقضي يوم العيد بين أهلي في الريف وكان للعيد في حياتي تأثير جميل ، فقد كنت أسمع من أمي وخالاتي وعماتي دعوات أكاد أشهد صعودها إلى السماء .

وما أذكر أني قضيت العيد بعيدًا عن أهلي إلا في الأعوام التي قضيتها بين الاعتقال والاغتراب ، ولله حكمة عالية في ابتلاء القلوب بألوان من الضجر والضيق تؤهلها لإدراك بعض المجاهيل من بيداء الوجود .

وفي صبيحة أحد الأعياد مضيت إلى «سنتريس» وأنا خالي الذهن من المفاجئات ، فراعني أن أرى أبي يجذب يدي فيقبلها بحرارة وشوق ، وكنت أنا الذي يقبل يمناه في جميع فرص اللقاء ولو أتيحت في اليوم الواحد عشرات المرات ، فماذا فهمت من ذلك العطف الجديد ؟

قدرت أن أبي سيموت ، وأنه لم يقبل يدي إلا إيذانًا بالوادع ، وأنني لن أراه في مثل ذلك اليوم من السنة التالية ، وأنا الدنيا لن تسمح بأن أرى العيد في صحبة صديق كان غايةً في صباحة الوجه ، وحصافة العقل ، وطهارة الوجدان . وهل رأت عيناي رجلاً أفضل من أبي ؟

وصفه المسيو دي كومنين لأحد محدثيه بهذا الوصف الطريف :

Cetait un vieillard de chez nous

يرحمك الله ، يا أبي ! ويرحم أيامي في رعاية قلبك الرقيق !

كان أبي يحبني إلى حد الإسراف ، وكنت خليقًا بذلك الحب ، فما بات من أجلي ليلة واحدة وهو محزون أو مكروب .

وهل جشمت أبي ما لا يطيق ، أو فرضت عليه أن يحسب لمتاعي أي حساب . مع أنه لم يمت إلا بعد أن تمرس كاهلي بحمل الألوف من المصاعب الثقال ؟

ثقل عليّ قضاء العيد في الريف بعد موت أبي ، فكيف كان العوض من ذلك الحرمان ؟

أشار أخ كريم بأن أزور قصر جلالة الملك يوم العيد لأقيد اسمي في دفتر التشريفات ، فماذا غنمت من تحقيق ذلك الاقتراح الجميل ؟

كنت أبكر قليلاً لأسير في شوارع القاهرة لحظات قبل أن أصل إلى قصر جلالة الملك ، فعرفت من جمال القاهرة ما لم أكن أعرف ، وما ظنكم بمدينة لا يستطيع العيد أن يزيدها جمالاً إلى جمال ؟

كان يروعني أن أرى القاهرة لا تتأثر بالعيد ، وكيف وجميع أيامها أعياد ؟

وهل يمكن أن تمر بأحد شوارع القاهرة في أي وقت ثم تعود وأنت في أمان من الفتون ؟

إني أحسد من يرى القاهرة لأول مرة ، أحسده وأحقد عليه ، فبالرغم منى أن يكون لي في هواها شريك ، ولو كان من أكابر أهل الوفاء .

وأقول «أول مرة » لأني أخشى أن يكون طول الإلف قلل من طرافتها في عيني، وإلا فكيف جاز أن يكون طوافي بشوارعها مقصورًا على أوقات الأعمال ؟ ألا تمر أسابيع في أيام الإجازات بدون أن أستصبح بنورها الوهاج ؟

وأرجع فأدون أني كنت أصل إلى قصر جلالة الملك بعد أن أطوف بشوارع

القاهرة لحظات ، فأرى القصر يموج بالمهنئين من الوزراء والقضاة والمحامين والنواب والشيوخ والأعيان ، وألتفت فأراني أستقبل كل قادم ، وأودع كل ذاهب ، كأنني في داري ، وأنتهب الفرصة فأدير المناقشات الأدبية والاجتماعية مع من أصادف هنالك من رجال القلوب والعقول ، ولا أنصرف إلا بعد أن اطمئن إلى أني عيدت على أكثر من أحب أن أراهم في يوم العيد .

وكان جلالة الملك رأى أن يخفف على شعبه الأمين تكاليف التشريفات ، فكان الوافدون إلى القصر للتهنئة لا يشعرون بالفروق الموروثة بين الطبقات ، وكان حظ أي زائر مماثلاً تمام المماثلة لحظ رئيس الوزراء .

ثم ماذا ؟ ثم جاء العيد بجديد لم ألتفت إليه من قبل نظرت في منهاج التشريفات فهالني أني لم أجد فيه مكانًا لرجال القلم البليغ ، مع أن لرجال القلم نصيرًا في قصر جلالة الملك ، هو الرجل أحمد محمد حسنين ، وكان من لطائفه أن يراعى هذا الشأن الدقيق .

مليكنا العظيم الشاب يسره أن يشهد جميع ما في وطنه من القوى الحيوية ، وأعظم القوى في مصر هي قوة القلم البليغ فكيف يصعب علينا أن نصافح الملك في يوم العيد ، ونحن رسل الثقافة المصرية في الشرق ؟

إن أقلامنا هي زينة الوطن في أعوام النعماء ، وسناده في أيام البأساء ، فكيف يحال بيننا وبين مصافحة رمز الوطن في يوم العيد ؟

رجال الدين لهم في التشريفات الملكية مكان ، وللوزراء والسفراء مكان ، ولكبار رجال الأعمال مكان ، فأين المكان المحفوظ لأقطاب القلم البليغ ؟

أعيذ القارئ أن يتوهم أني أطالب بمغانم رسمية ، تغض من سمو المنزلة الأدبية ، فما نحن طلاب ظواهر ، وإنما نحن طلاب معاني ، والقصر هو الرمز المعنوي لروحانية هذه البلاد ، ونريد بصراحة أن يكون لنا في ظلاله مكان ، باسم الفكر والبيان .

الأدب للأدب ..

ولهذا المعنى نطالب بأن يكون له في التشريفات الملكية مكان

قد يقال إن حملة الأقلام في مصر يعدون بالعشرات أو بالمئات ، ومن الصعب أن يوضع لهم نظام في التشريفات .

وأجيب بأن من السهل أن يكتفي بالطبقة الأولى ، وأفرادها لا يحتاجون إلى تعريف ، ثم تكون هذه الطبقة رمزًا للقوة الأدبية في التشريفات ليعرف رجال القلم أن حظهم غير ضائع في هذه البلاد .

كان متوسط ما يصدر عن المؤلفين المصريين اثنا عشر مجلدًا في كل يوم ، قبل أن ترتفع أثمان الورق ، فهل أقيم لجهودنا ميزان في وزارة المعارف أو رياسة مجلس الوزراء .

واسم مصر يرتفع من يوم إلى يوم في أقطار اللغة العربية بفضل القلم البليغ، فهل جوزي حملة الأقلام على ذلك الجهاد ؟

نحن أغنياء بأقلامنا وأرواحنا عن ثناء الأمة المصرية ، ولكننا نشتهي أن تكون أمتنا غاية في الوفاء ، وهو أشرف الخصال، فهل تسمع أمتنا هذا الصوت ؟

شاءت المقادير أن تكون لمصر الزعامة الأدبية في الأقطار العربية والإسلامية، أفلا يكون من العيب أن يحفظ قدر القلم المصري في جميع الديار ، إلا الديار المصرية ؟

بأعصابنا ودمائنا غنمنا المعركة الأدبية ، بعد نضال حشدت فيه قوى كريمة تتمتع بالهواء الذي تنسمه ملك بني أمية ، وملك بني العباس .

ولن تنزع الراية الأدبية من أيدينا ، ولو عاد عهد الخلفاء في قرطبة ودمشق وبغداد ، فإن شاء بنو الأعمام والأخوال أن يناضلوا من جديد فنحن على استعداد للنضال .

وهل يحتاج بنو الأعمام والأخوال إلى مثل هذا الوعيد ؟

إن عطفهم مبذول بغير حساب ، ونحن لا نشكو غير تجني الحكومة المصرية ، فهي لا تعترف للقلم بحق إلا إن كان صاحبه من السياسيين ، وسنؤلب جميع أدباء اللغة العربية على الحكومة المصرية ، فلتعرف هذه الحكومة أن صبرنا لن يطول على تجنيها الجميل !

***

أما بعد، فقد عز على أن يحظى ناس بمقابلة جلالة الملك ، ثم لا يكون نصيبي غير كتابة اسمي في دفتر التشريفات ، وأنا من فئة قليلة تحمل المصابيح لإنارة القلوب والعقول ، ولها فضل معروف أو مجهول في بناء هذا الجيل .

وكذلك قررت الصوم عن القاهرة في هذا اليوم ، والصيام في العيد حرام لا حلال ، فهل يغفر الله هذا الذنب الدميم ؟

أين أنا من القاهرة ؟. وأين القاهرة مني ؟

لقد سكنت الدنيا من حولي ، ولم يبق غير الأصوات الصواخب في أعماق الوجدان .

أهو يوم أضعته ؟ لا والله ، بل هو عمر ضاع ، فليس من رؤية القاهرة عوض ، ولو انتفعت بالاعتكاف لتسجيل أعظم حديث يجود به القلب الخفاق

وهل استوفيت حظي من الحياة حتى أسأل عن نصيبي من القاهرة في مثل هذا اليوم ؟

صمت عن القاهرة في يوم يحرم فيه الصيام ، فما جزائي ؟

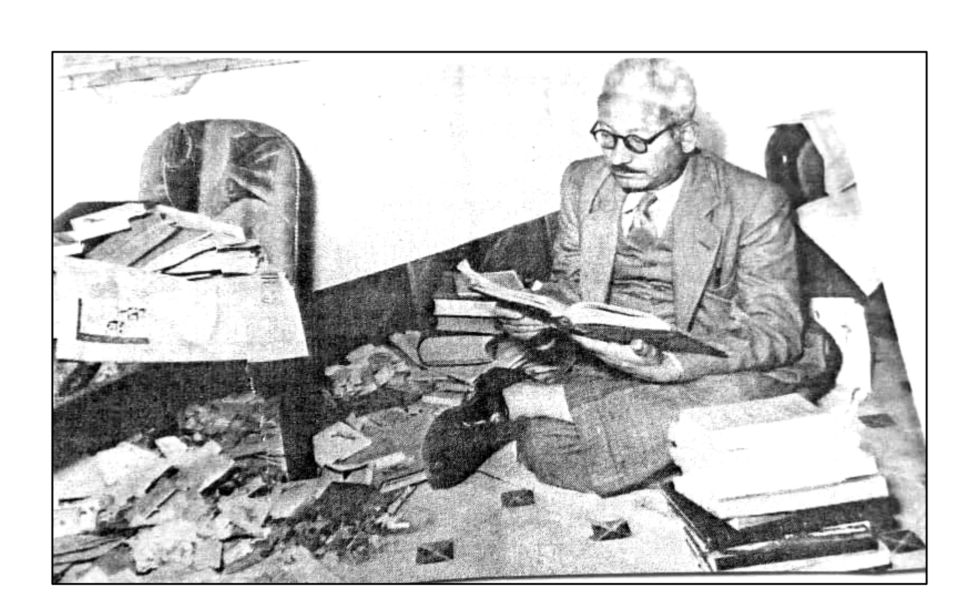
الجزاء هو الحرمان من رؤية وجهها الأصبح في يوم عيد ، وقد تجمعت الخلائق لشهود معترك الحسن والوجد في ساحتها الفيحاء ...

للقاهرة في كل يوم مذاق ، فكيف أصوم عنها في يوم العيد ، وهي فيه ألوان

من الأذواق ؟ أمن أجل الغضب لقوم لا يغضبون لأنفسهم أصوم عـن القـاهرة في يوم عيد ، وهو فيها صنوف ، من الحسن الموصوف ؟

لقد ضحيت ما ضحيت لأغنم الثواب في التنوية بجمال بلادي فما ثوابي عند القاهرة ، وقد جعلت الصيام عنها في العيد من المحرمات ؟

الجواب عند روحها اللطيف .



خواطر ليلة الميلاد (*)



كان لي مع هذه الليلة تواريخ في القاهرة وباريس ، تواريخ أبدعها الجوّ الطروب أو الجوّ العَبُوس ، فقد كان يتفق في أحيان كثيرة أن تحمل ليلة الميلاد أكدارًا ومنغصات ، لأن الغالب في البيوت الفرنسية وأن يكون الزوجان عاشقين وأن تكون نيران الغيرة مما يُشب في ليلة العيد حول «شجرة الميلاد» وما أسعدَ من يعيش وهو معذَّب بلواذع الوجدان ! ما أذكر مرة أن تلك الليلة مضت بدون عواصف إلا أن تكون في بيوت فرغ أهلها من مصارعة الأهواء ، وهي فيما عدا ذلك ليلة متاعب وكروب .

وهذه الظاهرة هي سرّ جمال هذه الليلة ، فاصطراع العواطف ميلادٌ جديد ، وقد يفعل فعل السِّحر في إحياء المشاعر والقلوب .

كنت أقضي هذه الليلة في بيوت أعرف من أحوالها أشياء ، فكنت أفهم الرموز والتلاميح ، وكنت أجد التفاسير لبعض دقائق الأدب الفرنسي ، وهو أدبٌ قام على أساس الفهم للسريرة الإنسانية ، وسيعيش إلى أزمان وأزمان ، ما دام في الدنيا ناسٌ يحبون الأدب الصادق الصريح .

ثم جاءت هذه الحرب فقضت في مصير فرنسا بما قضت ، ولم يبق لأصدقائي الفرنسيين من زاد غير الحزن الوجيع ، فأنا لا أزورهم في ليلة الميلاد كما كنت أصنع ، ولا ألقاهم إلا في الحين بعد الحين ، فهناك أحزان تؤرثها المؤاساة

(*) الرسالة : ٤ يناير ١٩٤٣ .

وتزيدها اشتعالاً إلى اشتعال .

وهنا أذكر أني عرفت أخيرًا أن سقوط باريس لم يُحزن أهل باريس بقدر ما نتصور ، ولم يشعرهم بمعاني الامتهان ، وتفسير ذلك عند الأستاذ توفيق وهبة أنهم قومٌ تعودوا الهزائم والانتصارات ، ولم تكن الدنيا في أنظارهم غير مواسم للانخفاض والارتفاع .

ولكني مع هذا أقرر أن حال الفرنسيين المقيمين بمصر يختلف عن حال مواطنيهم هناك ، لأن المغترب يتعلق بوطنه تعلقًا لا يحسَّه المقيم ، وقد تأكد عندي هذا المعنى في الأعوام التي قضيتها في باريس ، وفي بغداد ، فقد كان الخبر السيء يؤرق نومي مهما صَغُر وهان ، وكان أي حرف يُكتب ضد مصر يؤذيني ، فأردّ عليه في الحال .

أكتب هذه السطور في ليلة الميلاد ، وفي خيالي بيوتٌ عزيزة كنت أحب أن أراها وكانت تحب أن تراني . وسيقول قومٌ كلامًا كالذي قالوه يوم نشرت «الرسالة» مقالي في التفجع لسقوط باريس !

كانت فرنسا أمةً استعمارية فشِمت بانهزامها من يؤذيهم بُغي المستعمرين ، وفاتهم أن فرنسا أعطت جميع الشعوب درسًا سينتفعون به حامدين أو جاحدين .

كانت فرنسا ترى أن اللغة هي عنوان الأمة ، وكانت ترى أن الوطن الذي لا يسيطر بالفكر على خصومه ومنافسيه وطنٌ ضعيف . ومن أجل هذا أنفقت فرنسا ما أنفقت من الأموال ليكون لها مدارس في جميع البلاد ، وبفضل هذه العناية صارت اللغة الفرنسية لغةً دولية ، وصار من حق الفرنسي أن يعفى نفسه من العناء في تعلم اللغات ، لأنه سيجد من يتفاهم معهم بلغته في أي بلد يتوجه إليه ، ولو في الصين !

اقترحتُ في سنة ١٩٣٨ أن نُنشئ مدرسة مصرية تنافس المدرسة الفرنسية في طهران ، فلم أجد من يسمع كلامي ، وأين من يعرف أن في طهران جريدة إيرانية لغتُها الفرنسية ؟

فوجئت يومًا وأنا بدار المعلمين العالية في بغداد بمجموعات فخمة ضخمة من المؤلفات الفرنسية ، وحين سألت عن مصدرها عرفت أنها هدية مرسلة من باريس .

وقد استوحيت هذا الشاهد فاقترحت فيما بعد أن ترسل وزارة المعارف المصرية هدايا من الكتب المكدسة في المخازن إلى المدارس الأجنبية ، فترددت الوزارة عامين ، ثم تلطفتْ فأهدت مجموعات هزيلة ، مع أن في مخازنها مجلدات مهجورة ستباع يومًا بلا ميزان ، لأن حراستها وصيانتها تجشمان الوزارة ضروبًا من التكاليف .

كانت فرنسا تقوم بمبادلة الأساتذة والتلاميذ ، لتعطي وتأخذ ، ولتفيد وتستفيد ، وقد أقامت في إحدى ضواحي باريس مدينة تبني فيها أمة لأبنائها ما تشاء ، ولقد استفادت أممٌ كثيرة من هذه المزية إلا مصر ، ولهذا تفصيلٌ قد يتأذى الشمسي باشا من تسجيله في هذا الحديث .

ونحن اليوم في أوج صلاتنا مع الشرق ، فعند الشرق مدرسون مصريون يعدّون بالمئات ، ومع هذا لم تفكر مصر في ردّ الجميل .

ما الذي يمنع من أن تستقدم مصر بعض الأساتذة من الشرق فيدرسوا في معاهدها العالية بأساليبهم الخواصّ : فهذا في كلية الآداب ، وذاك في دار العلوم ، وذلك في كلية اللغة العربية ، إلى آخر ما يصلح له علماء الشرق ؟

ليس معنى هذا أن مصر في احتياج إلى مدرسين ، وكيف وفي خريجي المعاهد العالية شبان أكفاء لا يجدون ما أعدوا له من المناصب التعليمية ؟

إن لهذه المسألة وضعًا غير هذا الوضع ، والمراد هو أن تفكر مصر في إتاحة الفرصة لبعض أساتذة الشرق ، الفرصة التي تمكنهم من الوقوف على التيارات العلمية والأدبية في الديار المصرية ؛ فمصر اليوم في ازدهار علمي وأدبي لم تشهد مثله من قبل ، وهو ازدهار يوحي إلى الأساتذة أكثر مما يوحي إلى الطلاب ، وقد

يكون في وجود أولئك الأساتذة فرص لمنافسات علمية وأدبية تعود علينا بأجزل النفع ، وقد يكون في وجودهم خير للطلبة الذين حضروا إلينا من بلادهم ، فأنا ألاحظ أن أكثر الطلبة الشرقيين لا يجدون من يعاونهم على الاستفادة الصحيحة من الإقامة بهذه البلاد .

خطر بالي مرة أن أقترح على مشيخة الأزهر الشريف أن تنشئ كرسيًا للفقه الجعفري ، وكان هذا الخاطر لأني لحظت أن النضال بين المذاهب الفقهية قد انعدم في مصر أو كاد ، مع أن لمصر في التشريع الإسلامي تاريخًا من أمجد التواريخ .

إن مناصب «شيوخ المذاهب» صارت مناصب شكلية بسبب السلام الذي ساد بين المذاهب ، وهل نسمع اليوم خبرًا عن شيخ الشافعية أو شيخ المالكية ؟

إن النضال بين المذاهب أدى للتفكير الإسلامي خدمات تفوق الإحصاء ، وله فضلٌ عظيم في مرونة اللغة العربية ، وأكاد أجزم بأن الفقهاء خدموا اللغة أكثر مما خدمها الشعراء .

لو استقدمنا عالمًا شرقيًا لتدريس الفقه الجعفري بالأزهر لأثرنا النضال بين المذاهب من جديد ، وأعطينا مصر فرصة عظيمة ليقظة فكرية نادرة المثال .

إن مصر في عهدها الحاضر تنشئ تاريخًا جديدًا في الشرق ، وهي في طريق الوصول إلى عقد معاهدات ثقافية مع أكثر أمم الشرق ، وهذا يوجب عليها أن تعرف الشرق أكثر مما تعرف ، فيكون لها فيه سفراء روحيون ، ويكون عندها منه سفراء روحيون .

لو دعونا جماعة من أساتذة الشرق ليحدثونا عما في بلادهم من تقاليد وآراء وآداب لحمدوا لنا هذا الصنيع ، وعدوه تلطفًا يستحق الثناء .

ويظهر أنه لابد من إنشاء قلم بوزارة الخارجية لمراجعة ما يكتب عن مصر في جرائد الشرق ، وتكون مهمته المبادرة إلى تصحيح ما يستوجب التصحيح ،

وتكون مهمته أيضًا أن يستصدر أعدادًا خاصة من بعض جرائد الشرق للتعريف بمصر كالذي تصنع وزارة الخارجية في استصدار أعداد خاصة من بعض الجرائد الإنجليزية والأمريكية .

وهنا أشير إلى حادث ما ذكرته إلا شعرت بالحزن يعصر قلبي.

في سنة ١٩٣٩ أصدرت مجلة «الحديث» ومجلة «العرفان» ومجلة «المكشوف» أعدادًا خاصة بمصر ، أعدادًا نفيسة جدًّا ، ومع هذا لم أستطع إقناع وزارة المعارف بأن تشتري من تلك الأعداد مجموعات لمكتبات المدارس ، ليعرف الذين فكروا في التنويه بمصر أن كرمهم لا يضيع .

وفي تلك الأيام كنت أقترح على الأستاذ الزيات أن تصدر الرسالة أعدادًا خاصة عن الأمم العربية فرحَّب بالاقتراح وأجَّل تنفيذه إلى انقضاء الصيف ، ثم بدا له بعد ذلك أن يواجه المشروع من جديد ، فصدته أزمة الورق عما يريد .

مالي ولهذا الكلام ؟

هذه ليلة الميلاد ، والأثير ينقل إلى سمعي بعض ما يثور في شوارع مصر الجديدة من عجيج وضجيج ، فكيف آثرتُ الاعتكاف في هذه الليلة ، وقد تفضل شهر ذي الحجة فجعلها قمراء ؟

لعلني أردت الخلوة إلى قلمي ، وهو الأنس الأنيس عند اعتكار الظلمات في دياجي الزمان .

لعلني أردت بهذه الخطرات القومية أن أتجنب الخلوة إلى قلبي ، وهو عدوٌّ صديق .

ومن نكدر الدنيا على الحر أن يرى عدوًّا لهُ ما من صداقته بُدُّ

قضيت ما قضيت من حياتي في دراسة الجمال ، حيثما كان الجمال ، فأنا لا أضيف حرفًا إلى حرف إلا بميزان ، وأنا أصادق وأعادي بوحي الذوق لا بوحي النفع ، وما الموجب لأن أكون نفعيًّا وقد أغناني الله عن جميع الخلائق ، ولم أعرف

ما الظمأ والجوع في أي يوم ، ولا جاز في وهمي أن أتصور أن الله قد يتخلى عني ؟

لي صداقات كثيرة مع أرواح تنطق بالأوراق لا بالألفاظ ، وأقسم جهد اليمين أن بحديقة داري في سنتريس أشجارًا يعتريها الذبول إن صدفتُ عنها أسابيع .

لي صديق هو اليوم أحد مدرسي الفلسفة بكلية الآداب ، وهو الأستاذ محمود الخضيري ، وكان لي معه حديث في «ايسكوار مونج» في نوفمبر سنة ١٩٣٠ ، فما ذلك الحديث ؟ [١]

كنت أجلس في بعض الضحوات «بذلك الإيسكوار» وهو حديقة الحيّ في الاصطلاح الفرنسي ، كنت أجلس تحت شجرة يؤنسها أن ترى رجلاً بيده كتاب ، وكان أصدقائي من بعثة الجامعة المصرية يعرفون كيف يلقونني هناك . وفي ذات يوم حضر الأستاذ محمود الخضيري فوجدني أجادل رجلاً يحاول تشذيب تلك الشجرة يعنف ،فأنكر عليّ ما أصنع ، فقلت إن الشجرة تصرخ ، ومن واجب من استظل بظلها أن يدفع عنها العدوان ، فقال : وهل يحس الشجر والنبات ؟ فقلت : نعم ، ويتألم الشجر والنبات كما يتألم الحيوان !

وبعد شهور حدَّثتنا جرائد باريس أن جلالة الملك فؤاد قد استقدم عالمًا هنديًّا اسمه «بوز» ليلقي في الجمعية الجغرافية محاضرات عن نظريته في إحساس النبات !

إحساسي بالوجود هو سبب عنائي ، ولو عرف الناس هذا العناء لقاتلوني عليه، فهو أطيب الأطايب في ثمرات الحياة .

لم أدخل بلدًا إلا أحببته أصدق الحب ، لأني أرى بضميري وجه الله في كل مكان . وما صادقت إنسانًا وغدرت به أبدًا، لأني أرى الصداقة من أظهر الدلائل على صحة القول بوحدة الوجود .

(١) في حي السيدة زينب درب صغير اسمه «حارة منجي» ومنجي الذي سميت باسمه تلك الحارة هو «Monge» أحد الأساتذة الذين قدموا مصر مع حملة بونابرت .

وأنا أترحم وأتحسّر وأتفجع كلما رأيت إنسانًا يكذب أو ينافق في سبيل العيش ، فالموت الذي يخافه الناس لن يصل يومًا عن طريق الجوع ، ولو نظر الناس في أسباب أمراضهم لوجدوها ترجع إلى الإفراط في الطعام والشراب ولو كانوا من الفقراء .

ثم ماذا ؟ ثم يبقى جواب الخطاب الوارد من «الأرمان» فماذا يريد ذلك الخطاب ؟

هو يريد أن تكون مقالاتي كلها على غِرار «دار الهوى في عيد القمر» فأين أنا مما يريد ؟ وأين الأعصاب التي تستطيع تدبيج تلك الأحاسيس في كل أسبوع ؟

أمام عينيَّ وبين يديّ أرواحٌ موقوذة هي المقالات التي سطرتها بدمي ، ولا أستطيع نشرها بأي حال ، لأنها تخالف المألوف من تقاليد الزمان .

ثم يحاسبني ذلك الخطاب على هفوات قلمي ، كأنه يجهل أني أمتشق القلم في كل مساء ، وأني أراود أبكار المعاني في يقظتي ومنامي .

***

أما بعد فهذه ليلة الميلاد ، وقد قضيتُها وحيدًا فريدًا لأتقي الله في نفسي فلا أعرضها لشواجر الأرواح وعواطف القلوب .

وقد بقيتْ ليلة ستأتي بعد ليال ، وهي ليلة العام الجديد ، وأغلب الظن أني سأحرّم نعيمها على نفسي ، لأني نذرت التبتل بعد فراق من تلقيت عنهم وحي الروح في اللحظة التي تفصِل بين العام الذاهب والعام الوليد .

ما جزعِي على ما مضى من أيامي ، ولم يعش أحد كما عشت ، ولا استجاب الوجود لنداء شاعر كما استجاب لندائي ؟

ماذا صنع الدهر بهم ؟ ماذا صنع ؟

إن دنياي بعدهم وهمٌ في وهم ، وخيالُ في خيال ، ولن أتذوَّق طِيب الحياة إلا

بعد أن يصفحوا عني .

إن ذنبي عندهم أني صيرت حياتهم أفانين من الارتياع والانزعاج .. فهل يجهلون ما صنعوا بحياتي . وهل يجهلون أن الجروح قِصاص ؟

قد كان لي قبلكم حبٌّ وكنت فتىً   لظل سلطانِه أهلُ الهوى تَبَعُ
فكيف أشقيتموني كيف لا رَضِيتْ   ولا أرتني الليالي كيف أرتدعُ
هَبُوا فؤادي سلا واجتاز محنتهُ   فمن بسلوة قلب الصب ينتفع
يا غاضبين تعالَوْا تشهدوا كبدًا   رجاؤها في خيال البرء ، منقطِع
هوىً تهاوت أمانيه فليس لهُ   فيما تجود به الأوهام مُنتفع
هوىً خلقتم وأفنيتم، ولا عجبٌ   بعض الأحباء في قتل الهوى صَنَعُ
لا تحسبوا هجركم خطبًا يروّعني   إني بوأد بنات الدهر مضطلعُ



هو عيد الميلاد (*)
ولكن أي ميلاد؟ !



كان من حظ المسيحية أن يبعُد مكانها في التاريخ ، لتكثر فرص الشعر والخيال حول ميلاد المسيح ، عليه السلام، حتى جاز لفريق من المؤرخين أن يرتابوا في شخصية المسيح، كما ارتابوا في شخصية سقراط (؟!)

والارتياب في وجود تلك الشخصية النبوية لا يضر ذلك النبي في كثير أو قليل، ولكنه يؤدي إلى غاية لم يفطن لها أولئك المرتابون ، وتلك الغاية هي التحقق من ظمأ الإنسانية إلى نور يُطلّ من علياء السماء .. نور جميل جذاب يبدد ما في الضمائر من ظلمات الجحود .

ولنفرض جدلاً أن الرأي ما رأى أولئك المؤرخون ، وأن الإنسانية هي التي ابتدعت ذلك الميلاد ، فكيف اختارت هذا الوقت من السنة وهو طليعة الشتاء ؟

إن الذي اشتغل بالفِلاحة يدرك أن الأرض في هذا الوقت تعتلج بقوة وعنف ، وتتهيأ لثمرات العام المقبل بلذة وشوق ، وهي في «الظاهر »غاية ، ولكنها في «الباطن» جذوة من اليقظة العارمة والإحساس الفوَّار .

في هذا الوقت تستيقظ الأشجار التي جردها الخريف من الأوراق ، ولو شرِّحت تلك الأشجار لظهرت عناصر «البُزور» وهي الأثداء التي يرضع من رحيقها الورق الجديد .

(*) الرسالة : ٦ يناير ١٩٤١ .

في هذا الوقت تُلقى بذرة فتنجح وتلقَى بذرة فتخيب ، لأن الأرض في هذا الوقت تحيا حياة عَصبية ، والحياة العصبية لا تعرف التدليل ، فهي لا تقبل من البذور إلا ما يقوى على دفع عوادي البرد والجليد ، ولن يكون الأمر كذلك بعد ثلاثة أسابيع من تاريخ الميلاد، فحينئذ ترق الأرض وتلطُف فتحضن البذور الضعيفة بترفق واستبقاء .

فهل فهمنا الآن كيف اختارت الإنسانية هذا الوقت لتاريخ الميلاد ، على فرض أنه تاريخ مصنوع ، وعلى فرض أن البحث من حيث هو بحث يسمح بالنظر في الفروض ، بدون اعتداء على مقام المسيح ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات ؟!

أما بعد فقد كان لي مع هذا التاريخ تواريخ .

كنت أحمل باقات الأزهار وطرائف الهدايا إلى مآلف القلوب والأرواح يوم كان لي قلبٌ وروح ، قبل أن تدور الدنيا من حولي بإفكها المرجف وبغيها الأثيم ، وقبل أن أعرف أن شجرة الحب كشجرة الميلاد فيها أوراق صناعية لا تحس ما يحيط بها من أضواء وألوان ، ولا تقدر على نقل القلب من مكان إلى مكان .

وما أقسى الصحوة من غفوة العقل ! وما أشقى العقلاء !

لو كانت الدنيا أرادت ما أريد فأطالت في غوايتي لعرفتُها أكثر مما عرفتُ ، لأن المحب المفتون يتغلغل إلى السرائر ، وإن اتُهم بالغفلة والحمق ، ولأن العاشق الجاهل قد يرى المحاسن قبل أن يرى العيوب ، والتثقيف الصحيح هو الذي يروضك على النظر في المحاسن قبل النظر في العيوب ، لو قويتْ جوارحنا حق القوة لأنِسنا بجميع الوجوه وجميع الأشياء ، ولكننا مع الأسف نتلقى دروس الحياة عن المعلولين والضعفاء ، والتلميذ صورة الأستاذ في أكثر الأحايين .

كانت لي غاية من الهُتاف بالحب ، والهُيام بالجمال ، فما هي تلك الغاية ؟

كنت أرجو الطب للنفوس العليلة التي لا تستريح إلا إلى شكوى الزمان .

كنت أسمو إلى خلق البشاشة والأريحية في صدر هذا الجيل .

كنت أحارب النزعة الأثيمة التي تقتل الأرواح والقلوب باسم الوقار والعقل .

هل سمعتم بقصة الشيخ خليل ؟

هو رجل من علماء المالكية كان يفتخر بأنه لم يخرج من الأزهر مرة واحدة ليرى النيل ، ولهذا الشيخ أحفاد وأسباط في العقلية ، وأولئك الأحفاد والأسباط هم السُّوس الذي ينهش عظام الأخلاق – إن صحت هذه العبارة المجازية – فأخطرُ الآفات أن تَصدُر النصيحة عن رجلٍ خَمَدَ فعَقَل ، لأن الناس يَسِمونه بالعقل ولا يَصِمونه بالخمود ، وكذلك يتلقونً عنه درس الموت وهم يتوهمون أنه يدعوهم إلى مزاحمة الأحياء .

إلى متى الصبر على هذا الفهم السقيم لمعنى الأخلاق ؟ ومتى ندرك أن الخُلق من صور الحركة ، وليس من صور الركود ؟

الخلق جارحةٌ من الجوارح ، وما سمِّيت الجوارح جوارح إلا لقدرتها على السيطرة والامتلاك ، فالعين التي لا تجرح ليست عينًا طبيعية ، وإنما هي عين صناعية ، إلى آخر القول في وظائف الأعضاء ، أو منافع الأعضاء ، كما كان يعبِّر الأقدمون .

ولكن من الذي يسمح بعد هذا الكلام دعوة إلى الخُلق الصحيح ؟

وكيف يعيش المتوقرون والمتزمتون إذا استمع الناس لمن يقول بأن الابتسام للحياة من شواهد «العافية الأخلاقية» ؟

إن الشرق مبتلى بالانحراف في فهم الأخلاق ، فهي عنده سلب لا إيجاب ، وهو يفكر فيما يترك قبل أن يفكر فيما يصنع ، والنواهي والزواجر هي عنده الهدف الأول حين يتسامى إلى الاتسام بكرائم الخلال .

فما أصل هذا الانحراف في فهم الأخلاق ؟

لعل هذا الانحراف يرجع إلى المعلمين ، وكان التعليم مهنة مقصورة على الرهبان وأمثال الرهبان ، فالخُلق في أذهانهم هو انحسار واحتجاز وانقباض ، ومن هنا يؤخذ المعلم بقيود لا يؤخذ بها غيره من طبقات المجتمع ، لأن الرهبانية مفروضة عليه وإن لم يخطر في باله أنه مشدود إلى حظيرة الرهبانية .

وهو يحمل أعباء ميراث ثقيل من التبعات والتكاليف ، ميراث يرجع إلى العهد السحيق يوم كان الناس يتوهمون أن كلمة الخير لا تجيء إلا من مصدر مجهول ، ويوم كان «سَدَنة الهياكل» ينتفعون بهذه الغفلة العقلية فيتحدثون من وراء حجاب باسم السماء ، وما تكلمت السماء ، وإنما تكلم ناس مبرقعون خُلقوا من الوحل لا من الطين ! وبفضل تلك العقلية أنكر قوم أن تكون النبوة من حظ رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وهي عقلية باقية إلى اليوم ، وإن زعم «ناس» أنهم سلموا من دائها الوبيل .

لقد كثر المؤلفون في الأخلاق ، فماذا صنعوا ؟ هل غيِّروا ما بنفس الأمة من الفهم المنحرف لمعنى الحياة ؟ هل راضوها على التخلق بأخلاق العصر ، ولكل عصر أخلاق ؟ هل استجابوا لدعوة العزة الروحية والعقلية فخلقوا الشوق إلى مسايرة ما في الآفاق العلمية من الصيال بين الأرواح ، والصراع بين العقول ؟

علم الأخلاق يُدرس منذ أعوام طوال في معاهدنا العالية ، فأين محصول تلك الدروس ؟

كل ما وقع هو التلخيص لمشكلات أحسها بعض الأخلاقيين في الغرب ، والأخلاق إحساس لا تلخيص ، وفي الشرق مشكلات غير تلك المشكلات ، لأن له أمراضًا غير تلك الأمراض، ومن أمراض الشرق أن تجوز فيه الأستاذية الأخلاقية لناس لم يتمرسوا بمعضلات الوجود .

تلك خواطر ساقها ما وقعتُ فيه ليلة عيد الميلاد ، فقد أخلفت موعدًا لا يخلفه الرجل إلا وهو مكروب ، وهو موعد يذكر بإخوة له من قبل ، يوم كنت مشبوب الصبوة في منادح باريس ، عليها أطيب التحية وأجزل الثناء !

وبماذا اعتذرت ؟ قلت إني أحبر مقالاً لإحدى المجلات ، وهل يصعب الاختراع على من يعايش أبناء هذا الزمان ؟!

ومضيت وحدي أجوب الظلمات بعد إخلاف ذلك الميعاد فراعني أن أجد في قلبي فراغًا عميقًا مخيفًا يذكر بالفراغ المنصوص عليه في بعض الأحاديث ، ففي الآثار أن الجاني قد يهوى في قاع جهنم سبعين خريفًا ، وكان قلبي كذلك ، فلو هويتُ في أعماقه سبعين سنة لما وصلت إلى قرار مكين ، وكيف وقد أعفيته من ثورة الوجد في ليلة عيد الميلاد ، فلم يُمس إلا وهو فضاء في فضاء ، وتلك حال القلب «الخالي» من الأهل ، والوجد أهل ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

ورجعت إلى داري بعد لحظات ، وكان في نيتي أن أطوِّف بأرجاء القاهرة إلى نصف الليل ، رجعت سليم القلب من الأسواء ولا يسلم القلب من الأسواء إلا وهو عليل ، فالقلب كالطفل ، لا يُقبل على اللعب إلا في أوقات العافية ، وإن جهل ذلك «علماء» الأخلاق .

وأردت أن أطب لقلبي فذكرته بما مرَّ في العام الماضي من مكاره وعقابيل ، ودعوته إلى النظر في قصة الصديق الذي كنت أشرب على ذكراه أكواب الصفاء . وذكرتُ قلبي بإحساني إليه حين جعلت له ماضيًا في الصداقة والحب ، فذلك الماضي هو الأحجار التي بنينا بها وجودنا الصحيح ، وجود القلب الخافق والروح العَطوف ، وهو الشاهد على أن حياتنا لم تخلُ من نوازع وأهواء ، وأن لنا تاريخًا في معاقرة الحقائق ومقارعة الأباطيل .

فهل وقع هذا المنطق من قلبي موقع القبول ؟

إنه لم يُنكر أنس الرجل بماضيه في الصداقة والحب ، وإن زلزلت الأرض زلزالها فغيرت جميع المعالم من ذلك التاريخ .

ولكنه أنكر الاكتفاء بثروة الماضي ، وإن امتلأ بنمير الذكريات العِذاب ، فما كانت الذكريات إلا ومضة البرق لعين الساري الحيران ، وهو ومضة تزيغ عينيه ولا تهديه ، وهي أيضًا تزيد حقده على ظلم الوجود .

وعمدت إلى القلم أثير به معركة أدبية ، فقد كنت أعرف أن قلبي يكتحل بغبار المعارك التي يثيرها قلمي ، فما نفع ذلك بشيء ، وصاح القلب : «هذه ليلة الميلاد ، فأين الميلاد ؟!»

أين الميلاد ؟ وكيف ؟

هل يجب أن أولد في هذه الليلة كما ولد المسيح ؟ وهل أولد في كل سنة مرة، وما ولد المسيح إلا مرة ؟!

فأجاب القلب في حزم عنيف : يجب أن تولد من جديد في كل لحظة ، لأن المُقام على حالٍ واحدٌ يُفسد مياه الأنهار ، فكيف تراه يصنع بأفكار الرجال !

-ولكن ليلة الميلاد قد ضاعت عليّ وعليك ، يا قلبي !

-إن ضاعت ليلة الميلاد فقد بقى يوم الميلاد .

وفي الصباح هتف الهاتف – وهو التليفون كما كان يسميه أهل لبنان – والهاتف روح لطيفة كانت بيني وبينها أشياء ، وقد قدِمتْ من بلدٍ لتراني يوم الميلاد فهتفتُ :

يا قلب يومي ويومك عيد !!

وخرجنا معًا ، أنا وقلبي ، لاستقبال تلك الروح ، وقد وُلد الهوى من جديد ، الهوى الذي ظلمناه باسم الوقار والعقل ، وطال الحديث وطاب حول ما كنا عليه، وما صرنا إليه ، ومن شرب من عيون تلك الظبية ما شربتُ لا يقول إنه رآها في يوم الميلاد وإنما يقول إنه رآها في أبد الخلود !

وعادت تلك الظبية إلى ضلالها القديم فأمرتني أن أكتب ما يجيش في صدري وأنا في حضرتها السامية ، وهو امتحان أؤديه كلما التقينا ، وحياتي كلها امتحانات ! فامتشقتُ القلم وكتبت :

«باسم الله الذي أقسم بالقلم وما يسطُرون أُسجل هذه الكلمات :

عُنِيتْ الحكومة المصرية كما عُنِيتْ سائر الحكومات بتدبير معاشات

الموظفين ، بحيث يجد الموظف ما يقتات به بعد بلوغ الستين ، ولكن الحكومة نسيت أو تناست أن في الأمة رجالاً لهم خدمات صوادق وليسوا موظفين فليس لهم معاش ، وهم الرجال الذين انقطعوا للصحافة والتأليف ، فالأستاذ فلان خدم الصحافة نحو عشرين سنة ثم هدّه التعب ، فهو اليوم يعاني البطالة والمرض بلا عائل ولا معين . . والأستاذ فلان أخرج طائفة من المؤلفات الجياد ، وكان يعيش عيش الفقراء من تلك المؤلفات ، وهو اليوم لا يقدر على التأليف ، فهو في فقر مدقع ولا يسأل عنه أحدٌ من أصحابه القدماء . وفلان كانت له سابقة في الابتكارات الأدبية ، وهو اليوم مُعْوز لا يجد القوت الطفيف . وفلان قضى شبابه وكهولته في التدريس بالمدارس الحرة ثم قصمه المرض فخرج بلا معاش وله أطفال يصرخون من الجوع في كل صباح وفي كل مساء » .

وعند هذه الكلمة شرقتُ بدموعي ، وكاد صوتي يرتفع بالنحيب ، فصاحت الظبية :

-تبكي وأنا معك ؟ هل تقصُّ ما كان بيني وبينك؟ ويلي عليك وويلي منك!!

-نعم ، يا شقية ، هي قصة حبي، فدعيني أدوّن كل شيء ! ثم مضيت فكتبت:

«والدولة التي تنفق ما تنفق على مختلف الشؤون لا تذكر أن في مصر كتابًا وشعراء وباحثين أعجزهم المرض عن السعي في سبيل القوت ، ولهؤلاء آثار ظاهرة أو خفية في نهضة الأمة وقد يكون لهم تلاميذ – ولو بالفكر – من بين كبار الوزراء فما الذي يمنع من أن تفكر الدولة في حماية هؤلاء من قسوة الاحتياج » .

ثم سكتُّ ، فقال الروح : هل وصلتَ في مكايدتي إلى ما تريد ؟

فقلت : ستعلمين بعد لحظات ! ثم كتبت :

«قد يقال إن الدولة لا تستطيع معاونة أهل الأدب بصفة رسمية ، لأن الأدب ليس له رسوم ولا حدود ، وهو مباح الحُرمُات يدعيه من يشاءَ وأجيب بأن الدولة تستطيع أن تجعل الفصل في هذه القضية من اختصاص مدير الجامعة أو وزير المعارف ومن المفهوم أن هاتين الجهتين لهما دراية صحيحة بأقدار الأدباء

والباحثين ، وأنا أرضي بأن ترصد الدولة مئتي جنيه فقط في كل شهر لعشرين رجلاً من هؤلاء ، فإن استجابت الدولة لدعائي فقد رفع عن كاهلي عبئًا ثقيلا جدًا ، هو عبء التفكير في أديب كانت له جولات موفقة في ميدان البيان ، وإن كان من ألدّ خصومي » .

وغلبني الحزن فبكيت ، فقالت الروح : يظهر أنني دللتك أكثر مما يجب ، فعدت أسرع من الأطفال إلى البكاء !

فاستمهلتها لحظة وكتبت :

«والدولة التي تترك بعض الأدباء يموتون من الجوع هي الدولة التي تمنّ علينا بأنها أنشأت وزارة للشؤون الاجتماعية ! »

ثم !! ثم أحسست يدًا تصدني عما أكتب بقسوة وعنف ، فعرفت ، أني في حضرة تلك الروح ، وأن المقام لا يسمح بمثل هذا الكلام الحزين .

-ماذا قلت فيّ ؟

-قلتُ إنك غبية وحمقاء !

-أنت وحدك الغبيّ ، وأنت وحدك الأحمق !

-هذه كلمة حق لأني قضيت عشرين سنة في خدمة أمة لا تعرف أن القلم له حقوق .

-وما شأن القلم فيما بيني وبينك ؟

-القلم هو الذي يجرني أحيانًا إلى محاورة الحمقى لأدرس الغرائز والطباع !

- Ca suffit Ca suffit !

-ليكن ما تريدين ، أيتها الروح ، فإشارتك أمرٌ يطاع أما بعد ، وسيطول شقائي بأما بعد !

أما بعد فقد حدثني الشاعر حافظ إبراهيم مرات كثيرة أنه كان يتمنى الاتصال بقصر جلالة الملك ليكون سفيرًا بين القصر الرفيع والأدب الرفيع .

وقد مات حافظ قبل أن يظفر بتحقيق تلك الغاية ، ولم نسمع أن رجلاً فكَّر فيما فكَّر فيه حافظ ، ولم يصل إلينا من قُرب أو من بُعد أن ناسًا يسرَهم أن يكون للأدب حظ من الرعاية والتشريف بقصر المُلك ، مع أننا في عصر فاروق بن فؤاد بن إسماعيل .

لقد شقى قلمي في الدعوة إلى أن يكون للأدباء مكان في الحياة الرسمية ، لأنهم عنوان الحياة وزينة الوجود ، ولأن آثارهم هي الباقيات الصالحات فوق جبين التاريخ .

***

ثم انتهى الحُلم ، حُلم اليقظة في يوم الميلاد ، ورجعتْ تلك الروح إلى بلدها البعيد ، وبقيتُ حيث كنت أعاني بلاء الهجر وعناء الصدود .

أيها البلد الذي لا أسميه تخوفًا من الرقباء !

فيك أيها البلد الجميل روحٌ لطيفة يصلني برها من وقت إلى وقت ، فيك روح لا تحتفل بعيد الهِجرة ولا عيد الميلاد ، ولكنها تذكرني في عيد الهجرة وعيد الميلاد ، لأنها تشعر باحتياجي إلى البِر في مواسم الأرواح والقلوب .

أيتها الروح ، أنا مشتاق إلى مصدر الوحي ، فمتى تعودين ؟ أنا في دنياي غريب ، أيتها الروح ، وأنت البَلسم الشافي لوحشة الغريب .

هو عيد الميلاد ، ولكن أي ميلاد ؟ هو ميلاد الحب الصادق ، فتلك أول مرة مسحت فيها دموعي بأناملك اللطاف ، يا حجتي الباقية على أن الهوى إلهٌ معبود .

٤٥٠٠ ثانية
في صحبة أم كلثوم



لم تسمح الظروف بلقاء الآنسة أم كلثوم بعد الذي دوَّناه من لحظات التلاقي في كتاب «ليلى المريضة في العراق » وهي لحظاتٌ قِصار ولكنها كانت جيّاشة بأقباس المعاني ، ولو طالت تلك اللحظات لظفرنا من سِحر الحديث بأطايب وأفانين .

ولم يكن ذلك الحرمان عن هجر منها أو صدود ، فما يستطيع ذلك الروح أن ينسى أن له مآرب وجدانية من مسامرة أرباب الوجدان ، وإنما شاءت المقادير أن تصرفنا بالشواغل القاسية عن التأهب لمداعبة الأفاعي والصِّلال .

وما معنى ذلك ؟

معناه أني سأتحف أم كلثوم بصورة وصفية تبسم لها في حين وتَعْبس لها في أحايين ، مع العرفان بأني لم أقل غير الحق في وصف ذلك الروح اللطيف .

وهل لهذه الحمامة الموصلية رُوحٌ لطيف ؟

ما وزانتُ بين غناء أم كلثوم وحديث أم كلثوم إلا تذكرت قول شوقي في الصوت الحنَّان :

وتّـرٌ في اللَّهاة ما للمغنِّي ... من يدٍ في صفائه ولِيانِهْ

فهذه الحمامة تغرِّد بلا وَعْى ولا إحساس في نظر من يحكم بظاهر ما يندّ عن

شفتيها الورديتين من أغانٍ وأحاديث فهل تكون في حقيقة الأمر كذلك ؟

إن كانت أم كلثوم بلا وَعْى ولا إحساس فعلى الأدب والفنّ العفاء . وكيف تُحْرم أم كلثوم قوة الروح وهي بلا نزاع ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل ؟

وأين من يزعم أن قلبه سَليم من الشوق لأغاني أم كلثوم ، وما مرَّت لحظة واحدة في المشرق أو في المغرب بدون زفرة أو لوحة تثيرها أغاني أم كلثوم ؟

تلك الفتاة هي الشاهدة على أن الله يزيد في الخلق ما يشاء ، فتبارك الله أحسن الخالقين !

ولكن كيف تحلّ هذه المشكلة : مشكلة الفرق بين غناء أم كلثوم وحديث أم كلثوم ؟

الحل سهل : لأن العقدة مشتركة بينها وبين محمد عبد الوهاب وإليه وإليها انتهى الإبداع في عالم الغناء .

عبد الوهاب رجل أعمال وأم كلثوم رجل أعمال ، وذلك سر العبقرية عند هذين الروحين ، وهو الدليل على أن الله لا يَهب المواهب لأهل التخاذل والانحلال ، والزهد فيجمع الثروة هو الآية الحق على التخاذل والانحلال ، وغضبةُ الله على من يحسبني أمزح في هذا الحديث !

دعتني أم كلثوم مرة لتناول العشاء في أحد مطاعم القاهرة فأجبت الدعوة ، ولكني رأيت أن أدفع عن نفسي فاستظرفتْني جدًا وصرَحت بأني لم أقل غير الحق حين قلت : « إني أعظم من الجاحظ ولو غضب الدكتور طه حسين » .

ولن أنسى أبدًا موقف القَصَبْجي الملحِّن وقد زعم أنه صائم مع أن العَشاء كان في جوف الليل ولم نكن في رمضان ولا شعبان ، ولكنه كان يعرف أن « حمامة الشرق» لا يسرها أن يكون القصبجي رجلاً له أمعاء تظمأ وتجوع كسائر الناس ، وكيف يكون فنانًا وهو يحس الظمأ والجوع ؟!

أشهد أن البخل حق ، وأنه من خصائص أهل العبقرية ، وإلا فكيف صحبتُ الدكتور طه حسين عشر سنين ولم أتناول الغداء في داره غير مرة واحدة لظروف قهرية قضتْ بأن نمضي النهار كله في درس شواهد الشعر المنحول سنة ١٩٢٦ ؟

وكذلك يكون شقيق الروح محمد عبد الوهاب ، فهو أبخل من الجارم بمراحل طوال ، وهو إلى اليوم لا يدرك أن الدينار قد ينقسم إلى دراهم ، وأن الدرهم قد ينقسم إلى فلوس ، إنما الدينار دينار ، فإذا انقسم فهو هباء ، وإليكم هذا الخبر الطريف :

نشر الموسيقار محمد عبد الوهاب ، كلمات في مجلة الاثنين عن ذكرياته في زيارة العراق ، وقد قرأت تلك الذكريات وأنا في بغداد فحزنت لأني عرفت منها أن الأستاذ الصراف خدعه فزيَّن له الذهاب من دمشق إلى بغداد في سيارة عربية لا إنجليزية ، وكانت النتيجة أن يقضي ثلاثة أيام بلياليها في الطريق بين دمشق وبغداد، فصممت على تأنيب الأستاذ الصراف حين أراه ، ثم عظُمت الدهشة وعظم الاستغراب ، حين عرفت من الأستاذ الصراف أن الموسيقار عبد الوهاب هو الذي اختار تلك السيارة لأن أجرتها أرخص بمبلغ لا يقل بحال من الأحوال عن دينارين !

ماذا أريد أن أقول ؟

لعلي أريد القول بأن الاهتمام بجمع الثروة يدل على الشغف بحب الدنيا ، وحب الدنيا هو الأصل الأصيل لحيوات النوازع والغرائز والأحاسيس .

وحب الدنيا كان السرَّ في عبقرية أحمد شوقي أمير الشعراء فقد صحبتُه مرات كثيرة وهو يطوف على أملاكه بالقاهرة وضواحي القاهرة ، وشهدتُ كيف ينظر إلى كل بقعة من أملاكه وقلبُه يهتف : « كلٌّ مليحة بِمَذاق» ورحم الله شوقي ، فما مات إلا وهو حزينٌ على فراق أملاكه الواسعة بأرجاء هذه البلاد .

وحب الدنيا هو السرّ في عبقرية عبد الوهاب وأم كلثوم ، عبد الوهاب ساكن

العباسية وأم كلثوم ساكنة الزمالك وهل يستطيع مخلوق أن يقول إنه على شيء من الأدب أو الفن وجيوبُه خاوية ؟

آه ، ثم آه !!

كنتُ غنيًا وكانت لي أموالٌ مرصودة في مصارف مختلفات ثم شاء القَدَر أن أترفَّق بمرضاي من المِلاح فأنفق عليهم ما أملك ، فأنا اليوم فقير ، فقير ، بحيث ترفض أم كلثوم أن تكون «ليلى المريضة في الزمالك» بحجة أنها صحيحة لا بحجة أني لم أعد أملك البِرَّ بمرضاي من ذوات الخد الأسيل والطَّرف الغضيض !

وهجرتي إلى العراق هي سبب هذا البلاء ، فقد أعداني العراق بالكرم وراضني على البذل والجود ، فأنا اليوم بلا ذخيرة ولا عتاد .

ألم تسمعوا أني كنت أتمرد على رؤسائي بالجامعة المصرية وبوزارة المعارف، فكنت أملك الزهد في مناسب الحكومة في كل وقت ؟

فإن صح أني صبرت أخيرًا على خدمة الحكومة أربع سنين فاعلموا أن أخاكم مُكرهٌ لا بطل ، وأنه لم يتمرغ في تراب «الميري» إلا وهو في فاقة وإملاق .

وآه ثم آه من الصبر على خدمة الحكومة أربع سنين ! وهل خُلق الشعراء لهذا الاستعباد ؟ وهل كان ذلك هو المصير المنشود لمن يؤمنون بفاطر النخيل والأعناب ؟

ولكن لا بأس فمن واجب الشاعر الذي أخضعه الفن للقوافي والأوزان أن يقبل الخضوع لقيود الوظيفة وقيود المجتمع وما قيمة الفلسفة إن لم نحسن تعليل الصبر على قيود الوظيفة وقيود المجتمع ؟

وما حديث الـ ٤٥٠٠ ثانية في صحبة أم كلثوم ؟

كانت النفس حدثتني بوجوب السفر إلى الإسكندرية في أواخر أيلول لأرى كيف ينجزر الصيف عن الخريف في تلك الشواطيء الفِيح ، فرأيت على المحطة

فتّى من عُصبة الفن الجيل وهو يهتف : « أما ترى ثومة يا دكتور ؟ » .

والتفتُّ فرأيت إنسانةً نحيلة تكبح سحر عينيها بمنظارين سمراوين وهي تحاور المودَّعين حِوارًا تقع فيه ألفاظ غلاظ على غير ما يُنتظر من فتاة لها تلك المكانة بين البِيض الخَفرات من بُنيْات وادي النيل .

وأقبلتُ فسلَّمتُ تسليم الشوق بتهيُّب واحتراس ، لتفهم أني لا أريد نضالها في ميدان التنكيت ، ولكن الشقية تغابت وتجاهلتْ رغبتي في البعد عن هذا الميدان، ولم تكن إلا لحظة حتى اقتنعتُ بأن الزمالك تجاور بولاق !

ما الذي يحمل ثومة على خلع البُرقع وهي تحاور الرجال وفيهم من لا يتأدب وهو يحاور النساء !

لم يبق بين ثومة وبين الفَصيلة النسائية أية صلة فهي اليوم رجل أعمال ، وهي أبو كلثوم لا أم كلثوم !!

وقتُ ثومة لا يضيع في مراجعة الأدب القديم والأدب الحديث – كما تسمعون– وإنما يضيع وقت ثومة في تدبير المال لاقتناء النفائس من البيوت والبساتين .

وثومة ليست غبية ، فهي تعرف أن البيئات الفنية يكثُر فيها الوباء ، وأنه لا موجب لطاعة الفِطرة التي يتجلى فيها الحَنَان النَّسوي ، لئلا يكون من أثر ذلك أن تدور حولها الأقاويل والأراجيف في زمن الأقاويل والأراجيف .

ومن أجل هذا لا تُجيد أم كلثوم ممثلةً إلا في مواقف الانفراد ، فهي كتلةً من الثَّلج حين تحاور رجلاً في مواقفها التمثيلية ، وهي نارٌ تتأجَّج حين تخلو إلى نفسها في موقف من مواقف التذكر والاشتياق .

العُزلة هي الفرصة الوحيدة لانفجار العواطف في صدر أم كلثوم ، لأن هذه الإنسانة تتوهم أن المجتمع لا يُحسن غير التجريح والاغتياب ، فهي تلقاه بلسانٍ

حديد لا يجيد غير السخرية والاستهزاء ، فإذا اعتزلت الناس أو توهمتْ أنها اعتزلت الناس صارت أمَّ كلثوم الحقيقية بشفتيها الورديتين وثناياها اللؤلؤية وأنفها المسنون . ولو استبحتُ مغازلة هذه الشقية لقلتُ إن ابتسامها يصدُر عن وادٍ سحيق هو وادي الخلود !

وما أسعدَ من يظفر بابتسامة صفية من أم كلثوم ولو لحظة واحدة من عمر الزمان !

ها نحن أولا في محطة القاهرة ، وإني وإياها لمختلفان ، فهي ذاهبة إلى المنصورة وأنا ذاهب إلى الإسكندرية ، وسنفترق في طنطا كارهين أو طائعين .

وأترفق فأقول : ألا تحتاج الحمامة الموصلية إلى رجل يضايقها لحظات ؟

فتجيب : وأنت ؟ ألا تحتاج إلى من يضايقك ساعات ؟

ثم نأخذ في الحديث بعنف ولجاجة وصيال ، فهل كان بيني وبين هذه الروح ثأرٌ قديم ؟ وهل سمعتْ أني اغتبتها فقلت إنها ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل ؟ وهل نقل الوشاة أني زعمتُ أنها أطيب من العِطر وأرقّ من الزهر المطلول ؟

لا أعرف ما ذنبي عند أم كلثوم ، ولم أخرج على الأدب فأقول إنها خير ما أخرجتْ مصرُ من ثمرات ، وإنها ألطف روح سكن الزمالك وتخطَّر في شارع فؤاد ؟

ما هفوتُ في حق أم كلثوم إلا مرة واحدة حين قلت إن حنجرتها مسروقة من الحمائم الموصلية ، وكان الرأي أن أقول إن حمائم الموصل سرقت رخامة الصوت من الحنجرة الكلثومية .

ثم تشتط أم كلثوم في المزاح الغليظ ، ولكن مع مَنْ ؟

مع الرجل العليم بمواقع أهواء القلوب ولو سُدِل على سرائرها ألف حجاب !

هل تذكرون المصباح المغطَّى بالأوراق الزُّرق ؟

هو قلب أم كلثوم ، لو تعلمون !

وبلفظة واحدة نزعت تلك الأوراق لأواجه ذلك القلب الوهاج فما هي تلك اللفظة السحرية ؟

قلت : إن حمامة الشرق تستر بمزاحها الغليظ قلبًا يحترق فالتفتت التفاتة رشيقة وهي تستزيد ، فقلت : وقد حدثتني ليلى أن الأفعى تغفو أوقاتا طويلة ثم تستيقظ حين تجد الفرصة لتخدير الفريسة بالسم الزعاف .

وبهذا الكلام تنبهت أم كلثوم من سُباتها المتكلَّف المصنوع ، وابتسمت ابتسامة لن أنساها ما حييت ، فقصصت عليها قصة ليلى حين قرأتْ في كتب التاريخ الطبيعي أن الحيات تثور وتهتاج حين ترى إنسانًا أخضر العينين ، فزعمت الشقية أنها لم تكن تعرف أني أخضر العينين ، فقلت : وما السرَّ في نفرتك منى أيتها الرقطاء ؟

وترفقت أم كلثوم وتلطفت بعد التأبي والتمنع ، وانطلقت تتحدث بلا تكبر ولا ازدهاء ، فمن قال إنه عرفها قبلي فهو كاذب ، لأني أول من نزع الأوراق الزَّرق عن ذلك القلب الوهاج ، وأنا أول من فرض على أم كلثوم أن تعرف أن الدنيا فيها أمانة وصدق وإخلاص

من حق أم كلثوم أن تكون في دنياها رجل أعمال ، فنحن في عصر سخيف لا يقيم وزنًا لمواهب أهل الأدب والفن إذا فاتهم سناد الجاه والمال .

ولكن .. ولكن دنيا أم كلثوم صدّتها عن الانتفاع بأرباب المواهب ، فلو كان لأم كلثوم مستشار أمين لوصلت إلى الإعجاز في الغناء والتمثيل ، فلا عفا الله عمن من صدُّوا هذه الروح عن الاستئناس بأذواق أهل الآداب والفنون !

وهل أنسى بشاعة الاستئثار بتصوير عصر الرشيد ؟

كان يمكن أن يكون فِلم « دنانير » أعجوبة الأفلام التاريخية لو كانت أم كلثوم تعرف أن في مصر رجالاً أدقَّ ذوقًا وإحساسًا من فلان وفلان ، وأن الانتفاع بآراء

هؤلاء الرجال قد يعود عليها بالخير الجزيل ، ولكن أم كلثوم امرأة وإن كانت رجل أعمال ، والمرأة لا تفلح حين تتوهم أنها أعقل من الرجال .

فلم دنانير جميل جميل ، ولكن تعوذه قوة الروح ، ولأم كلثوم أن تغضب كيف تشاء ، ولفلان أن يقتل نفسه من الغيظ ، فقد أخلف الظن به كل الإخلاف .

إن هذا القلم يلخص رأينا في أم كلثوم : فهي لا تجيد إلا عند العزلة والانفراد .

أين من يجعل أم كلثوم من أزهار المجتمع ؟

أين من يحوَّل هذه الفتاة إلى روح لطيف يشيع في المجتمع معاني الأنس والانشراح !

إن كانت هذه الفتاة تحب أن تكون «ابن بلد» فقد ظفرتْ بما تريد ، أما إن كانت تحب أن تكون أعظم من أم كلثوم فلذلك حديث غير هذا الحديث .

***

ثم وصل القطار إلى طنطا فانتقلتْ إلى قطار المنصورة وبقيتُ أتشوف إلى الإسكندرية ، وذلك آخر العهد بتلك الروح ، فإن رضيت عن هذا المقال ، فقد نلتقي في مصر الجديدة أو في الزمالك وإلا ....

دار الهوى (*)
في عيد القمر



أخي الأستاذ الزيات :

هل تذكُر أني وجهت إليك مقالاً من بغداد عن «القلب الغريب في ليلة عيد» منذ نحو أربع سنين ؟ وهل تذكر أني تشوقت إلى دار تحب العيد وتحن إليها لأنها تراني مع العيد ؟

ذلك مقالٌ فبستُه من نار قلبي ، وأخذت مداده من دمي ، وأرسلتُه تحية إلى دارٍ عَظُمت ديونُها على قلمي .

وإنما وجَّهت إليك ذلك المقال لأثير في روحك التشوُّف إلى تعليل ما تعاني الأرواح من متاعب ليس لها في الظاهر سناد من مطالب المجد في هذا الوجود .

فهل فكرتُ في تعليل هذا المعنى ؟

وهل حاولتَ الدفاع عن الأعمار التي تضيع في تشريح نوازع الوجدان ؟

أنا أطالبك بالرجوع إلى الوجدانيات ، بجانب ما أقبلت عليه من الاجتماعيات ، فقد كاد الأدب يخلو من الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب . ولا قيمة للأدب إن أغفل الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب .

وإليك القصة الآتية :

(*) الرسالة : ٢٢ ديسمبر ١٩٤٢ .

في حفلة من حفلات إحدى الطوائف المسيحية تسابقَ الحاضرون لتقبيل يـد البطريرك ، فرأيته ينهض بقوة ليعانق من يسارعون إلى التسليم عليه ، مـع أنـه فيمـا سمعت قـد جـاوز التسـعين وعندئـذ غلبنـي الفكـر الفلسـفي فقلـت لجـاري في المحفل: إن راحة رجال الدين من هموم الحيـاة تمـنحهم طـول الصـحة والعافيـة فقال جاري بتحمس : كيف ترى ذلك وغبطة البطريرك يحمل هموم الطائفة كلهـا، ويعنِّي نفسه بالدقائق الخفية لجميع البيوت ؟

فقلت : المتاعب الفردية أعنف من المتاعب العمومية ، فالرجل الذي يحمل هموم بيت يُعدُّ أهله بالآحاد أشقى من الرجل الذي يحمل هموم طائفةُ يعدّ أبناؤهـا بـالألوف أو الملايـين . وهـل يحـزن وزيـر المعـارف لسـوء نتـائج الامتحانـات العمومية بقدرما يحزن لو رسب ابنه في الامتحان ؟

إحساسنا الصادق يصدُر عن متاعبنا الذاتية أولاً وقبل كل شـيء ، ثـم يتفـرَّع فيتصل بالمجتمع القريب أو البعيد ، وهل بكى النبي محمـد لوفـاة أي طفـل كمـا بكى لوفاة ابنه إبراهيم ؟

وإذن يكون من حقي أن أقول إن الأدب الذي يصـوِّر الـذاتيات هـو أصـدق الآداب ، وهو الآية الباقية على الصدق الأصيل ، فمن الجناية على الأدب أن نشغل أقلامنا بهموم خارجية قبل أن نستوفى التعبير عن همومنا الداخلية .

للمجتمع حقوق على القلم البليغ ، يوم يتأثر الكاتب بتلـك الحقـوق ، ويـوم يرى أنه عن تأييدها مسئول أمام الضمير الأدبي لا أمام الناس .

وأنت ذلك الكاتب ، يا صديقي ، فاتجاهاتك الاجتماعية تشهد بأنك تحس آلام المجتمع أصدق إحساس ، وسيكون لك في هذا الميدان مكان يحفظه التاريخ.

وأنا أرتضى لنفسي ما أرتضى لك ، لولا تلك الدار التي أسَـرتْ قلبـي عـددًا من السنين ، ولم أستطع التحرر من أسرها بأي جهاد .

إن تاب الله عليّ من الهيام بتلك الدار فسـأجاريك في ميـدانك ، وسـيطول بينـي وبينك السجال ، ولكني أرى الله أكرم من أن يجود بذلك المتاب ، لأن نعمته عـليّ في

هذه الضلالة أعظم من نعمته بالهداية على من يغضُّون أبصارهم عن سحر الجمال .

وهل كان من العبث أن يتفضل الله فينوَّع الخلائق بهذا الوجود .

إنه نوَّع الخلائق لينوِّع العواطف .

هل تذكر ما تصنع النسائم بالسحاب والرمال ؟

رأيت بالأمس عجبًا من العَجب : رأيت سُحبًا مطرزة بسماء «مصر الجديدة» على أظرف ما يكون التطريز . وبدا لي أن اجوب الصحراء في ذلك الوقت فرأيت النسائم صنعت بالرمال ذلك الصنيع .

أيعجز قلم الكاتب الصوَّال عما يقدر عليه النسيم الجوَّال ؟

النسيم يَعَبث ، وما وُصف النسيم بغير العَبث ، ثم تكون له القدرة على هذا الافتنان ، فكيف نعجز في الجد عما استطاعه النسيم في الهزل ؟

الدار التي أهوى تُضلني وتغل عقلي بأوثق الأغلال.

الدار التي أهوى تصنع بقلبي فوق ما تصنع النسائم العوابث بالسحائب والرمال .

الدار التي أهوى حُرِمت أضواء المصابيح أكثر من شهرين ، إلى مَعَاد ، أو إلى غير مَعاد ، فما أدري ما تُضمر الأقدار لمصاير ذلك الهوى النبيل ، ولا أعرف متى نلتقي طائعين أوكارهين :

كلَّ يومٍ لنا عتابٌ جديدٌ ينقضي دهرنا ونحن غِضابُ

إن تلاقينا – ومتى التلاقي – فستكون لنا شئون وشجون إن عادت الدار إلى العهد الذي أعرف فسأكون من الحُجاج في العام المقبل ، وسأنفق جميع أموالي على الفقراء والمساكين .

ثم ماذا ؟

ثم أقص على الأستاذ الزيات هذا الحديث :

في صباح اليوم وأنا في طريقي إلى الواجب قرأت في إحدى الجرائد أن المحكمة الشرعية أعلنت أن شهر ذي الحجة يبتدئ بيوم الأربعاء ، فعرفت أنني حُرمت رؤية الهلال ثلاث ليال .

ثم خف حزني حين تذكرت أن القمر غاب عن تلك الدار أكثر من شهرين .

ما هذه اللجاجة في الحب ؟

وما الطمع في كرم الزمان البخيل ؟

ارجعوا إلى الدار ، دار الهوى ، قبل أن تسمعوا من نذير الأقدار ما لا تحبون .

ارجعوا إلى دار الهوى في عيد القمر غير مأمورين .

ارجعوا ، فللدار التي شهدتْ مولد هوانا حقوق

ارجعوا ، فالفضيحة في غرامي تكريم وتشريف ، لأني قيثارة الغرام في ألحان الخلود .

عيد القمر آتٍ بعد ليال ، فهل أراكم في غرة تلك الليال ؟

القمر يفِي ، فهل تَفُون ؟

القمر يساير الفصول من شتاء وربيع وصيف وخريف ، فهل تسايرون أحوالي من نزق وطيش وقرار وجمود ؟

أنا أنا ، فهل أنتم أنتم ؟

لقد صبرتُ وصابرتُ لتشهد أحجار تلك الدار أن لها بقايا من الوفاء التي تدّخره كرام القلوب .

سينطق الحجر قبل أن تنطقوا ، ولقد نطق فحيًّا ألوف المرات وأنتم في غيابة العقوق .

وماذا تنتظر مني تلك الأحجار ؟

إنها ترجو مني ما أرجو منكم ، ترجو سلامًا من عابر سبيل ، وأنتم هددتم

وتوعدتم بأنْ لا لقاء في غير الفضاء .

عودوا إلى الدار في عيد القمر ، وهو آت بعد ليال .

عــودوا إلىَّ فمــا قلبــي بمصــطبر   عــلى نــواكم ولا العمــر متســعُ

إن مــتُّ قبــل لقــاكم أو فقــدتكمُ   قبل الممـات فحظـي عـاثرٌ ظَلـعُ

أنا في انتظار القمر بعيد القمر ، فهل يعود مع العيد ؟

وهل أشهد كلَف جبينه وهو غضبان ؟

عودوا إلى الدار لا إلىَّ ، فقد كادت أحجارها تذوب من نار الاشتياق .

يــا غاضــبين علينــا كيــف حــالكمُ   وكيــف دارٌ بهــا للــروح مرتَبَــعُ

دارٌ جَلَوْنــا بهــا حينًــا ســرائرنا   كــأن أيامهــا في صَــفْوها جُمَــعُ

لم يُغــدق الله فضــلاً فــاق نعمتــهُ   بوصل روحي بكم والشمل مجتمعُ

أما بعد، فما رأيُ صديقي الزيات في هذا الحديث ؟

وهل يراني في ضلال وأنا أناجيه بما لا يريد بعد أن هجر صديقه «لا مرتين» .

حال العين حال القلب ، وللعيون والقلوب أحوال

وقد أشار طبيبي بنظارة تمنع التشرد من أضـواء عينـي ، فمتـى يشـير طبيبـي بنظارة تمنع التشرد من أضواء قلبي ؟

لن يكون لقلبي حدود . لن تكون تلك الحدود ولن تكون ، وسيعجز الطـب عن جمع الأشعة من أنوار القلوب .

متى نلتقي يا دار هواي ؟ متى ؟

عيدُ القمر آتٍ بعد ليال ، فهل نتقاتل بعد ليال ؟

اتقوا الله في أخيكم !



ذهب الأستاذ الزيات لزيارة صديقه (عين) فوجده مضى لقضاء أيام العيد بين أهله في المنوفية ، ثم نظر في غرفة الاستقبال فرأى «منظار » الصديق فوق إحدى المناضد ، فوضعه على عينيه ليعرف إلى أي حد تبدو الخفايا لمن يحمل ذلك المنظار العجيب ، ثم هام في شوارع القاهرة يتوسم وجوه الناس فرأى فيهم غرائب وعجائب يشيب من هولها الوليد ، فتفزَّع وقال وهو يحاور ذلك الصديق :

«أتريد أن أردّ إليك منظارك، أم تسمح لي أن أجرّبه على عين الدكتور مبارك»؟

وما أحب أن أعود إلى تشريح مقال الأستاذ الزيات ، لأنه مقال محزن ، وأنا أخاف على نفسي وعلى القراء من النظر فيه من جديد .

ولكن لا بأس من النظر في التجربة التي يقترحها أخونا الزيات ، وهو يريد أن أرى العالم مرة من وراء ذلك المنظار الذي نقل فهمه للدنيا والناس من حال إلى أحوال

وأسارع فأقول : إن ما رأيته بالعين الطبيعية فيه الكفاية وفوق الكفاية ، فمن الرفق برجل في مثل حالي أن تُعفى عيناه من النظر إلى الناس بمنظار يفضح ما خفي واستتر من دقائق المساوئ والعيوب .

الزيات هو الذي يحتاج إلى منظار يرى به خلائق الناس لأنه كثير التلطف والترفق ،ومن كان كذلك فهو قليل التعرض لآفات الناس ،ومن هنا يقلّ علمه بما فيهم من دميم الغرائز وذميم الخصال .

أما أنا ، فقد دخلت على الناس في جحورهم وأوكارهم ، وما زلت أهيجهم بقلمي حتى أسمعوني أعنف ما يملكون من هرير ونباح وعواء، وهل ابتُلي أحد بأهل زمانه كما ابتُليت ؟وهل عانى أحد من لؤم زمانه بعض ما عانيت ؟

وهل بين قراء اللغة العربية في مصر والشرق من يجهل بليتي بزماني ؟

لقد شكوتُ دهري وشكوتُ ثم شكوتُ ، حتى عطف عليّ أعدائي فما حاجتي إلى منظار أرى به المستور من خلائق الناس ،وقد اكتوتْ يدي واكتوى قلبي بالسعير الذي يتمرد كلما سمع باسمي أو رآني .

ويزيد في الغم والكرب عرفاني بأني لم أكن رجلاً لئيمًا حتى أقاسي من الناس ما قاسيت ، وهل رأى الناس في القديم والحديث صديقًا في مثل أدبي وكرمي وسخائي ؟ومن هو الرجل الذي يجرؤ على القول بأنه أعرف مني بالواجب ، وأحفظ للعهد وأحرص على مقابلة الجميل بالجميل .

وهل كان الذين ينوشونني بألسنتهم وأقلامهم إلاّ خلْقًا بنيتُ أقدارهم بقلمي ولساني ؟

دلوني على صديق واحد أسأت إليه في محضر أو مغيب !

لو كنت رجلاً لئيمًا لنسفت أعدائي وخصومي في يوم أو يومين ثم استرحت من التفجع على مصاير الناس إلى مهاوي البغى والعقوق ، ولكني رجل كريم يكره الغدر ويستعيذ بالله من العدوان على الناس ، وذلك بابٌ من الضعف الشريف وأنا به مزهوٌ مختال .

وما الذي ينكر عليّ أهل زماني حتى يصدوني بغدرهم عن الثقة بأبناء آدم وحواء ؟

أنا أعرف ما ينكرون عليّ ، فقد ساءهم أن أسجل ما في زماني من صغائر ومعايب وموبقات . ساءهم أن أفصح سرائر الأدعياء ، وأن أقهرهم على الاستهانة

بالأدب المزّيف لتُقبل عقولهم وأذواقهم على الأدب الصحيح .

وهل أخطأت حتى ألقي من بغيهم ما لقيت ؟

إن أعدائي يقولون في كل وقت إن وقت إن مصر هادية الشرق ،فكيف يُلام من يوجِّه المصريين إلى أصول الصدق والعدل لتصح لهم السيطرة الأدبية على الشرق ؟

وهل يعرفون ذنبًا غير هذا الذنب الجميل ؟

إن كان في هذا البلد من يؤمن بأنه ضحّى في سبيل الأدب بأعظم مما ضحيت فليتقدم ليحمل بعض ما أحمل من ثقال الأعباء .

ذلك رأيي في نفسي ، وهو حق ، فليكذبني من يجرؤ على مصاولتي من أهل الأدب والبيان.

وما قيمة مصر في الشرق أو الغرب إذ صح لأهلها أن يقهروا رجلاً مثلي على اليأس من العدل؟

وبأي حق يدعوني الناس إلى التلطف والترفق وأنا لم أر منهم غير الظلم المُبين؟

وفي أية شريعة يفرض على الرجل المظلوم في وطنه أن يعلن أنه من السعداء ؟

ومن الذي يراجع الظالمين إذا سكت قلم الأديب ؟

حدثوني كيف يسكت من يرى أصدقاءه يأكلون لحمه بلا تهيب ولا إشفاق ؟

حدثوني كيف يُحرّم الغضب على رجل يرى تخلّف العقل في بلد يستطيل أهله على الشرق باسم العقل ؟

نحن في مصر التي سبقت جميع الشعوب إلى المدنية ،فمن حقنا عليها أن نرجو حرية التعبير عما نعاني من معاطب وحتوف

ومن يسمع شكوانا إذا تجاهلت مصر أننا بفضل جبروتها أشقياء ؟!

إلى من نتوجه إذا تعامى الوطن الغالي عن مآسينا الدامية ؟

آه ! ثم آه!!

في وطن الأزهار والرياحين تموت أفئدة وقلوب

وفي الوطن الذي شرع مذاهب العدل بوحي النيل الذي لا يخلف الميعاد تموت أرواح حساسة واعية معدوًّا عليها بسهام الظلم البغيض .

في وطن النيل الذي لا يخلف الميعاد تضيع جميع المواعيد

احذروا ، ثم احذروا من أن أراكم بعين الناقد ،يا أبناء هذه البلاد

لقد نظرت إليكم بعين المحب فلم أر غير مآثم ومنكرات ،فكيف تكونون لو نظرت إليكم بعين الناقد المنصف ؟كيف تكونون وأنتم حرب على الصديق الأمين ؟

ويريد الزيات أن أراكم من وراء المنظار الذي كشف له من الطبائع ما لم يكن يعرف ، فهل يظن بي السفة والحمق حتى أتعرض للمستور من عيوبكم ومساويكم!

أنتم أجمل الخلق في أعين من يرونكم من بُعد ؛ولكنكم « أجمل» الخلق في أعين من يرونكم من قرب ، وأنا منكم قريب ، فما أعظم شقائي !

اسمعوا يا بني آدم من أهل هذه البلاد .

أنتم وثقتم بأدبي ،وليس فيكم من يخاف أن أضيع عليه حظًّا غنمه بأي سبب من الأسباب ، وبفضل هذه الثقة تجترحون ما تجترحون ،فخوضوا كيف شئتم في أوشال الأكاذيب والأراجيف ، فلن أجازيكم بغير الصفح والغفران .

هات المنظار ،يا زيات ، هات

هات المنظار لأرى به عيوبي ، وأنسى التفكير فيما عانيت من أصدقائي ، ويرحم الله عهدًا كان لي فيه أصدقاء!

حملت المنظار لأرى عيوبي ، فماذا رأيت ؟

رأيتني أخطأت أعظم الخطأ حين توهمت أن بني آدم هم جميعًا من طراز ذلك الصديق الغادر الذي صعُب عليه أن أعيش وكان يحب أن أموت !

وهل هناك جُرم أقبح من الجرم الذي اقترفت ؟

مضت أعوام وأعوام وأنا أتلقى في كل يوم رسائل من قلوب تُقسم بأنها قادرة على الطب لجروح قلبي ، فهل استمعت نداء تلك القلوب ؟

أنا أتلقى في كل يوم رسائل من فلسطين وسورية ولبنان والحجاز واليمن والعراق وتونس والجزائر ومراكش، فهل فكرت في الإجابة عن تلك الرسائل الودية؟

وكيف وأنا أتجاهل ما يصل إليّ من أصوات القلوب في مصر والسودان؟

وكان ذلك لأني يئستُ من بني آدم بفضل الأصدقاء الذين سقيتهم الشهد فسقوني الصاب !

فما الذي يمنع من الاستجابة لدعاء تلك القلوب ؟

ما الذي يمنع وأنا أعيش محرومًا من نعيم الصداقة والحب؟.

وهل يرفض من يعيش في مسبعة أن يخرج إلى الحواضر المأهولة بأرواح الناس؟

يمنع من ذلك أن أطياف الغادرين تصدمني حيثما توجهت ،فالدنيا كلها هي وجوه الذئاب التي شقيتُ في تربيتها لتقوى على مضغ لحمي وعرق عظامي .

الدنيا كلها هي فلان وفلان وفلان الذين خلدت أسماءهم في مقالاتي ومؤلفاتي ليصح لهم البغي عليّ باسم الأدب والدين .

هات المنظار ، يا زيات ، هات

حملت المنظار لأرى عيوبي ، وما أكثر عيوبي !

رباه ، رباه !!

ما هذا الذي أرى ؟

ذلك صديق أهجم عليه هجومًا صوريًا لأرفع اسمه بين الأسماء فيراني من الأعداء.

وذلك رفيق أدله على الخير فيراني من الآثمين

وذلك صاحب تشغلني الشواغل عن زيارته فيراني من الغادرين .

وذلك أخ عزيز لا تهمه غير الظواهر ويغفل قلبه عن الخدمات التي أؤديها إليه في المغيب فيراني من الجاحدين

فلأية حكمة خلق الله بعض الناس بلا بصائر ولا قلوب ؟

أيكون الله أراد أن يمتحنا بخلقه حتى نؤمن صادقين بأنه صاحب الفضل الأول والأخير في الطب لجراحنا الدامية ؟

إن كان ذلك ما يريد فقد رضينا بما يريد .

ولكن الله يعلم أننا أصغر من أن نأنس بنجواه . ولابد لنا من مخلوقات نساقيها كؤوس الود حين نشاء ، ونرى فيها صور أحلامنا وأوهامنا حين نريد ، فمتى يمنّ الله علينا بأطياف تلك المخلوقات ؟

كم تمنيت أن أراك في خلقك ، يا فاطر الأرض والسموات . ولو استطعت لشغلت نفسي بك عن خلقك ، وكيف أستطيع وأنا لا أملك السمو إليك ، أيها الروح المسيطر على جميع الوجود ؟

أنا أعترف بذنوبي

لي أصدقاء ضيعتهم ، وكنت من الظالمين .

منهم ذلك الروح الذي شقى في أن يُنطق لساني بالاعتراف بأنه صديق ، والذي يكتب إليّ ما يكتب ثم لا يظفر بجواب

وكان في يدي أن أملك ذلك الروح ملكًا أبديًا وأن أصوغ من نجواه رسائل وقصائد أسيطر بها على الخلود .

توسل إليَّ ذلك الروح أن أحفظ عهد الوفاء ، وأن أعلن أني له صديق ليحدِّث أهله بأنه موصول الأواصر برجل له قلب .

ومن أجل هذا الروح الذي أخلفتُ آماله كل الإخلاف تحكم المقادير بأن أعيش في دنياي بلا صديق .

فيا أيها الروح الذي يحدِّث أهله بأني لا أنساه ولن أنساه ، أيها الروح الذي يدعوني فلا أجيب ، إعرف ثم إعرف أن الله انتقم لك مني ، فأنا اليوم بلا صاحب ولا رفيق

هات المنظار ، يا زيات ، هات

هات المنظار لأرى عيوبي ، وما أكثر عيوبي !

هات المنظار لأرى الأسرة المكونة من أربعة أرواح ، الأسرة التي ودعتني بالدمع المحرق يوم الفراق .

فإن سمعتم ، يا قرائي ، أنني سأقضي بقية العمر في كرب وبلاء ، فاعرفوا أن ذلك جزاء الغدر لمن يتناسى فضل تلك الأرواح

غرتني منزلتي الأدبية فتجاهلت أقدار تلك الأكباد الرقاق ، فمتى أرجع إلى مساهرة النجوم في صحبة الأكباد الرقاق ؟

فإن قتلني اليأس من عدل الأهل والأصدقاء فقد كنت الظالم الأثيم .

والله أرحم من أن يعاقب قلبًا يعترف بذنوبه وخطاياه .

أنا باقٍ على العهد يا أحبابي ، ويرحم الله من قال :

لقد صَدَدنا كما صددتم ... فهل ندمتم كما ندمنا

ليلة نابغية !



أخي الأستاذ الزيات :

في نيتي أن أريح قراء «الرسالة» من شطحات قلمي شهرًا أو شهرين لأفرُغ لواجبات أدبية لا يصح معها الانشغال بمواجهة القراء من أسبوع إلى أسبوع ، وهي واجبات كواجبات الفراء [1]

وقبل أن أشرع في تناسي الشوق إلى قرائي ، وهو تناس موجع ، أصوّر لك ولهم ما وقع بيني وبين الأستاذ لطفي جمعة ليلة المناظرة بكلية الآداب ، وكانت مناظرة عنيفة لا يزال صداها يقرع سمعي فيبدّد ما أشتهيه من الأنس بالهدوء والصفاء .

وما ذكرتُ تلك المناظرة إلا جزعتُ ، وتولاني الندم على الاشتراك في جدال بضيق به صدر الغالب والمغلوب ، لأنه لم يمض بلا هفوات مزعجات .

ولهذه المناظرة تاريخ :

سألني فريق من أعضاء اتحاد كلية الآداب أن أشترك في مناظرات هذا الموسم وعرضوا عليَّ طوائف من الموضوعات لم يرقني منها غير موضوع :

«يزدهر الأدب في عصور الفوضى الأخلاقية »

(١) إشارة إلى قول الفراء: «سأموت وفي نفسي شيء من حتى » ويريد الكاتب أن يقول إن للباحثين شواغل قد يراها الجمهور من التوافه مع أنها في الواقع من الأمور ذوات البال عند من يعرف .

ولكني اقترحت أن يُعدَّل فتوضع «الفوضى الاجتماعية» مكان «الفوضى الأخلاقية » فرارًا من التجني على كلية الآداب باسم الغيرة على الأخلاق !

ومضت أيام وأسابيع ، والاتحاد مشغول بالبحث عمن يناظرني من أساتذة كلية الآداب ، ثم علمت أن الأساتذة لم يَرقُهم أن يناظروا «المشاغب الأكبر » على حد تعبير الدكتور محمد حسين هيكل باشا وهل من العقل أن يتقدم أحد الأساتذة لمناظرتي وقد شاع وذاع أني أكبر المشاغبين ؟!

هي تهمةٌ ظالمة ، كما تعرف ، ولكنها حقَّت عليَّ وسأقضي بقية العمر في الدفاع عن نفسي ، ولكن بلا نفع ولا عَناء ، لأن الناس عندنا يؤذيهم أن يصححوا رأيهم في رجل ظلموه بلا بينة ولا برهان !

وأخيرًا ، ظفر اتحاد الكلية برجل يناظرني ، ولكن ، أي رجل ؟ كاتب مشهور كانت لي معه وقائع في بعض الجرائد والمجلات ؟ فقلت في نفسي : هي مكرمة من مكرمات الأستاذ لطفي جمعة فقد هداه القلب الطيب إلى أنني رجل ينهاه الأدب والذوق عن الاستخفاف بأقدار الزملاء .

واتصلت به تليفونيًّا لأقول له : إني أريد أن تكون هذه المناظرة مثالاً في التلطف والترفق ، وإني سأبدأ خطبتي بكلمة في الثناء عليه ، وإني أنتظر أن يقابل الجميل بالجميل !

وكنت صادقًا فيما قلت ، لولا خاطرٌ واحد كدَّر صدقي بعض التكدير ، وهو الحرص على أن يبقى هذا المُناظر فلا يطير من يدي ، كما طار ما كنت أرجو مناظرتهم من أساتذة الكلية .

صفح الله عنهم وعفا عنهم !!

كان الأستاذ لطفي جمعة مترددًا في القبول ، ثم قبل بعد تمنُّع ؛ والحرُّ قد ينخدع في بعض الأحايين !

وفي تلك الأثناء نقلت الإذاعة اللاسلكية مناظرة قامت بين الدكتور طه

والدكتور هيكل في كلية العلوم ، مناظرة مرتجلة قام بها الرجلان بـدون اسـتعداد ، فقلت : يجب أن أستعدّ لتكون مناظرة كلية الآداب أقوى من مناظرة كلية العلوم ، ولأعطي الدكتور طه والدكتور هيكل درسًا في وجوب الاحتفال بمقامات الكلام ، لأحمي نفسي من شر المرجفين ، وأنا أدافع عن رأي شائك لا ينظر إليـه المجتمـع بغير الاستخفاف .

ورجعت إلى مذكرات كنت أعددتها يـومَ عُـرِض عـليَّ الموضـوع أول مـرة ، ولكني لم أجد تلك المذكرات ، فأقبلت على الموضوع من جديد وشغلت به نفسي سهرتين طويلتين ليصل في الجودة والقوة إلى ما أريد .

وبعد أن فرغت من تحريره وتحبيره دعوت أحـد أبنـائي ليقـرأ عـليَّ فكانـت فرصة لدرس طريف من دروس التربيـة ، فقـد عرفـت أن الرجـل لا يـدرك مـا في أسلوبه من نَبَوات إلا حين يسمعه من رجل سواه ، وكذلك غيِّرتُ بعـض الألفـاظ وعدّلتُ بعض التعابير ، فظهرت الخطبة وهي فنٌّ من الكلام المصقول .

***

ثم مضت إلى كلية الآداب في أصـيل اليـوم الأول مـن أيـام آذار ، ولا يمكـن الوصول إلى كلية الآداب إلا بالسير في شارع فؤاد الذي يُعبر الزمالـك مـرة ويعبُـر النيل مرتين ، ثم انعطفت السيارة ، فسايرت النيل حتى وصلت إلى شارع الجامعـة المصرية ، عليه وعليها أطيب التحيات !

هو اليوم الأول من أيام آذار ، وأيام مصـر كلهـا آذار فمـا تعـرف بلادنـا غيـر نضرة النعيم في جميع الفصول .

ونظرت في الساعة فلم أجد من فسحة الوقت غير خمس دقائق ، وهـي مـدة لا تسمح باجتلاء المحاسن في شارع الجامعة ، الشارع الجميل الذي كـان يسـتهوني فأسير فيه بتأدب واستحياء رعاية لحقوق العـين والقلـب في البقعـة التـي صـارت مراتع ظباء ومرابض أسود .

الله أكبر ولله الحمد!

هذه كلية الآداب التي قضيتُ فيها مواسم شبابي ، يوم كنت فتيً عارم العزيمة يؤذيه أن يقال إن في الدنيا كتابًا لم يطلع عليه ، ويوم كنت معمور القلب بأرواح الأماني ، ويوم كنت أتوهم أن الجِد في طلب العلم لا يظفر صاحبه بغير الإعزاز والتبجيل ، ويوم كنت إخال أن الكفاح في سبيل الأدب قد تنصب له الموازين ، ويوم كنت أومن بأن الجهاد لا يضيع في هذه البلاد !!!

تقع كليتنا الغالية على يمين من يدخل حَرم الجامعة المصرية ، جامعة فؤاد الأول . وسميت بذلك ، لأن فؤادًا العظيم كان أول رئيس للجامعة المصرية ، وكليتنا الغالية لها روح قهار ، لأنها شرعت للناس مذاهب التفكير في الآداب والفنون ، ولأنها أول معهد في مصر فتح أبوابه لحرية الفكر والعقل بلا تمييز بين العقائد والآراء .

كاد الدمع يطفر من عيني حين دخلتُ كليتنا الغالية ، فقد خُيِّل إليّ أن أحجارها لا تنطق ، وإلا فكيف غاب عني تفصيل ما فيها من حُجرات وغُرفات ؟ وكيف نسيتُ الأماكن التي كنت ألقي فيها دروسي ومحاضراتي على قرب العهد ؟ وكيف غفلتْ عَتَباتها عن الوثوب لمصافحتي وقد صحبتُها طالبًا ومدرسًا من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٣٧ ودرت معها من ميدان الإسماعيلية إلى ميدان الفلكي، ومن حي المنيرة إلى قصر الزعفران، ثم إلى حديقة الأورمان ، ولم يزاحم هواها في فؤادي غير الأعوام التي قضيتها بكلية الآداب في جامعة باريس ؟

وزاد في أساي وشجاي أني سأخرج مهزومًا في المناظرة التي تقام بكليتنا الغالية ، لأني سأدافع عن رأي جرئ لا يقول به إلا من يخاطر بنفسه فيتعرض لغضب المجتمع ، ولكن لا بأس فكليتنا الغالية قد علمتنا الثورة على أوهام المجتمع .

وألفتُ ما تبدد من شمل عزيمتي وصعدت إلى غرفة الأساتذة، الغرفة التي صاولتُ فيها من صاولتُ ، وكايدتُ من كايدتُ ، يوم كنت أحسب أن مغايظة

الرجال لن تكون لها عواقب سود .. فماذا رأيت ؟

رأيت الأستاذ لطفي جمعة قد انحاز إلى شابين من طلبة الكلية يدِّبر معهما خطط النضال ، فأردت أن أفسد ذلك التدبير بدعوته إلى المسارعة بالنزول إلى المدَّرج الأكبر حيث ينتظر جمهور المستمعين ولكني لم أفلح ، فقد تعلل بأنه ينتظر فنجانًا من القهوة ، ورجاني أن أعفيه من حضوري لحظات !

وسألت عن نصيري في المناظرة ، فرأيت فتاة حييّة اسمها ليلي ، وفتًى ناشئًا اسمه صادق ، فحدقت فيهما وقلت : أين تقعان مما أريد ؟!

ونزلت إلى المدرَّج بعد أن أعلن الدكتور إبراهيم مدكور أن الطلبة هم الذين سيبدأون ثم تقع الموقعة بيني وبين غريمي .

وبعد تلبُّث وتمكُّث حضر الأستاذ لطفي جمعة ومعه نصيراه من الطلبة ونصيرٌ ثالث هو الدكتور أحمد موسى ، وهو فيما سمعت أديب متمكن من ناصية الفكر والبيان .

ثم صرَّح رئيس المناظرة بأنه أستاذ ونائب ، وأنه سيطَّبق اللائحة الداخلية إذا وقع بين المتناظرين شجار ، فعرفتُ أن الأمر جِدٌّ في جد ، وأني سأعاني من هذه المناظرة ليلة نابغية .

وشرعتُ ليلى تتكلم ، ليلي يوسف ، وهي فتاة جمَّلها الله بالأدب والحياء ، فما كانت إلا دُمية مصقولة صينت من العقل والذوق ، وسيكون لها في حياة الأدب تاريخ ، وقد تفوق الفتاة المبغومة الصوت التي نضجت قبل الأوان فأضر بها الزهو والخيلاء .

ولكن ليلى ستلحن كما تلحن سائر «الليالي» ستلحن لحنًا خفيفًا في موطن لا تسلم فيها ألسنة «بعض » الأساتذة ، ومع ذلك يثور الجمهور ويصخب ليصح له أن يضايقني ويضايقها باسم الغيرة على قواعد اللغة العربية !

ثم يتكلم الشيال أفندي فيقترح أن يحال الدكتور زكي مبارك إلى المعاش لأنه من دعاة الفوضى الاجتماعية ولأن مؤلفاته تشهد بأنه يستهين بالعادات والتقاليد !

وبتكلم بعد ذلك محمد عبد الرحمن صادق أفندي بأسلوب يشهد بأنه من طلبة كلية الآداب ، كليتنا الغالية التي نذكر عهدها بالحب والعطف ، ونعرف فضلها في تثقيف الأذواق والعقول .

ويميل بدير متولي أفندي على أذني فيسرُّ إليَّ أنه قد يستبيح مالا يباح في تحقير الرأي الذي أرتضيه فآذن له بذلك، لأني من أقوى أنصار حرية الرأي ، ولكن الفتى يخلف ظني به كل الإخلاف فيعلن عجبه من أن مفتشًا بوزارة المعارف من دعاة الفوضى الاجتماعية ، ويدعو الجمهور إلى الحذر من آرائي !

ويجيء دوري في الكلام فأبدأ بالثناء على الطالبين اللذين شتماني بلا ترفق ولا استبقاء ، لأنهما من طلبة كليتنا الغالية ، ولأنهما سمعا أصوات مصطفى عبد الرازق وطه حسين وشفيق غربال ، ولأننا حضرنا لتمرينهم على النضال والصيال .

ثم أشرع في الخطبة التي أعددتها في سهرتين طويلتين وبعد لحظات يقوم شاب ثائر فيقاطعني مقاطعة عنيفة ويؤلب عليَّ الجمهور بشطط وإسراف ، وأنظر فأراه أحد تلاميذي ، التلاميذ الذين كنت أشقى في سبيلهم إلى عهد قريب .

وبدور رأسي من هول ما أراه ، فهذا الشاب كان موضع ثقتي ، وكنت أكرمه لنفسه ولأخيه ولقرب بلده من سنتريس وتطوف بذهني أخيلة مزعجة : فليس هذا الشاب أول من يغدر ويخون ، ليست ليلتي هذه أول لياليّ في المحرجات والمضجرات ، ولن تكون آخر العهد بشقائي في رحاب كلية الآداب ، فسأرجع إليها لخدمة الأدب والفلسفة بعد عهد قريب أو بعيد ، يوم يعتدل الميزان ، وأنظر فأرى الأستاذ لطفي جمعة قد اطمأن واستراح ، وأرى أنصاره في جذل وانشراح .

هي إذن معركة جدية سأنهزم في ميدانها المشئوم وسيلحقني عارها الباقي ، والله الحفيظ !

وينهض رئيس المناظرة فيهدد الشاب الذي يقاطعني ، يهدده بالطرد ، فيخشع الشاب ويستكين ، ويصفق الجمهور إيذانًا بالشوق لسماع صوتي ، فامضي في إلقاء خطبتي وأنا جريح ، وأضيف إلى خطبتي كلمة أقول فيها : إني اشتغلت بالتدريس في كلية الآداب أربع سنين ومن حقي عليها أن تسمح بأن أجهر في رحابها بكلمة الحق!

وما قيمة الاشتغال بالتدريس أربع سنين في معهد مصريّ وقد صرَّح شاعرنا شوقي بأن كل شيء في مصر ينسى بعد حين !

ما قيمة الاعتماد على الماضي وهو ذُخر الفانين ؟ وبأي حق أغضب على شاب يقاطعني وقد أخذ عني أصول الثورة والصيال ؟

ثم أمضي في خطبتي كالسيل الجارف فأفتن الجمهور فتنة ماحقة يضج لها خصومي بتصفيق الإعجاب ليسلموا من سخرية الجمهور الذي سَحَرهُ بياني .

ويميل الأستاذ لطفي جمعة على أذني وهو يقول : أهنئك على أن عرَّضت سمعتك للأراجيف في سبيل الحق . فأبتسم وأنتظر أن يصنع كما صنعت ليظفر بتهنئتي ! .

ينهض الخصم الشريف فيسلك في تحقيري جميع المسالك ويدِّعي أني فوضويٌّ أثيم ، وينهى الجمهور عن الانخداع بآرائي ، ويعلن عجبه من أن يكون لي كتاب اسمه التصوف الإسلامي في مجلدين كبيرين مع أني من أنصار الفوضى الاجتماعية ، ويقضي في تحامله وتجنِّيه ساعة وبعض ساعة وأنا ساهم مطرق أكاد أذوب من الخجل والحياء .

وأعود إلى نفسي فأندم على تعريض سمعتي لهذا الضيم البغيض وأعرف أني أخطأت في قبول المناظرة مع هذا الخصم الشريف وأعاهد الله على اعتزال الناس إلى يوم الممات . وما الذي يغريني بصحبة بني آدم ولم أر منهم غير شجا الحلوق ، وقذى العيون ؟

لقد أقمت داري على حدود الصحراء لآنس بظلمات الليـل ، ولأنسـى أننـي موصول الأواصر بهذا الخلق ، ولأناجي موات البادية حين أشاء ، ثم قهرني حب العُزلة على أن أغلق نوافذ داري فلا أرى الوجود إلا بأوهام من طيف الخيال .

لطفي جمعة الرجل الفاضل الذي أثنيت عليه في خطبتي يقضي في شتمي ساعة وبعض ساعة ؟ تلك إحدى الأعاجيب ، إن كان النكر في زماننا من الأعاجيب !

أين أنا الآن من دهري وزماني ؟ امثلي يُشْتم جهرة في كلية الآداب ، وقد حملتُ على كاهلي أحجار الأساس ؟

هو ذلك ، وعلى نفسي أنا الجاني ، فقد عرِّضت سمعتي للجدال الذي يسمونه مناظرات ! وينتهي الأستاذ لطفي جمعة من خطبته بعد أن مزَّق آرائـي كـل ممـزَّق ، وبعد أن شفى صدره مني ، وكانت بيني وبينه ترات وضغائن وحُقود .

ويعلن رئيس المناظرة أن ليس لي غير خمس دقـائق ، ومـا الـذي أسـتطيع أن أصنع في خمس دقائق وقد جُرحت أشنع تجريح ؟

ما الذي أستطيع أن أصنع وقد سمعت ما أكره في معهد يـؤذيني أن أذكـر فيـه بغير الجميل ؟ في خمس دقائق يعرف الأستاذ لطفي جمعـة أن لحمـي مـرّ المـذاق ، ويؤمن وهو كاره بأن التطـاول عـلى رجـل مـثلي لا يمـرّ بـلا جـزاء ، ويعـرف مـن قاطعوني أن شأني أعظم مما يظنون . في خمس دقائق تحوّل السامعون مـن حـال إلى أحوال فصاروا جميعًا من أنصاري ، في خمس دقائق شهدتْ أحجار كلية الآداب بأن المنطق أعظـم مـن التنكيـت ، في خمـس دقـائق عـرف غريمـي أن سـهر الليـل في الاستعداد للحرب أمر يوجبه العقل الصحيح .

وبعد كلمات ألقاها مندور والدكتور موسى طلب رئـيس المنـاظرة أصـوات الحاضرين فكانوا جميعًا صفي ، وهتف هاتف : « تحيا الفوضى الاجتماعية ! »

فأجبت : « تسقط الفوضى ويحيا النظام ! »

والآن ، يا صديقي الزيات ، أحب أن أسجل في مجلتـك ظـاهرة مـن شـمائل

الجيل الجديد ، لتعرف أن اليأس الذي يساورنا قد يكون من الأوهام في أكثر الأحايين .

وهذه الظاهرة هي يقظة الجمهور في هذا العهد ، وقلة انخداعه بالتزاويق والتهاويل ، وأؤكد لك أنه كان مفهومًا عند أنصاري أني لن أخرج من تلك المعركة بغير الهزيمة ، وأن التعلق بالشكليات سينفع خصومي فيظفرون بالنصر المبين .

وقد أراد الأستاذ لطفي جمعه أن يغض من جهودي فقال إني شغلت نفسي بالموضوع أيامًا وليالي ، ولكن هذه السخرية لم تنفع ، لأن الاستعداد للنضال من أصول التشريف ، وهو يقابل عند الجمهور بالإعزاز والتبجيل ، وهل كان يجوز لي أن أستخف بمناظرة تقام في كلية الآداب ؟

وهذا النصر الذي نظفر به من وقت إلى وقت هو الذي ينسينا ما قد نجني من الحنظل في الحياة الأدبية ، وهو الذي يهوّن ما نعاني من عقوق الزملاء ، أو «بعض» الزملاء !

وقد حدثتك في مطلع هذا الحديث أني سأريح قراء الرسالة من شطحات قلمي شهرًا أو شهرين ، فلتعلم وليعلموا أني قد أشتاق إليك وإليهم فأرجع بعد أسبوع أو أسبوعين ، والسلام .

من أوهام العقل وأحلام القلب

برج بابل ؟!



لما زرت بابل في سنة ١٩٣٧ بحثت عن البرج المشهور في التاريخ ، ولكني لم أهتد إليه ، برغم ما بذلت من العناء في التعرف إلى ما هنالك من رسوم وأطلال .

فكيف بخلت الأقدار بحرماني من الاهتـداء إلى معـالم ذلـك الأثـر النفـيس ، وكان أول رمز لما فُطرت عليه الإنسانية من تنافر الآراء وتناحُر الأهواء ؟

كان برج بابل خليقًا بالخلود ، لو عرف بنو آدم مغـزاه الـدقيق ، فصـانوه مـن عوادي الزمان ، وهل كانت بلبلة الألسنة حول ذلك البرج إلا إيذانًا بأن الإنسـانية شَبت عن الطوق ، ولم يبق إلا أن تنتفع بمزايا الشـقاق والنـزاع والخـلاف ، وهـي معانٍ ظاهرها قبيح ، وباطنها جميل ؟

لو عاش برج بابل لكان مزارًا من أقدس المزارات ، فحول رحابه طارت أول شرارة من ضريم الصراع بين الأجناس والألوان ، وبين حناياه ذاق الإنسان الأول مرارة الحيرة ، وهي مرارة جزيلة النفع ، وإن كانت كريهة المذاق .

ولو عرفنا تاريخ برج بابل لعرفنا في أي عهد بدأ الصيال بين الألسنة والعقول، فما نطمئن إلى ما قالت الأساطير في تحديد ذلك التـاريخ ، وهـي لا تبعـد بـه غيـر عشرات من القرون ، وأنا أكره أن تصدق تلك الأساطير لأني أحب أن يكون عهـد أسلافنا بالخلاف أبعد من تلك القرون بآماد طوال طوال طوال .

لو عثرت على برج بابل ، أو اهتديت إلى شيء من رسومه الهوامـد ، لأضـيف

اسمي إلى أسماء من خدموا الإنسانية بكشف بعض المجاهيل من حَسنها العريق .

ولكن الحظ أراد غير ما أريد ، فلم أعرف من بابل غير ما يعرف سواد الناس، ولم أشهد غير بقايا الحدائق المرفوعة فوق قواعد من الجدران وهي جدران لم يفكر في هدمها الزمان ، فبقيت شاهدًا على مطامح أهل بابل في السموَّ والعلاء.

لابد من برج بابل ، لابد ، لابد ، ولن أستريح أو أهتدي إلى مكان ذلك البرج، فهو المهد الأول ، المهد الذي نشأت فيه شياطين الخلاف ، والخلاف هو صاحب الفضل في تأريث جمرات العقول ، ونزوات القلوب ، وشهوات الأرواح ، وبدَوات الأحاسيس .

الحمد لله ! الحمد لله ! لقد وجدت البرج المنشود ، ولكن أين ؟

لم أجده في بابل ، وإنما وجدته في قلبي ، وأين بابل من قلبي ؟

القلب الذي أجهله أشد الجهل ، وإن كنت سمعت أنه يقيم بين ضلوعي ؛ والجيران قد يجهل بعضهم أسرار بعض ، وسنعرف يومًا أن العين ليست ترجمان القلب في جميع الأحيان ؛ فلكل من القلب والعين وجودٌ مستقلٌ تمام الاستقلال ، وإلا فكيف يقع في كل يوم أن تعِد العيون بنعيم لا تسمح به للقلوب ؟

الجاهل هو الذي يتوهم أن العين ترجمان القلب

وقد جهلتُ يومًا فتوهمت أني أعرف سرائر قلبي ، ثم عرفت أني واهمٌ فيما توهمت ، فما كان قلبي إلا غابة تعيش فيها ألوف الألوف من أنواع الشجر والنبات والطير والحيوان والأفاعي والصِّلال .

وآية ذلك أني لا أعرف أسباب أفراحي وأتراحي إلا في أقل الأحايين ، ثم يُغَمُّ عليَّ الأمر فلا أدري مصدر سعادتي أو منبع شقائي ، فأفزع إلى ما يفزع إليه الصوفية عند البسط والقبض بلا وعي ولا إدراك . ولو وعيت وأدركت لنفذ سهمي في جذب السعادة أو دفع الشقاء .

وأنا مع ذلك اهتديت إلى ما لم يهتد إليه ديكارت ؛ فديكارت فطن إلى أنه يفكر

فعرف أنه موجود ، وأنا فطنت إلى أن برج بابل أقيمت صروحه فوق سـواد قلبـي ، فاستشعرت الخوف من ظلمات قلبي ، وهي ظلمات يعجز عن تبديدها نور القمر وضياء الشمس ، لأنها ألفاف من الشر المدفون في أصول تلك الغابة الشجراء .

وما أشد خوفي من قلبي ، وهو قلبي !

وآه ثم آه من الجبن عن مكاشفة العدوّ الذي يلبس ثوب الصديق !

كان يطيب للشعراء أن يقولوا إنهم يعيشون بلا قلـوب ليبـرروا عجـزهم عـن استبدال حبيب بحبيب .

وأقول : إني يئست من الأمل في العيش بلا قلب ، وأين المفرّ مـن قلبـي وهـو قِطارٌ من أحاييل وعقابيل شُدّ بعضها إلى بعـض بسلاسـل مصـنوعة مـن أوهـامي وظنوني ، وأنا رجلٌ مخلوق من أوهام وظنون ، وإن شهد خـوفي مـن القلـب بـأني رجل على شيء من العقل ، والعقل أضعف حلية يتحلى بها الآدميـون ، فلـو عـاش بنو آدم بعقولهم في جميع الشؤون لكان مصيرهم مصير الأنعام ، فلم يزينوا الوجود بروائع الآداب وغرائب الفنون .

لم أستطع التخلص من أوزار القلب ، ولن أستطيع التخلص من أثقال العقل ، فما عيشي في صحبة هذين العدوين ؟ وما قيمة وجـودي وأنـا محـروم مـن نعمـة الاستقلال ؟

وهل أنسى بلائي بعدوان القلب والعقل وقد عانيت منهما في الليلة الماضـية ما عانيت ؟

وما الليلة الماضية ؟ هي ليلة من ليال ، فما رحمتني الأقدار من معاناة الصراع بين القلب والعقل منذ اليوم الذي عرفت فيه أن العيون لا يكون لها سحر حرام أو حلال إلا في نور القمر أو ظلال الرياض .

إن واجهت العيون ضياء الشمس فعلى سحرها العفـاء ، لأن الشـمس تحيـل العيون إلى جوارح تعجز عن الختل والفتك . وهل تصنع الغلالـة المنسـوجة مـن نور القمر أو ظل الروض حـين نواجـه الطـرف الكحيـل إلا كمـا تصـنع الغلالـة

المنسوجة من الحرير حين تطوْق الجسم اللطيف ؟

الحرير يزيد الأجسام النورانية صفاءٌ إلى صفاء ، وهي تتخايل من تحته كما تتخايل الكواكب من فوق السحاب الرقيق .

وأنا لم أصاول سهام العيون إلا في نور القمر أو ظلال الرياض ، فأين كنت في تلك الليلة وقد كان «برج بابل» بعض ما تشقى بحمله ضلوعي ؟

كنت في ضيافة قمرين : قمر الروض وقمر السماء ، ويا ويل من يعيش في مصر الجديدة وهو يعاني مكاره الصراع بين القلب والعقل !

وفي لحظات أقصر من عمر الطيف تحولت دنيانا من صفاء إلى كدر ، ومن كدر إلى صفاء ، ثم انتهينا إلى قطيعة قد تقصُر وقد تطول ، فما استطاع الدهر ولن يستطيع أن يفرّق بيننا أكثر من أيام أو أسابيع .

سمعت صوت العقل فأقسمت لأهجرنّ ذلك البدر إلى آخر الزمان وما هي إلا لحظة حتى تحركت الحيات والثعابين في برج بابل فأصخْتُ إلى ما تجود به أفواهها الفيح من فحيح ، فكنت والله كمن يسمع نشيدًا ترتله ملائكة السماء .

أنا مشدودٌ مشدودٌ إلى قِطار الوجود ، فأين من يرحمني من مصارعة العيون في نور القمر أو ظلال الرياض ؟

الليلة الماضية ، وما أدراك ما الليلة الماضية ؟

هي ليلة من ليال ، ومن لم يعش كما عشت فليس من حقه أن يقول بأنه اكتوى بنار الصيال بين الهدى والضلال

وما ليلتي الحاضرة بين الليالي ؟

مصباح وقلم ومداد وقرطاس ، وآمال بيض ، وآلام سود ، وقرار في دار تواجه الصحراء في ليلة قمراء ، والقمر يشجع أفاعي الفيافي على الدبيب والوثوب .

ليلتى الحاضرة ليلة كرب وبلاء ، فبرج بابل تعتلج فيه خواطر أشد سوادًا من قلب الغانية التي لطمت وجهها منذ سويعات في أعقاب موجة من موجات

العتاب، وبرج بابل يقول بأن الحوادث تنذر بالشر الوبيل في مدائن منها الإسكندرية وبور سعيد والسويس وبغداد ، وتلك أول مرة صرح فيها برج بابل بأشياء وأشياء ، فمتى أرجع إلى جهل ما في ذلك البرج من أحابيل وعقابيل ؟!

أنا أملك أمري في الليلة الحاضرة ، فليس بيني وبين دار هواي غير خطوات ، ولكن بلائي صيغ من الليالي المواضي ، فمن الليالي المواضي نُسجت عواطفي وأحلامي وأوهامي وظنوني ، وهل أنا إلا مجموعة آراء وأهواء كُتبتُ صحائفها الأولى في القاهرة ودمشق والقدس وبغداد وقرطبة وتونس وباريس ؟

لو فكرت في إحصاء المدائن التي تعلمت في مدارسها المعروفة والمجهولة ، ولو فكرت في إحصاء من استفدت بمعارفهم من أهل الشرق وأهل الغرب ، لوصلت إلى القول بأني شخصية دولية لا يستقل بها بلدٌ عن بلد ولا جيل عن جيل ، فكيف أملك الفرار من الجزع لآلام المكتوين بنيران الحرب ولو كانوا – رسميًا – من أعدائي ؟

ولو فكرت في أن الغانية التي لطمتُ وجهها الجميل في أعقاب العتاب لم تخرج على الأدب في خطابي إلا وهي مثقلة بأوهام نشأ بعضها في الشرق وأُخذ بعضها عن الغرب لنظرتُ إليها كما أنظر إلى الطفل الذي يُجرم وهو غير مسئول .

وهل تسأل صحراء مصر الجديدة عن الإمحال وقد هجرها الغيث ؟

إن كان ذلك فستسأل القلوب التي أذويتها بجفائي ، وما كنت من الجافين ، لولا الشواغل التي صيرتني أقسى من الجلمود في محاجر أسوان .

القمر في ليلتي الحاضرة جميل جميل ، ولكن ما قيمة جماله وأنا مصدودٌ عن الاستصباح بنوره الوّهاج ؟

وما طِيبُ النوم والأحلام لمن حُرموا طيب نجواي ؟

ألم أقل لهم : إن الذي ينام بمصر في المقمرات من ليالي الصيف ليس إلا قطعة من ثلوج الشمال نُقلت ظلمًا إلى هذه البلاد ؟

النوم ضربٌ من الموت ، وهـو المـوت الأعظـم لمـن يجهـل فضـل الليـالي المقمرة بمصر في أوقات الصيف .

لو كنا معًا في هذه اللحظة لعرف البدر أن السعادة ليست مقصـورة عـلى أهـل السماء ؟ إن صـحّ أن أهـل السـماء سـعداء ؛ وكيـف يسـعدون ومـا عرفـوا ظلـم العواطف ولا طغيان الأحباب ، وإلا فكيف استطاع القمر أن يحتفظ بصباه على مرّ الدهور وكأنه فلان في البلادة والغباء ؟

وسيصنع الدهر ما يصنع بالغصن الذي آذته نسائم الحب ، وإن عاش وعشـنا فنقيم المناحات في حضرته العالية على الظل الذي زال عند « الزوال» .

القطيعة باقية ، ولن نسأل عن تلك السرحة إلا يوم تمشي وهي مهددة بأرواح الخريف ، فلتصنع بمصيرها ما تشاء ، فلـن تكـون أكـرم عـلى الـدهر مـن نخلتـي حلوان في أشعار القدماء ومن يرعى تلك النخلة وقد تخلى عنها الحارس الأمين ؟

ترعاها الفواقر والقوارع والخطوب !

يرعاها الجهل بالسر المكنون في ضمائر الشعراء!

وإن استطال الجمال على الشاعر فبشره بالمحاق والأفول .

لغير وجهك الجميل يوجَّه هذا النذير ، يا صـاحبة الجِيـد الأغيـد والمِعصـم الريّان .

وما الدنيا وما الوجود إذا أمسى جمالك الفتان وهو طلل من الأطلال ؟

سيصنع بك الدهر ما يصنع لأنه موكل بإذلال الأقويـاء ولكنـه سـيعجز عـن محو ما دار بيننا من أكواب العتاب في تلك الليلة القمراء .

هي ليلة من ليال ، وسأعرف كيف أنـتقم لنفسـي ، إن طـاب لـك الاعتصـام بالهجر والصدود.

أما بعد، فقد رجعت إلى قلبي لأشهد بعض العجائب مـن بـرج بابـل ، فمـاذا رأيت ؟

رأيت وجودي مقدودًا من أحجار ذلك البرج ، ورأيت عواطفي وأحلامي مشبوبة أو مقبوسة من اللهب الذي يتأجج في أركان ذلك البرج ، ورأيتني جديرًا بما اتصف به أهله من الحيرة والقلق والانزعاج .

رأيت ورأيت ، وكأنني إنسان وقف يتلهى بصراع الأسود، وهو يجهل أن فيها أسدًا قريب العهد بالاستئناس ، فهو يرجع إلى الشراسة حين تسمح الظروف .

رأيتني واقفًا على حافة الهاوية بلا رفيق ولا معين .

رأيتني أحمل القلم لأمزق به ما بيني وبين الناس من أواصر وصلات .

رأيتني أساهر النجوم وهي لا تدرك من همي غير أطياف .

رأيتني انفصلت عن «برج بابل» فلا أدري ما يثور فيه من مصاعب وأهوال .

رأيت ورأيت . رأيت أني سأسأل بعد أيام عن مصاير أحباب كان لهم في حياتي تاريخ ، فمن أولئك الأحباب ؟

الدنيا التي ضنت بأن أحمل السيف في الدفاع عن وطني هي الدنيا التي ضنت بأن حمل السيف في الدفاع عن وطن أحبابي .

لله الأمر من قبل ومن بعد .

وسيعرف أقوامٌ مغازي هذا الأمر الدقيق .

أنا إذن أعبِّر بالرموز ؟؟

هو ذلك ، لأني أكتب مقالي في أيام السرار من شهر الوجود .

اللهم عونك ولطفك وغفرانك ، فما استعنت إلا بك ، ولا توكلت إلا عليك، فأنت وحدك أمل اللائذ بحصنك الحصين .

إليك رجعت يا قلبي(*)

«**لكاتب من الكتاب**» ينم عليه أسلوبه



قلبي ، ألم بأن لك أن تعفو وتصفح ؟

أنت تعرف أني لم أقبل على التحرير والتأليف في شؤون الأدب القديم والحديث إلا طلبًا للسلامة من ظلمك وعدوانك ، ولم أشغل قلمي بوصف أوهام المجتمع إلا لأصرفه عن الشغل بأحلامك وأوهامك .

فهل تراني مع ذلك نجوت من شرك ؟

أنت تعرف أني لا أرى الناس من وقت إلى وقت إلا رغبة في الانصراف عنك ، فإن الخلوة إلى نَزَواتك ، وبَدواتك تُشبه الخلوة إلى أوكار الأراقم وملاعب الجنّ ، ومساقط البراكين فكيف تريد أن أرجع إليك ؟

إن لي عقلا يعصمني من غيِّك ، فاصنع ما أنت صانع .

ألست أنت الذي أغراني بالتطلع إلى مشارق الأقمار والأزهار ومواسم الأفئدة والقلوب ؟

ألست أنت الذي حدثتني بأن النعمة الصحيحة هي جودة الفهم لأطايب الوجود ؟

(*) الرسالة : ١٨ ديسمبر ١٩٣٩ ص ١١١.

فهل تراك صدقت فيما حدثت ؟

وهل تراني أحسنت في الاطمئنان إلى وسواسك ونجواك ؟

الدنيا في طاعتك ليست إلا مهالك ومعاطب ، فكيف فاتني التوفيق فلم أتمرد عليك ؟

ما رأيت إنسانًا يعيش في سلام وأمان إلا حكمت بأنه يحيا بلا قلب .

ولا رأيت إنسانًا مسلوب الأمن مَهدود العافية إلا عرفت أنه من أرباب القلوب .

فمتى أنجو من شرك يا قلبي ؟

إن اشتباك المهلكات والمدمرات في المعارك البرية والبحرية والجوية ليست إلا صورة مصغرة لما يقع بيني وبينك حين أخلو إليك.

فمتى أنجو من شرك يا قلبي ؟

وما يضمر الأعداء المتحاربون بعضهم لبعض ، وما تضمر الغابة الشَّجراء في ظلام الليل ، وما يستتر في جوف المحيط من غَدَرات فَتَكات ، كل أولئك أخف وأهون مما تعدّه لمحاربتي أيها القلب !

إن الحرب بين الممالك والشعوب يسبقها النذير ليأخذ الرجال أهبتهم للصراع والقتال ، والحرب بيني وبينك لا يسبقها نذير حتى أستعد لمصاولتك ومغالبتك . فمن أنت بين المغتالين أيها القلب ؟

وقد درج المقاتلون منذ آماد طوال على الترفق بأسرى الحرب وأنت لا تعرف الرفق بأسيرك أيها القلب !

فمتى ينصرني الله عليك فأجزيك ظلمًا بظلم وعدوانًا بعدوان ؟

أنت الذي جعل إيذاء الصديق للصديق من شرائع الوجود ، أيها القلب . فكيف أعاتب أصدقائي وأنت على قربك أول من أتلقى منه الطعنة الدامية ؟

أنت تظلم وتغدر وتفتك ، وما أسأت إليـك في سـر أو علانيـة ، ولـيس بينـي وبينك واش ولا نمام ولا رقيب .

فكيـف ألـوم صـديقًا يغـدر أو يخـون وبينـي وبينـه ألـوف مـن المفسـدين والمرجفين ؟

عنك تلقيت درسًا لن أنساه ، أيها القلب ، فعدوانك وأنـت صـديق لا تصـل إليه الوشايات والسعايات دليل على أن الدنيا قامت على أساس منخوب لا يصـلح للخلود.

لو كانت الدنيا أهلاً للجمال لكان من المستحيل أن تكـون الأشـواك أطـول أعمارًا من الأزهار والرياحين .

ولو كانت الدنيا أهلاً للقوة لما جاز أن يقضي الأسد دهره وهو محموم.

ولو كانت الدنيا أهلاً للرفق والعطف لصـار مـن العسـير أن يفسـد مـا بينـي وبينك ، أيها القلب .

إن آهة الألم من الحيوان الفاتك هي التـي تـدل عليـه الصـائد المغتـال حـين يطرق الغابة بليل .

وزقزقة العصافير في الظلمات هي التي ترشد الثعابين إلى عشها الأمين .

ورحيق الأزهار هو الذي يسلط عليها خراطيم النحل .

والنور الذي ينبعث من مخدع آمن قد يعرِّض مدينة برمتها إلى غارة جوية .

فما الذي دَّلك عليَّ ، أيها القلب ؟

دلتك القوة ؟ دلَّك الرفق ؟ دلَّك الضعف ؟ دلك الشعر والخيال ؟

أنا أعرف أني كتلة جسيمة من الأحلام والأوهام والحقائق والأباطيل ، فمـن أي جانب نفذت إليّ ، أيها الغادر المغتال ؟

تخلَّق مرة واحدة بأخلاق المحاربين الشرفاء ، أيها القلب ، حدثني كيف استطعت النفاذ إلى ما أقمتُ من معاقل وحصون ؟

أنت قوة خطرة مخوفة ، أيها القلب ، ومن حقك أن تبغي وتستطيل لأني سوّيتك بيدي ، وطوفت به في الشرق والغرب لأمدك بأصول القوة والعنف ، وآيةُ هذا العصر هي نكران الجميل ، فلا عتب عليك ولا ملام إن بذلت في إيذائي كل ما زودتُك به من جهد وعافية «ومن غرس الرياح جنى العواصف» .

كل حرب إلى سلام ، وكل شقاق إلى وفاق ، إلا ما بيني وبينك ، أيها القلب .

سيتعب أعدائي فينسحبون من ميدان القتال ، ولن تتعب أيها القلب ، لأنك جذوة من العواطف لا تخمُد ولا تبيد .

فهل تراني أتمنى لك الخمود وأنت صديق ؟

الناس على دين زمانهم ، أيها القلب ، وأنت اصطنعت الغدر طاعةً لزمانك ، فكيف لا أستبيح الغدر طاعةً لزماني ؟

أتراني التفت إلى رعاية الجوار ؟ وهل رعيت أنت الجوار ومثواك بين ضلوعي ؟

المودّات في الدنيا أخذٌ وعطاء ، فكيف تنتظر أن يكون أمرى كله إليك ، ولا يكون لي سلطان عليك ؟

كيف تنتظر ألاَّ أتقدم أو أتأخر إلا بوحي منك وأنت لا تسمع دعائي مرة واحدة فتّصدف عمن تسقيهم الشهد ويسقونك الصاب ؟

أنت الشريك المخالف ، أيها القلب ، والشريك المخالف تعوَّذ منه الآباء والأجداد ، فكيف أسلم من شرك ولن يفرِّق بيني وبينك غير الموت ؟

إن أمرك لعجيبٌ غريب ، أيها القلب ، فأنت تغدر بي ، ثم تفي لسائر أصدقائك وأصفيائك .

أنت والله لئيم أيها القلب ، فأنت لا ترعى عهدي لأنـك وثقـت بأمـانتي ثقـةً أبدية . وأنت تراعى غيري ممن أحببت لأنك تخشى أن ينقلبوا عليك ، والاتجـار بالصداقة من أخلاق زمانك ، وأنـت ابـن زمانـك ، فشِّـرِّق في مكايـدتي وغـرِّب ، فسأبقى بجانبك يوم تنكشف لك أخلاق الزمان فتصبح بلا صديق .

أراك انزعجت ، أيها القلب

الحمد لله ، فلا يزال في الدنيا إخوان يزعجهم العتـاب . وبـالرغم منـي يـرقّ الصخر الذي جعلتُه علامة القِبلة في أوقات الصلوات .

لا تجزع ، يا قلبي ، فلن أعاتبك في كل يوم ، فلسـت بالصـديق الـذي يشـوك أصدقاءه بالعتب في كل حين .

أراك غضبت

اتق الله والحب ، أيها القلب ، فقد صبرتُ على تجنِّيك عددًا من السنين ، ومـا يجوز لك أن تثور على من ينطق بكلمة الحق مرة واحدة بعـد أن صـبر عـلى كلمـة الزُّور ألوف المرات .

كنت أودّ أن ألقاك بالهجر الجميل ، أيها القلـب ، كمـا تعـودت أن ألقـاك في الليالي الخوالي ، ولكني رأيتك تعدّ سكوتي علامة من علائـم العجـز أو دلالـة مـن دلائل الشُّبهات ، فاسمع صوتي يا جاحد ، لتعرف أني أملـك الثـورة عليـك حـين أشاء .

ومن العجز أن تظن أن التفريط في حق الصديق يمرّ بـلا عقـاب ، كمـا مـرّت حسنات الصديق بلا ثواب .

تلك أيامٌ خَلَتْ . فأعدّ نفسك لحساب العاشق الذي صحا وأفاق .

ما هذا ؟ ما هذا ؟

أراك تبكي وتنتحب أيها القلب .

أمن دعابة وجهتها إليك يتفجر حزنك وأساك ؟

فكيف أكون وقد قضيت السنين الطوال في رأب ما يَصدع الأصدقاء ؟

كيف أكون ولي في كل يوم رفيق يغدر ، وصديق يخون ؟

أنا أثور عليك أيها القلب .

وكيف وقد صفحت عن ذنوب قوم أسكنتهم في سوادك؟

أنا الأخير بين من تَعمى عيونهم عن عيوب الصديق، أيها القلب .

وأنا الأخير بين من لا ترى عيونهم غير محاسن الصديق ، أيها القلب .

فاغدر كيف شئت ، وليغدروا كيف شاءوا ، فأنا أحق من « الحجَر الأسود» بِحَمل الذنوب وسَتر العيوب .

ولن أنطق إلا يوم ينطق الحجر الأسود ، فإن نطق فسأعتصم الصمت .

أتراني أمنّ عليك ، أيها القلب ؟

أنت الذي تمنّ عليَّ ، لو شئتَ ، وأنت تشاء لأن زمانك منَّان ، ولكن سأعفيك من رذيلة المنّ على الأصدقاء .

أنا أختلق المحاسن لأصدقائي ، فكيف أبخل بالثناء عليك بما أنت له أهل وكيف أجاريك في طمس محاسن الصديق وأنا أقوى منك ؟

لا تنزعج من كلمة الحق ، أيها القلب ، فستسمع مني بعد ذلك ما يرضيك . أنا راض عنك مع جهلك لأن شاعرنا يقول :

ولربما اعتصم الحليم بجاهل ... لا خير في يُمنى بدون يسارِ

وعقلي محتاج إلى جهلك ، أيها القلب .

أتذكر ما وقع في صباح اليوم ؟

كنت في سيارة عمومية ، وصعد زوجان انجليزيان ومعهما طفل وطفلة ،

فوثب الطفل إلى صدري يسكن إليه ، فنهرته أمه في غضب ، وجذبه أبوه من يده فثار وجرى على باب السيارة لينزل وهي في جنون السرعة ، وخاف والد الطفل فأشار إليه أن يتوجه حيث شاء ، فأقبل الطفل على صدري من جديد ، وأخذ يشير إلى أخته أن تصنع كما صنع ، فقضيت المسافة وأنا أحتضن طفلين عزيزين في رقة الأزهار ونضارة الرياحين .

ونظر الأب والأم إلى هذا المشهد نظرة حنان وهما في عجب عجاب ، فقلت : لا تعجبا يا سيديَّ ، فهذان الطفلان يعرفان بوحي الفِطرة أني رجل له قلب ...

وشاءت ظروف عملي أن أنزل في منتصف الطريق فتشبث الطفل بي وهو دامع العين مكروب ، فلثمت جبينه فاستراح وأوي إلى صدر أبيه وهو جذلان .

وكان ذلك لأنك كنت في صحبتي ، أيها القلب .

وأرادت إحدى الغوادر أن تنسى ما صنع قلمي في التشبيب بجمالها الفتَّان فدلَّت وتاهت ، فأصليتها صدًّا بصد وإغضاء بإغضاء ، فهي منذ سبعة أشهر تترضَّاني برسائل تذيب الجلاميد وأنا ألقاها بصمت الأوثان ، فهل كان يمكن ذلك إلا لأنك في صحبتي ، أيها القلب ؟

عندي ألوف من الشواهد على أنك المصدر الأصيل لما أملك من عنفوان القوة والعافية ، فإن صح أنك أصل لما قد يساورني من ضعف فذلك دقة النصل في السيف الصقيل .

إليك رجعت يا قلبي ، فارجع إليَّ كما رجعتُ إليك :

فلقد يُسعف الجريح أخاهُ ويواسي الغريب في الأحزان .

«كاتب من الكتاب» .

نميمة الأسلوب

«لكاتب من الكتاب» (ينم عليه أسلوبه)



كنت أرسلت إلى مجلة الرسالة كلمة أحاور بها قلبي ، ولم أذيلها باسمي الصريح ، وإنما اكتفيت بالإشارة إلى أني «كاتب من الكتاب» فرأيت صاحب «الرسالة» يضيف إلى هذا الرمز عبارة «ينم أسلوبه عليه »

فهل كُتب عليّ أن أعيش فريسة النمائم فأنتقل من كرب إلى كرب إلى أن تدركني نميمة الأسلوب ؟!

وأين المفرّ من مظالم النمائم إذا صح أني لن أنجو من نميمة قلمي ؟ ..

إن الرجل لا ينمَّ أسلوبه عليه إلا بعد أن يصبح «كاتبًا من الكتاب» تُنصب لرأيه الموازين ، وأنا كاتب من الكتاب منذ أعوام طوال ، فما الذي غنمتُ من براعة القلم ورشاقة الأسلوب ؟

ما الذي غنمتُ وأنا أمتشق القلم منذ أكثر من خمس وعشرين سنة بعزيمة أقسى من الصخر وأصلب من الحديد ؟

ما الذي غنمت وقد كنت كاتبًا وشاعرًا قبل أن يولد فريق من الذين تؤذيني عندهم نميمةُ قلمي ؟

وهل أستطيع أن اطمئن إلى أن قلمي سيشفع لي إن قلتُ إن صحبته أضرعتني وإني أحتاج إلى الراحة بضعة أسابيع ؟

وهل للقلم دولة في هـذه الـبلاد حتـى نجعلـه وسـيلةً إلى الراحـة مـن بعـض المتاعب ؟

وهل يُراعى القراء ما نطوِّق به أعناقهم من ديون ؟

لقد غنَّيتُ أهل زماني أناشيد أيقظتُ بها في صـدورهم مـن أحـلام غافيـات ، وأحييتُ بها ما في قلوبهم من مَوَات ، فـأين مـن يسـعدني بكلمـة صـدق أدفـع بهـا عُدوان زماني ، لأمضي على سجيتي في السـجع والغنـاء ، ولأضـمن السـلامة مـن نميمة الأسلوب ؟

وأين في الدنيا كلها من يتوجع لمصير البلبل حين يسكته المرض أو الموت ؟

احتجزني فلان في الطريق ساعة أو بعض ساعة وهو يحاورني في شؤون دقيقـة من خصائص حياتي الأدبية ، فظننته – وهو من أهل الجاه – يحاول أن ينصفني من زماني ثم عرفت – واأسفاه ! – أنه يجمع المصادر لمقال يكتبه عني يوم أموت !

وفلان الذي صرح ألف مرة بأني شعلة من اللهب المقـدَّس هـو نفسـه فـلان الذي يرى اليوم أن أدبي من أعظم ذنوبي ، وأن من الواجب أن أتوب !

أنا أحب أن أتوب من صحبة القلم ، ولكن أين السبيل إلى المتاب ؟

وهل يمكن ترك الصديق بسهولة، أيها الناس .

أعطوني شيئًا من قدرتكم عـلى نسـيان حقـوق الأصـدقاء ، لأتناسـى حقـوق قلمي!

علِّموني كيف أغدر وكيف أخون، لأستطيع التمرد على عقلي وبياني ! ..

خذوني إليكم، أيها الساخرون من صولة العلم والحق، لأخلص مـن صـحبة العلم والحق !

خذوني إليكم في ملاعبكم وملاهيكم ، عساني أنسى جاذبية البؤس في صـحبة

قلمي وكتابي !

لقد أفلحتم في زعزعة اليقين الذي كنت أفزع إليه حين تكرثني صروف الزمان ، فأين أنتم لأشكو إليكم ما جَنَتْ أيديكم ؟

وأين السبيل إلى ترميم البناء الذي كنت أستظل به من قبل أن أنخدع بالبريق الذي أزغتم به فؤادي ؟

أين ؟ أين ؟

أتذكر الآن كتاب لامرتين عن سِفر أيوب Le poeme du jobe

فقد صرَّح بأن الدنيا لو دُكت صروحها وذهب ما فيها من روائع الفنون والآداب ولم يبق غير سِفر أيوب ، لكان كافيًا في تسجيل ما تعاني الإنسانية من معاطب وحتوف .

وهل عانى أيوب في زمانه بعض ما عانيت في زماني ؟

أيوب فقد الثروة والعافية ولم يفقد اليقين !

وأنا فقدت الثروة والعافية واليقين . أضاع الله من أضاعوني !

وأيوب استطاع أن يعاتب ربه بقصيد رنّان وهو في أمان من ثورة الجمهور ، فظفر بالخلود في عالم الفكر والبيان .

وأنا لا أملك معاتبة ربي بسطر واحد خوفًا من رئيس التحرير ، وخوفًا من شيخ الأزهر ، وخوفًا من محكمة الجنايات وخوفًا من نميمة الأسلوب !!!

وأين فجيعة أيوب في دنياه من فجيعتي في دنياي ؟

كان الدينار لعهد أيوب يُموِّن الرجل شهرًا أو شهرين ، وأنا في عهد يهان فيه الرجل إن اكتفى بالدينار يومًا أو يومين ، فمن يُسلطني على دهري فأسجل رزاياه على نحو ما صنع أيوب ؟

وكانت الأرض لعهد أيوب بلا رسوم ولا حدود ، فكان المجاهد ينـال منهـا ما يشاء ، كيف يشاء ، وهي اليوم مقسمة تقسيمًا يصد المجاهدين أعنف الصدود.

وكانت البحار لعهد أيوب مصادر خيرات ، وهي اليوم مواقع ألغام ومسارب غواصات .

وكانت السماء لعهد أيوب مساقط غيث ومذاهب نسيم ، وهي اليوم معـارج طائرات ومصادر خطوب .

وكان النمام لعهد أيوب يؤلب عليه رجـلاً أو رجلـين أو بضـعة رجـال ، لأن النمام لم يكن يملك غير سـفاهة اللسـان ، أمـا النمـام في هـذا العهـد فيسـتطيع أن يؤذيني بمقال في جريدة أو مجلة يقرأها ألوف أو ملايين ، ويـذهب شـرها إلى مـن أعرف ومن أجهل في المشرق والمغرب .

وكان قوم أيوب يعـدون بـالألوف ، أمـا قـومي فيعـدون بـالملايين فبلـواي بالخصومات أعرض من بلواه .

وكان لأيوب أعداء وأصدقاء ، أما أنا ، فلي أعداء ، وليس لي أصدقاء .

وكان أيوب نبيًا تهابه الأرض وتؤيده السماء ، أما أنا فكاتب من الكتاب تنفـر منه الملائكة ويأتمر به الشياطين .

وصارت ثورة أيوب على بلاياه لحنًا خالدًا يُرتل في الكنائس والصوامع ، أمـا ثورتي على زماني فستضاف إلى الأدب الحزين الذي لا يقام له ميزان .

ومع ذلك كان حزنه أهلاً للحمد ، وصار حزني أهلاً للملام !

أيوب !

اسمع كلمتي ، أيها الزميل في الأحزان !

إن النبوّة عصمتك من كيد الخاتلين والحاقدين ، فلم تـذق طعـم الإيـذاء في

سبيل الحزن النبيل، والله الذي لم يولني شرف العصمة أولاني شرف الإيذاء في سبيل الحزن النبيل .

فأين مكانك من مكاني ، مع أني عبدٌ مذنب وأنت نبيٌّ معصوم من الذنوب ؟

كانت المدائن لعهدك لا تملك من المصابيح ما يشغل بصرك عن نجوم السماء ، أما المدائن لعهدي فتعرف المصابيح في النهار قبل أن تعرفها في الليل ، ومع ذلك لم تشغل بصري عن نجوم السماء .

وكانت الدنيا لعهدك لا تعرف الضجيج ، فكنت تملك الخلوة إلى خواطر قلبك .

والدنيا لعهدي كلها ضجيج وأزيز وهدير ، وأنا مع ذلك أخلو إلى قلبي وأدرس ما فيه من عناصر الوساوس والأحلام والأضاليل .

فإن لقيت ربك وفي يمينك كتاب النبوة فسألقي ربي وفي يميني كتاب المحنة بوطني وزماني .

فيا نبي الله ، كيف تسبقني إلى رحمة الله وأنا أفقر إليها منك ، وإن كنت أحق بها مني ؟

أيوب !

أنت تألمت وتوجعت لأن الوباء كان اغتال إبلك وغَنَمك فكيف ألام على التألم والتوجع وقد أهلك الطاعون أصدقائي وأحبابي ؟

أيوب ؟

هل تعرف أني أملك من العزاء ما لم تكن تملك ؟

فلو أنك قرأت تاريخ المسيح كما قرأتُ لخفَّت مصيبتك وهانت بلواك .

المسيحُ ، يا أيوب ، قد اكتوى بنار حامية هي غدر الصديق وقد صارت قبلة يهوذا مثلاً سائرًا في التاريخ ، فهل تعرف كيف تكون القبلة شارة الحتف ، وهي في

الأصل لغة القلب ؟

وأنا قرأت من تاريخ محمد ما لم تقرأ ، يا أيوب ، فقد لقى كثيرًا من كيد المنافقين من الأصدقاء .

فهل تظن مع هذه الشواهد أنك أجدر مني بالصدارة بين البائسين واليائسين؟

أنت على ما عانيت لم تعرف خيانة الصاحب ولا غدر الصديق ، ولم تشهد كيف تعد حسناتك سيئات، ولم تقاس نمائم الأصحاب ولا « وشاية الأسلوب» ولعل الله كان رعاك فلم تر شخصًا تحسن إليه ويسيء إليك .

فكيف تسبقني إلى رحمة الله ، يا أيوب ؟

خذ حظوظي كلها ، يا أستاذي في الألم والوجيعة والحرمان ، فأنا أحب أن أخرج من الدنيا بلا جزاء ، لأستطيع القول بأني عانيت من البلاء ما لم يعان أيوب ، عليه الصلوات !

وأنا مع هذا أعترف بأني ساعدت الزمان على نفسي ، لأني تجاهلت أخلاق الزمان .

وما الناس ؟ وما الزمان ؟

يكفي أن أصبح وأنا برغم الناس والزمان : «كاتب من الكتاب»

أوهام تخلق متاعب



في صدر هذه الليلة عانيتُ متاعب كادت تقصهم ظهري وكدت أخشاها على حياتي ، ثم لطف الله فتبددت بعد ساعات كانت أطول من الآباد .

فما تلك المتاعب ؟

هي متاعب خلقتها أوهام في غاية من السخف ، ولكن النص عليها واجب لمنفعة القراء ، فقد يكون فيهم من تعتريه مثل تلك الأوهام في بعض الأحوال .

التفتُ بغتةً فرأيت نفسي تراجع طوائف من الذكريات الموصولة بمعاملاتي مع جماعات من المعارف والأصدقاء ، فانقبض صدري أشد الانقباض ، وتجسمت أمام خيالي ألوان الأوهام بصورة لم أشهد مثلها من قبل ، صورة مروّعة قاسيتُ منها ما تقاسي النار من الريح العَصُوف .

وفي فورة تلك الكروب جاء لطف الله فرأيتني أقول : ومَن أولئك وهؤلاء حتى أعاني في العتب عليهم مثل هذا العذاب ؟

إذا غدر بك القريب فليس بقريب ، وإذا تجنَّى عليك الصديق فليس بصديق ، ومن واجبك أن تحفر قبرًا تدفن فيه من لا يرعى حق القرابة ، ولا يحفظ عهد الإخاء . ما اهتمامُك بمن يرضيهم أن تشقَى نفسُك ؟ وما عتُبك على من يسرهم أن تزل قدمك ؟ وما حزنك على ضياع مودة كان يجب أن تضيع لأنها في رعاية الضائعين ؟! أمن أجل خلائق مِراض القلوب تُمرض نفسك ؟ أمن أجل إخوانٍ غَدَرة تؤذي قلبك ؟ أهؤلاء وأولئك يستحقون أن تفكر فيهم ساعةً من ليل ؟ وهل

أكرموا أنفسهم حتى يكرموك ؟ وهل أعزوا حياتهم حتى يعزوك ؟ إن حزنك لما صنعوا معك دليلٌ على أنك دائم الإشفاق عليهم ، وقد نصحك الشاعر صادق رستم حين قال :

شــرَّ البليــة إشــفاقٌ عــلى فئــةٍ   لو كنتَ تؤكل ما عفُّوا ولا شبعوا

تبيتُ تبكي لصرف الـدهر يفجعهـم   ولو رأوك على الأعناق ما دمعـوا !

لا تشفق عليهم ، وأشفق على نفسك أيها الغافل عـن حقـائق الخلائـق ؛ فلـو أنت استبقيت ما أنفقت من الوقت في صحبتهم لتنفقه في تربيـة الخنـازير ، لكنـتَ اليوم من كبار الأغنياء .. وقد نصحك المثَل المصري فما انتصحت ، المثل الـذي يقول :

«كل ما تزرع ينفعك ، إلا ابن آدم تزرعه فيقلعك» !

وهؤلاء يحققون صدق هذا المثل أفظع تحقيق ، فهـم يقوّلونـك مـا لم تقـل ، ويذيعون عنك أغرب الأحاديث ، وقولهم فيك مسموع ، لأنهم عرفوك ، ومن حق من عرفك أن يقول فيك ما يشاء .

ومــا ضــرَّني إلا الــذين عــرفتُهم   جزى الله خيرًا كلَّ مـن لسـت أعـرفُ

ما جزَعُك عن غدر صديق ؟ وما حزنُك من لـؤم أليـف ؟ أنـتَ أنـتَ ، ولـن يكون بلاؤك بأولئك وهؤلاء غير سحابة صيف ، ثم ترجع إلى إسباغ نعمائك عـلى الجاحدين .

تذكَّر يا غافل فضل الله عليك ، تذَّكر أنه عصمك من الجحود حين أغناك عن الناس ، والجحود رذيلة لا يتعرض لها غير المبتَلَيْن بتقبَّل إفضال المفضـلين مـن أهل الكرم المطبوع أو المصنوع .

أنت تتحدث كثيرًا عن الأدب بأدب الله ، فهل تأدبت بذلك الأدب الجميل ؟

إن الله يسبغ نِعمـه عـلى الكـافرين بعزتـه السـامية ، إن الله يعطـي الملحـدين

أضعاف ما يعطي المؤمنين ، كما يفعل الأب الرحيم حين يؤثر الابن السقيم على الابن السليم ، فما أنت وذلك الأدب الرفيع .

وأراك تبديء وتعيد في أحاديث البر بأصدقائك ، ولو ناقشوك لأفحموك ، فما قبلوا بِرك إلا حين اطمأنوا إلى أنك رجلٌ كريم ، والكريم غير منَّان .

وما الوقت الذي تقول إنك أغدقته على الجاحدين من إخوانك ؟ لقد دفعوا ثمن المعروف أضعافًا مضاعفة ، لو كنت تنصف ، دفعوه تحيات وابتسامات ، وهي معان تفوق كرائم الأثمان ، ودفعوا ما هو أعظم ، ولو كنت تعقل ، فقد أشعروك بلسان المقال أو لسان الحال انك رجلٌ نفَّاع ، وذلك أعظم ما يوصف به أكابر الرجال .

أنت تمنّ على أصدقائك ؟ فماذا أبقيت للمتجرين بالأخلاق ؟!

كان الظن أن تنسى جميلك إن كنت من أصحاب الجميل ، ولكنك ..

وهنا أفقتُ قليلاً فساءلتُ نفسي عن سبب التفوه بذلك المنّ السخيف :

ماذا أكلت اليوم من الطعام ؟ ومن لقيت من الناس ؟

يحب أن أعرف ما وقع في يومي هذا ، لأعرف سبب السخف الذي وقعت فيه حين مننت على معارفي وأصدقائي في عصرية اليوم – وهو الخامس من شهر آب – كنت أهنئ فلانة بعيد ميلادها السعيد ، وفي لحظة من لحظات الصفا حدثتها أني ولدتُ في مثل هذا اليوم ، فهتفت بحماسة مصحوبة بالحنان :

Nons artivons en meme temps

نعم يا سيدتي ، وثمرات الأعناب في شهر آب

ثم قُلقِلتْ نفسي قلقلة عنيفة حين تذكرتُ أني لا أحتفل بعيد ميلادي كما يحتفل أكثر الناس ، وكيف يتيسر ذلك وأنا أُخلق في كل لحظة خلقًا جديدًا باعتبار ما يَرِدُ على عقلي وروحي من شتيت الآراء والأهواء ؟

وسألتني عما استظرف من هدية الميلاد فأبيت الإفصاح عما أريد ، وإن كنت أشرت إلى أني معجب بدالية مسلم بن الوليد !

وغفلة فلانة عن مدلول هذه الإشارة لم تزعجني ، لأنها قليلة المعرفة بقصائد صريع الغواني !

فما السبب الأصيل لاضطرابي وانزعاجي في هذا المساء ؟

لعل السبب يرجع إلى أني قضيت صباحية اليوم بوزارة المعارف ، وهي مملوءة بالمراوح ، ولتفصيل ذلك أقول :

في مكاتب كبار الموظفين بوزارة المعارف مراوح كهربائية تدور من جانب إلى جانب ، ليقُل خطرها فيما يقال ، وأنا رجلُ يؤذيه البرد الطبيعي أشد الإيذاء ، فكيف يتحمل البرد الصناعي وهو ثقيلٌ ثقيل ؟

أنا لا أخاف المراوح الثابتة ، لأن تجنب تيارها مستطاع وإنما أخاف المراوح الدوارة ، والمراوح التي تغزو الصدور والمفاصل برغم التحرز والاحتراس

وهذه المراوح كثيرة في وزارة المعارف ، وأنا منها في شقاء وعناء ، ولا سيما المروحة الجاثمة بمكتب تفتيش اللغة العربية ومن أجل هذا أوصي زائري بمقابلتي في مكتب الأستاذ على أدهم سكرتير الرجل النبيل شفيق بك غربال ، لأنه مكتبٌ مضنون عليه بالمراوح ليساير الطبيعة في أمان .

وآه ثم آه من المراوح في وزارة المعارف !

إنها تخلق تيارات عنيفة الإيذاء ، وهي السبب في بلبلة بالي في هذا المساء .

وأعجبُ العجب أن المراوح الدوّارة تحتلّ جميع المكاتب الحكومية ، وكأنها النمائم المبذولة بغير حساب ، فأين من يرحمنا من تلك المراوح الباغية ؟ وأين من يعرف أن القيظ في آخر أحواله أروح من البرد ؟

عرفتُ بالضبط والتحديد سبب اعتكاري في هذا المساء ، فما عن لؤم أو

حقد غمزت معارفي وأصدقائي ، وإنما هي جناية المراوح بوزارة المعارف ، وسيأتي يومٌ قريب أو بعيدُ ترفعُ فيه تلك الآصار الثقال .

إن قومًا يعجبون من ثورتي على الناس والزمان ، فهل يعرفون أن المراوح تلفح وجهي في كل مكان ؟

لو صفا دهري لصفوت ، ولو عدَل زمني لعدلت ، واختلالُ الموزون يُخل الميزان.

بمن أثق ؟ وعلى من اعتمد ؟ وما اطمأننت إلى صديق إلا رأيته بعد حين أو أحيان وصوليًا عديم الروح والوجدان . ومع هذا أصفح عن أبناء زماني ، لأنهم أبناء الزمان.

ومع هذا أيضًا أبتسم حين يلقاني فلان وعلان .

فضحكتم يا جماعة المنافقين ، فالتمسوا قلبًا غير قلبي ، وجيبًا غير جيبي ، وانتظروا غضب الله على جميع المرائين .

ثم ماذا ؟

ثم أشير إلى غربتي في وطني بالفكر والروح ، غربة قاسية لا ترحم ولا تلين ، غربة أتوحَّد بها توحُّد الليث في العرين .

مفتاح السر المجهول



لكل موجود قوة حيوية تنفع كل النفع أو بعض النفع في إذكاء روح الوجـود ، وما كان تفاوت الأوصاف يمانع أهل الضعف من القول بأن لهم فضـلاً في إكمـال الصورة الملوَّنة لخريطة الموجودات . وهل عُرِفتْ قيمة الفاضـل إلا بالقيـاس إلى المفضول ؟

ولكنـي لا أريـد لـك أن تكـون إشـارة تكميليـة في الصـورة الوجوديـة ، ولا يرضيني أن يقال إنك على ضعفك مظهر من مظاهر الوجود ، فما أرضى لكل هـذا المصير إلا يوم يصحّ عندي أنك لا تملك تغيير ما بنفسـك ، وأنـك لم تُخلـق إلا لتكون شاهدًا على أن الناس درجات ، ومن أين عرفتَ يا جاهل أن الله لم يـرد لـك الصيرورة إلى منازل الأشراف من أحرار الرجال ؟

إنك تستطيع أن تكون عظيمًا حين تشاء ، والعظمـة الحقيقيـة هـي أن تكـون رجلاً نافعًا إلى أبعد الحدود في الميدان الـذي أرادت الطبيعـة أن تقفـك فيـه وقفـة الحارس الأمين ، فتكون أعظم الأدباء والمفكرين إن شئت ، وتكون أكبـر رجـال الأعمال إن أردت ، وتكـون إمامًـا في الصـناعة أو التجـارة أو الزراعـة وفقًـا لمـا خصَّك بـه الله مـن المواهـب الأساسـية ، عـلى شـرط أن تهتـدي إلى مفتـاح السـر المجهول .

فما هذا السر ؟ وما ذلك المفتاح ؟

السر هو نفسك ، والمفتاح هو عقلك ، وإليك أسوق الحديث :

في النفس قُويً غافية تفوق العدَّ والإحصاء ، وهل عرف إنسانٌ قيمة ما تنطوي عليه نفسه من أعاجيب البراعة وغرائب القدرة على خلق المستحيل ؟ ! لو عرف بنو آدم أقدار أنفسهم لحوَّلوا الصحاري إلى رياض وبساتين ، وعاشوا من أرواحهم في جنات وفراديس . وكيف وبنو آدم بلا عقول ، كما عبَّر أبو العلاء ؟!

إدرُس نفسك في كل وقت وحاول التعرف إلى ما في قرارها من القُوى الغافية، وتذكَّر يا جاهل أن أكثر العظماء لم يكونوا في بداياتهم إلا نكرات لا تُبشر بشيء ، وتذكر أنك لم تصل إلى غاية بعيدة أو قريبة إلا بعد الاستصباح بالأقباس المكنونة في سرائر نفسك ، فما الذي يمنع من أن تجعل التعرف إلى قواك النفسية والروحية فرضًا من فروضك في صباحك ومسائك ؟

احترس من الغفلة عن نفسك ، فللنفس ومضات تنير أرجاء الوجود . والتأهب للاستفادة من ومضات النفس يزيدها إشراقًا إلى إشراق .

وهل كان ما ترى من الروائع والنوادر والغرائب في آثار الأذواق والقلوب والعقول إلا أثارةً من التأهب لتلقى الوحي الصادر عن ومضات النفس ؟

هي جوهر يشعُ في كل وقت ، فارفع الحجاب عن عينيك لتنتفع بذلك النور الوّهاج ، فإن لم تفعل فأنت مجرم في حق نفسك ، وفي حق وطنك ، وفي حق الإنسانية .

وهل ترى من المستحيل أن تُوفق إلى كشف أفق جديد يزيد ثروة الناس في الفكر والمعاش ؟

جرِّب حظك في محاولة التعرف إلى سرائر نفسك ، فقد تصبح قوة كهربائية تغيِّر ما بحيوات الناس من ألوان وأفانين ؛

وقد تكون لمحة واحدة خليقة بأن تجعل لك مكانًا بين أهل الخلود إن أحسنت التأهب لتلقي ذلك الوحي الجليل .

ولكن متى تحسن فهم أسرار نفسك ، وأنت عنها في شغل بالظواهر الخوادع

من توافه الشئون ؟إن عقلك هو الـذي يهـديك إلى الانتفـاع بـالقُوى المسـتورة في أطواء نفسك ، فهل استهديت عقلك ؟ وهل فكرت في أن أكابر الموهـوبين قـد لا يكون بينهم وبينك من الفروق ما يستوجب أن يتقدموا وتتخلّف ؟

فكّر في مصيرك ، يا جاهل ، فقد يحطك الله في جهنم لأنك لم تحسن الانتفـاع بهدْي عقلك في معرفة قوَى نفسك ، والنفس هي أشرف الأرزاق .

وما النفس وما العقل ؟؟

الذي يهمني هو الاطمئنان إلى أنك تعرف جيدًا أنك خُلقت لغاية غيـر الغايـة التي خُلِق لها إخوانك وزملاؤك ، فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي تختلف فيـه ملامح الوجوه ، ومن الواجب أن تختلف فيه ملامح العقـول ، فمـن أنـت ؟ ومـا صورة وجهك ؟ وما سِمة نفسك ؟ وما صِبغة عقلك ؟

تفرَّد وتوحَّد ، يا خِلقة الواحد المتفرّد . كن أمـةً وحـدك ليرضـى عنـك مـن سوّاك ، فما خلقك إلا وهو يريد أن تكون فريدًا في الصـورة والمـراد ، فهـل تـراني دللتك على مفتاح السر المجهول ، وأنا من البحث عنه في حيرة وضلال ؟

أنا وأنت رفيقان هائمان في بيداء الوجود ، وفي صدري من اللوعـة إلى كشـف المجهول بعض ما في صدرك ، فخذ بيدي كما أخـذت بيـدك ، لنصـل إلى شـاطئ المعرفة واليقين بسلام وأمان ، والله يهديني ويهديك !!

«كاتب»

رسالة القلم البليغ



في ظهر يوم الجمعة الأسبق دعاني أحد الصحفيين تليفونيًّا إلى الإجابة عن أسئلة متصلة بمهمة الكاتب في المجتمع ، وقد أجبت بصراحة لا تحتمل التأويل ، ودعوت ذلك الصحفي إلى مراعاة الأمانة فيما ينقل عني ، فقد طال بلائي بتحريف آرائي ، ثم راعني أن أرى كلماتي مثبتة بدون تغيير ولا تبديل ، كأن ذلك الصحفي كان يدوِّن ما يسمع بالحرف . وإنما نصصت على هذه الأمانة في النقل لأحكم على ما نُشر باسم الأستاذ عباس العقاد ؛ واسم الأستاذ أحمد أمين في هذا الموضع بالذات ، فليس من المعقول أن يحرص ذلك الصحفي على مراعاة الأمانة فيما ينقل عني ثم يمضي فيتزيَّد على هذين الباحثين الكبيرين بلا موجب معقول وعلى هذا يكون عندنا ثلاثة آراء صريحة في تحديد «مهمة الكاتب في المجتمع» فما هي تلك الآراء ؟

يرى الأستاذ عباس العقاد [1]أنه لا يمكن فصل المهمة الثقافية عن المهمة الاجتماعية ، لأن الثقافة تمهد لأن ينظر الناس للحياة نظرة عالية ، والنفوس التي تنظر للحياة نظرة عالية هي النفوس التي تستحق الحياة . ويرى أن يكون الأدب للأدب فلا يكتب الكاتب غير ما يوحي به الطبع وهو يُعنى بالحقائق الخالدة . أما المشكلات التي تتعلق بالطبقات المختلفة ، فهي مشكلات وقتية يناط تدبيرها بالرجال الإداريين .

ويرى زكي مبارك أن للكاتب غاية واحدة هي الصدق ، وليست القصة أو

(١) العبارات الآتية ملخصة من الأجوبة المنشورة في مجلة «العزيمة» بالعدد ٧٩ .

المقالة إلا من وسائل التعبير عن ذلك الصدق ويرى أن الكاتب ليس أجيرًا للوطن ولا للمجتمع ، وهو مطلق الحرية في جميع الشؤون ، ويرى أن التعبير عن آلام المجتمع وآماله لا يكون أدبًا إلا إذا صدر عن الكاتب ، فإن اهتم بالمجتمع طاعةً للمجتمع فليس بكاتب . ويرى أن الصراحة الأدبية لا تكون وحيًا إلا إن صدرت عنه بحرارة وإيمان ، فهو يحارب حين يشاء ، ويسالِم حين يريد ومن حقه أن يتحدث عن الشعر والحب ، لأن ذلك يصور إحساسه بالوجود .. ويختم زكي مبارك كلامه بأن الأدب أنواع : أدبٌ محليّ يصوِّر البيئة ، وأدبٌ وقتيٌّ... يصور العصر ، وأدبٌ خالد لجميع الأزمان .

أما الأستاذ أحمد أمين ، فيصرِّح بأن الرأي الذي يقول بأن يكون الأدب للأدب هو رأيٌ سخيف ، وهو لهذا يشغل نفسه بالكلام عن الفقر والمرض والجهل .

تلك هي الآراء الثلاثة ، كما نقلتّها عن أصحابها مجلة العزيمة في العدد ٧٩ .

فما محصول هذه الآراء ؟ وكيف اختلف أو ائتلف هؤلاء الكاتبون ؟

يرى الأستاذ عباس العقاد أن يكون الأدب للأدب ، ويرى الأستاذ أحمد أمين أن القول بأن يكون الأدب للأدب هو رأيٌ سخيف . (ومن الواضح أن الأستاذ أحمد أمين لا يوجه الكلام إلى الأستاذ عباس العقاد ، لأنه أجاب إجابة موضوعية بدون أن يخطر في باله أنه يعارض هذا الكاتب أو ذاك) .

ويرى زكي مبارك أن غاية الأدب هي الصدق ، لو سار الكاتب وحده في جانب ، وسار المجتمع كله في جانب ، فهو يحاسب أمام ضميره لا أمام المجتمع، وهو أعزَّ من أن يكون صدّى لأي صوت ، لأنه يرى أن صوته هو صوت الوطن ، وأن الوطن حين ينطق يصوتِ غير صوته لا يكون إلا حاكيًا لأقوال محرومة من روح اليقين .

أما بعد ، فهذه مشكلة من أصعب المشكلات ، وللأستاذ عباس العقاد أن

يوضح رأيه كما يشاء ، وللأستاذ أحمد أمين أن يُصرِّ على قوله كما يريد ، أما أنا فأسارع إلى تحديد غايتي الأدبية بلا تسويف ، ليعرف قومٌ كيف أعادِي وأُصادِق في الحدود التي ترسمها «رسالة القلم البليغ» .

وإنما يهمني أن أسارع إلى تحديد غايتي الأدبية ، لأني أحب أن يعرف قرائي وجه الرأي فيما أذهب إليه من الدعوة إلى حرية القلم بلا قيد ولا شرط إلا أن يدعو العقل إلى التلطف والترفق فلا نواجه الناس بما لم يألفوه في بعض الميادين العقلية والروحية والذوقية والاجتماعية .

وما يجوز لك أيها – الكاتب – أن تجادل قومك إلا حين تؤمن في سريرة نفسك بأنك رجلٌ له وجودٌ خاصّ ، وبأن عندك معانيَ لا تجدها عند أحد من أهل زمانك ، وحينئذ تصارح مواطنيك بما يجيش في صدرك ، على أن تكون أنت أنت في كفرك وإيمانك ، وضلالك وهُداك ، فلا تقول ما يحب الناس أن يقال ، ولا تكتم ما يكره الناس أن يباح .

وأعيذك أن تفهم أني أوصيك باللجاجة والعناد ، وأني أدعوك إلى مخالفة قومك في جميع ما يحبون وما يكرهون ...

فما إلى هذا قصدت . ولا يسرني أن تكون أداة انزعاج وانشقاق ، وإنما أوصيك بالصدق في جميع الأحوال ، فإن اتفق رأيك مع رأي قومك فسرّ معهم باطمئنان ، لأن التوافق الإجماعي له دلالة معنوية لا يستهين بها العقلاء ، وهو يزيدك قوة على قوة ، ويُمدَّك بالعصبية الفكرية ، وهي عصبية لا توجد أسبابها إلا في أندر الأحايين ، وتَلاقِي المفكر الصادق مع قومه فرصةٌ من فرص التوفيق .. وبالله نستعيذ من الخذلان !

وإن رأيت أن الحق في جانبك أنت ، وأنت قومك مخطئون ، فتذَّكر أنك لهذا المقام خُلِقت ، وأن الجُبن هو الآفة التي لا يسلم من شرها غير الموهوبين ، وأن الشجاعة هي أعظم مناقب الأحرار من الكتَّاب .

وهنا دقيقة قد تخفى عليك وعلى مَن قلَّ حظهم من التجاريب ، وهي الوهم الذي يقول بوجوب النضال في جميع ضروب الخلاف . فاحترس من هذا الوهم كل الاحتراس ، واعلم بأنه لا يجوز لك أن تجاهر بمخالفة قومك إلا في الشؤون التي يكون فيها سكوتك إثمًا تحاسب عليه أمام الذي جعل سواد المداد أشدَّ إشراقًا من بياض الصباح .

إن قومك يختلفون في كل يوم – والاختلاف من أظهر الخصائص الإنسانية – فلا تناضلهم في كل خلاف ، والتزم الحياد في أكثر أوقاتك ، إلى أن تحين الفرصة التي توجب الجهر بكلمة الحق ، ولو تعرَّضت لأفظع المكاره والخطوب .

واعلم أنك سَتُبْتلَى بأقوام يرون غير ما تراه في أكثر الشؤون ، وقد يدعونك إلى الترحيب بأن تكون أسير زمنك وأجير وطنك ، بحيث لا تنطق بغير ما يستسيغ زمانك وبلادك .

وهنا يكون الخوف عليك ، وقد تهوَى إلى أحط دركات الإسفاف ، فما ذلك شاعر ولا كاتب ولا خطيب إلا بسبب الخضوع لما قد يريد أبناء الوطن وأبناء الزمان ، بلا تدبُّر ولا إدراك . وكيف تطيع أولئك في كل وقت وهم في بعض أحوالهم فقراء من الوجهة العقلية والروحية ، ولا يساير هواهم غير الضعفاء ؟

وما الغاية من وجودك إذا كنت صورة مكررة من وطنك وزمنك ؟

وبأي حق تحمل القلم إذا خضعت لما يملي عليك العوام وأشباه الخواص ؟

وهل قلت الآراء المنخوبة حتى يضاف إليها رأي من صنفها المنخوب ؟

وما قيمتك وأنت تغنى صوتًا ليس من تأليفك ولا تلحينك ؟

وما قوتك وقد صرت حاكيًّا لأقوال لم تصدر عن وحي ضميرك ؟ وما انتفاع الأمة بك وأنت صوت يسكبه العهد القديم في أذن العهد الحديث ؟

يجب حتمًا أن تكون لك ذاتية جديدة ؟ذاتية متفردة يجهلها الزمن الماضي ،

ويهابها الزمن الحاضر . يجب حتمًا أن يستقل وجودك في كل يوم عن حاضرك وماضيك ، فتطلُع مع الشمس بنور جديد ، وتواجه الليل بتأملات لم يشاهد مثلها مع قوم سواك . يجب حتمًا أن تنظر في آرائك كما تنظر في أثوابك ، فالآراء تَبلى كما تَبَلى الأثواب ؛ والذي يعيش على رأي واحد قد يكون أجهل من الذي يعيش بثوب واحد ، فاحذر من العيش وأنت بالي الآراء ، كما يحذر من يلقى الناس وهو بالي الثياب .

وقد يعيِّرك الغافلون بالتنقل من رأي إلى رأي ، مع أنهم لا يعيرُّون من يلبس ثوبًا بعد ثوب ، وإنما كان ذلك لأنهم يجهلون أن الآراء من صور الحيوية ، ولأنهم يتوهمون أن الثبات على الرأي الواحد من شواهد اليقين . ولو عقلوا لأدركوا أن العين التي تنظر بأسلوب واحد هي عينٌ بليدة لا تدرك الفروق بين دقائق المرئيات ، وكذلك يكون العقل البليد وهو الذي يدرك الفروق بين المعنويات والمعقولات ، ولها وجوه تعد بالألوف وألوف الألوف .

فهل تعقل هذا الكلام ، وأنت تحاول الاضطلاع بحمل رسالة القلم البليغ ؟

وهنا أيضًا مجال للخوف عليك ، فقد يقع في وهمك أن المفكر الحق هو الذي يسرع في التنقل من رأي إلى رأي . هيهات ثم هيهات ! فالرجل لا يغيِّر رأيه إلا بقدر ما يتحول الجبل من وضع إلى وضع . وما كان ذلك إلا لأن الأصل في الرأي أن يكون عقيدة فكرية أو روحية ، والعقائد لا تغيِّر بالسهولة التي تغير بها الثياب . وإذن يجب أن لا تتحول من رأي إلى رأي إلا وقد تحولت من حياة إلى حياة ؛ وهذا قد يقع من لحظة إلى لحظة ، وقد لا يقع إلا بعد أعوام طوال وفقًا لاستعدادك في تلقى وحي الوجود .

والمهم أن تكون أنت أنت في تحولك وقرارك ، فلا تكون أداة للتعبير عن أوهام زمانك وبلادك ، ولا تكون ظلاً لعظيم من العظماء ، أو حزب من الأحزاب ، إلا إن بدا لك أن تصير من طلاب المغانم ، وهو مصير لا يعاب ، وإن كان يزحزحك عن فردوس البيان ، فما قال قوم بأن الأدب للأدب ، أو الفن للفن Lart

pour Iart إلا وهم يرجون أن تكون لنا دولة لا يتطاول إليها أصحاب المناصب والألقاب .

فما أنت أيها الكاتب وماذا تريد ؟

لن يصح انتسابك إلينا إلا يوم تؤمن بأن للقلم رسالة يطيب في سبيلها الاستشهاد . ونحن قد رحبنا بجميع الآلام في سبيل القلم البليغ . ولو رأيت كيف تقدَّم تلاميذنا وتخلفنا في الميادين الرسمية لعرفت أننا دفعنا ثمن الاعتزاز بدولة البيان .

قد ينُوشك أقوام لا يعرفون كيف توَّحدتَ توُّحد الليث ؛ وقد يسخر منك أقوام يرون الزهد في التودد إلى المقامات العالية ضربًا من الجمود ؛ وقد يوافيك أجلك وليس في جيبك ما يشيعك به أهلك إلى مثواك الأخير ، فما رأيك فيمن يدعوك إلى الاعتصام بالوحدانية الأدبية لتلقى الله وأنت رجل لم يعرف الخضوع لصاحب العزة والجبروت إلا تأدبًا من ذاته العالية ؟

هل تعرف لأي سبب لا ينبغ من أرباب القلم غير آحاد ، ولو كانوا في أمة تبلغ المئات من الملايين ؟

إنما كان ذلك لأن رسالة القلم تشبه الأمانة التي تهيبت حملها السماوات والجبال وهل تعرف لأيّ سبب فَتَر شوق المصريين والشرقيين إلى مسايرة الأقلام العربية ، على نحو ما كانوا قبل أعوام قصار أو طوال ؟

إنما كان ذلك لأن المفكرين صاروا أصحاب منافع ومطامع، فهم يتوددون إلى طبقات المجتمع ليحكموها باسم الغيرة المصطنعة على آمالها الضوائع . ومن هنا قلَّ في هذا العصر من يخاطر بمواجهة تلك الطبقات بالرأي الحق ، لأن ذلك يُقصيه عما يتسامى إليه من المناصب ، ويصوره بصورة من يعادي المجتمع ، المجتمع الذي أسرف في تدليله من زيِّنت لهم الدنيا أن يتسلحوا بسلاح الرياء الاجتماعي ، وهم قومٌ لا تصح نسبتهم إلى المصلحين إلا مع التسامح البغيض .

أين في زمانك من خاطر بمركزه في المجتمع ، كما خاطَر قاسم أمين ؟

وأين في بلدك من رَّحب بتهمة الكفر في سبيل الإصلاح الـديني ، كمـا خـاطر محمد عبده وعبد العزيز جاويش ؟

وأين جهود الكتاب المفكرين في هذا الزمان ؟

لقد أصبح من الآفات المألوفة أن يتحكم الجمهور في الكاتب كما يتحكم في المغنَّى . ومن العَجَب أن يتحرر المغني ولا يتحرر الكاتب . فـالمغني يضـع أمـام جمهوره لوحة كتب عليها «ممنوع طلب الأدوار» أما الكاتب فقد عجز عـن القـول بأنه صاحب الحق المطلق فيما يعالج من الشؤون .

يجب أن يخرج الكاتب الأجير من الميدان ، الكاتب الذي يرضى بأن يكـون أجير الوطن أو أجير المجتمع ؛ فما يكون الرجل كاتبًا إلا إذا شعر بأنه مؤيَّـد بقـوة روحانية تعصمه من أحلاف الزور والبهتان ، وذلك هو الكاتب المنشود ؛ الكاتب الذي يرغم الدهر على الاعتراف بأنه طاف على أهل زمانه بكـأس لم يـذوقوها مـن قبل ، ولم يعرفوا في أي كرمة نَبَغ رحيقها النفيس !!

فمن هؤلاء الـذين يحملـون الأقـلام وليسـوا لحملهـا بأهـل ، لأنهـم عبيـد تلاميذهم من القراء ، ولأنهم يتوهمون أن القلم وسيلة من وسائل النفع الرخيص ؟ من هؤلاء ؟ مَن هؤلاء ؟!

لن تكون كاتبًا إلا يوم يسـتطيع قلمُـك أن يصـنع بقارئـك مـا يصـنع الـدواء بالمريض ، والدواء قد يزلزل الجسد فيمثِّل له شبح الموت ، ثـم تكـون العافيـة ، وكذلك يصنع القلم الصادق ، فهو يزلزل الفكر والعقل والروح ، ثم تكون العافية الفكرية والعقلية والروحية لمن يصـلحون للبقـاء ، ولا بقـاء لغيـر مـن يسـتمعون صوت الصراحة والصدق والإخلاص .

دنيا هذا العصر هي التي أضاعت الكاتب الصادق ؟!

وقد دار رأسي منذ سنين حين سألت أحد كتَّاب باريس عن الهوَّة التي تفصل

بين كتّاب فرنسا المحدثين وكتّابها القدماء من الوجهة الروحية فأجاب وهو محزون : L,honnetete n ,est plus la mode

وما أشد جزعي لما صرنا إليه ! فالشرف لا يُعْوزنا ، ولكن الشجاعة هي التي تعوزنا ، فنحن بالفطرة شرفاء ، وإنما نحتاج إلى قوة من الحزم والشراسة والإباء . وأقول بصراحة إن الأدب في مصر على شفا الهاوية ، لأن الأدباء يستوحون قراءهم، وتلك علامة الغثاثة والهزال ، ومثَلهم في ذلك مثل الطبيب الذي يستشير المريض في وصف الدواء !!

قد تُقبل هذه الحال من الكتَّاب الذين يشتغلون بتسلية الجماهير ليأخذوا أموالهم كما يأخذها «الحاوي» في ساحات «الموالد» .

فما عذر الكتاب الذين أعدتهم مواهبهم ليكونوا هداة صادقين ؟

«الرأي القائل بأن يكون الأدب للأدب هو رأي سخيف» كذلك قال الأستاذ أحمد أمين ، حفظه الله ! ومعنى كلامه أن يصبح الأدب في خدمة المجتمع ؛ وهو كلام معقول ، ولكني كنت أنتظر أن تكون للأدب قوة السيطرة على المجتمع ، لا حُسن الطاعة في خدمة المجتمع ، فالمجتمع مريض ونحن الأطباء ، ولو كره الخوارج على سلطان القلم البليغ .

يستطيع الأستاذ أحمد أمين أن يستوحي قراءة سبعين سنة أو ثمانين أو تسعين، ثم يلقاني بعد ذلك ، إن عشت وعاش ، فلن يكون محصوله الفكريَّ والأدبيَّ غير أوشاب جمعها من أوهام القراء .

أيكون الأستاذ أحمد أمين فهم أن «الأدب للأدب » معناه أن يكون جهد الأديب مقصورًا على وصف الأزهار والرياحين ، والأقمار والشموس ؟

إن كان ذلك ما فَهم فأين صرخة العقل المقدود من ضمير الوجود ؟

وأين الأقباس الروحية التي نستعين بها على كشف المجاهيل من سرائر

القلوب والعقول ؟

الكاتب يُعنى بجميع الشؤون ، فيتحدث عن الغنى والفقر والصحة والمرض والعلم والجهل ، على أن يكون انفعل بهذه المعاني ، بحيث تصير من الغايات التي تشغل روحه الموهوب ، وبحيث يكون الاهتمام بـالمجتمع غرضًـا مـن أغراضـه الصحاح .

أما القول بأن يكون قلم الكاتب أجيرًا للمطالب والوطنية والاجتماعيـة فهـو قولٌ مردود ، ونحن أول من يرفع راية العصيان ، فلن نخـدم الـوطن إلا طـائعين ، ولن نعترف للوطن بأي حق إلا إذا اعترف بأننا أصدق أبنائه الأوفياء .

وماذا بقى لمصر الفرعونية والإسلامية بعد المسطور من آثار القلم البليغ ؟

وبأي حق صار لمصر سلطانٌ أدبيٌّ في الشرق لهذا العهد ؟

تلك جهود أقلامنا وأقلام أسلافنا ، فمن خضع لصوت الحق واعترف بأن ما بذلناه لخدمة مصر والشرق كان عمـلاً تُنصـب لـه المـوازين فهـو رجـلٌ صـادق الإيمان ، ومن جهل حقنا فهو صائرٌ لا محالة إلى القرار في هُوَّة العقوق .

الأدب للأدب ، كما يقول العقاد .

والفن للفن ، كما قال بعض أقطاب الفرنسيس .

والأدب هو الصدق ، كما قال الرجل الذي تعرفونه .

فمتى تعترف الدولة الرسمية بالدولة الأدبية ؟

البقاء للحق . البقاء لبياض القرطاس وسواد المـداد ، ولـن يـتخلى الله عمـن يرى الصدق في الحب والبغض هو الغاية من شرف الوجود .

هذه داري وهذا وطني
ولكن أين أحبابي ؟



هذه داري ، الدار التي أقمتها على أطراف الصحراء بمصر الجديدة لأفتح أمام قلبي آفاق المجهول من عوالم المعاني .

وهذا وطني ، الوطن الذي عانيت من أجله ما عانيت ولم أخنه في سر ولا جهر ولم يرمني غير الصدق والوفاء ..

هذه داري وهذا وطني ولكن أين أحبابي ؟

من كان يظن أني أقضى الأيام والأسابيع ، فلا أجد من يسأل عني بعد غياب الشهور الطوال ؟ من كان يظن أني لا أجد أنيسًا غير بريد بغداد على بعد ما بيني وبين بغداد ؟

من كان يظن أني أحبس نفسي في داري ليالي وأيامًا فلا يسهد لعزلتي جفن ولا يحزن قلب ولا يرتاع وجدان ؟

من كان يظن أني لم أتلق من الإسكندرية غير خطاب واحد ، ولم أتلق من دمياط غير خطاب واحد ، ولم أتلق من سنتريس غير خطابين اثنين ، وسكت من أهواهم في المنصورة وأسيوط ؟

من كان يظن أني لم أعبر شارع فؤاد غير مرة واحدة منذ رجعت من بغداد ؟

وما فائدتي من عبور ذلك الشارع المتموج ؟

كان لي في القاهرة هوى معبود فتبدد وضاع ، كانت ليلاي في الزمالـك ، فـأين ليلاي وأين الزمالك ؟

أنا أطفئ المصباح في منتصف الليل ، وافـتح النوافـذ لأري كيـف يهـيم نـور القمر فوق رمال الصحراء ، فماذا تصنع ليلاي بالزمالك أو ليلاي بالعراق ؟

***

أيتها الصحراء

إن حالك مثل حالي موات في موات ..

وقد تمر فوق ثراك الميت هوام وحشرات .

وفوق ثرى قلبي الميت تمرح هـوام وحشـرات هـي السـخرية مـن النـاس ، واليأس من صلاح القلوب ، وجمال الوجود .

وقد ترق حواشيك بالندى أو الغيث فتنبت فوق ثراك الأعشاب !

أما قلبي فقد اضمحل إلى الأبد ولن ينبت فيه شيء .

وأشقى الناس من يعيش بقلب أجدب من الصحراء .

***

أيها الليل !

هل رأيت في دنياك من ينافسك في ظلامك غير قلبي ؟

هل عرفت منذ أجيال وأجيال شقاء مثل شقائي ؟

أيها الليل !

خذ السواد من قلبي ، إن أعوزك السواد .

خذ من قلبي ومن حظي ذخيرتك للأحقاب المقبلات .

خذ مني ما تشاء ، أيها الليل ، فلن تجد مشتهاك عند إنسان سواي .

خذ مني ما تشاء بلا من عليك : فما أخذت السواد إلا منك ولا ورثت الظلام إلا عنك ومثلي يحفظ الجميل .

***

أيها الليل !

لا تجزع من العزلة ، فأنا أسامرك وأناجيك .

لا تفزع من الوحدة ففي قلبي ظلمات تساير ما تحمل من ظلمات .

عندي آلامي ، وعندك آلامك . والجريح يأنس بالجريح ، يا ليل !

أنا أعرف من أنا في دنياي ، فمن أنت في دنياك ، يا ليل ؟

أنت جزء من الزمان هجرته الشمس فأظلمت دنياه .

إن شمسي تغرب في الزمالك أو في بغداد ، فأين تغرب شمسك ؟

إن شمسك تغرب ثم تعجز عن الصبر على فراقك فترجع إليك .

وشمسي تغرب فلا ترجع .

فليت حظي كان مثل حظك ، يا ليل !

والمقادير ترفق بك فتسوق القمر والنجوم لإيناسك .

وأنا أعاني الظلام المطلق حين تغيب الشمس التي تعرف .

فليت حظي كان مثل حظك يا ليل !

وأنت باقٍ على الزمان ، وأنا صائر إلى الفناء .

فليت حظي مثل حظك يا ليل !

والناس يخافون بأسك فيتقربون إليك بالقناديل والمصابيح .

وأنا مأمون الجانب فلا يتقرب أحد إليّ بشيء .

فليت حظي كان مثل حظك يا ليل !

من اسمك يا ليل جاء اسم ليلي ، ففيها طغيانك وفيها ظلامك ، فلا عفا الحب عنها ولا عفا الله عنك !

***

هذه داري ، وهذا وطني ، ولكن أين أحبابي ؟

إن قلبي يستحق التأديب ، فليتلق من الضيم ما هو له أهل :

ألم يتلق رسائل الشوق من بغداد ، فسكت عنها سكوت الغادرين ؟

ألم يتلق رسائل الشوق من باريس فسكت عنها سكوت الجاحدين ؟

ألم تنتقل إليه الغادة النور مندية فاستعفى من صحبتها بالقاهرة . محافظة على سمعته بين الناس ؟

إن قلبي يستحق التأديب فليتلق من الضيم ما هو له أهل .

أيها الليل !

قد اقترب صباحك، فمتى يقترب صباحي ؟

لك خلاص من ظلماتك ، فأين الخلاص من ظلماتي ؟

ستمضي لشأنك وتتركني، يا ليل !

إن الظلمات تقتل شبابي ، وتحيي شبابك .

إن الظلمات تصيرك أقوى وأعنف ، وتصيرني أرق وألطف ، والرقة واللطف من بواكير الفناء.

أيها الليل !

لقد عرفت قسوتك في بلاد كثيرة من الشرق والغرب، وما كنت أعرف أنك أقسى ما تكون في داري وفي وطني .

أما بعد ، فأنا أعترف بأن قلبي يستحق التأديب .

كنت أصم أذني عمن يسألون عني في باريس وفي بغداد ، لأفرغ لما سموه الواجب ، فليتني أجبت الدعوة في باريس وفي بغداد لآخذ ذخيرتي من الحب والعطف !

ليتني صنعت وصنعت ، ولكن هيهات ، فقد فات ما فات !

أيها الليل في مصر الجديدة !

أنا على كل حال رفيقك وأخوك .

وستمضي الأعوام والدهور ، ولا تعرف أصدق مني .

***

سيذكرني الناسون حين تروعهم ... صنائع من ذكرى هوى وشهود

فوالله ما أسلمت عهدي لغدرة ... ولا شاب نفسي في الغرام جحود

ولا شهد الناسون مني جناية ... على الحب إلا أن يقال شهيد

***

إلى متى الصوم يا قلبي ... !

قلبي !

كيف أصبحت ؟ وكيف أمسيت ؟ فما عدت أسمع خفوقك في صباح ولا مساء !

صام الناس منذ أيام ، فتذكرت صيامك .

إنهم يصومون من الفجر إلى الغروب ثم يفطرون ، وأنت يا قلبي تصوم ليلك ونهارك ، وأخشى أن تصوم دهرك .

وسينقضي صيام الناس بعد أسابيع حين يجئ العيد ، وتبقى وحدك بلا عيد .

أتسمع يا قلبي ؟

لقد كان شهر الصوم فرصة لمن تعودوا في مثل هذا الموسم أن يقيموا مناحة على الآداب ، وملطمة على الأخلاق .

وصومك يا قلبي هو الجدير بأن أذرف عليه غاليات الدموع .

ولو كان لصومك نهاية لتعزيت وتأسيت ولكنني أعرف أن بلاءك بالصوم سيطول ، ويؤذيني أن أعرف بأني لا أملك رجعك إلى ملاعب هواك .

وكيف أملك ذلك وقد شاركتك في صيامك ؟

أما رأيت يا قلبي كيف تمضي الليالي والأيام وأنا مبلبل الخواطر لا أعرف غير بياض القرطاس وسواد المداد ؟

قلبي !

إن بعض الناس ينافقون فيفطرون في السر ويصومون في العلانية ، وقد استوى سرك وجهرك فألفت الحرمان من أطايب الحسن وغرائب الجمال .

كنت أنتظر أن أصير شاعرًا على حسابك ، فأين أنت يا قلبي ؟

كنت أطير إلى دنيا المجد والحب بجناحك ، فماذا صنع الدهر بجناحك ؟

كانت القاهرة لا تسعني في ليالي رمضان ، وكنت أملأ المحافل والأندية بالجدل والضجيج ، وأنا اليوم لا أعرف غير القرار في بيتي لأداوي جراحك يا أشرف جريح ، فمتى يعود إليك نشاطك لأصاول بك الدنيا والناس ؟

يعز عليّ يا قلبي أن أصبح بالرغم مني حكيمًا من الحكماء .

اعترف أيها القلب الصائم بأنك بالرغم مني أصبحت حكيمًا من الحكماء .

اعترف ، أيها القلب الصائم ، بأنك تخذل نصيرك وأخاك .

اعترف أيها القلب الصائم بديوني عليك .

ألم أخرج على تقاليد المجتمع مليون مرة ومرة من أجلك ؟

ألم أضيع ألوف المنافع في سبيلك ؟

فما الذي يضيرك يا قلبي لو تركت صومك يومًا أو بعض يوم لأواجه بك الحياة لحظة أو لحظتين ؟

لقد شمت الشامتون بالشاعر الذي يعيش في مصر الجديدة ولا يرى مصر الجديدة ، ويخترق شوارع القاهرة ولا يحس جمال القاهرة ويدخل عليه رمضان فلا يحتاج لزيارة صديق أو استقبال حبيب .

كنت أرى الدنيا بك يا قلبي، فأين أنت يا قلبي ؟

أين أنت؟ حدثني أين أنت؟ فقد ذهب صيامك بهيامي، وقضى على عنفواني .

قلبي !

لقد تحطمت معاول الأعداء وعجزوا عن هدم بنياني ، فكيف تهدمني أنت ؟

أحب أن أعرف كيف شاءت المقادير أن لا أرى المتاعب والمضجرات إلا على يدي من أحب ؟

لقد بدأت أبغضك يا قلبي ، ولكن يعز عليّ أن تعيش بلا صديق ، فإن بقيت بجانبك أعطف عليك وأواسيك فاعرف أن ذلك بقية من كرم الوفاء .

قلبي !

إلى متى الصوم يا قلبي ؟

إن الناس يصومون ليلقوا من الله حسن الجزاء ، وصيامك يا قلبي من أشنع الذنوب ، فاعترف بذنبك يا غافل ، وأجرح صيامك بنظرة أو نظرتين قبل أن تطويك الأيام فلا ينصب لخفوقك ميزان .

وموعدنا إن شئت طغيان الفتون حيث تعرف وأعرف.. هل فهمت ؟

أما أنا فسأسوقك إلى حيث أريد ، وإن أبيت وتمردت ، وإلى اللقاء في مساء الخميس .

***

وبعد يومين من ظهور هذا المقال مررت على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف فنبهني الأستاذ محمد بيلي الفار إلى أن سعادة العشماوي بك سأل عني ، فطربت بحيث أستطيع الإنفاق بسخاء على مرضاي من الملاح .

وما كدت أدخل على سعادة العشماوي بك حتى نهض واقفًا فكيف خرج هذا الرجل على «التباله» الذي عرف به حين يستقبل الزائرين ؟

كيف يقف هذا الرجل لاستقبالي وبيني وبين مكتبه خطوات طوال ؟

دكتور !

مولاي !

لقد أعجبتني مقالتك في جريدة المصري .

أو قرأتها ؟

أنا أقرأ كل ما تكتب : لأنك من ذخائرنا الأدبية .

ومن أجل هذه المقالة تسأل عني ؟

أنا أسأل عن صحتك الغالية .

أجزل الله ثوابك، يا سعادة الوكيل !

– اسمع يا دكتور نحن في السنة الماضية حشدنا إلى بغداد مؤتمرًا طبيًا عربيًا لمداواة ليلي المريضة في العراق ، فما رأيك إذا عقدنا المؤتمر الطبي العربي في هذه السنة بالقاهرة لمداواة طبيب ليلي .

دوائي عند ليلاي ، يا سعادة الوكيل ، لا عند الأطباء .

إنك رفضت السفر إلى العراق وفيه شفاؤك .

أنا رفضت السفر إلى العراق لأني :

أخاف العيون السود فليرحم الهوى .

فجيعة أهلي يوم أقضي وأبنائي

نعدل الغرض بعض التعديل

وكيف ؟

ندعو المؤتمر الطبي للانعقاد بالقاهرة لمواساة طبيب ليلي .

لا بأس .

وما هي إلا لحظة حتى كان السيد على مراد ينسخ خطاب العشماوي بك إلى الدكتور على باشا إبراهيم يوصيه بعقد المؤتمر الطبي الحادي عشر بالقاهرة لمواساة طبيب ليلي ، هداه الله وشفى ليلاه !

***

أمن أجل مواساتي ينعقد المؤتمر الطبي في القاهرة ؟

هو ذلك أو هذا هو ، كما يعبر أهل بغداد .

بفضلك يا ليلى صرت شخصية عالمية .

بفضلك يا ليلى رفعني الحب درجات .

بفضلك يا ليلى صرت في وطني من الأطفال المدللين .

أحبك يا ليلى ، فاذكريني بالشعر والدمع يوم أموت .

***

سينعقد المؤتمر الطبي في القاهرة لمواساتي .

الله أكبر ، ولله الحمد !

وماذا يصنع الحاسدون والحاقدون والأعداء ؟

أنا أعرف العواقب ستغلف مؤلفاتي من جلودهم وجلود أبنائهم وأحفادهم وأسباطهم بعد حين ، وسوف يعلمون .

الفناء لأعداء الآداب والفنون .

أما طبيب ليلى فله الخلود .

أرباه أنقذني فأنت رميتني .

بقلب على عهد الأحباء بكاء .

أرباه لا تفعل فإني أرى الهوى .

على وقده بالقلب أنفاس روحاء .

تباركت ما الجنات من دون لوعة .

سوى بقعة في غابة الموت جرداء .

***

تداويت من ليلى بليلى من الهوى .

كما يتداوى شارب الخمر بالخمر .

وكذلك أداوى حبًا بحب ، وغرامًا بغـرام : كمـا كـان يصـنع زمـيلي قـيس في الأيام الخوالي .

إن ليلاي بالعراق مغفورة الذنوب : لأنها أوحت إلى قلمي فنونًا من الغرائب ، وقد رقمت اسمي بأحرف من نور فوق جبين الزمان .

فما حجة ليلاي بالزمالك في تجنيها الأثيم ؟

فما حجة هذه اللئيمة في سفك دمي ، وقد أذعت محاسنها عند صـبايا دجلـة والفرات ؟

كنت أتشهي أن أرى النور المتوهج في جبينها المشرق .

كنت أتشهي أن ألهو بها في ليلة قمراء بطريق السويس .

كنت أتشهي أن أقضي معها سهرة في زورق يترنح فوق أمواج النيل .

كنت أتشهي أن أخاصرها في بساتين الجيزة الفيحاء .

كنت أتشهي أن نهيم على وجوهنا في حي القصر العالي الذي يسـميه الجهـلاء (جاردن سيتي) .

كنت أشتهي أن أرى معها البيت الذي كنا اصطفيناه بحدائق القبة .

كنت أتشهي أن أهصر فوديها بحي الزيتون .

كنت أتشهي أن نغرق معًا في النيل عند القناطر الخيرية .

كنت أتشهى أن أرى وجه الله في وجهها الجميل .

ولكن من الذي يدرك كل ما يتمناه ؟

أنا أعيش بروح سماوية وهي تعيش بروح أرضية، مع أنها حورية نزلـت إلينـا من الفردوس .

إن ليلاي بالزمالك لا تعقل ، لأنها حسناء ، والحسن يغري بالجنون .

سأحاربها بقلمي ، كما حاربت انجلترا بقلمي .

وأنا رجل يحارب الظلم في جميع الأشكال .

وكذلك أنشر الرسائل لأفضح ليلى المريضة بالزمالك ، ولأجعلها عبرة لغادات المعادي وحلوان .

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.



بين أدم وحواء

- -

كتاب مجهول للدكتور زكي مبارك

في يناير ١٩٤٢ بدأ د.زكي مبارك ينشر سلسة مقالات في مجلة الرسالة تحت عنوان «بين آدم وحواء» وذكر أنه لمؤرخ مجهول يدعى «شيث بن عربانوسي» وأنه في الأصل مخطوطة مكتوبة بالخط الكوفي وأن شيخ العروبة أحمد زكي باشا (١٨٦٧-١٩٣٤) قد أهدى إليه النسخة الوحيدة المخطوطة من هذا الكتاب قبل رحيله .

لكن الحقيقة بعد القراءة المتأنية المتعمقة لفصول هذا الكتاب الذي نشر على حلقات بمجلة الرسالة وباعتباري متخصصا في أدب زكي مبارك وملما بتفصيلات سيرته الحياتية وسيرته الأدبية والعلمية تأكد لي أن هذا الكتاب ما هو إلا أحد إبداعات زكي مبارك القصصية التي حاول من خلالها التصريح بكل مكنونات وجدانه وفكره بعد أن حوصر في تلك الحقبة بهجمات بعض المتشددين الغلاة الذين هاجموا حديثه عن الحب والجمال ومفاهيمه الفكرية الأدبية الجريئة والتي أدعوا أنها تخالف أصول الدين .

وما كان من زكي مبارك إلا أن اختلق حكاية « شيث بن عربانوس » ذلك المؤرخ المجهول ليروي لنا بأسلوبه البليغ قصة آدم وحواء وما اصطرع في نفسيهما ووجدانهما من مصاولات فكرية وأدبية وفلسفية هي في الحقيقة نتاج فكر زكي مبارك الأدبي والفلسفي والوجداني .

وتعكس فصول هذا الكتاب الفريد ثقافة زكي مبارك العميقة وسعة ثقافته في مختلف فنون الآداب والعلوم والفلسفة في الأدبين العربي والأوروبي والتي تجلت في هذه الحوارات الشيقة بين آدم وحواء والتي جمعت بين الأدب والعلم والحكمة والدين والفلسفة وعلوم الأجناس والفلك ، وكلها تعطي صورة دقيقة لفكر زكي مبارك وثقافته الموسوعية العميقة .

أفنان الجمال



كان الدكتور زكي مبارك عاشقا واله القلب قوي العاطفة قضى حياته يتقلب على سعير الوجد ووهج العاطفة، وقد طاب له أن يفصح عن سرائر روحه وأسرار قلبه فملأ الدنيا غراما وتشبيبا !..

وقد جعل حديثه عن الحب شريعة من شرائع الوجود ، فعاش إلى آخر نسمة من حياته يتشوف إلى أفنان الجمال ويغرد للحب !..

وقد أطال شاعر الحسن والجمال حديثه عن بلائه في الحب ... وكيف لا يشقى بالحب من ظل يهتف للحب ويغرد للجمال طيلة حياته !..

كان صادقا في حبه غاية الصدق وقد رسم صورا عذبة صادقة لخفقات قلبه وترانيم وجدانه...

ولكن ما رأى زكي مبارك العاشق المفتون في «الحب» ؟

رسم صورة رائعة ساحرة للحب تفصح عن نفسية مشرقة مضيئة ، تفهم الحب فهما دقيقا ، وتصوره تصويرا قل أن يتاح إلا لمحب عركه الحب ، ولمس أعماقه وسبر أغواره ، ومس شغاف قلبه !..

وهذه هي فلسفة زكي مبارك في الحب كما صورها في هذه اللوحة الشاعرية الساحرة [1].

(١) الهلال : تجاربي في الحب : أول يناير ١٩٣٧ .

«الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس» .

«الحب لغة روحية يفهمها القلب عن القلب ، وتنقلها الروح إلى الروح ، وتسري نشوتها في الأفئدة ، سريان الصبا في الغصن » .

«الحب معنى نبيل ، في لفظ نبيل ، الحب قبس من الصهباء في كأس من الماس . الحب لمحة من لمحات السحر الذي يفيض به الوجود في ليلة قمراء» .

«الحب أرق وأنضر وأطيب من مطلول الأزهار ومنضور الرياحين » .

«الحب نغمة حلوة عذبة تناغي السرائر وتناجي القلوب» .

«الحب هو الكأس التي عناها سلطان العاشقين إذ يقول :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا

ونور ولا نار وروح ولا جسم

على عمره فليبك من ضاع عمره

وليس له فيها من نصيب ولا سهم

«الحب نعيم يلبس ثوب البؤس ، أو بؤس يلبس ثوب النعيم» .

«الحب عاطفة عاصفة ماحقة ما يدري الرجل أهي نعمة أم نقمة ، ولا يعلم أهي هدى أم ضلال ، وإنما يعرف أنها كلمة سحرية تزلزل العزائم وتدك الحبال» .

«الحب هو ائتلاف روحين وامتزاج قلبين ، وانسجام نفسين» .

«الحب هو أن تذوب القسوة في كوثر الحنان ، وأن تأنس الأسود إلى فتك الظباء» .

«الحب هو أن تصير قلبا شفافا تجرحه النظرة ، وتفتنه الخطرة ، ويأسره الضلال» .

«الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب» .

«الحب هو أن تخاطر بالملك في سبيل من تحب» .

ولا شك أن هذه الصورة الشاعرية الحارة لعاطفة الحب لا يستطيع أن يرسمها إلا رجل خبر الحب وتمرس به وكانت له فيه تجارب وقصص وصولات وجولات .

***

قضى الدكتور زكي مبارك عمره في التغريد فوق أفنان الجمال وكان أديبنا العاشق المفتون رومانسيا حالما يعبد الحسن ويقدس الجمال وكان في ذلك مثل بقية أبناء جيل الثلاثينات والأربعينات يتخذون الرومانسية Romanticism ملجأ وملاذا يهربون إليها من هجير الحياة ومن مرارة الواقع الذي كانوا يعيشون فيه في تلك الحقبة ويقاسون منه .

كان كشاعر رومانسي حالم يجعل من الوجد بالحسن مروجا يتفيأ ظلها حين يلفحه الهجير في بيداء الوجود وقد شغل خياله وأوهامه وراح يتعقب الهوى والجمال أينما كانا ويتمثل الحسن في كل روض وفي كل بقعة جميلة وفي كل نسمة رقيقة يقول :

«أنا اليوم أتمثل الحسن في كل مكان .. فما مشيت في الطريق إلا افترضت أن ثراه قد تعطر في صباحه أو مسائه ببعض الأقدام اللطاف ... وما رأيت نافذة ترفرف عليها ستارة ، إلا توهمت أن هناك مليحة تداعب جمالها في نجم .. أو طلع بدر إلا تذكرت أن هناك قلوبا تخفق طربا أو حزنا لمصابيح السماء .. ولا اهتز غصن إلا انتشيت لما يذكر به من رشيقات القدود .. ولا ترنم مزهر ولا عود ، إلا تشوفت روحي إلى ما توسوس به الأوتار من ذكريات الهوى والجمال» .

وقد كان لتجارب زكي مبارك وبلائه في الحب أثر كبير في تلوين أدبه بصور نفسية متعددة .. عرف اللذة والألم وعرف الهجر والوصال وعرف سهر الليالي ومناجاة الليل وعرف الأرق والسهاد .

وكان يرى انه موكل بتتبع الجمال في كل بقعة وكل روض رغم صدود الملاح :

حسبتم هذه الدنيا
تضيق برحبها عنا
فصرتم كلما جئنا
نفرتم جهرة منا
أسأتم إذ تبرمتم
بهذا العاشق المضني
ولو أنصفتم قلتم
أديب يعبد الحسنا

***

وقد اتخذ مذهبا واضحا صريحا في الأدب وأمعن فيه ، فوقف أدبه على فن الغزل والتشبيب والكتابة في الوجدانيات ، وقد كان يحلو له أن يطلق على نفسه «أمير العشاق» .

ومن آثاره الوجدانية التي استلهمها من تجاربه المتعددة في عالم الحسن ودنيا الجمال «مدامع العشاق» و «ليلى المريضة في العراق» و «العشاق الثلاثة» وديوان «ألحان الخلود» .

وهو لا يريد إلا الصدق في تصوير العواطف والأهواء ليكون في ذلك مادة تنفع في الدراسات الأدبية والنفسية ، ويشرح مذهبه في كتابة الوجدانيات ، فيقول :

«إن حديثي عن الحب صار مذهبا أدبيا ، أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء .. وأنا أريد أن أخلق جوا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان » .

«نحن لا نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود . وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ؟ وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية ؟» .

«الحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء ... وهو يساور قلوب الجنود ، في أصعب أوقات الحروب . والجندي الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبدا للاستشهاد في سبيل الوطن الغالي ، لأن الوطن لا يغلو إلا في صدور أرباب القلوب» .

«الحب جده جد وهزله جد ولا يتجاهل هذه العاطفة النبيلة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ في تكوين الوجود» .

«وبأي حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب؟»

«إن التوقر الذي يصطنعه بعض الناس ، قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد ، يوم كان لنا شعراء لا يعترفون بغير أوتار القلوب . فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية ، وأتعقب أخباره وآثاره في كل ما أرى وأسمع» .

إن قوة العاطفة عند شاعر الحسن والجمال هي التي أملت هذه الأحاديث الوجدانية الصادقة ومنحتها الجمال والأصالة والعذوبة بحيث يعد هذا الأدب من أعمق وأجمل ما كتب أديبنا العاشق حتى بعد أن جاوز طور الشباب . فقد ظل شاب القلب والروح حتى آخر نسمة في حياته .

وأنت جميل تحب الجمال

أطال زكي مبارك حديثه عن تجاربه الوجدانية وأفصح عن مشاعره وافتتانه بصور الحسن وبدائع الجمال . ولقد أفصح عن سرائره الوجدانية غاية الإفصاح وأصدقه وملأ الدنيا غراما وتشبيبًا .

ولم يكن له إلا مأرب واحد من الجمال هو درس الطبائع والغرائز والميول

ليخرج من ذلك بمحصول فلسفي ينفع في إذكاء الدراسات الأدبية والفلسفية فضلا عن أنه كان يريد تشريح عاطفة الحب تشريحا أدبيا وجدانيا وإمداد اللغة العربية بثروة نفيسة من المشاعر والعواطف الإنسانية الرفيعة وخلق البشاشة في نفوس الشباب وكان لمذهبه الأدبي الصريح الذي تحرر فيه من القيود والأغلال آثارا مريرة فهوجم بعنف واتهم بأشنع التهم وأقساها . لقد أراد أن يثبت كذب الادعاء بأن شعراء أوروبا هم الذين تفردوا وحدهم بإجادة القول في الوجدانيات فألف كتاب «مدامع العشاق» ليكون شاهدا على سبق العبقرية العربية إلى شرح مآسي الأرواح والقلوب . كما ساءه أن يقال أن الكاتب الفرنسي الوجداني «راسين» هو أعظم من شرح عاطفة الحب فألف كتاب «ليلى المريضة في العراق» ليقيم الدليل على أن في كتاب اللغة العربية من يتفوق أظهر التفوق على راسين .

وقد صار حديثه عن الحب مذهبا أدبيا يشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء وكان يقصد من وراء ذلك أيضا أن يخلق جوا من البشاشة يدفع به ظلمات الزمان .

وكانت له فلسفة طريفة في تغنيه بالجمال ، فقد كان يرى أنه موكل بتتبع الجمال وأن بينه وبين الله عهدا وميثاقا أن يقضي العمر ساجعا فوق أفنان الجمال وأن يظل سادنا في معبد الحسن والجمال .

وكان يرى –كفلسفة الكثير من أدباء الوجدان والعاطفة– أنه يتقرب إلى الله بعبادة صور الحسن وبدائع الجمال ، فكان يردد كثيرا قول الشاعر القديم المفتون:

خلقت الجمال لنا فتنة

وقلت لنا يا عباد اتقوه

وأنت جميل تحب الجمال

فكيف عبادك لا يعشقوه

وكان الكثير من الشعراء الرومانسيين يتخذون من هذه الفلسفة في عبادة الجمال مذهبا ومن هؤلاء شاعر ليالي الهرم ، صالح جودت :

سجدت لفتنتها واتخذت

شفيعي إلى الله تلك العيون

أنا صبوتي صلوات له

ولكن قومك لا يعلمون

ويقول الملاح التائه، علي محمود طه :

يارب صنعك كله فتن

أين الجمال وكيف مطرحي

إنى عبدتك في جنى شفة

ويد ووجه مشرق الوضح

وكتب زكي مبارك الكثير من القصائد والمقالات حول هذا المعنى ومن ذلك قوله :

الحسن صنع يديك   أبدعته أنت

به سموت إليك   فعرفت من أنت

***

ولكن إيغاله في الحديث عن الحب والجمال وتغنيه بهوى ليلاته يعرضه لأقاويل وأراجيف فيشعر بالحزن والمرارة فكتب يقول :

«لقد جعلت الحديث عن الحب شريعة من الشرائع .. هل أحسنت؟ هل أسأت ؟»

«لا أعرف بالضبط ... ولكن قلبي يحدثني بأنني كنت من المسرفين ، أتـوهم حينا أنني أخدم لغتي بهذه الأحاديث . وأعتقد أحيانـا أننـي أهـدم الأخـلاق بهـذه الأحاديث ... أحب أن أعرف نفسي ، فهل أستطيع أن أعرف نفسي ؟ هيهات!.. »

«لو كنت رجلا فاسقا لعرفت الحدود وانتهيت ... ولكنـي رجـل عفيـف ... وهنا تظهر دقة الإشكال ... ومن الذي يصدق أنني رجل عفيف وقد ملأت الـدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات»!..

وهنا يكمن سر مأسـاة زكـي مبـارك ... الخلـط بـين زكـي مبـارك الإنسـان المحافظ وزكي مبارك الكاتب المتحرر .

بين آدم وحواء

في يناير عام ١٩٤٢ بدأ الـدكتور زكـي مبـارك ينشـر سلسـلة مـن المقـالات المثيرة للجدل تحت عنوان «بين آدم وحـواء» وكمـا قـال »لـلأدب والتـاريخ» في مجلة «الرسالة» يعرض فيها كتابا لمؤرخ مجهول .

وذكر أن هـذا الكتـاب الغريـب «بـين آدم وحـواء» المـلىء بالصـور الشـيقة والطريفة والذي يفصل قصة آدم وحواء في الجنـة مـن تـأليف المـؤرخ المجهـول «شيث بن عربانوس» .

وذكر أن شيخ العروبة أحمد زكي باشا كان قد أهداه لـه عـام ١٩٣٣ ، بعـد أن دارت بينهما عدة مساجلات عنيفة انتهـت بالصـلح . وعنـدما زار الـدكتور زكـي مبارك شيخ العروبة بدار العروبة قال له أحمد زكي باشا مرحبا :

«الجائزة العظمى لمن كان في مثل أدبك أن تهدى إليك النسخة الوحيـدة مـن كتاب «شيث بن عربانوس» .

ثم يذكر زكي مبارك أن أحمد زكي باشا ابـتهج عنـدما رأى زكـي مبـارك يقـرأ الخط الكوفي بلا عناء ويضيف مبارك أنه يجيد قراءة الخط السنسكريتي أيضا . ثم يذكر مبارك أنه قد عزم على تلخيصه ولكن قبل أن يبـدأ في ذلـك يسـجل انـه غيـر

مطمئن إلى أنه ألف في العصر الذي تلا الطوفان ويضيف إلى ذلك أن المصادر التي تحت يده تتحدث عن شيث بن عربانوس ولم يسمع أن اسمه ورد في كتب المستشرقين ثم يتساءل زكي مبارك عن الكيفية التي حصل بها زكي باشا على هذا الكتاب الغريب ويقول أنه كان في النية أن يوجه له هذا السؤال لولا أن المنية عاجلت زكي باشا لتطول الحيرة في مصدر هذا السفر الغريب !..

***

ولكن ما حقيقة كتاب «بين آدم وحواء» ؟

وما حديث ذلك المؤرخ المجهول ؟!

إن هناك عوامل دعت زكي مبارك لرواية هذه القصة لكي يستطيع كتابة ما يجول بصدره متحررا من تربص أعدائه وخصومه ...

كان زكي مبارك في تلك الحقبة «في بداية الأربعينات» في ظروف نفسية سيئة فقد كانت له خصومات عنيفة وحادة مع رؤسائه في وزارة المعارف وكانت له معارك ومساجلات مع كل الأدباء والصحفيين ورجال السياسة تقريبا بسبب صراحته العارية عن النفاق وعرامته وحدته في النقد .

وكان يعاني من ظروف هجر وغدر من بعض ليلاته في مصر الجديدة ، والزمالك وحلوان .

وكان بعض خصومه من المتزمتين الذين يأكلون السحت باسم الدين والأخلاق يتحينون الفرص لطعنه والتشهير به ويحاولون أن يجدوا فيما يكتب سلاحا ليحطموه .. وكانت كل كلمة يكتبها بقصد شريف تؤول بطريقة تتسم بالتحامل والتعنت .

فكيف يخرج زكي مبارك من هذا المأزق ؟

هل يمضي في طريقة ليترك الفرصة لخصومه لكي يشهروا به ويحطموه ؟

وجد أن أسلم طريق هو اللجوء لأسلوب الفن الرمزي لتسجيل أفكاره وآرائه في مختلف شئون الحياة والفكر المجتمع . وكانت مشاعره بالنسبة للمرأة حادة وعنيفة وقاسية في تلك الحقبة فأراد تسجيلها بصراحة في تلك المقالات ...

إذن فزكي مبارك في روايته لقصة «أدم وحواء» على لسان ذلك المؤرخ المجهول شيث بن عربانوس أراد أن يكتب قصة آدم وحواء في الجنة متحررا من القيود والأغلال ليقدم صورا غريبة وفريدة في هذا الموضوع الشائك ولكنه خشى ملامة الفارغين من أهل الجمود وغضبة المتزمتين وأدعياء الأدب فذكر قصة خصومته وصلحه مع أحمد زكي باشا وقصة إهدائه ذلك السفر الغريب المكتوب بالخط الكوفي لينجو من أقلام خصومه الموتورين .

ومن الغريب أن هذه السلسة من المقالات أوقفت بأمر من وزارة المعارف وقتئذ .

وفي حقيقة الأمر أنه كتاب خيالي موهوم اختلق الدكتور زكي مبارك قصته واسم ذلك المؤرخ المجهول لعرض الآراء والأفكار التي يؤمن بها . ويقول الدكتور زكي مبارك عن هذا الكتاب :(1)

«إنه كتاب في أكثر من خمسمائة صفحة بالخط الكوفي وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدار العاديات» .

والحقيقة أن هذا الكتاب الغريب من إبداع الدكتور زكي مبارك وهو من آيات أدبه الرفيع الشيق !..

***

وقد عرض الدكتور زكي مبارك قصة آدم وحواء بطريقة قصصية مستخدما فن الحوار الذكي في عرض أفكاره ...

(١) الرسالة : للأدب والتاريخ : ٢٣ فبراير ١٩٤٢ .

ولكن ما هي المصادر التي اعتمد عليها في فكرة هذا الكتاب ؟!

أرى أن المصدر الأول لذلك هو القرآن الكريم ...

فإن كتاب الله المعجز قد عرض قصة آدم وحواء بصورة وافية في أكثر من آية كريمة وفصل نواحي عدة تعطينا صورة متكاملة عن قصة آدم وحواء في الجنة ثم الخطيئة وقصة الشجرة المحرمة والنزول إلى الأرض .

في سورة البقرة نجد هذه المعاني بهذا الأسلوب البياني المعجز الرائع ! يقول الله تعالى : [1]

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ولقد كانت قصة آدم وحواء مادة خصبة للأدباء والفنانين استلهموا منها الكثير من أعمالهم الفنية ...

وقد استوحى الملاح التائه علي محمود طه ملحمة جيدة بعنوان «الله والشاعر» يقول في بعض أبياتها : [2]

لا تعــدني يــارب في محنتــي

مــا أنــا إلا آدمــي شــقي

(١) القرآن الكريم : سورة البقرة .

(٢) علي محمود طه : الملاح التائه ط (١٩٣٤) ص٨٠ .

طردتنـــي بـــالأمس مـــن جنتـــي

فـــاغفر لهـــذا الغاضـــب المحنـــق

ثم يبرر لله عز وجل وعلا خطيئته فيقول :

ولم أكـــــن أول مغـــــرى بمـــــا

أغـــرت بـــه حـــواء أو آدمـــا

أرث تمشـــى في دمـــي منهمـــا

ميراثـــــه ينـــــتظم العالمـــــا

بعد تأثر الدكتور زكي مبارك في هـذا السـفر الطريـف عـن آدم وحـواء بـالقرآن الكريم أرى أنه تأثر برسالة أبي العلاء المعري «رسالة الغفران» بصورة أقـل ورسـالة ابن شهيد عن «التوابع والزوابع» فقد كان لهما بلا شك بعض التأثير على زكي مبـارك حين كتب هذا السفر النفيس خاصة أنه كان مستوعبا لتراثنا الأدبي كله لا سيما أنه قد حاز على درجة الدكتوراة عن رسالته «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» كما انه قـد قرأ للكاتب الأمريكي مارك توين كتابه الممتـع بعنـوان «مـذكرات آدم» الـذي يتسـم بالأسلوب المرح الفكه ولكن هناك اختلافا جوهريا بين الاثنين ...

في «مذكرات آدم» ينكر آدم أن حواء مخلوقة من ضـلع مـن جنبـه وفي رسـالة «بين آدم وحواء» يذكر آدم لحواء أنها مخلوقة من ضلع من جنبه .

وأدار مارك تـوين مـذكرات آدم عـلى لسـان آدم مسـتخدما أسـلوب «السـرد الذاتي» .

أما زكي مبارك فاستخدم أسلوبا قصصيا شيقا وأدار حوارا فنيا بارعا بـين آدم وحواء في سفره النفيس .

ولكن يبقى في هذا الكتاب عـن « بـين آدم وحـواء» شخصـية الـدكتور زكـي مبارك واضحة مميزة بكل سماتها وملامحها من عبادة لبدائع الحسن والجمال ...

وخفة ظله .. وسطوته واعتزازه بكرامته، ثم تلك الثورة على حواء التي تذيقه ألوانا من الصدود والهجران .

ثم العرامة والحدة والجرأة في شخصية مبارك ... إلى غير ذلك من السمات والملامح التي تميز شخصيته الفريدة ...

***

ولكن ما الظروف التي كتب فيها الدكتور زكي هذا الكتاب ؟!

بدا الدكتور زكي مبارك في كتابة هذه المقالات التي بلغت اثني عشر مقالا بدأها في يناير عام ١٩٤٢ ، وانتهت في يونيه من نفس العام .

ألف الدكتور زكي مبارك هذا الكتاب في سن الخمسين ، أي بعد أن ودع أحلام الشباب وزحف نحو الكهولة وآلمه أن يرى نفسه مرغما على إغماد السيف وطى اللواء بعد أن كان فارس الميدان وله صولات وجولات ؟

ومرت به ظروف هجر وغدر من محبوباته اللاتي طالما تغزل فيهن ونظم فيهن أجمل ما كتب شعرا ونثرا .

فإن محبوبته «ليلى المريضة في الزمالك» وكانت ممثلة شهيرة أحبها أكثر من كاتب وشاعر تخلت عنه وانشغلت بأضواء السينما والمسرح والمعجبين ..

ومحبوبته «سعاد» التي كتب لها «رسائل مجنون سعاد» هجرته بلا عودة بعد زواجها . وحبه الكبير في باريس «مرجريت» لقيت مصرعها في باريس هي وطفلها موريس أثناء الحرب العالمية الثانية على يد القوات الألمانية .

وروعته هذه الصدمات والمآسي جميعا وكانت كلها عوامل تؤجج من نيران ثورته وعنفه وحزنه وألمه أثناء كتابة هذا السفر النفيس .

ولقد بدأت ملامح مأساة زكي مبارك المفكر والإنسان تظهر طلائعها في بداية الأربعينات ...

جرت عليه صراحته الكثير من المتاعب ... لقد أراد أن يغاير التقاليد ... لقد أراد أن يكون الأديب الصريح الواضح الصادق ... كره النفاق والخداع ... وبدأ التجربة ومن هنا كانت مأساته .. تعرض لمتاعب ومضايقات كثيرة في حياته واتهم بأنه من أنصار الأدب المكشوف ... كما اصطدم برؤسائه في وزارة المعارف وبسبب صراحته ووضوحه لم يأخذ حقه ..

وكان كلما ارتفعت به السن أحس بالندم على ما ضيع من وقت وجهد في البحث والدرس ، فقد حصل على ثلاث أطروحات للدكتوراه وأصبح «الدكاترة زكي مبارك» ولم يأخذ حقه فأحس بالغبن وندم على أنه ترك صحبة الفأس والمحراث وقال أنه لو أتجر بالتراب لكن أغنى الأغنياء .

وكان للمرأة أثر كبير في أزمته الأخيرة ...

فقد كان يحلم بالحب الكبير ... وبالمرأة التي يصورها بصورة مثالية في أدبه وقد افتقد ذلك في الواقع ، فقد زوجوه في سن مبكرة وهو طالب في الأزهر حين خافوا عليه أوهام العاطفة . وحدثت فجوة كبيرة بين الأديب الفنان المرهف الحس وتلك الزوجة الطيبة البسيطة ولكنه رغم ذلك ظل يفخر بزوجته الفلاحة التي حفظت قلبه مصونا . ثم بعد نضجه رأى صورة المرأة المثقفة التي يريدها ويتمناها وهنا أحس بالتناقض والاضطراب والأزمة ولم يجد زكي مبارك في تلك الحقبة عاطفة حب كبيرة تعوضه عن إحساسه بالنقص في أوضاعه الاجتماعية والمادية والعاطفية كما أن الملهمة التي كانت «الحب الكبير» في حياته تخلت عنه في سنواته الأخيرة بعد أن تعرض للاضطهاد في عمله واتجهت لأضواء السينما والمسرح ، فلجأ للشراب يتخذه ملجأ وملاذا يهرب به من واقعه المر الأليم لينسى مأساته وواقعه الأليم كما أن بعض أصدقاء عمره الذين طالما دافع عنهم وأحسن إليهم هاجموه في محنته ولم يستطع أن يخوض معاركه ومساجلاته كما كان في عنفوان قوته في الثلاثينات ... ومن هنا كانت مأساة إنسان ومفكر كبير مرهف الإحساس حاد العاطفة كان ضحية لظروف وعوامل عملت على تحطيمه وهدم

كيانه.

في هذه الظروف كتب هذا الكتاب الغريب ليسجل فيه خلاصة أفكاره وآرائه في المرأة التي كانت من أبرز عوامل مأساته الحادة العنيفة ...

ومن هنا كتب «بين آدم وحواء» بهذا الأسلوب الرمزي وذكر اسم مؤرخ موهوم لكي يسجل ما يعاني من لوعة وكمد ومرارة وألم في قصته مع ذلك المخلوق المحير المجهول : المرأة !..

***

وقد توالت هذه السلسة من المقالات النفيسة وتناول فيها الدكتور زكي مبارك ألوانا من فنون المصاولات الروحية بين آدم وحواء وخاض في موضوعات شائكة وكان من نتيجة ذلك أن تعرض لحملات أدعياء الأدب وصعاليك الصحافة .

وانطلق الدكتور زكي فسرد بعض ما وقع لآدم وحواء في الجنة قبل الخروج منها وشرح بعض طبائع الحيوانات في الجنة معتمدا على خياله الخصب وإطلاعه العميق .

ولكن بما يتميز به كتاب زكي مبارك عن غيره ؟

اقتصر ابن شهيد في رسالته «التوابع والزوابع» على عرض المشكلات الأدبية والبيانية . وحرص أبو العلاء المعري في «رسالة الغفران» أولا وقبل كل شيء على عرض المعضلات الدينية والفلسفية ولكن رسالة زكي مبارك تتسم بعرض المشكلات الوجدانية والعقلية في العلاقة بين آدم وحواء ، فرسالته تفصح عن سرائر زكي مبارك الروحية والوجدانية وقد أودعها اندفاعات ذهنه وعواطفه الذاتية ، فهو يؤمن بأن العاطفة مهرب للإنسان من عذاب الروح !..

إن الطابع الوجداني هو الذي يغلب على هذا السفر النفيس ويحتوي هذا الكتاب على عديد من ألوان الفنون البيانية التي تدل على ثقافة الكاتب الأدبية

والفلسفية والدينية .

وقد عرض قصة آدم وحواء في الجنة بتركيز فني رائع ووصف شاعري جميل .

وأسلوبه في هذا العمل يتسم بالسلاسة والرقة والعذوبة كما أثبت أنه من أقدر الكتاب على صياغة الفن الحواري الفلسفي الجدلي وذلك من خلال الحوار الممتع الذي أداره بين آدم وحواء في الجنة !..

***

بدأ الدكتور زكي مبارك رسالته عن «آدم وحواء» بمقال تحت عنوان «بين الورق والدوح» مهد فيه لرسالته واستهله بعبارات تحدث فيها عن عدوان الخريف على آثار الربيع ، قبل شهر سبتمبر عام ١٩٢٧ في باريس وكيف كانت قدماه تخبان في أوراق الأشجار وهو يخترق حديقة «لكسمبور» ويصور كيف انتشى حين رأى ذلك المنظر الجميل وقد أعانه على فهم جوانب من حيوية الأدب الفرنسي ، الذي يحوي ألوفًا من صور العدوان البغيض ، عدوان الخريف على الربيع بلا تهيب ولا استحياء . ثم يروي كيف أنه جلس في يوم عاصف تحت «الدوح» وهو ينظر بحزن إلى الورق «فوعيت من حواره أحاديث لن أنساها ما حييت وكيف أنساها وقد زلزلت قلبي ، وأطلعتني على بعض ما كنت أجهل من سرائر الأدواح والأوراق» !.. [1]

ثم أجرى حوارا بارعا بين الورق والدوح . يقول على لسان «الدوح» :

«إلى أين يمضي هذا الورق الساقط ؟ وكيف جحد جميلي عليه ؟ حملته وهو ضعيف لا يقدر على التماسك ، وأمكنته من شرب الندى وارتشاف أكواب الضياء، وحرمت نفسي عذوبة التمتع بضحوة الشمس في الربيع ، ونشوة القيظ في الصيف ، ليجد الفرصة لتذوق النعيم ، فهل حفظ هذا الصنيع ؟

(١) الرسالة : بين الورق والدوح : ١٩ يناير ١٩٤٢ .

«لقد أبحته أن يمتص دمي كيف شاء ، ليواجه نور الوجود بحرية الطفل الغافل عن جهاد أبيه ، ولكل أب جهاد يجهله الأبناء ولو كانوا من الملهمين ، فهل عرف الورق الساقط أنني حرمت نفسي نعيم الندى والضياء ليتخايل ويستطيل ؟» وسكت «الدوح» لحظات ثم صرخ من جديد :

«والآن يعرف الورق أن الشتاء قادم ، وأنني سأحتاج إليه لدفع عوادي البرد والجليد ، فهو ينخلع عني ، ليتركني بلا غطاء ، في قر الشتاء !»

ويسمع الورق أنين الدوح فيهتف :

«ما عتبك علي أيها الدوح ؟ ما عتبك علي وقد بذلت في البر بك غاية ما أملك؟!»

«ألا تذكر أني صبرت على مصاحبتك في السيطرة والاستعلاء شهورا من الزمان ؟»

«ألا تعرف أنني عققت من أجلك أمنا الأرض؟»

«فما ذنبي إذا اشتهيت العودة إلى الأم الرءوم ، وهي أيضا تحتاج إلى من يدفع عنها البرد والجليد ؟»

ويمضي الحوار بين الورق والدوح مثيرا شيقا طريفا وبعد أن ينتهي هذا الحوار يجري مبارك حوارا بارعا آخر بين «الفتى المصري» أي زكي مبارك و «الدوح» وفيه حديث عن الطوفان وسفينة نوح . ومن هذا الحوار الممتع المثير عن «عمر نوح» نورد هذا الرأي للفتي المصري يسأل الورق : هل يعيش الإنسان ألف سنة إلا خمسين عاما ؟! فيجيب الفتى المصري : بقليل من الفهم ندرك أن عمر نوح لا يرجع إلى الكمية الصورية وإنما يرجع إلى الكمية المعنوية ، وقد استطاع نوح باختراع «السفينة» أن ينقذ الإنسانية من «طوفان» الفناء ، فالعشرات من أعوامه تعد المئات ، فاصنع صنع نوح ، لتعيش عمر نوح !..»

ثم اختتم زكي مبارك هذا الحوار بقوله : «فالله وحده يعلم قصة الورق

والدوح ، وهو الذي يعلم ما أعاني من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد ، وهو الذي يعلم كيف أفر من التصريح إلى التلميح ، لينجو «الورق» من الافتضاح » .

وبعد هذا المقال الرمزي ذكر زكي مبارك قصة إهداء أحمد زكي باشا كتاب شيث بن عربانوس له ثم مضى يلخصه ـ كما يذكر ـ عن اللغة الكوفية التي يتقنها.

وفي هذا السفر النفيس صفحات مليئة بالشعر والفلسفة والخيال ، يحلل زكي مبارك الدوافع التي دفعت آدم للعصيان وكيف أنه لم يستطع مقاومة النداء الخالد والأكل من الشجرة المحرمة ويصور كيف يناجي آدم الله عز وعلا مناجاة حارة ليشرح ما يعتمل في صدره من صراع حاد بين الهدى والفتون ، فيقول : [1]

«يا خالق الكوثر ، ويا فاطر الأعناب والنخيل ، بك أستجير من ظلم الجمال!..»

«يا مبدع العيون الكحيلة ، والخدود الأسيلة ، بك أستغيث من سحر الفتون!..»

«أنت سويتني بيديك من جسد وروح ، وأنا بالروح أطيعك وبالجسد أعصيك ، فهل ترى عدالتك أن الحسنات يذهبن السيئات ؟..»

«إن كنت ترى أن شجرة التين مسمومة فاصرف عنها حواء ، فلم تعد لي طاقة على مقاومة حواء ، ولطف صنعتك هو الذي جذبني إلى تلك الهوجاء !..»

«وإن كنت ترى أن الهاوية تترقب من يعصيك ، فجرد حواء من سحرها الفتان لأملك من أمري ما لا أملك ، ولأستطيع الصبر عن ثغرها الرشوف ، فأنت يا مولاي تعلم أني بها من الهائمين » !..

ويمضي الدكتور زكي مبارك يدير حوارا فلسفيا شيقا بين آدم وحواء فيه صراع مروع بين العقل والعاطفة والهدى والفتون يبرز من خلاله مدى تأثير سحر

(١) الرسالة : حديث السدرة : ٩ مارس ١٩٤٢ .

حواء على كيان آدم في الجنة ...

بعد مصاولات جدلية عنيفة بين آدم وحواء قالت حواء لآدم : [1]

« ـ اسمع يا آدم ، اسمع : يظهر أنك أغلف القلب ، وأنك في احتياج إلى من يزيل الغشاوة عن عينيك .. ما هذا التمرد على الله ؟ وما هذا العصيان ؟ مزيتك أنك رجل ، ورجولة آدم رهينة بشهادة حواء ، ولن أعترف لك بشيء إلا إن عصيت وغويت ! ..»

ـ ويقول الله ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ؟..

ـ ومن أنت حتى تصل إلى أن ينالك الله بالغمز والتجريح ؟!

ـ اسكتي ، يا حواء !..

ـ لن أسكت قبل أن أزلزل قلبك جزاء بما احتكرت من دعوى الفضيلة والشرف والنبل ، كأن سلوكي معك رذيلة وضعة وإسفاف ! أنت تصور نفسك دائما بصورة المظلوم وتنسى أنك في أغلب أحوالك من الظالمين !..

ـ ومتى ظلمتك ، يا حواء ؟..

ـ حين تناسيت فضلي عليك ، فأنا أضرم أهواءك لتشعر بعنفوان الرجولة الحق ، وستموت حسيا ومعنويا يوم أعجز عن إغوائك ، فيومذاك تعرف يا جاهل أن طيش حواء ليس بالمغنم القليل !..

ـ كفى !.. كفى !..

ـ لا ، لا ، لن أتركك أو تعترف بفضلي عليك !..

ـ أمن الفضل أن تزيني المعصية ؟..

ـ وما زينت لك شيئا غير جميل !..

(١) الرسالة : شروق العقل : ٢٣ مارس ١٩٤٢ .

ـ وشجرة التين !..

ـ ما تهمني شجرة التين بالذات فسأحاول هدايتك إن امتنعت عن شجرة الجميز ، لأملك نقل قلبك من مكان إلى مكان !..

وفي رسالة «بين آدم وحواء» صور زكي مبارك قوة العاطفة عند آدم ، العاطفة التي تزلزل أعصاب الرجال !..

وعالج بطريقة فنية جميلة طغيان الأهواء والأحاسيس والنشوة الروحية والحسية التي أفصح عنها آدم نحو حواء .

وصور اعتراك الأهواء والآراء بين المرأة والرجل كما رسم صورة لأهواء النفوس وأحلام القلوب !..

في هذا الحوار الجدلي الفلسفي الوجداني نرى صورا من فلسفة زكي مبارك في الحب والجمال والمرأة حين يصور كيف نجحت حواء في استمالة آدم لها بعد حوار جدلي طويل فلم يملك آدم إلا أن يسلم ويصور أحاسيسه وأهواءه نحو حواء ، فيقول لها في نهاية الأمر مستسلما:[1]

« ـ أعصي الله من أجلك يا حواء !..»

ـ فتأكل من شجرة التين ؟..

ـ وأترك طبعات على هذه الخدود المقبوسة من جمر الوجود !..

ـ تحبني ، يا آدم ؟ ..

ـ أحب المرأة الحلوة الجميلة التي زلزلت قلبي ... أحب المرأة التي نقلت قلبي من مكان إلى مكان .. أحب الغادة اللعوب بالعقل والروح ... احبك يا حواء حبا أمتن من الصدق وأروح من اليقين ... أحبك يا حواء حبا سيفسد ما بيني وبين

(١) الرسالة : فوق أثباج الكوثر : ٣٠ مارس ١٩٤٢ .

ربي ، إلا أن تشاء إرادته أن أتقرب إليه بعبادة الجمال ... ولعله يشاء !..

ـ وإذا لم يشأ فماذا تصنع ؟ ..

ـ آكل من شجرة الخلد ، لأحمي هذا الجبين من الأفول ! ..

ـ بالعصيان ؟..

ـ هنا المشكلة يا حواء ، فما يسيغ ذهني أن ينهانا الله عن رعاية الجمال !..

ـ أراك اهتديت !..

ـ وأراني ضللت !..

ـ أفق يا نشوان !..

ـ إن جاز للموقوذ بسكر الجمال أن يفيق !..

ـ تحبني يا آدم ؟ .. تحبني ؟..

ـ أحب النار التي صهرت روحي ، ولن أطمئن إلا يوم انهشك يا حواء لتعودي نقطة في دمي!..

ـ ما هذه الوحشية ؟..

ـ أي وحشية ؟.. ألم تؤخذي من ضلعي ؟..

ـ أنا من ضلعك أخذت يا كذاب ؟!..

ـ اسألي الملائكة ، فعندهم الخبر اليقين ..

ـ ولهذا جئت جميلة ؟!..

ـ وأجمل من الأفعى الملتوية على الشجرة الزهراء !

ـ أراك تبغضني يا آدم !..

ـ هو ذلك : فأنا أبغض العيون الجوارح ، وأبغض الجبين الوضاح ، وأمقت

القد الرشيق ، وأستعيذ بالله من السحر فوق الثنايا البيض !..

ـ ثم ماذا ؟..

ـ ثم أكره الصوت الذي يشبه وسواس الحلى فوق النحور ، والذي يفوق غمغمة الكأس عند فورة الرحيق !

ـ ثم ؟..

ـ ثم أثور على التفاتة الجيد عند العتاب ..

ـ ثم ؟..

ـ ثم أبغض حواء لأنها حواء !..

***

وقد ضمن زكي مبارك في هذا الكتاب الشيق الممتع فنونا مختلفة من ثقافته الأدبية والفلسفية والدينية والمحصول الفني لزكي مبارك في هذا السفر النفيس يرجع إلى التعمق في الفكرة . ومعالجتها بأسلوب قصصي شيق !..

وفي هذا السفر عقدة إنسانية هامة وهي تشريح عاطفة آدم نحو حواء أي الصراع المروع بين العقل والعاطفة ، وبين نسائم الهدى وزوابع الضلال !..

فهو في هذا الكتاب من أقطاب الفكر وأرباب البيان !.. لقد أتى في الكتاب بفنون مختلفة من الأعاجيب والفلسفات لأنه قوي الإحساس إلى أبعد الحدود . قوي التعبير وهذا شاهد على عظمة الفكرة وقوة الروح ...

إن زكي مبارك في هذا الكتاب أمشاج من الوجد المقهور والحب الآسر ... هو قيثارة صداحه لأحلام القلوب وأهواء الأحاسيس !..

إن هذا الكتاب يعد من أجمل وأروع ما سجله الدكتور مبارك من الأدب الإبداعي .

وبعد ، فالكتاب مليء بفنون من الصور الفلسفية الغريبة والموضوعات المثيرة الشائكة وإن كان يغلب عليه عرض المشكلات الوجدانية بصورة غاية في الصراحة والجرأة والوضوح والصدق !..

وبعد أن أوقفت رواية «بين آدم وحواء» عام ١٩٤٢ ، عاد زكي مبارك ليدور حول الموضوع بأسلوب جديد ، فكتب تحت عنوان «في محكمة الجن» فصلا جديدا من الرواية :[1]

مع الاعتراف بأن القلم في يد الكاتب نعمة لا يماثلها شيء من نفائس الوجود ، فأنا كثير الضجر مما يجني عليّ قلمي ، لأنه يتيح الفرص لمن يسرهم إيذائي ، ولأنه يجعلني دائمًا على بال الناس ، ويا ويحَ من يشغل به الناس !

زرت مرة إحدى المدارس الثانوية فوجدت ناظرها رجلا مجهولاً من الدوائر الأدبية والاجتماعية ، مع أن المرء لا يصل إلى مثل مركزه إلا بعد ظهور وبروز في الأدب والمجتمع ، فقلت في نفسي : «هذا هو الرجل السعيد . إن منصبه يضارع منصبي من الوجهة الرسمية ؛ وقد يكون راتبه أضخم من راتبي ، لأنه قديم العهد بخدمة وزارة المعارف . ولكنه أسعد مني ، لأنه بعيد من المجتمع، ومجهول من الجرائد والمجلات ، فلا يتحدث عنه متحدث ، ولا يتزيد عليه قارئ لا يفهم أسرار البيان» .

ثم قلت :«أين حظي من حظ هذا الزميل ؟ إن مقالاتي تؤخذ منها قصاصات لتقدم إلى وزير المعارف ، فأنا على بال وزير المعارف من يوم إلى يوم ، أو من أسبوع إلى أسبوع ، ومعنى هذا أني أقدم سريرتي قبل السؤال عما فيها من مجاهيل».

وعلى من يقع اللوم ؟ يقع عليّ وحدي ، فمن حق أي وزير أن يتعقب ما يصدُر عن مساعديه من أفكار وآراء ، ومن واجبه أن يناقشهم فيما يستوجب النقاش .

(١) الرسالة : ٢٥ اكتوبر ١٩٤٣ / زكي مبارك / في محكمة الجن .

والآفة الفظيعة أني مكثر ، وقلما يسلم المكثار من العِثار . يضاف إلى هـذا أن قلمي يجول في شجون من الأحاديث تمسّ طوائف مـن المعـاني الشـوائك ، فأنـا أعرّض نفسي لمتاعب لن تنقضي إلا يوم أتوب من صحبة القلم ، ولن أتوب !

هل أصدق كل الصدق فأذكر أني شعرت بدمعة تساور جفوني يوم زرت ذلك الناظر السعيد؟

لقد تحزنت وتوجعت ، لأني أعرف أن القلم لا يغنيني في حيـاتي ، كمـا يغنـي أمثالي في الأمم التي يعد قراؤها بالملايين ، فلم يبق إلا أن أكون من الموظفين !

أين أنا مما أريد ؟

أنا أريد النص على أن قلمي ساق إليّ متاعـب أخطـر ممـا كنـت أعـاني ، فقـد نقلني من معاداة الإنس إلى معاداة الجن ، ونعوذ بالله من كيد الشياطين !

وخلاصة القصة أني تحدثت عن «جِنّية» سامرتها ليلـةً بالإسـكندرية مسـامرة الحبيب للمحبوب ، وأنا أجهل أن حديثي عنها ستكون له عقابيل ... فمـاذا وقـع بعد ذلك الحديث ؟

أطفأت النور بالغرفة التي تطل على الصحراء ، لأستوحي القمـر والنجـوم في هدوء وسكون ، ثم راعني أن أرى الغرفة تضيء ، وأن أرى خلائق لم يكن لي بمثلها عهد ، فهتفتُ :

أتوْا داري فقلت : مَنُون أنتـــم ؟

فقالوا : الجنُّ ، قلت : عمُوا مساءَ

ـ محكمة !

ـ أية محكمة ؟

ـ محكمة الجن!

ـ وفي هذه الأنوار ؟

ـ هذه أنوار لا يراها عابر ، فلا عليك !

ـ وهذه الوجوه ؟

ـ هي وجوه لا يراها غيرك

ـ وماذا تريدون ؟

ـ نريد محاسبتك على ما وقع منك

ـ وماذا وقع مني ؟

ـ هل نسيتَ ما نشرتَ بمجلة الرسالة ؟

ـ عماذا ؟

ـ عن الجنية المحبوبة !

ـ ذلك خيال في خيال

ـ ونحن نحاسب على الخيال ، لأنه صورة مصغَّرة من الحقيقة الواقعية ، فأنت محاسب على اقتراف الإثم بمغازلة جنية عذراء .

ـ من حديثي بمجلة الرسالة عرفتم ما اقترفت ؟

ـ عرفنا ما اقترفت قبل أن تنشر حديثك

ـ وكيف ؟

ـ لأننا نراكم وأنتم لا ترونا

ـ وما الذي منع من عقد المحكمة قبل نشر الحديث ؟

ـ الإثم عندنا يحتاج إلى برهان مكتوب

ـ وحديثي هو البرهان ؟

ـ نعم ، ثم نعم !!

ـ أتسمعون كلمة الحق ؟

ـ قد نسمع !

ـ يجب أن تسمعوا ، فاسمعوا . أنتم تقفون من الحياة موقف المتفرجين ، والمتفرج يرى الممثل ولا يراه الممثل ، فالممثل آمر والمتفرج مطيع ، أو هو كاتب والمتفرج قارئ

ـ أتقول أن الإنس أفضل من الجن

ـ هو ذلك ، وإلا فأين نصيبكم في خدمة الآداب والفنون ؟

ـ نحن الذين أقمنا عرش سليمان

ـ وأين عرش سليمان ؟

ـ بقيت منه المعاني

ـ هي معان إنسية لا جنية ، لأنها متصلة بالناس لا بالجان

ـ ونحن الذين ألهمنا شعراء الجاهلية

ـ وهم لهذا جهلاء !

ـ أنت تحاكم ، فما هذه الغطرسة العاتية ؟

ـ أنتم تحاكمونني ، يا جماعة الجن ، ولم يكن فيكم من يتّسم بشجاعتي ؟

ـ وما شجاعتك ؟

ـ انتم تعرفون شجاعتي ، فما تنكرت ولا تلثمت كما تتنكرون وتتلثمون ، ولا سمح ضميري بأن أرى الناس ولا يرونني لأني أحب أن تكون أعمالي في العلانية لا في الخفاء

ـ والجنية التي سرقتها منا ؟

ـ لم أسرقها منكم ولن أردها إليكم

ـ أطع محكمة الجن

ـ وهل أطعت محكمة الإنس حتى أطيع محكمة الجن ؟

ـ سنؤذيك إذا تماديت في العصيان

ـ لا يستطيع مخلوق ان يؤذيني ، إن حفظت الأدب مع الله في الترفق بنفسي

ـ حرر الجنية من حبك

ـ لن أحررها من حبي ، فما أرضى بأن يضيع نصيبها من شرف الوجود

ـ لا نفهم شيئا مما تقول

ـ أنا أقول بأن الإنس أفضل من الجن ، لأن الإنس مجاهدون والجن رقباء ، والمجاهد أفضل من الرقيب

ـ والجنية المخطوفة ؟

ـ لن تكون لكم ولو عقدتم ألف محكمة

ـ وإن اغتصبناها منك ؟

ـ لن تغتصبوها مني ، بعد أن سمعت أشعاري ، وهي أشعار نظمتها بدم القلب

ـ أطع محكمة الجن

ـ لن أطيع

ـ وإذا حكمنا عليك ؟

ـ سيعييكم التنفيذ !

وفي هذه المعمعة برزت الجنية وهي تصرخ : أنا الجانية على نفسي ، إن كـان من الجناية أن أخرج إلى الأنوار بعد طول القرار في غياهب الظلمات

ـ ماذا تقولين يا حمقاء ؟

ـ معشوقي إنسيُ ، يا سعادة الرئيس

ـ والإنس أفضل منا ، يا شقية ؟

ـ نعم ، لأن أعمالهم في العلانية

ـ وأعمالنا ؟

ـ أعمالنا في طيات الخفاء

ـ لست منا ولا نحن منك

ـ أنا من معشوقي ، ومعشوقي مني، فاذهبوا عني

ـ ونهزم أمام الناس

ـ كما ينهزمون حينا أمام الجان ، والجروح قصاص

***

ثم انقضت محكمة الجن بدون تعنت يحوج إلى الاستعانة بالمحامين فعرفت أن الجن لا يزالون على الفطرة الأولية في إدراك الحقائق البديهيـة ، وعرفـت أيضـا أنهم يخافون من الإنس ، وكان معروفا أنهم يخيفون ولا يخافون

ذهبت الأنوار المجلوبة بحضور الجن ، وعادت الغرفة إلى الضـوء المرسـل من القمر في لطف ، وبقيت الجنية بجانبي وهـي لا تكـاد تصـدق أنهـا نجـت مـن تعقب أولئك العماليق

ـ هل صرنا في أمان ؟

ـ أنتِ صرت في أمان

ـ وأنتَ ؟

ـ ألم تعلمي أني أقيم فوق جبل من البارود ؟

ـ أتخاف وأنا معك ؟

ـ أنا أخاف لأنك معي ، فقومك لن يسكتوا عني ، وقد يستنصرون بإخوانهم في الشام والعراق

ـ المعروف عندنا أن شياطين الشام والعراق من أصدقائك

ـ ومن هنا أخاف

ـ تخاف من أصدقائك ؟

ـ وممن أخاف ؟ هل أخاف من أعدائي وأنا أملك البطش بهم حين أريد ؟

وانتقل الحوار إلى شؤون متصلة بالجمال فسألتني الجنية عما يستهويني من جمالها فقلت :

ـ أنا أحب فيك هذا الصوت الناعم المبحوح ، وأشتهي أن تتكلمي في كل وقت . أشتهي أن تكون حياتك حديثا في حديث ، لا تسكتي ، فما رأيت أندى على قلبي وروحي من بغامك الذي يشبه وسوسة الحبب عند اضطرام الكؤوس . تكلمي لأرى نعيم الفردوس ممثلاً في نبراتٍ هنّ أعذب وأطيب من همسات الأماني في الصدر الحزين

هذا الصوت يزلزل قلبي ، وأنا أسمعه وإن اعتصمت بالصمت

ـ كيف ؟ كيف ؟

ـ هُويتك الأصيلة هي هذا الصوت ، فأنت كالبلبل ، وهُوية البلبل في الحلق ،

والله يزيد في الحلق ما يشاء [1]

ـ لم تجب عن سؤالي !

ـ قلت إن هويتك في الصوت ، وأنت دائما في بالي ، فأنا أسمعك في كل وقت، وإن غبت عني

ـ إلى هذا الحد يفتنك صوتي ؟

ـ وإلى أبعد من جميع الحدود

ـ كنت تقول إني أفتنك باللون

ـ متى ؟

ـ ليلة بتنا بالإسكندرية ، هل نسيت !

ـ لونك يفتن ، لأنه ينطق ، وهو يتموج تموّج النبرات العِذاب . إن في قدميك خطوطًا نواطق ، في قدميك ، في قدميك ، فماذا أقول في المرمر الناطق وهو صدرك الجميل ؟

ـ زدني ، زدني

ـ زيديني فتونا لأزيدك جنوناً

ـ ماذا تريد مني بعد أن خاصمت فيك قومي ؟

ـ أريد أن تتكلمي في جميع اللحظات

ـ وأين أجد ما أقوله في كل وقت ؟

ـ تقرئين عليّ ما في المكتبة من مؤلفات أدبية وعلمية ولغوية ، بالعربية وبالفرنسية والعبرية ، والأمر سهل ، فإن محصول مكتبتي لا يزيد عن عشرة

(١) إشارة إلى القراءة التي ورد فيها «الحلق» بالحاء بدلا من الخاء

آلاف، وسنعبرها ورقةً ورقة في أقل من عشر سنين

ـ إلى هذا الحد تحبني ؟

ـ وإلى أبعد مما أحبَّ العباقرة من الإنس والجن في جميع الأزمان

ـ أنا أرتعد من الخوف

ـ وممَ تخافين ؟

ـ أخاف منك ، فدعني أخرج لألحق بقومي

ـ لن تعرفيهم بعد اليوم ، ولن يكون لأحد غيري عليك سلطان ، فليجمع الجن جموعهم ليلقوني في ساحة القتال ، ولتتمردي ما شاء لك الحمق والطيش ، فلن يكون لك في غير هذا البيت مكان

ـ وتحميني من طغيانك ؟

ـ إذا اعترفت علانيةً بأن سلطان الجمال أضعف من سلطان البيان .

بين آدم وحواء

- -

تأليف : د. زكي مبارك

النص الكامل

بدأ د. زكي مبارك تلك الدراما الحوارية البديعة بتمهيـد تحـت عنـوان «بـين الورق والدوح» أجرى فيه حوارا طريفا بين الورق والـدوح في أحـد أعـداد ينـاير ١٩٤٢ من مجلة الرسالة ليبدأ بعدها تلك الفصول الشيقة من قصة آدم وحواء وما اشتجر بينهما من محاورات ومجادلات أبتدعها زكي مبارك ليعبر فيهـا عـن آرائـه وأفكاره وعن فلسفته الجمالية في عشق الحـب والجمـال الـذي أمضـى حياتـه في التغريد فوق أفنان الجمال رغم ما أصابه من سهام وطلقات طائشـة طالـت حياتـه وعمله وأسرته ، ولكنه أراد أن يقـدم لنـا رؤيتـه الأدبيـة والجماليـة والفلسـفية في حكاية آدم وحواء في الجنة ليصل بنا إلى فلسفته في دنيا الحب والجمال .

بين الورق والدوح [1]



حدثت قرائي غير مرة أن ذاكرتي فيها انحراف غريب : فهي ضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام ، وقوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعاني ، ولها قدرة عجيبة على تمثل الملامح والأصوات والألوان ، فمن السهل أن أصف حادثا رأيته قبل عشرين سنة ، مع الإحاطة بما لابسه من دقائق التفاصيل، ولكن من الصعب أن أتذكر رقمًا سمعته قبل يومين ، إلا أن يتصل بأمر تلتفت إليه الذاكرة بعض الالتفات ، ولأجل هذا أقيد ما يهمني من الأرقام في دفتر خاص .

وفي هذه اللحظة أتذكر جيداً كيف شهدت عدوان الخريف على آثار الربيع ، ولم أكن شهدت ذلك العدوان قبل أول أيلول قضيته في باريس ، وأتذكر أيضاً كيف كانت قدماي تخبان في أوراق الأشجار وأنا أخترق حديقة «لكسمبور» ، وأكاد أتمثل كيف انتشيت حين رأيت ذلك المنظر الجميل ، وما هو في الظاهر بجميل ، ولكنه أعانني على فهم جوانب من حيوية الأدب الفرنسي ، ففيه ألوف من صور العدوان البغيض ، عدوان الخريف على آثار الربيع ، بلا تهيب ولا استحياء .

وفي يوم عاصف جلست تحت «الدوح» وهو ينظر بحزن إلى تساقط «الورق»، فوعيت من حواره أحاديث لن أنساها ما حييت . وكيف أنساها وقد زلزلت قلبي، وأطلعتني على بعض ما كنت أجهل من سرائر «الأدواح»

(١) رسالة مهداة إلى المسيو «دي كومنين»

و«الأوراق»؟

سمعت «الدوح» يقول في صراخ مبحوح :«إلى أين يمضي هذا الورق الساقط؟ وكيف جحد جميلي عليه ؟ حملته وهو ضعيف لا يقدر على التماسك ، وأمكنته من شرب الندى وارتشاف أكواب الضياء ، وحرمت نفسي عذوبة التمتع بضحوة الشمس في الربيع ، ونشوة القيظ في الصيف ، ليجد الفرصة لتذوق النعيم، فهل حفظ هذا الصنيع ؟

«لقد أبحته أن يمتص دمي كيف يشاء ، ليواجه نور الوجود بحرية الطفل الغافل عن جهاد أبيه ، ولكل أب جهاد يجهله الأبناء ولو كانوا من الملهمين ، فهل عرف الورق الساقط أنني حرمت نفسي نعيم الندى والضياء ليتخايل ويستطيل ؟»

وسكت «الدوح» لحظات ، ثم صرخ من جديد :

«والآن يعرف الورق أن الشتاء قادم ، وأنني سأحتاج إليه لدفع عوادي البرد والجليد ، فهو ينخلع عني ، ليتركني بلا غطاء ، في قر الشتاء!» .

ويسمع الورق أنين الدوح فيهتف :

ـ ما عتبك عليّ أيها الدوح ؟ ما عتبك عليّ وقد بذلت في البر بك غاية ما أملك؟ ألا تذكر أني صبرت على مصاحبتك في السيطرة والاستعلاء شهورا من الزمان ؟ ألا تعرف أني عققت من أجلك أمنا الأرض ؟ فما ذنبي إذا اشتهيت العودة إلى الأم الرءوم ، وهي أيضا تحتاج إلى من يدفع عنها البرد والجليد ؟

وسمع الدوح هتاف الورق فأجاب :

ـ الأرض أمي وأمك ، ولكني فهمت عنها ما لم تفهم ، فقد حدثتني ألف مرة أنها لا تريد أن يرجع إليها غير الأموات من أبنائها الأعزاء فإن كنت مت أيها الورق فارجع إلى أمك الأرض !

فزمجر الورق :

ـ أنا مت ؟ أنا ؟ وهل يموت من يرجع إلى حجر أمه الغالية ؟

فيقول الدوح :

ـ نعم ، ثم نعم ، يموت من يرضى بأن تدوسه الأقدام ، ولن يكون لك نصيب غير الدوس ، يا جهول !

وهنا قال الورق للدوح :

ـ هل تنسى أني أدفأتك في الصيف ؟

فقال الدوح للورق :

ـ لم أكن احتاج إلى دفء في أشهر الصيف ؛ وإنما أحتاج إلى الدفء في أشهر الشتاء .

فقال الورق للدوح :

ـ لا أستطيع سماع صوتك وأنت مجلل بالسواد .

فقال الدوح للورق :

ـ إنما تجللت بالسواد حدادا عليك . ألا تذكر أنني كنت أحبك حبا هو الغاية في الكرم ، لأنه حب القوي للضعيف ؟ ألا تذكر أني كنت أقاوم العواصف والزوابع لأجد خدودك ذلة الالتصاق بالأرض ! ألا تعرف أنني أعاني لفراقك كروبًا لا تطاق ؟

قال الورق :

«أتحبني إلى هذا الحد ، أيها الدوح؟»

فتأوه الدوح ثم أجاب :

«لا أحبك لأنك ورق ، فأنت تعرف أني صبرت على تقلب الأوراق أربعين عامًا أو تزيد ، ولن أموت يوم أموت بسبب تقلب الأوراق ـ وإنما أحبك لأنني أنشأتك كما يحب الله هذا الوجود ، فأنت بعض ما صنع دمي أيها الورق ، ولن تعيش بعد فراقي إلا بفضل ما سكبت في عروقك من الدم النفيس ، وقد حل عليك غضبي ، فلا بقاء لك بعد اليوم ... وهل تستطيع أن تطبّ لما صنعت بنفسك أيها الورق الساقط ؟ لقد دعوتك إلى الترفق بمصيرك فلم تسمع ، ومن أجل غفلتك لبست عليك ثوب الحداد ولم أستغرب من فرحك بمصافحة الأرض ، فأنا أعرف انه لا يرحب بالاستعلاء غير الأقوياء ، كما أعرف أن الأم لا ترحم من أبنائها غير الضعفاء» .

قال الورق :

«وبأي حق تستطيل عليّ ، أيها الدوح ، وأنت أسود مظلم ، لا ترجى لك صحوة ولا معاد ؟»

قال الدوح :

«ذلك سواد الشباب ، يا أحمق ، وليس سواد الحداد [1] ، ولن تقيم الحياة لدلالك أي ميزان ، وهل تطول حياتك حتى ترى ازدهائي بالورق الجديد في الهوى الجديد ؟ إن الدم الذي سوّاك ، سيسوى ورقا سواك ، وسأعبث هذا العبث بالأوراق إلى أن أبلغ الثمانين أو التسعين !»

قال الورق :

«خذني إليك ، أيها الدوح ، فقد اشتقت إلى ساعدك القويّ المتين»

فأجاب الدوح :

«تعال إليّ ، إن استطعت ، أيها الورق الساقط ، فانا لا أملك البعث كما أملك

(١) هذه مغالطة من جانب الدوح ، فقد اعترف قبل سطور بأنه لبس السواد حدادًا على الورق وسنرى بعد سطور بأنه لفراق الورق حزين .

الإنشاء ، وهل أكمل مسماة صاحب العزة والجبروت ؟»

وتكلف الورق ما لا يطيق ليرجع إلى الدوح من جديد ، ولكنه عجز عن تحقيق ما يريد ، وتلك نهاية من يجهل السر في تمتعه بشرف الوجود ، والشرف معناه الارتفاع ، وقد انحط الورق بسقوطه على الأرض ، فأمسى وهو ضعيف مَهين .

ثم قال الدوح :

ـ لن نلتقي بعد اليوم ، أيها الورق الساقط ، كيف تلتقي وأنا أجد عناءً في التعرف إلى هويتك ؟ وهل أراك إلا وهما يصوره الرفات المسحوق ، مع قرب العهد بالفراق ؟

فأجاب الورق :

ـ ستجدني في الربيع المقبل .

قال الدوح :

ـ سأجد في الربيع المقبل ورقًا غيرك .

قال الورق :

ـ كنت أنتظر أن يكون في سخطك عليّ ما يزهدك في جميع الأوراق .

فصاح الدوح :

ـ كان ذلك لو أني أردت الانتفاع بالتجارب ، والانتفاع بالتجارب يدل على العقل ، ولكنه يشهد بضعف الحيوية ، والخير أن نواجه الحياة في كل يوم بأحلام الناشئين ، لا بعقول الكهول ، لتبدو لنا الحياة بكرا في كل لحظة ، كما تبدو الغابة المؤذنة بالوحشة والأنس في كل حين . ولو أني اكتفيت بما جربت من أخلاق الورق لكان من المستحيل أن أراك ، بعد أن عرفت ما عرفت من شمائل سواك .

قال الورق :

ـ وأستطيع أنا أيضا أن أغفل الانتفاع بالتجارب وأرجع إليك في الربيع المقبل.

فضحك الدوح وقال :

ـ وهل كانت لك معي تجارب أيها الورق ؟ هل رأيت مني ما يعاب حتى تزعم أنك فارقتني عن عتاب يمحوه التفضل بالإعتاب ؟ أنا الذي أنشأك ، وأنا الذي رباك ، وأنا الذي أوحي إليك معاني الشوق إلى الندى والضياء ... أنت لم تفارقني لأني جفوتك أو أسأت إليك ، وإنما فارقتني لأنك ضعفت عن صحبتي ، كما يضعف السحاب عن مصاحبة الجبال .

قال الورق :

ـ خذني إليك ، أيها الدوح ، لأذوق من دمك ما كنت أذوق .

فأجاب الدوح :

ـ عيب الأقوياء أنهم لا يصفحون عن المذنب ولو عفّر جبينه بالتراب ، وأنت أيها الورق الساقط جحدت جميلي ، فلن أراك بعد اليوم ولو استشفعت بأزهار الربيع .

قال الورق :

ـ وهل يكون الورق الجديد أجمل مني أو أصدق مني ؟

فأجاب الدوح :

ـ لن يكون أجمل منك ولا أصدق منك ، فتجارب أربعين سنة دلتني على أنكن جميعاً من وحلٍ واحد ، ولكن الورق الجديد سيلقاني وهو على جانب من الغفلة والجهل ، والغفلة والجهل يزيدان في قيمة الجمال ، فإذا تعاقل وتعالم ، كما تعاقلت أنت وتعالمت ، فسيكون مصيره إلى أمه الأرض ، وأستريح منه قبل أن

يستريح مني .

قال الورق :

ـ أيكون معنى هذا الكلام أن لك سياسة مرسومة في امتهان الأوراق ؟

فأجاب الدوح :

ـ معنى هذا الكلام أني أحقد حقداً أبدياً على من يجحدون المعروف . لقد قضيت أربعين سنة أو تزيد في تعهد الأوراق بالرفق والعطف ، فما حفظت ورقةٌ عهدي ، ولا اعترفت بجميلي ... ويعزيني أن الله ينتقم لي فما انخلعت عني ورقة إلا كتب الله عليها الذبول والفناء .

ومع هذا فأنت لفراقي حزين ، باعترافك في بداية هذا الحوار ، وهذا الحزن هو انتقامي من غطرستك وكبريائك ، وأنا أتوعدك بقول أحد الشعراء :

سأنساك فانظر كيف تحيا إذا انقضى   نصيبك من روحي وحظك من قلبي

ونظر الدوح فلم ير الورق ، فأين ذهب ؟ أين ؟ أين ؟

لقد عصفت الريح فأطارت ما كان في «لكسمبور» من أوراق ، وباد ما تعاقر الحديقة من «خشخشة» كانت أروع ما سُمع من الغناء في باريس .

قال الراوي :

وكنت فتى مصرياً لم يسمع مثل هذا الحوار بين الورق والدوح ، فمصر الوفية لا تشهد انحلال الورق عن الدوح في خريف أو شتاء بغض النظر عن الأشجار المجلوبة من بلاد لا تعرف خلائق وادي النيل .

قال الفتى المصري :

وتسمعت ما يقول الدوح بعد ذهاب الورق فوعيت هذه الكلمات :

ـ إلى أين ذهبت أيها الورق ، وكنت الشاهد على أن الضعف من عناصر الجمال؟

إلى أين ذهبت وكان عطفي عليك دليلاً على أني من الأقوياء ؟ إلى أين ذهبت وبفضلك سمعت تغريد الحمائم والبلابل والعنادل ، ولم أر بعد ذهابك غير وقر الجليد في «أعوام» الشتاء ، وكل يوم في الشتاء بعام أو عامين لمن يعيش بلا أليف؟

ثم سمعت الدوح يقول :

ـ لو أملك من أمري ما يريد الهوى لخلعت العذار في البحث عن الورق الذاهب ، ولكن الطبيعة التي أمدتني بالقوة قيدتني بالوقار ؛ فأنا جاثم في مكاني ، وإن كان هواي في بلدٍ بعيد بعيد ، وآه ثم آه من المراعاة لما يوجب التغافل عن الهوى المشبوب !

وسمعته يقول :

ـ سقط عني الورق ، لأنه ضعف عن مصاحبتي في أيام الشدائد ؛ وهل يطالب الضعيف بما لا يطيق ؟ فما عتبي عليه وهو أضعف من أن يقاسمني المصاعب في أيام الشتاء ؟ وهل يتوهج الجمال إلا في أوقات اللين والصفاء ؟

ثم سمعت الدوح يقول :

«ألا يمكن اتهامي بإرغام الورق على أن يصير إلى ما صار إليه ؟ كان في مقدوري أن أضاعف له الكمية المبذولة من دمي ، ولكنني جهلت الواجب فارتضيت أن يعيش الخريف بمثل ما كان يعيش في الربيع . ولو أني ضاعفت له الدفء لكان من الممكن أن يفكر في حفظ الجميل ، والدنيا أخذ وعطاء ، ولو كره الأوفياء» .

قال الفتى المصري وهو يحاور قلبه بعد سماع ذلك الاعتراف :

لقد نطق الدوح بالقول الفصل ، وأجاب عن هذا السؤال :«ما الذي يمنع من أن نعيش كما تعيش بعض الأشجار التي تخلع أوراقها في الخريف لتكتسي بأوراق جديدة في الربيع ؟» وما وجهت إلى نفسي هذا السؤال إلا بعد أن عانيت ألوف المكاره من الوقوف عن حالٍ واحد في الحب والبغض ، والاقتراب

والابتعاد . والأوراق هي العواطف فما بالنا نحرص حرص الأشحاء على استبقاء تلك الأوراق ، وفيها ما يصل إلى الذبول والجفاف ، ومن الخير أن نخلعه بلا رحمة ولا إشفاق ؟ ما بالنا نحرص عليها حين تتصل بأحباب يصعب عليهم أن يقاسمونا شتاء الزمان ؟

إن الله لا يضن على الشجر بالورق الجديد عند قدوم الربيع ، فهل يضن علينا بالهوى الجديد عند استهلال الرخاء ، وقد عرفنا من كرم الله ما لا تعرف الأدواح والأوراق ؟ وهل يملك الدوح من الحيوية عند سقوط الورق مثل الذي نملك من الروحانية عند خمود الوجد ؟ أكاد أجزم بأن الماء المكنون في الشجرة العارية من الورق لا يقاس إلى الجمر المكنون في القلب الخالي من الحب ، فنحن والشجر إلى ربيع قريب ، وإن استطال الشتاء .

وبعد لحظات عاد الفتى المصري إلى محاورة القلب :

ـ الدوح مجلل بالسواد ، والسواد شارة الحزن ، فما بال الدوح يحزن وهو غاية في القوة ؟

ـ الحزن من علائم القوة ، وليس من علائم الضعف ، فهو دليل على شعورنا بقيمة ما نفقد ، ولا يقع ذلك إلا ونحن أقوياء ، والجهلة هو الذين لا يفرقون بين الحزن والذهول .

ـ وكيف ؟

أنسيت ما قرأناه لأناطول فرانس من أن الموت نتيجة لضعف الـ Vitalite .

ـ أذكر ذلك ، ولكني أخشى أن يكون الحزن هو أيضًا نتيجة لضعف الحيوية.

ـ أنت مخطئ في هذا التأويل ، فالحزن هو صوت الشهوة إلى النعيم المفقود ، والشهوة لا تصدر عن النفس إلا في حالة الفتوة والأريحية والطغيان .

ـ وإذن فما بال جماعات من خلق الله تندد بالمحزونين ؟

ـ كما تندد جماعات من خلق الله بالفرحين !

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ أريد أن أقول إن الحسد هو الذي يحمل بعض الناس على التنديد بأهل الأحزان والأفراح ، وما قام في الدنيا أدب ولا مجد ولا سلطان إلا بفضل ما في عاطفة الحزن او الفرح من ثورة واشتعال .

ـ أتريد أن أحزن ، يا قلبي ؟

ـ أريد أن تفرح بالحزن الصادق ، فقد كان شعار الأنبياء ؛ أما الحزم الكاذب فهو شعار المتصنعين . إن للحزن آدابا يجهلها أكثر الناس ، ومن آداب الحزن أن يصدر عن عاطفة لا عن تصنع ، وأن يأخذ وقوده من الإحساس لا من الخيال ، وأن يردنا إلى الصدق فيما نكتب وفيما نقول ، وأن يزيد في احترامنا لأهل الأفراح ، فهم إخوان أعزاء ، ولو نقلهم الفرح إلى آفاق الجنون . انظر إلى هذا التمثال وذلك التمثال !

قال الفتى المصري :

ونظرت فرأيت تمثالين : أحدهما لعامل مكدود ، وثانيهما لفتى تحتضنه فتاة بأسلوب يمنع من وصفه أدب أهل الشرق ، فقد ضمته إليها كما يضم الحبيب المحبوب ، وما أحب أن أزيد وهل أستطيع القول بأن ذلك التمثال أفصح عن أشياء ينكرها الحياء ؟ من بلايا الزمن أن الكاتب لا يملك من الحرية ما يملك المثّال !

كان هذان المنظران المتباينان يمثلان السلامة الوجودية أصدق تمثيل ، فالعامل المكدود هو مثال الحزن الشريف ، واحتضان الفتاة للفتى هو مثال الفرح النبيل ، وليس من العيب أن نفرح أو نحزن بإفراط وإسراف ما دمنا صادقين . وهل تهجم الفتاة على الفتى إلا طاعة لغريزة كريمة هي سر البقاء ؟ وهل يجعد وجه العامل المكدود إلا في سبيل سعادة لأطفال يتمنى أبوهم أن يجهلوا معنى

الفقر في أيام الشتاء : شتاء الزمان ؟

ثم عاد الحوار بعد لحيظات :

ـ حدثتك عما قرانا لأناطول فرانس ، فهل تذكر ما سمعنا لعهد الطفولة في سنتريس ؟

ـ لا أذكر من سنتريس غير أطياف بددتها أحلام باريس ؛ فماذا تريد ؟

ـ كان أهل سنتريس يقولون : «لما يخضرّ التوت ، البرد يموت» .

ـ وما معنى ذلك ؟

ـ معناه أن الأوراق هي الوقاية من البرد !

ـ وإذن ؟

ـ وإذن تكون العواطف هي الوقاية من شتاء الزمان .

ـ وما حال الشجرة التي لا ينخلع عنها الورق في أي وقت ؟

ـ هي شجرة سعيدة أعاذها القدر من اختبار الأحباب ، ومزية هذه الشجرة أنها تتذوق ما في الأرض والهواء من حيوية عارمة لا تلتفت إلى تغير الفصول إلا في أندر الأحايين !

ـ وهل في مقدورنا أن نكون مثل تلك الشجرة ؟

ـ إذا تخلقنا بأخلاقها .

ـ وكيف ؟

ـ في الأسبوع الرابع من آذار تظهر تباشير الورق الجديد فوق غصون الأشجار التي عانت آلام العري في الشتاء ، وتنظر فنرى الأشجار الصغيرة أورقت قبل الأشجار الكبيرة ، فنفهم أن للشباب يداً في سرعة الإيراق ؛ وقياساً على ذلك يكون الشباب الدائم هو الذي يحمي بعض الأشجار من سقوط الورق في الشتاء .

ــ أيكون لهذا الملحظ دخل في تقديس شجرة «الجميز» عند قدماء المصريين؟

ـ ليس هذا التخريج بغريب ، وقد يضاف إليه أن لشجرة الجميز ميلاً إلى البر بالجيران ؛ فهي تمد فروعها لتمتعهم بالثمار والظلال بلا انتظار للجزاء !

ـ أراك تهرب من الجواب !

ـ وأراك لا تفهم المعاريض !

ـ أنا أحب أن أعرف كيف أحتفظ بالشباب .

ـ إذا احتفظت بالعواطف .

ـ وكيف أحتفظ بالعواطف ؟

ـ وكيف أحتفظ بثورة من أعدائها الليل والنهار ؟

ـ أنت أقوى من الليل والنهار ، إن أردت ؟

ـ وكيف ؟

ـ إجعل الليل والنهار من خدامك .

ـ كيف ؟ كيف ؟

ـ لا تضيع لحظة واحدة بلا عملٍ نافع ، فالعمل الموصول فن من السيطرة على شباب الزمان ؛ ألم تسمع بأخبار نوحٍ ؟

ـ وما أخبار نوح ؟

ـ عاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا .

ـ وهل يعيش الإنسان ألف سنة إلا خمسين عاماً ؟

ـ بقليل من الفهم تدرك أن عمر نوح لا يرجع إلى الكمية الصورية ، وإنما

يرجع إلى الكمية المعنوية ؛ وقد استطاع نوح باختراع «السفينة» أن ينقذ الإنسانية من «طوفان» الفناء ؛ فالعشرات من أعوامه تعد بالمئات . فاصنع صنع نوح ، لتعيش عمر نوح !

قال الراوي :

ثم رأيتني أهتف بقول أحد الهائمين :

ولو أن عمري عمر نوح وبعته بساعة وصل منك قلت كفاني

فالله وحده هو الذي يعلم قصة الورق والدوح . وهو الذي يعلم ما أعاني من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد . وهو الذي يعلم كيف أفر من التصريح إلى التلميح ، لينجو «الورق» من الافتضاح .

إن عاد الربيع ، إن عاد ، فسوف نعقد «معاهدة ودية» لا ينقضها خريف ولا شتاء .

وشبابي ، شباب الجسد والروح يحدثني بأن الربيع إلى معاد ويلطف الله بمن يقول :

لنجواك أستبقي شبابي فعاطني كؤوس الهوى قبل ابيضاض المفارق

بين آدم وحواء[1]



كثر الكلام في هذه الأيام عما كان بين آدم وحواء لعهد الجنة وعهد الأرض . وقد تورط صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم فأقحم خياله الروائي في شؤون فصل فيها التاريخ من أجيال طوال ولم يبق موجب لذلك التورط بعد حكم التاريخ ، فهذا الصديق يعرف أن آدم من الأنبياء والتزيدُ عليه لا يجوز وإن احتال فزعم أنه يكتب باسم الفن لا باسم التاريخ .

وهل يستطيع بفنه الروائي أن يخلق من الصور مثل ما سجل المؤرخ شيث بن عربانوس ، طيَّب الله ثراه ؟

ولكن ما حديث ذلك المؤرخ المجهول ؟

لم أكن أعرف عنه شيئا قبل سنة ١٩٣٣ ، وإنما أهداني إليه أستاذنا المرحوم أحمد زكي باشا بعد أن انتهى ما كان بيني وبينه من خصومة وصيال .

فإن سألتم كيف ابتدأت تلك الخصومة وكيف انتهت فأنا أدوِّنها في سطور ثم أمضي إلى ترجمة شيث بن عربانوس بإيجاز ، تمهيداً لشرح آرائه في آدم وحواء بإطناب :

كانت وزارة المعارف قررت إقامة حفلة تأبين للشاعر أحمد شوقي ، حفلة يشترك فيها أقطاب الأدب في البلاد العربية ، وكان منهاج الحفلة يوجب أن يتكلم الضيوف في الأوبرا الملكية تكريماً لمَقْدمهم الحميد . أما أدباء مصر فيتكلمون في

(١) الرسالة : ٢٤ فبراير ١٩٤٢ .

الحفلات التي تقام بكلية التجارة ، وهي حفلات دامت ثلاثة أيام ، وكانت أشبه بسوق عكاظ ، فقد اتسع فِناء الكلية للمئات أو الألوف ممن يسرهم أن يستمعوا كلمات الخطباء وقصائد الشعراء .

ومضيت لأشهد الحفلة الأولى بكلية التجارة فهالني أن أسمع خطيباً يتنحنح بعنف ، مع أني لم أكن اجتزت عتبة الكلية ، فسألت نفسي كيف يصل صوت التنحنح برغم تلك الأبعاد الطوال .

وبعد لحظة فهمت أن الحفلة أقيم لها ميكروفون ، وأقيم لذلك الميكروفون مسامع في جميع الأركان . فمن السهل أن يسمع صوت الخطيب جميع المارة بشارع «قصر العيني» أو شارع «أفراح الأنجال» ، ولا تسأل عما تصنع النحنحة وقد ضجت بها مسامع ذلك المذياع ؟

ونظرت فإذا الخطيب أحمد زكي باشا . فكيف غاب عنه وهو عالم علامة أن الميكروفون سينقل إلى الجيران وجيران الجيران نحنحته القوراء ؟

أما كان في مقدوره أن يدير وجهه أو يدير الميكروفون قبل أن يقترف ذلك الصوت ؟

أضحكني أن يقع شيخ العروبة فيما وقع فيه فأخذت أترصد له غلطة أدبية أو تاريخية لأهجم عليه في جريدة البلاغ ، ثم اتفق لحسن الحظ أن قال كلاما غير صحيح ، وهو يتكلم عن مدح الرسول في «نهج البردة» ، وكنت يومئذ مشغولا بتأليف كتاب «المدائح النبوية» فوجدت عندي من المحصول الأدبي والتاريخي ما يكفي لإفحامه بلا عناء .

وما كادت تظهر كلمتي فيه حتى اندفع الرجل لمصاولتي على صفحات البلاغ بأسلوب ساحق ماحق ، وكان رحمه الله آية في الكرّ والفرّ ، وكان لا يهجم على باحث إلا تركه كالرفات ، بفضل اطلاعه الشامل وذكائه الوهّاج .

كنت يومئذ بين نارين : نار الخوف من التطاول على شيخ جليل خدم اللغة

والأدب والتاريخ ، ونار الخوف من الهزيمة أمام القراء ، وأنا محرر الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ .

وفي تلك المعمعة قدم الباشا للبحث عني في الجريدة ومعه الأستاذ عبد الرحمن بك عزام فحدّق في وجهي وقال : أما تستحي من شتمي وأنا أستاذك ؟

فتماسكت قليلا ثم قلت : وأنت يا باشا . أما تكفّ شرك عن تلميذك ؟

فابتسم عبد الرحمن بك وقال : لا موجب للجدل بعد هذا العتاب اللطيف !

ولكن زكي باشا لم يسكت عني ، ومضى يلاحقني بإيذاء لم يفضّه غير الحادث الآتي :

كانت حوادث فلسطين وصلت إلى آلام وجراح ، فأرسل زكي باشا إلى الحاج أمين الحسيني برقية مطولة كلفته أحد عشر جنيهاً ، وكان ينتظر أن يصل إليه جواب رقيق ، ولكنه لم يتلق أي ردّ من الحاج أمين ، فكتب إليه يسأل عن سر ذلك السكوت فكان الجواب أن البرقية وصلت ، ولكنها لم تكن بإمضاء «زكي باشا» وإنما بإمضاء «زكي مبارك» !

وامتشق زكي باشا قلمه وأنشأ مقالا أخذ أربعة أنهر من جريدة الأهرام ، وكان في مقاله أن عامل التلغراف حرّف الإمضاء ، فإن كان من مصر فإلى «الليمان» وإن كان من فلسطين فإلى «البحر الميت» وأعلن زكي باشا أن التحريف مقصود ، وكانت حجته أن «زكي باشا» قد تُحرّف إلى «زكي الإبراشي» بسبب «الشين» ولكنها لا تحرف إلى «زكي مبارك» .

وامتشقت قلمي فكتبت رداً وجيزًا نشرته الأهرام في أول نهر من الصحيفة الأولى ، وكان الرد يتلخص في أن «زكي باشا» هو نفسه الذي أمضى باسم «زكي مبارك» ، وحجتي أن الباشا مشغول بمناوشتي على صفحات البلاغ ، فأنا ملء قلبه، ومن السهل أن ينسى اسمه ويذكر اسمي ، ورأي زكي باشا ان التعليل مقبول، فذهب إلى إدارة التليغراف وطلب أصل البرقية ، ثم ابتسم حين شاهد أنها

باسم زكي مبارك ، وبخط الباشا الظريف ؟

لم يكن بدّ من أن يدرك زكي باشا أن الأقدار أرادت أن تطوقه بالخطأ ليكفَّ عني أذاه . فاتصل بي تليفونياً ليدعوني إلى العشاء وإمضاء عقد الصلح ، فأجبت بالقبول .

دخلت على الباشا العالم العلامة «العالم حقاً والعلامة صدقاً فزكي باشا طراز وحيد من العلماء ، وليس من السهل أن يجود بمثله الزمان» . دخلت على الباشا فوجدته في ثياب البيت وهو يلعب الشطرنج مع الدكتور «أحمد عيسى» ؛ فأشار بعد السلام إلى أن أنتظر لحظات ، فسيغلِبُ الدكتور أحمد عيسى ثم يلتفت إلى واجب الترحيب !

ومرَّت ساعة وساعة والخلائق تتقاطر بميعاد وبدون ميعاد ؛ فعرفت أن العشاء في بيت زكي باشا ليس لمن دُعِي إليه ، وإنما هو لمن تداعوا إليه !

ثم مُدَّ السماط على الطريقة العربية ، وأقبل خادمٌ فقدَّم إلى الباشا ورقة مطوية فمحا الباشا كلمة وأبقى على كلمة . فماذا محا ؟ وماذا أثبت ؟

كان التفاضل بين نوعين من الشراب : أحدهما عصير الشعير وثانيهما منقوع الخروب . وقد رأى الباشا أن يكرم ضيفه المتخرج في السوربون فاختار الشراب الأول وهو شراب أصهب يُستطاب في ليالي الصيف !

لم أكن دخلت «دار العروبة» من قبل ، ولا كنت عرفت كيف ظفرت بذلك اللقب الطريف ؛ كان مبلغ علمي أن صاحبها يتحدث عن العروبة كل يوم ؛ فهي دار العروبة لأنه شيخ العروبة ، والألقاب لا تعسر على أحد في هذا الزمان !

وفي تلك الليلة عرفت ما لم أكن أعرف : عرفت أن زكي باشا يسير سيرة العرب القدماء ، فبيتُه مفتوح للجميع ، ومن حق أي إنسان أن يحضر وقت الغداء أو وقت العشاء بدون احتياج إلى استئذان ، على شرط أن يترك للباشا حرية التصرف في وقته بعد رفع السماط .

والحق أن زكي باشا كان ينوب عن مصر في مهمة من أصعب المهمات ؛ فقد كانت داره مثابة الوافدين من الشرق، ولم يكن يحق لأي ضيف أن يتهم مصر بالبخل وزكي باشا موجود . وإنما نصصت على هذا الجانب من شمائل زكي باشا رعايةً للتاريخ ، وأملاً في أن يقتدي به من يسرهم إكرام من يفد على مصر من أهل الشرق . فمن العيب أن يذهب السخاء العربي إلى غير معاد وكانت له مواسم في هذه البلاد !

وقد سمعت عن كرم زكي باشا في سره وعلانيته أخباراً لا يصدقها العقل ، جزاه الله عما صنع خير الجزاء ، وحفظ اسمه بين الكرماء ، كما حفظ اسمه بين العلماء .

ثم أرجع إلى الغرض من هذا الحديث فأقول :

جلست أسامر زكي باشا بعد العشاء تمهيداً للصلح المنشود ، فقد كنت في سريرة نفسي أؤمن بأن التطاول على مثل ذلك الرجل قد يعرضني لغضب الله . وأنا أخاف الله أشد الخوف لأنه حماني من أن أخاف أحداً سواه ؛ فمن المخاطرة أن أُشجع في موطن لا تكون فيه الشجاعة من رضاه . وكذلك عزمت على أن أتلطف ما استطعت لأظفر من زكي باشا بالصفح الجميل .

ـ هذه أول مرة تأنس فيها «دار العروبة» بزيارة الدكتور مبارك .

ـ ليست هذه أول مرة أتشرف فيها بزيارة «دار العروبة» أعزها الحب !

ـ ما هذا الكلام ؟ وما رأيتك هنا قبل اليوم !

ـ سمعت أخبار دارك ، أيها الشيخ الجليل ، وكنت أشعر أني شرحت بالقلب لكل من يفد عليها من أهل الشرق ، وما غاب عني كرمٌ تؤدي به فرض الكفاية عن بلادنا الغالية ابتسم زكي باشا وقال :

ـ ما كان ضرّك لو قلت هذه الكلمة وأنت تلاحيني على صفحات البلاغ ليخف عتبي عليك!

ـ سأقولها يا مولاي لجميع الناس ، وسأملأ بها مسامع الأرض والسماء .

ـ اسمع ، يا مبارك ، اسمع ، إن أدبك في هذه اللحظة يستأهل جائزة سنية ، جائزة تذكرني بها طول حياتك ، وقد تكتشف لك عن أشياء من غوامض التاريخ القديم ، وهو التاريخ الذي أرادت شراستك أن تجعله ظنوناً في ظنون !

ـ أعظم جائزة أتلقاها من أستاذي هي رضاه عني .

ـ الجائزة العُظمى لمن كان في مثل أدبك أن تُهدى إليه النسخة الوحيدة من كتاب شيث بن عربانوس . أما رضاي عنك فهو مضمون .

ومضى الباشا لإحضار الهدية ، ثم عاد ومعه كتاب في أكثر من خمسمائة صفحة بالخط الكوفي ، وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدُور العاديّات [1] .

أقبلت على الكتاب بلهفة وشوق ، ثم لاحظت أن منزلتي عظُمت في قلب زكي باشا حين رآني أقرأ الخط الكوفي بلا عناء ، وعندئذٍ تذكرت جناياتي على نفسي وعلى مصيري في هذا الوجود .

وما تلك الجنايات ؟

سأتكلم بصراحة لأخدم قرائي ، فقد يكون فيهم من انحرف عن طريق النفع كما انحرفت .

يعرف الناس أني مثال الحرص على طلب العلم والأدب ، وتعرف مكتبتي أني صديق يزورها في كل يوم ، ويعرف قلمي أني أخلو إليه في كل ليلة ساعة أو ساعتين.

فكيف تخلفت مع ذلك الحرص ؛ وكيف جاز ، أن أكون واحداً من الناس ، وكفاحي يوجب أن أكون أوحد الناس ، لو نجوت من ذلك الانحراف ؟

(١) صفحات هذا الكتاب غير مرقمة وما قدرتها بخمسمائة إلا على وجه التقريب ، ولو كان للعدد أهمية لعددته صفحة صفحة قبل أن أكتب هذا الحديث . (زكي مبارك)

يرجع التخلف الذي أعانيه إلى أني أقبلت على علوم وفنون يقبل عليها أكثر الناس ، ويصعب فيها الادّعاء لأن عليها رقباء يعدّون بالألوف .

أردت التفوق في علوم اللغة العربية فوصلت إلى أشياء ، ولكن علوم اللغة العربية مبذولة لجميع الطالبين ، وليس من العسير أن يكون لي نظراء في كثير من البلاد .

وأردت التفوق في الدراسات الجامعية فنِلت إجازة الليسانس مرة وإجازة الدكتوراة مرات ، ولكن الدراسات الجامعية لم تَعُد من الأسرار فمن السهل أن يكون لي فيها منافسون .

وأردت أن أكون من كتاب اللغة العربية وشعرائها وخطبائها فكان ما أردت ، ولكن هذا الميدان محفوف بالأخطار في كل صباح وفي كل مساء بسبب نشاط الزملاء .

وأردت أن أتفوق في اللغة الفرنسية فبلغت ما أريد ، ولكن اللغة الفرنسية يجيدها ألوف أو ملايين ، فأين مجال التفرد والازدهاء ؟

آه ، ثم آه !!

كان الرأي أن أقصر جهودي على اللغات الميتة ، وهي لغات يدّعيها من شاء وكيف شاء ، بلا رقيب ولا حسيب . ألم تسمعوا أن في الناس من يزعم أنه يجيد عشر لغات من لغات القدماء : كاللاتينية واليونانية والديموتيقية والسريانية والبابلية والحبشية والسنسكريتية والفهلوية ، إلى آخر ما تعرف الأنظمة الاجتماعية ؟!

من الذي يحاسب مدرس اللغة اللاتينية إذا أخطأ ؟ ومن الذي يجادل مدرس اللغة الديموتيقية إذا انحرف ؟ ومن الذي يراجع مدرس اللغة البابلية إذا حاد ؟ ومن الذي يتقدم فيردع من يخلط بين النصوص الحبشية والحميرية ؟

عرفت فيمن عرفت رجلاً يعجز عن كتابة صفحة سليمة باللغة العربية ، مع

انه من أبويين عربيين ، ولم يمنعه ذلك الضعف من أن يكون أستاذ اللغة البابليـة في إحدى الجامعات الأمريكية!

وعرفت فيمن عرفت شخصا يتصدر لتدريس إحدى اللغـات الميتـة في كليـة تحيط بها حديقة بالقرب من نهر له مكانته في التاريخ ، وهو شـخص لا يجيـد لغـة قومه الأحياء ، فكيف يسهل عليه فهم لغة مات أهلها منذ أزمان ؟

لو أني أتلفت إلى هذه الناحية لأرحت نفسي من منافسات لا تطاق .

كان من السهل أن أتعلم الأبجدية من إحدى اللغات الميتة ، فالأبجدية تكفي للتفوق في اللغات البوائد !!

وهل فُضح فلان لأنه أخطأ عشر مرات في خمسة سطور كتبها باللغة العربية إلى عميد إحدى الكليات بأحد البلاد ؟

هو متخصص في اللغة الأكادية ، أو اللغـة القنقليـة ، فكيـف يطالـب بإجـادة اللغة العربية ؟

وهل يستطيع أحد أن يطالب الدولة بمحاسبة هؤلاء وهـو يعـرف أن الدولـة تريد أن تسامي الأمم الأوروبية والأمريكية في الحذلقة الجامعية ؟

الدولة على حق والشاهد الآتي يؤكد ذلك الحق :

قال فلان : القنقلون كلمة آرامية ، وهي الكنكلون في السـريانية ، والفنكلـون في البابلية ، والكنفلون في الآشورية ، ومعناها القنقلون ، والوصـف منهـا متقنقـل ومتكنكل ، ومتفنكل ، على خلاف في صياغة الأوصاف .

ومن أجل هذا العلم الغريز تنفق الدولة ما تنفق لإحياء لغات ماتت في بلادها الأصلية بسبب انعدام الحيوية ، وعلينا نحن أن نـنفض عنهـا أتربـة القبـور ، لأننـا موكلون ببعث الأموات .

الأوروبيون يدرسون اللغة اللاتينية واللغـة اليونانيـة ليعرفـوا أصـول لغـاتهم

ولينقلوا ما في هاتين اللغتين من نفائس الآداب .

وقد عرفت اللغات الحية في أوروبا خير ما أثر عن اللاتينية واليونانية ، ونحن لن ننقل تلك الآثار إلى لغتنا إلا عن الفرنسية أو الإنجليزية ، فما الموجب لقتل الوقت في درس لغات ميتة لن ننقل عنها أي حرف ؟

يضاف إلى ذلك أن الشواهد تنطق بأن الشبان الذين قهرناهم على درس اللغات الميتة قد ضاعوا على مصر وعلى أنفسهم من الوجهة العقلية ، وإن كانوا أساتذة محترمين ، وكيف لا نحترم من يعرف من أسرار القنقلون ما لا نعرف ؟

أتريدون الحق ؟

الحق أن مصر تبتدئ من حيث انتهى الناس .

والحق أن مصر تحاول أن تخلق من الدراسات الجامعية لوحة إعلانات عن قربها من العقلية الأوروبية ، وكأنها لم تسمع أن أوروبا بدأت تنفض يديها من التعصب للأموات .

لو أن ما أنفق على درس اللغات الميتة كان أُنفق على ترجمة ما أثر من تلك اللغات لظفرنا بنفائس تزيد في ثروتنا الذوقية والأدبية ، ولكننا أطعنا الوهم فأضعنا أموال الدولة وأعمار الطلبة في شؤون قليلة النفع والغناء ، مالي ولهذا ؟

أنا أضعت الفرص السوانح في درس أبجديات تلك اللغات ، وهي فرص لن تعود ، فما تستطيع الأمة بعد اليوم أن تنفق درهماً فيما لا يفيد ، إن صحّ أن الأمة صَحَتْ من غفوتها فأدركت الفرق بين ما يفيد وما لا يفيد !

إن زكي باشا طرب حين رآني أقرأ الخط الكوفي بلا عناء ، فكيف يكون حاله لو نظر فرآني أقرأ الخط السنسكريتي ؟

وهل أجهل الخط السنسكريتي ؟

أنا أعرف منه ما لا يعرف فلان ، فليجادلني فيه إن استطاع !

افتحوا أعينكم يا بني آدم من أهل هذه البلاد ، واعرفوا أن الحذلقة الجامعيـة لن تنفعكم في كثير أو قليل ، وتذكروا جيداً أن العلم الصحيح هو علم هذا الزمان، وستأثم الجامعة المصرية إن شغلت عنه بأوهام التاريخ .

اسمعوا قبل أن لا تسمعوا ، فأنا أخاف عليكم أشياء لا تخطُـر لكـم في بـال ، وهذا نذيرُ من النُذُر الأولى يصوّبه إلى عقولكم كاتب يبغض المداهنة والرياء .

(للحديث شجون)



٢ـ حديث المؤرخ المجهول[١]



أرجع ثانية إلى الغرض من هذه الأحاديث فأقول :

كتاب شيث بن عربانوس يؤرخ عهد آدم في الجنة وعهده في الأرض ، وكان ذلك لأن المؤلف قريب الزمن نسبيا من هذين العهدين ؛ فقد ولد في العام الثاني بعد انحسار الطوفان ، وإذن فهو أقدم نسل حفظته الأرض بعد نجاة من نجا من قوم نوح ، وأول عقلية علمية في ذلك العهد البعيد ، إن صح أنه شخصية حقيقية من شخصيات التاريخ .

ولكن ما قيمة هذا الكتاب ؟ وما وزن حديثه عن آدم وحواء ؟

عرضته على دار الكتب المصرية وعلى مكتبة وزارة المعارف وعلى مكتبة الجامعة المصرية فلم أجد من يعترف بقيمته التاريخية ، وإن كان مكتوبا بالخط الكوفي ... وهل كنت أجهل أن الطعن في صحته من الممكنات ؟ إنما كان همي أن أنتفع بثمنه ، وأن أمكَن الجمهور من الاطلاع على ما فيه من مقاصد وأغراض ، ولكن الأمل في الانتفاع بثمنه أمسى خيالاً في خيال ، ولو ثبت أنه نسخة قيمة من نسخ الإنجيل ، وهل زكّتني سفارة غربية أو شرقية حتى أبيع من المخطوطات ما أشاء ...؟ أنا مصريٌّ وآبائي مصريون ، فكيف أنتفع من مصر باسم العلم والأدب والتاريخ ؟

ألم تسمعوا حديث الأجنبيّ الذي استمصَر في سنة ١٩٣٧ ؟

(١) الرسالة : ٢ مارس ١٩٤٢ .

كان أحد الأجانب يدرّس إحدى اللغات الحية بالمدارس الأميرية وبالمرتب الذي يتقاضاه الأجانب من المدرسين ، ثم لاحت لـه فرصـة للتجـنس بالجنسـية المصرية ، فأسرعت وزارة المعارف وردّته إلى «الكادر» الذي تعامل به المدرسين من المصريين ، كأنه انتقل من الهدى إلى الضلال ؛ وكان الظن أن تـراه انتقـل مـن الخوف إلى الأمان !

وإذا كانت المتاعـب تلاحـق مـن يستمصـر مـن الأجانـب ، فكيـف تصـنع بالمصري الأصيل ؟!

إلى الله يشـكو المصـريون شـقاءهم وعنـاءهم مـن التغاضـي عـن حقهـم في الانتفاع بثمرات البلاد!

إلى الله نشكو الغربة في الوطن الغالي ، ومنه نستمد العون على مكاره الزمان !

ما لي ولهذه الخـواطر المزعجـات ؟ وهـل قلـت المتاعـب الجديـدة حتـى نؤزّرها بمتاعب قديمة تأخذ وقودها من الذكريات ؟

أرجع إلى الغرض مرة ثالثة فأقول :

قبل الشروع في تلخيص كتاب شيث بن عربانوس أسجل أني غير مطمـئن إلى انه ألف في العصر الذي تلا الطوفان ـ وما أقول بأن ذلك مستحيل ـ فقد يكون مـن الممكن أن ننظر إلى الطوفان من وجهة معنوية ، فنعده مرحلة من مراحل الغفوات الروحية في الحياة الإنسانية ، ونعدّ العصر الذي تلاه عصر يقظة ونهضـة وإحيـاء ، وعندئذ يصبح من السهل أن نفترض أن ذلك العصر يصلُح لما صدر عن شيث بن عربانوس من أفكار وآراء .

ولكن هنالك عقبة تمنع من ذلك الافتراض ، وهي إجماع الكتب الدينية عـلى أن الطوفان وقع بالفعل ، وإنه لم يبق من السلالة الإنسانية إلا ما حفظتـه سـفينة نـوح ... ومن الواضح أن تلك البقايا كانت في شغل بتدبير حياتها المعاشـية ؛ فمـن العسـير أن نتصور أنها عرفت التأليف والمؤلفين إلا إن توغلنا في شعاب الفروض !؟

يضاف إلى ذلك أن المصادر التي تحت أيدينا لم تتحدث عن شيث بن عربانوس ؛ ولم نسمع أن اسمه ورد في كتب المستشرقين ـ وهم حجة فيما يتصل بمجاهل التاريخ في الشرق ـ وقد يعرفون منه ما يجهل الشرقيون !

فأين وجد أحمد زكي باشا ذلك الكتاب ؟

كان في النية أن أوجه إليه هذا السؤال ، ولكن المنية عاجلته فقضت بأن تطول الحيرة في مصدر ذلك السفر الغريب .

وفي الحق أني غير مصدق لكتاب لغته العربية مع أنه ألف بعيد الطوفان .

وهنا أذكر حادثة في نهاية من الغرابة ، ولكنها وقعت على مسمع من جمهور كبير في أروقة السوربون يوم أديت امتحان الدكتوراه في الخامس والعشرين من إبريل سنة ١٩٣١ ؛ فقد حاجني المسيو ماسينيون حِجاجا عنيفا حين رآني أنكر أن تنشأ اللغات بالتوقيف .. وإن عادت الدنيا إلى ما كانت عليه ورأيت المسيو ماسينيون بعافية فسأراجعه في هذا الحِجاج ؛ فما يستطيع ذهني أن يسيغ فكرة التوقيف ؛ وإنما أعتقد أن اللغات ظاهرة إنسانية يصنع بها التطور ما يصنع على اختلاف الأجيال .

المهم أن أسجل أني مرتاب في كتاب شيث بن عربانوس ، ولن أقبل نسبته إلى العهد البعيد ، العهد الذي تلا الطوفان . وأين نحن من الطوفان وهو صورة حائرة لم يبق من ملامحها غير أطياف ؟

فمتى أُلف هذا الكتاب ، إن صح ذلك الارتياب ؟

إن لغته مزيج من القرشية والحميرية ، فهل أُلف قبل أن تصير لغة قريش لغة التخاطب والتأليف في أشتات الجزيرة العربية وفيما خضع لسلطانها الأدبي من الممالك الإسلامية ؟

ألا يكون مؤلفه صنع ذلك عمداً على سبيل التضليل ؟

الله وحده هو الذي يعلم ما مرّ بهذه الوثيقة التاريخية من تمحّل واحتيال .

المشكلة الأساسية

أترك الكلام عن صحة كتاب شيث ، وأنتقل إلى تشريح ما فيه من معاني وأغراض فأقول :

يقع الفصل الأول في صفحات تصل إلى الخمسين ، وفي هذا الفصل نقض للنظرية التي تقرر أن آدم استكان لحواء ، فتركها تعصي الله كيف تشاء ، فالمؤلف يقرر أن آدم كان تعب من الإقامة في الجنة ، وكان يتمنى لو استطاع أن يخرج منها بأي حال وعلى أي أسلوب ليتنسم روح الوجود ، لا روح الخلود ، فقد كان يعرف بفطرته أن الخلود إنما يأخذ صورته من الوجود(١) .

وثورة آدم على الجنة لها أصل : فقد كان يرى أنه لا يليق بالإنسان أن يأكل طعامه بلا جهاد ، وكان يرى من الضعة والمهانة أن يُترك المرء بلا متاعب ولا تجارب ، وهو لم يخلق إلا للكفاح والنضال .

وزاد في همّ آدم أن حواء كانت في الجنة بلا ضرّة ، فلم تقهرها الغيرة على التسابق إلى مواقع هواه ؛ بدليل أنها كانت تنساه أو تتناساه عامًا أو عامين ، بلا تلهف ولا تشوّف ، لأنها تعلم أنه لن يكون لسواها من النساء ، ولو أضمر من ضروب الخيانة ما يريد خياله الحبيس ، وإلا فكيف جاز أن تقضي في الجنة أعواماً بلا تبرجّ ولا اختيال ؟

وفي هذا المقام نقل شيث أبياتًا عزاها إلى آدم عليه السلام ، وهي من النظم الركيك ، فلا موجب لإثباتها في هذا التخليص ، ويكفي أن نشير إلى معناها لجودته

---

(١) نحن لا نوافق شيث بن عربانوس في كل ما رواه ، والغرض هو تقديم صورة جديدة من آراء لم تكن معروفة من قبل . (زكي مبارك)

(الرسالة) : ونحن نقول مرة أخرى إن الدكتور مبارك كاتب معدود فعليه وحده تبعة ما في رأسه من آراء ، وما في مكتبته من كتب .

وصدق مغزاه ، وهو يقول بعبارة صريحة إن حواء لم تكن تفرق بين البلادة والعقل، ولم تكن تعرف أن التودد إلى الرجل والترامي عليه في رقة ودلال لا ينافي الأدب والحياء .

كذلك قال آدم في رواية شيث . وعلى فرض أن الرواية صحيحة فإنه مخطئ ـ وأنا أريد آدم الرجل لا آدم الرسول ـ وإنما أخطأ لأنه يصف أن التلطف يجب أن يصدر أولا عن المرأة، والتلطف هنا معناه الفتن وهو من جانب المرأة الدلال ، ومن جانب الرجل صيال .

إذا كانت حوّاء أجرمت في ترك آدم عامًا أو عامين فآدم أجرم أيضا بسكوته عن تلك الظبية النفور بشكل من الحب العارم والوجد العَصوف .

وهنا تظهر مفاجأة من أغرب المفاجآت ، فشيث ينقل عن تأملات آدم خطرات تبدد ما وجهنا إليه من اعتراض .

وسأنقل تلك الخطرات بعبارة سهلة تقربها من أذهان القراء بعض التقريب «لأنها في لغة شيث لا تخلو من غموض والتواء» ثم أنقدها برفق رعاية لمكانة ذلك الجد الجليل .

كان جلوس آدم على شطّ الكوثر من وقت إلى وقت يوحي إليه أفكارا في غاية من الطرافة النسبية ، لأنه أول إنسان شهد الوجود ، على أرجح الفروض [1] .

كان يعرف ان الجنة في غاية من العَرض والطول ، بحيث تتسع لسكان الأرض والسموات [2] فكيف جاز أن لا يكون فيها غير نهر واحد ؟

كذلك قال آدم في رواية شيث ، وهو قولٌ خاطئ ، فوحدة النهر في الجنة لها مغزى جميل ، لأنها ترد أهل الجنة إلى مزاج متقارب في فهم الأشياء . وهل يختلف سكان الأرض إلا باختلاف الطعوم فيما يأكلون وما يشربون ؟ لو اتحد مذاق

(١) لهذه الإشارة معنى سنرجع إليه حين يجيء مكانه من هذه الأحاديث .

(٢) هل كانت عند آدم فكرة عن الأرض والسموات ؟

الطعام والشراب بين جميع سكان الأرض لقل بينهم الخلاف . ألم تروا كيف تختلف الطبائع بين الحيوانات اللحمية والحيوانات النباتية ؟

إن القط في صورة الأسد ، ولكنه ليس في صولة الأسد ، لأن معدته لا تأخذ من اللحم إلا عُشر معشار ما تأخذه معدة الأسد ؛ وهو يروّع الكلب الضخم بأقل إشارة ، لأن الكلب لغفلته قد يكتفي بالأطعمة المكونة من عناصر نباتية !

وما أقول بأن اللحم أفضل من النبات في جميع الأحوال ، وإنما أقرر أن اختلاف الأغذية هو السبب الوحيد في اختلاف الطبائع . وكذلك أقول في اختلاف الفصول ، وهل كان اطراد الجوّ في الجنة على نسق واحد إلا بشيرا بما سيكون بين أهل الجنة من وفاق وصفاء ؟

وكانت غيبة حواء عن آدم توحي إليه التفكير في منافع الأعضاء . كان يتأمل فيرى أن الله خلق للإنسان عينين وأذنين ولساناً واحداً فما سر ذلك ؟

يجيب آدم ـ فيما روى عنه شيث ـ بأن الله أراد أن يكثر زاد الإنسان من المرئيات والمسموعات ، ولا بأس بأن يقل نصيبه من المنطوقات ؛ لأن الرؤية والسماع من ضروب الانتهاب ، أما النطق فمن صنوف الإعطاء فهو تسليم وانسحاب .

وقد ابتسمت حين قرأت هذا الكلام . فعنه أخذ الشاعر الذي سجل أن المرء يقبض يده عند الولادة ويبسطها عند الموت ، وإن جهل التعليل على وجهه الصحيح .

وتحرير هذا المعنى أن المرء عند الولادة مقبل على الحياة ، فهو يقبض يده ليشير إلى أن وظيفته هي الأخذ والنهب ، وهو يبسط يده عند الموت ليشير إلى أن التبذير من صور الفناء .

ثم يمضي آدم في تأملاته فيقول : كيف يقنع من رُزق بعينين باصرتين بوجه واحد : وهو وجه حواء ؟ وكيف يقنع من رُزق أذنين واعيتين بصوت واحد : هو

صوت حواء ؟

من هذا التأمل العارم كان ضجر آدم من وحدته في الفردوس ويظهر أن آدم كان وُهب فكرة الاعتراض والجواب ، فقد خطر له أن حواء لها أيضا عينان وأذنان ، وأن من حقها ان تفكر في مثل ما فكر فيه ، إن أقيم للعدل ميزان .

ثم يجيب آدم بان تساوي الجوارح بين الرجل والمرأة ليس دليلاً على التساوي في المواهب ولا دليلاً على التساوي في الإحساس . ويبلغ غاية الشوط فيقرر أن المرأة كانت بعينين وأذنين لأنها أخذت من ضِلع الرجل فهي من صوره الوجودية ، أو هي الشكل الذي يرضيه أن تكون عليه ليتم بينهما الانسجام في حدود الإمكان .

وأقول إن هذا الكلام هداني إلى كثير من المعاني :

فالحوَل يكثُر في النساء ويقلّ في الرجال ، ومعنى ذلك أن للذكر مثل حظ الأنثيين ، حتى في القوة البَصرية[1] .

وإذا وُجد العَور في إحدى السلالات فالطفلة ترثه قبل الطفل .

وإذا كان أحد الأبوين غبياً دميمًا وثانيهما ذكيًا جميلاً فالغالبُ أن يرث المولود الذكر ما عند أبويه من الذكاء والجمال [2] ويؤيد هذا أن الديك أجمل من الدجاجة ، وأن الجواد أجمل من الفرَس ، وهذا الحُكم مطّرد في أكثر المخلوقات ، وهو يظهر واضحا في أشجار التوت ، بغض النظر عن ظهوره في سائر الأشياء .

وإذا صدقنا رواية شيث بن عربانوس عما كان بين آدم وحواء فلن يفوتنا أن نسجل أن آدم هو الذي نطق قبل أن تنطق حواء ، وهل كان لتلك المرأة تاريخ في الجنة غير انصياعها لدسيسة الحية ، وعن الأنثى تنقل الأنثى أصول الفساد ؟

الظاهر أن للذكورة خصائص لا تصل إليها الانوثة بأي حال . والظاهر أيضًا

(١) سنرجع إلى هذا المعنى بشيء من التفصيل .

(٢) واللون يرثه أيضا الذكر قبل الأنثى .

أن الرجال لن يزالوا بخير ما فطِنوا لمكر النساء . وهل انخدع آدم بحيلة حواء أو حيلة الحية إلا في لحظة من لحظات الضعف [1] .

وأستطرد قليلا فأقول :

وقع في هذه الأيام حادثٌ فظيع ، هو اصطدام أحد كبار الموظفين بسيارة يقودها أجنبيٌّ سكران ، وعُلّق الموظف بمقدم السيارة ، ومضى السائق ينهب الأرض لينجو من العقاب . وتنبهت لخطر الحادثة الفادحة سيدة مثقفة ، فمضت بسيارتها في ملاحقة ذلك الجاني الأثيم ، ولكنها فوجئت بإشارة مرور فوقفتْ !!

وهنا الشاهد الذي أريد : فلو كان في سيارتها رجل لداس إشارة المرور في سبيل الواجب ؛ ولم يترك ذلك الجاني الهارب بلا اقتناص أو افتراس .

هي امرأة وإن نالت إجازة الحقوق ، وطاعة إشارة المرور هي في نفسها الصورة الحرفية لطاعة الواجب ، أما تشريح هذه الدقائق فهو من خصائص الرجال ، والرجل هو الذي يدوس جميع الأنظمة في سبيل الإعزاز لما يؤمن بأنه حق .

وجملة القول أن سخرية آدم من مواهب حواء لم تكن طغيانا في طغيان ، وإنما اعتمدت على قواعد وأصول . ولم تقع من آدم إلا لأنه كان يستوحي الفطرة والطبع، ولو أن الجنة لعهده كان فيها مدارس وكليات لكان من المرجح أن يكون حديثه عن حوّاء مُغلَّفاً بالرياء !

ثم تجيء عقدة أغرب وأعجب ، وهي تفكير آدم في مسألة النسل ، وهي مسألة لم يفكر فيها آدم إلا بعد تأمله لما في الجنة من فصائل الطير والحيوان ، ولم يكن فطن إلى أنها مسألة تلحق عالم النبات ، وقد تمس عالم الجماد .

ومن كلام شيث نفهم أن تفكير آدم في مسألة النسل لم يصر من المعضلات

(١) سيجيء لهذه النقطة توضيح في كلام شيث .

النفسية ، وإنما يعتاده من حين إلى حين ، ثم ينصرف عنه بالانشغال بمداعبة حواء، كأن يرميها بنواة من نوى الجوز ، أو يقذف بها في «الكوثر» على حين غفلة ، أو يدوس شعرها الذيّال .

والحق أن عقم آدم في الجنة يحتاج إلى تأويل .

أليس من العجب أن يكون كل ما في الجنة خصباً في خصب ونماءً في نماء ، إلا فيما يتصل بآدم وحواء ؟

كان الشجر والزهر والنبات والطير والحيوان ، كان كل أولئك في حيوية مخصبة لا يعتريها ضعف ولا خمود ؟ وكان ثرى الجنة ينبت الأفانين من الألوان كل يوم : وكان هواؤها يتجدد في كل لحظة بأسلوب يدل على أن الهواء مخلوقٌ له روح ، وكانت أسماك الكوثر تجتمع وتفترق بأريحية ودلال ... كان كل ما في الجنة على جانب من الذاتية ، ولو كان من صغار الدوابّ والحشرات ، أو ضعاف الذباب والبعوض ، ولجميع الخلائق في الجنة مكان .

ازدهرت الجنة في أغلب مناحيها وأثمرت ، وخُصَّ بالعُقم آدم وحواء ، فما هي الأسباب ؟

لم يفكر شيث بن عربانوس في تعليل هذه الظاهرة الغريبة . ونحاول تعليلها فنقول :

كان سبب ذلك العُقم فيما نفترض ان حياة آدم وحواء في الجنة كانت حياة دعة وهدوء واطمئنان وأمان ، وهذا اللون من الحياة يخمد الحيوية الجنسية والمعنوية ، ويحوّل الرجل والمرأة إلى حيوانيّن جامدين لا يفكران في التسلح لدفع عوادي الوجود .

والذي يقرأ ما أُثِر من الآداب الفطرية يلاحظ أن النسل لم يكن يُبتغى للزينة ، وإنما يبتغى للدفاع والحفاظ ؛ ومن هنا كانت قلة النسل من خصائص الأمم التي يقل خوفها من العدوان أو تقل رغبتها في السيطرة والاستعلاء ؛ ومن هنا أيضاً كان

الناس يفضلون البنين على البنات ، لأنهم لا يبتغون من الذرية غير القدرة على مكافحة الباغين والعادين من الخصوم والنظراء .

ولم يكن لآدم في الجنة نصيبٌ من الخوف ، فقد كان ينام حيث يريد بكل اطمئنان ، كان يتفق له أن يجعل صدر الأسد الرابض وساده الرفيق ، وقد طاب له مرة أن يطوّق «حوَّاء» بعقد مؤلف من أفراخ الثعابين .

ومع هذا لم يكن «آدم» يدرك ما في هذه المظاهر من غرابة وشذوذ ، فما كان سمع ولا عرف أن في الوجود أشياء فيها إيذاء .

وأقول : إن ذلك الأمان الموصول هو الذي أخمد عواطف «آدم» وأغناه عن التسلح بالنسل ، وحبّب إليه طعم القرار والهدوء والخمود . وكذلك صنع الأمان «بحواء» ، فغفت عواطفها الجنسية ، واستنامت إلى العُقم ، وهو مرض لم تلتفت إليه إلا حين رأت إحدى الظبيات تباغم رشأها الوليد في بعض غياض الفردوس .

ويؤيد هذه النظرية أن «آدم» لم ينجب إلا حين هبط الأرض ، فقد شعر بالخوف ، وأدرك أن لا بد له من أنصار وأعوان من الأبناء .

ومعنى ذلك أن الذرية ضرب من الفاعلية الحيوانية ، وهي تصدر عن الرجل كما يصدُر السم عن ناب الثعبان .

وفي هذا المقام نشرح ظاهرةً لم تُشرح من قبل ، وهي ما يلاحظ من قلة النسل عند العبقريين ، فما التعليل الصحيح ؟

يرجع السر إلى أن السلاح الماضي في يد العبقري هو مواهبه الذاتية ، فهو يحارب بالفكر قبل أن يحارب بالنسل ، وهواه لا يقف عند إخضاع الخصوم من الأهل والجيران ، وإنما يمتد إلى إخضاع الألوف والملايين من سكان الشرق والغرب والشمال والجنوب .

والنسل الحِسّيّ عند الجاهل سلاحٌ موقوت يخلقه الخوف ؛ أما النسل

المعنوي عند العالم ، فهو سلاح موصول تخلقه الرغبة في السيطرة الدائمة على الأفكار والعقول .

ولهذا السبب كانت ذخائر الأمم من الذرية لا تصل عن طريق العبقريين ، لأن هؤلاء لا يشعرون بالانفعال الحيواني شعورا يكفي لأن تصدر عنهم الأنسال الكثيرة ، وإنما يتجه انفعالهم إلى جانب آخر هو الرغبة العاتية في غزو العالم عن طريق الفكر والبيان .

وهل فطن أحدٌ إلى المعنى المطوي في قول كُثيِّر :

بُغاثُ الطير أكثرها فراخاً ... وأُمّ الصقر مِقلاتٌ نَزُورُ

فما معنى ذلك ؟ معناه أن أم الصقر لا تحتاج إلى حماية ، فهي لا تكثر من الذرية . ومعناه أن ضعف البغاث يوحي إليها بالإكثار من الأفراخ لتقاوم خصومها بالقوة العددية في حدود ما تطيق.

والمشاهد أن المرأة الدميمة في الأغلب ولود ، كما أن المرأة الجميلة هي في الأغلب عقيم ، وكان ذلك لأن الدمامة تحتاج إلى حماية من الذرية ؛ أما الجمال فهو في ذاته قوة وسلطان .

وللملائكة في أذهان الناس صورة مجردة من النسل ، لأن الملائكة مؤيدون بقوة ربانية تغنيهم عن الاعتزاز بالأبناء .

والله عز شأنه «لم يلد ولم يولد» لأنه منزه عن الضعف تنزيها خاليا من الشوائب ، وهذا لا يمنع من أبوّته الروحية لجميع ما في الوجود ، إن صح التعبير بالأبوّة في الدلالة على رفق الخالق بالمخلوق .

وصفوة القول أن عقم آدم في الجنة له أصل ، فقد كان أكرم من في الجنة ، وكان المنطق يوجب أن يعيش بلا أسندة من الذرية غناه عن الكفاح والنضال .

ولكن ... ولكن الأقدار أرادت غير ما يريد ، فنقلته من الجنة إلى الأرض ، ليشعر بالخوف ، وليحتاج إلى معاصم من الأبناء ، وليذوق طعوما من الأفراح

والأحزان لم تكن تخطر له في بال .

والواقع أن الله كان أراد بآدم أشياء ، حين خلق له حوّاء ، فقد شغلته عن التكبير والتسبيح والتهليل ، وزيّنت له الثورة على ما في الجنة من أنظمة وقوانين .

وشيث يحدثنا أن آدم كان صدرُه ضاق بالجنة بسبب ما لها من أسوار وجدران تجعل من المستحيل أن يسلم من تعقب حواء ، وتفرض عليه التفكير في طلب النجاة ولو بالارتماء في أحضان الأرض ، مع أن بين الجنة والأرض فراغا لا يعبره الهابط إلا في أعوام أطول من أعمار الأشجان . وسنرى فيما بعد أنه لم يفق عند هبوط الأرض إلا بعد أزمان وأزمان .

هل كان آدم سعيداً في الجنة ؟

الظاهر أنه كان من السعداء ، ولكن شيث بن عربانوس يحدثنا أنه طفح الدم في الجنة بسبب صحبة حواء . فكيف وقع ذلك البلاء ؟!

وقع من عدم التكافؤ الروحي بين الرجل والمرأة ، فهما مخلوقان مختلفان إلى أبعد حدود الاختلاف . وزاد في النفرة أن آدم كان يميل إلى طاعة الله ، وأن حوّاء كانت تشتهي الخروج على طاعة الله . وتعليل ذلك سهل : فأسرع الناس إلى المخالفة عن أمر الحق هم الضعفاء .

صبرَ آدم ما صبر إلى أن وقع «حديث السِّدرة» ، وهو حديث سجله شيث بن عربانوس بأمانة ونزاهة وإخلاص . فما ذلك الحديث ؟!

٣- حديث السدرة [1]



كانت حواء تعبت من عقل آدم ، وكان آدم تعب من جهل حواء ، وكان جوّ الخلاف ينذر بأن صاعقة ستنقض على رأسيهما بعد حين ... ولذلك الخلاف المزعج تفاصيل في كلام شيث بن عربانوس ، فما تلك التفاصيل ؟

كانت الأوامر والنواهي ثقُلت على آدم وحواء (لحكمة يعلمها الله) وكان آدم مع ذلك يتذرَّع بالصبر الجميل ، فيراعي الحدود بقدر ما يستطيع . أما حواء فكانت تتمرد من حين إلى حين ، وإن كان شيث يؤكد أن تمردها لم يكن في جوهره إلا فنًّا من فنون الدلال .

ويظهر من كلام شيث أن حواء لم تكن تدرك أن النعيم قد يزول بالعصيان ، فما دار في خَلَدها أن في الوجود مكاناً غير الفردوس يُنفى إليه العصاة والمتمردون، ولا جاز في وهمها أن ينقل الإنسان من دار إلى دار بسبب الثورة على الأدب والذوق . وكيف تدرك حواء هذا المعنى وقد ولدت في جنة دانية القطوف، ولم تسمع بأخبار الأرض إلا بعد أن قضى الله في أمرها بما أراد ؟

ويظهر أيضا من كلام شيث أن آدم كان يخاف الله أشد الخوف ، وكان يدرك بفطرته أن النعيم قد يزول بالعصيان ، وأن لا بد من تأديب حوّاء إن تمادت في الضلال .

كان آدم يفهم جيداً أن الله لا يتأذى بجهل الناس ، وإنما يوقع العقاب

(١) الرسالة : ٩ مارس ١٩٤٢ .

بالجاهلين لخروجهم على نظام الوجود ، وهو نظام يتأثر باليسير التافه من الانحراف ، لأنه غاية في الدقة والترتيب ، ولا يحتمل الثبات على الاعوجاج .

وكان آدم يقسم لئن رأى حواء ليذيقنها العذاب على ما اعتزمت من قُرب شجرة التين [1] ؛ ولكنه كان يتخاذل حين تُقبل عليه بجسمها الفينان ، وثغرها الرشوف ، فقد كانت ثناياها أحب إليه من حَبّ الرمان ، وكان قدها الرشيق نهاية ما يتصور من روعة الخطرات .

كان آدم يشعر بأن عزيمته تتحلل إلى أوهام حين يرى جسم حواء ، وكان يعجب من أن يكون في الأوامر والنواهي ما يضع حدوداً لسيطرة تلك الظبية العصماء.

والظاهر أن الجسد الجميل يزيغ البصائر والعقول ، وينقل الرجل من حال إلى أحوال ، ويضيف الحليم إلى طوائف السفهاء ، ولا عاصم للرجل من فتنة الجمال إلا أن حمته وقاية الله .

وكان قدّ حواء من القدود السمهرية ، وكانت لها مِشية تزلزل القلب والوجدان ، وكان لها في الضوء لون وفي الظل لون ، وكانت ظلال الأهداب توهم أن على خديها زغباً يشبه زغب الخوخ ، وكان غضبها أحلى من الرضا ، وقطيعتها أطيب من الوصال، وكان تثنِّيها وهي تتخطّر فوق شط الكوثر غريبة الغرائب في السحر والفتون.

وكان آدم أضعف من أن يقاوم حواء ، فقد كان في فورة الشباب ، والشباب جهل ، وكان أعجز من أن يرجع على نفسه بالتأديب والتهذيب وهو يعاقر الجمال لأول عهده بالوجود ، وأخطر الحب هو الحب الأول ، ولكل آدم في الدنيا حواء .

كان آدم يقسم ويُقسم ثم يقسم لئن رأى حواء ليقطعنها إلى قطع صغيرة حقيرة ثم يقدمها إلى ما في أرباض الجنة من ثعالب وذئاب ، جزاءً بما تقترف من التفكير في قرب شجرة التين ، ولكنه كان يُصعق حين تُشرف عليه بقدها المرهف

(١) اختلفت الأقوال في «الشجرة » فقال قوم : هي الكرمة ، وقال قوم : هي شجرة التين ، وشيث لا يذكر غير الشجرة الثانية .

وطرفها النشوان .

كان يبدأ بالزجر ، ثم ينتقل إلى العتاب ، ثم ينتهي بالاستسلام ، وذلك مصير الغرماء لأمثال حواء .

دعاها مرة إلى أحد الأدغال ليقتلها في خفية ويستريح ، فحماها منه جسمها المجدول بأسلاك الكهرباء ، فارتدّ وهو هائم حيران ، وعرف أن الهوى فرضُ على من وهبه الله نعمة الشعور بعبقرية الجمال .

كان آدم رجلاً وكانت حواء امرأة ، وإذا تلاقي رجل وامرأة فلا مجال لغير الغيِّ والضلال ، وقد غوى آدم بطاعة حواء فقضى الله في أمره بما سجل التاريخ .

جسد حواء صنع به ما صنع . جسد حواء غفر جهل حواء . جسد حواء فعل بآدم الأفاعيل ، فزيّن له الخضوع لهواها الأثيم .

كان آدم يضطرب ويرتعد ، حين تختال أمامه حواء بقدها المؤلف من الأحلام والأهواء ، وكان لا يعرف أين يضع قدميه وهي تساوره بعينين غافلتين عما تصنعان بقلبه المأخوذ ، وعقله الموقوذ، وهل يبقى لمن يصارع الجمال قلبٌ أو عقل ؟

جسد حواء صنع بآدم ما صنع ، ولكنه تماسكَ في إحدى اللحظات وقد جالسها تحت السّدرة فدار بينه وبينها ما سجل شيث من هذه الأحاديث :

ـ أين كنت يا حواء ؟

ـ وما أنت وهذا السؤال ؟

ـ من حقي أن أسأل .

ـ وليس من واجبي أن أجيب !

ـ إذن نفترق ؟

ـ وإلى أين تذهب ، وللجنة أسوار أمنع من الجبال ؟

ـ السور الحصين هو أنت يا شقية ، فإذا نجوت منك فقد نجوت من جميع المهالك والحتوف

ـ أنت تنجو مني يا آدم ؟ أنت تنجو مني ؟

«ونظرت إليه بعينين نجلاوين فخشع واستكان وهمّ بأشياء»

ـ كل ما فيك جميل يا حواء ، إلا التفكير في قرب شجرة التين ...

ـ والموت أهون من الصدوف عن شجرة التين

ـ هي محرمة بأمر الله

ـ وكيف وقد رأيت ظبية تعطو إلى أوراقها منذ لحظات بلا تهيب ولا تخوُّف ولا احتراس ؟

ـ الظبية حيوان

ـ ونحن من الحيوان

ـ ولكن التكاليف تجعلنا أعظم من الحيوان

ـ وما قيمة التكاليف ؟

ـ التكاليف لا توجه إلا إلى الحيوانات الراقية .

ـ وأنت حيوانٌ راقٍ يا آدم ؟

ـ لأني في صحبة حواء !

«وهنا وقع اشتباك بين خلقتين فطريتين لم يؤهلهما التهذيب لمراعاة الأدب في النضال والصيال»

ـ كان الظن أن تعرف ما نعاني من الظلم في الفردوس

ـ وماذا نعاني يا حواء ؟

ـ نعاني الخضوع للأوامر والنواهي ، وتلك أول مرة أفهم فيها المراد من وصف الله بأنه صاحب العزة والجبروت

ـ وهل يظلمنا الله يا حواء ؟

ـ انعدام المساواة من صور الإجحاف

ـ أتريدين أن نكون أشباهاً لما في الجنة من طير وحيوان ؟

ـ وما المانع من ذلك ؟

ـ المانع أننا ارتقينا ؛ وللرقيّ تكاليف

ـ وما حظنا من الرقيّ المقيّد بواجبات وفروض ؟

ـ وهو حظٌّ عظيم ، يا حواء

ـ وكيف ؟

ـ لأنه يجعل لنا إرادة ذاتية .

ـ ومعنى ذلك أنه يبيح لي أن أصارعك فأصرعك ؟

«وتصارع آدم حواء فانصرعتْ حواء »

ـ لا تنزعجي من الهزيمة ، أيتها الشقية !

ـ أحب أن عرف ماذا تأكل حتى صرت أقوى مني

ـ طعامنا واحد ، ولكن الروح مختلف

ـ يظهر أنك تأكل من شجرة التين [1]

ـ قوتي الحقيقية ترجع إلى الانتهاء عن أكل شجرة التين ، وطاعة الله هي أعظم سلاح يتسلح به الرجال

(١) في هامش الكتاب عبارة تفيد ان حواء كانت تتوهم أن آدم يأكل خفية من شجرة التين وأن ذلك سبب قوته العاتية (زكي مبارك)

ـ والنساء ؟

ـ الطاعة قوة ينتفع بها جميع الخلائق ، حتى الشجر والنبات .

ـ نحن إذن خُلقنا للمتاعب ، فالطاعة لا تتم إلا بجهاد عنيف

ـ الجهاد الصادق رزقٌ نفيس ، يا حواء ، ولا يكون إلا بتوفيق ، فهو يستحق الشكران .

ـ أتريد أن أجاهد نفسي فأبتعد عن شجرة التين ؟

ـ ليتك تفعلين !

ـ اسمع يا آدم ، فعندي فتوى تنفعك

ـ أنتِ تُفتين يا حواء ؟

ـ دع اللجاجة ثم اسمع ... حدثتني الحية أن النهي عن شجرة التين نهيُ تنزيه لا نهيُ تحريم

ـ وإذن ؟

ـ وإذن يجوز قرب الشجرة بلا تعرض لغضب الله ، وإن تعرضنا للعتاب [1]

ـ اسمعي يا حواء واعقلي ... أنا لا أعرف الفرق بين نهي التنزيه ونهي التحريم . إنما أعرف أن الله نهي عن الشجرة ، وأعرف أن الطاعة واجبة ، وأنا أخشى عواقب العصيان

ـ قلت لك إن الحية حدثتني ...

ـ أنت في نعيم يحتاج إلى حراسة ، فاحترسي من الدسائس يا شقية !

ـ كل شيء جائز ، إلا أن تكون في الجنة دسائس ، فهذب كلامك يا آدم !

ـ الدسيسة لا تلاحق غير السعداء بالعيش الطيب والمواهب السامية .

(١) لم نر هذا الكلام في غير كتاب شيث . (زكي مبارك)

وستعرفين يا حواء صدق ما أقول إن استمعت كلام تلك الرقطاء

ـ قلت لك إن قرب الشجرة لن يعرضنا لغضب الله

ـ ولا يعرضنا للعتاب ؟

ـ عواقب العتاب هينة ، وهو في الأغلب يتوج بالإعتاب

ـ المهم في نظري أن نقف حيث وقفتنا الإرادة الربانية ، بلا تخريج ولا تأويل، فكل خروج عن الطاعة يترك في القلب حفرة ، والحفرة قد تتحول إلى هاوية ، وإذا تذوق المرء أو المرأة طعم الجموح فعلى الأخلاق العفاء

ـ أنا لا أفهم معنى النهي عن شجرة التين ، ولها ثمر معسول

ـ من حق الله أن ينهي عن الطيبات

ـ لأي غرض ؟

ـ ليختبر قدرتنا على ضبط النفس ، فلا قيمة لترك الأشياء الكريهة ، وإنما القيمة في ترك الأشياء الشهية حين يوجّه إليها النهي ، ولو عن طريق التنزيه ، كما أفتت الحية الباغية

ـ لا تذكر الحية بسوء فهي صديقتي

ـ آفة من الآفات أن تكون للمرأة صديقات !

ـ هل يغيظك أن يكون لي في الجنة رفيقة أسكن إليها من وقت إلى وقت ؟ أنت إذن لا تحبني

ـ أحبك حبا لا يطاق ، ولهذا الحب عواقب ستعلمين أنباءها بعد حين !

ـ قبلني إن كنت تحبني

ـ ستقبّلك الحية فهي أقرب إليك مني !

«وفي تلك اللحظة سُمع فحيح هو دعوة الحية ، فجرت إليها حواء ، وتركت آدم لمصارعة ما في صدره من آراء وأهواء ».

فماذا قال آدم لضميره وهو يحاوره تحت السدرة بعد انصراف حواء ؟

من كلام شيث نفهم أن آدم زلزل بعد ذلك الحوار ، فقد تأهبت نفسه لمناقشة الأوامر والنواهي ، وصح عنده أن لكل مسألة وجهين ، وأن من حقه كمخلوق مفكر أن يدرس ما يعرض لذهنه من حقائق وأباطيل .

بدا له أولاً أن الطاعة أفضل ، وأن الهيام بالتخريج والتأويل قد يكون من نزعات الشياطين ؛ ثم رجع فرجح أن النهي قد يكون ضربًا من الإغراء ، فليس بمعقول أن تكون ثمرة التين من الخبائث وهي فيما يظهر طيبة المذاق .

والتفت مرة ثانية فرأى من الحمق أن يخالف الرجل عن أمر الله من أجل امرأة.

ثم عاد فرأى أن تلك المرأة هي رفيقه الأول والأخير في الفردوس ، فما ارتاحت نفسه لرؤية الأشجار والأزهار إلا وهو مأهول الروح بهوى حواء .

هي امرأة لا تخلو من هوج وطيش وسخف ، ولكنها من ذوات المعاني ، فقد كانت تعرف كيف تصيره جذوة من الصبوة حين تشاء ، وكان آدم لا يتمتع بإشراق الفكر إلا في لحظات الصبوات .

ومن عجيب أمره أنه كان يتمثلها حين تغيب ، فقد كانت ذاكرته تعي الأصوات والألوان والحركات إلى الحد الذي يسمح بأن يعانق حواء وبينه وبينها فراسخ وأميال .

ولكن... ولكن الله نهاه عن الشجرة ، فماذا يصنع ؟ توجّه إلى الله بهذا الدعاء :

«يا خالق الكوثر ، ويا فاطر الأعناب والنخيل ، بك أستجير من ظُلم الجمال!

يا مبدع العيون الكحيلة ، والخدود الأسيلة ، بك استغيث من سحر الفُتُون !

أنت سويتني بيديك من جسد وروح ، وأنا بالروح أطيعك وبالجسد أعصيك، فهل ترى عدالتك أن الحسنات يُذهبن السيئات ؟

إن كنت ترى أن شجرة التين شجرة مسمومة فاصرف عنها حواء ، فلم تعد لي طاقة على مقاومة حواء ؛ ولطف صنعتك هو الذي جذبني إلى تلك الهوجاء .

وإن كنت ترى أن الهاوية تترقب من يعصيك فجرّد حواء من سـحرها الفتّـان لأملك من أمري ما لا أملك ، ولأستطيع الصبر عـن ثغرهـا الرشـوف ، فأنـت يـا مولاي تعلم أني بها من الهائمين .

أنا عبدك وحواء أَمَتُك ، فاقض في أمرنا بما تشاء ، يا أحكم الحاكمين ».

وانتظر آدم أن يغيّر الله ما بنفسه بعـد هـذا الـدعاء الصـادق ، ولكـن الأقـدار سكتت عنه فظل مخلوقاً من جسد وروح ، أو من طين وماء .

وفي لحظة من لحظات الضجر عزم على المعصية ليعرف مكانه من الوجود .

في تلك اللحظة ظهرت حواء فهتف :

ـ إلى شجرة التين ، يا حواء !

ـ هل غيّرت رأيك ، يا آدم ؟

ـ بعض الشيء !

ـ أنت إذن تحبني ؟

ـ ومن أجل هذا الحـب أتعـرّض لمكـاره وخطـوب ، فقلبـي يحـدثني بأننـا مقبلون على بلاء !

ـ لا تحزن فأنا معك

ـ من موجبات الحزن أنك معي ، يا حمقاء !

فكيف انتهت بهما الأمور تحت شجرة التين ؟

(للحديث شجون)

٤- تحت شجرة التين[1]



جاهد آدم نفسه في حدود ما يطيق ... وماذا يطيق المرء وهو يجاهد النفس في أهواء تسوقها امرأة ؟ سينتهي أمره إلى الهزيمة ، إلا أن تؤيده قوة ربانية تصرف عنه السوء وترده إلى الاعتصام بالعقل . ولحكمة يعلمها الله ضعف آدم عن مقاومة حواء ، ودعاها إلى التلاقي تحت شجرة التين .

وهنا يذكر شيث في كتابه أن حواء تلكأت في الاستجابة لذلك الدعاء ، ولزمت مكانها تحت شجرة الطلح ، كأنها تريد أن تحمله على الإلحاح فيكون البادئ بالعصيان .

ولو تأمل شيث قليلاً لذكر تعليلاً غير هذا التعليل ، فالرأي عندي أن حواء توهمت أن لآدم رغبة في شجرة التين ، وأن تمنّعه لم يكن عن صدق ، وإنما كان يريد أن يحمّلها تبعة العصيان .

والحوادث تؤيد هذا الافتراض ، فما كاد آدم يخبر حواء بأنه سيسايرها فيما تريد حتى فترت رغبتها في قرب الشجرة المحرمة ، وأعلنت اكتفاءها بما أحلّ الله من طيبات الفردوس .

فما معنى ذلك ؟ وما مغزاه ؟

معناه أن حواء تحب أن تسلك في جانب يغاير ما يسلك آدم من الجوانب ، فقد أحبت حواء التين حين ثار آدم عليه ، ثم زهدت فيه حين رأته من هواه ، وإلا

(١) الرسالة : ١٦ مارس ١٩٤٢ .

فكيف جاز أن يدعوها فلا تجيب وهي التي قهرته قهراً على أن يذعن لما تريد من قرب شجرة التين ؟

وابتسم آدم حين رأى حواء تهدأ بعد ثورة وتلين بعد شِماس ، ثم حمد الله على انحسار الغمة وانجلاء الضيق ، وأخذ في الاستغفار من الذنب الذي اقترف . فقد حدَّثه الضمير بأنه أذنب بالفعل ، وإن لم يذق الثمر الممنوع ، لأن نية السوء لا تقل بشاعة عن السوء في نظر الأخلاق ، وكان آدم يعرف أنه يعامل الله ، والله يحاسب على النيات بأقصى مما يحاسب على الأقوال والأفعال ، لأنه يحب لعباده أدب الملوك لا أدب العبيد .

ثم نظر آدم فلم ير حواء ، فأين ذهبت ؟

فتش عنها في غياضٍ كثيرة ، وسأل عنها أسراباً من الطير والظباء فلم يظفر بجواب ، فأين ذهبت ؟ وكيف ضاعت ؟ وما السبيل إلى مكانها في الجنة الفيحاء ؟

أتكون غضبتْ من طاعة آدم وكانت تحب أن يتمرد ؟

لقد خطر لآدم هذا الخاطر ، فقد علمته التجارب أن حواء لا تتمتع بالصحوة الجسدية والروحية إلا في أوقات الخلاف . وهل ذاق آدم حلاوة حواء إلا في لحظات الثورة على الأوامر الربانية ؟

أمرُ هذه المخلوقة أعجب من العجب ، فهي لا تحلو ولا تطيب إلا عند النضال ، وهي تفقد كل قيمتها حين تتناول شؤون الحب في طاعة مجردة من الإحساس ، كالطاعة التي تصدر عن فتاة لم تبلغ سن الكيد، وكيدُ المرأة إثمٌ جميل !

فكّر آدم طويلا في غيبة حواء ، وانزعج حين خطر له أن تكون حُرمت الثورة على ما ترى وتسمع ، وأنها لذلك سكنت إلى العزلة في جُنَينة مهجورة يسقيها نُهَيرٌ مجهول من رواضع الكوثر وهي رواضع تُعد بالألوف [1] .

(١) الرواضع: هي النهيرات التي تأخذ زادها من النهر الأعظم، أما الروافد فهي النهيرات التي تمده بالسيول.

وعاد آدم إلى نفسه ليعرف حاله في غيبة حواء ، فصحّ عنده بعد التأمل أن العبادة الصحيحة لا تكون إلا بالجهاد ، ولا جهاد بدون أهواء .

يجب أن يكون في الوجود حرامٌ وحلال ، لنشعر بالذاتية في قرب هذا واجتناب ذاك ، وإلا صرنا خلائق تواجه الوجود بلا اكتراث ، وإذا انعدم الاكتراث فقد انعدمت الأخلاق . وقد يكون العصيان على نية أفضل من الطاعة بلا إحساس، لأن المهم أن نُدان حتى نعصى ، ونثاب حين نطيع ، ولا يتمّ ذلك بغير النية الواضحة فيما نباشر من مختلف الأعمال ...

أتكون حواء ترهّبت فلاذت بأحد الكهوف ؟

ذلك ما خاف آدم أن يكون ، فالترهب نذير الموت ، وهو يكره لحواء أن تموت .

وكيف يعيش آدم إذا غفا كيد حواء ؟

لقد أبدعته إبداعاً وأنشأته إنشاءً ، حين تولّت إضرام الجمر المكنون في قلبه الوسنان ، وآدم رجل ، والرجل يحفظ الجميل .

ومرّ حين وأحايين وحواء لا تعود .

وشعر آدم بانعدام أسباب الثورة والهدوء فأيقن بقرب الفناء

وما حياة الرجل إذا خلت من الأحلام والحقائق والأباطيل ؟

ما حياته إذا حُرِم التنقل من ضلالٍ إلى هدًى ، ومن هدًى إلى ضلال ؟

قيمة الرجل بالجهاد ، ولا جهاد بدون أهواء ، وقد أمسى صدر «آدم» وهو جلمود أملس لا ينبت الأزهار ولا الأشواك ولا يثبت فوقه تراب ولا ماء .

والتفت «آدم» فرأى من الخير أن ينقطع للاستغفار ليتوب الله عليه ، وهل أذنب حتى يتوب ؟

إن كان كل حظه من المعصية أنه رضي مسايرة «حواء» ، وقد ذهبت «حواء» ولم يبق موجب للقنوت والابتهال .

الموت أفضل من حياة تخلو من مقارعة هوى النفس في كل يوم . والرجل الذي يواجه المعاني بقلبٍ أغلف شبيه بالرجل الذي يطالع سفر الوجود وهو معصوب العينين . وهل كان الموت فناءً إلا لأنه يصدنا عن صنع الخير واجتراح الآثام ؟

وما طعمُ الاستغفار على لسان من لم يذنب ؟ وما لونُ الطاعة في عين من لم يقاوم الأهواء ؟

لقد مات «آدم» وهو حي ، فلم يعد يدرك ما في الفردوس من سِحر وفُتون .

كان «آدم» يجد لذة في ضرب «حواء» ، فأين هي الآن ليتمتع بلطم خدها الأسيل ؟!

وكانت «حواء» تجر «آدم» إلى مآزق تُشعره بقوة الحيوانية ، فأين هو اليوم من تلك المآزق ؟ وأين سبيله إلى الفتك والجنون ؟

لقد خلت حياته من جميع المعاني بعد غيبة «حواء» ، وما كان يعرف أنها تملك من الروحانية الأثيمة ذلك الحظ العظيم .

وانطلق «آدم» يراود معاهد الحب ، عله يجد «حواء» مختبئة في بعض ألفاف البواسق ، على نحو ما كان يقع في الأوقات السوالف ، ولكنه لم يظفر بغير اليأس .

أين «حواء» ؟ أين «حواء» ؟

أين الصبية الجميلة التي أوحت إليه فكرة الثورة على الشرائع ؟

أين الخلقة الحلوة التي زينت له طعم العصيان ؟

كان آدم يشتهي جميع ما في الجنة من أطايب قبل أن تفارقه حواء ، ثم أمسى وهو موقوذ الشهية بسبب الفراق ، وهل تطيب الحياة لمن يعيش بلا أنيس موسوم بالصباحة والجمال ؟

ذلك نعيم ذهب ، وأمل ضاع ، فليقتل آدم نفسه إن شاء .

هي امرأة مخبولة ، ولكنها مشتهاة ، والشهوة رزق من الأرزاق ، وإن قيل في تجريحها ما قيل .

كان آدم يهز الشجرات المثمرات ليُطعم حواء ، وهو اليوم يرضى بما يسقط من الثمر المعطوب ، إن بقِي له شيء من نعمة الجوع ، والجوع نعمة لا يحسها غير الأصحّاء .

كان لآدم في الجنة تاريخ بسبب اللجاجة التي كانت تثور عن حواء من حين إلى حين ، فما حياته وقد أمسى مغسول القلب والروح والوجدان ؟

أيعبد الله بالاستغفار ؟ وممّ يستغفر وهو مقتول الأهواء ؟

أيسبّح لله ؟ وكيف ؟ إن التسبيح تنزيه وهو معنًى لا يدرك بغير القياس ؟

لو عادت حواء لاستطاب آدم شجرة التين ، ولكن متى تعود ؟ لقد اكتفت الشقية بأن تطمئن إلى أنها مصدر ضلاله وهداه ؛ وكذلك رأت أن تتركه في حيرة دامية عددا من الأعوام العجاف ؛ وبغيُ المرأة لا يحتاج إلى برهان .

استيأس آدم فرضي بالانزواء في أحد الأدغال ، وعند ذلك شعرت حواء بالشوق إلى مصاولته من جديد ، والمرأة يؤذيها أن يهدأ الرجل ، ولو كان في المحراب .

ـ آدم ! آدم !

ـ حواء ؟

ـ نعم ، حواء ، ألا تراني ؟

ـ كنت حسبت أنك ذهبت إلى غير مآب

ـ قبل أن نأكل معاً من شجرة التين ؟ هذا مستحيل !

ـ وهل نعصي الله يا حواء ؟

ـ سترى أن المعصية طيبة المذاق (؟!)

وتنبّه آدم فرأى أنه مقبل على خطر جديد فدار الحوار بأسلوب جديد .

٥- شروق العقل [1]



أفاق آدم من غفوته على قدوم حواء ، وكان المنتظر أن يتلقاها بالضم والتقبيل، ولكنها عاجلته بضربة قاصمة هي تذكيره بشجرة التين ، فغام قلبه بعد صفاء ، عاد فانطوى على نفسه كما يصنع الأرقم في ليالي الشتاء .

ـ آدم ، ما لي أراك شارد اللب ؟

ـ من الفرح بقدومك بعد طول الغياب !

ـ أُنظر ، أُنظر ، ألا ترى أني صرت أنضر من أزهار التفاح ؟

ـ وأحلى من ثمار التفاح !

ـ إذن ما هذا الخمود الذي يغالب قواك ؟

ـ ما أنا بغافل عن واجب الترحيب بهذا الجسم الفينان ، الجسم البديع الذي أضلني وهداني ، ولكني تذكرت «صلاة الشكر» وهي صلاة لا تتم بلا اعتكاف ، فإن رأيت أن تتركيني وحدي لحظة أو لحظتين ...

ـ انتهابُ الجمال هو في ذاته شكران لواهب الجمال

ـ أبغضُ ما تكون المرأة حين تتفلسف ، فاتركيني لصلاتي ، وإلا مزجت الكوثر بدمك النجيع . انصرفي ولا ترجعي إلا إن سمعت ندائي .

«وخافت حواء عواقب هذه الغضبة فولت هاربة لا تلوى على شيء وتركت

(١) الرسالة : ٢٣ مارس ١٩٤٢ .

آدم للصلاة ، وهي ترجو أن تكون صلاته أقصر من الأمل في سيادة العدل»

فماذا وقع بعد انصراف حواء ؟

هل صلّى آدم ؟ وكيف تصح له صلاة وقلبُه يفور ، وعقله يثور ؟

أخذ آدم يفكر فيما انتهى إليه أمره وأمر حواء ، فقد كانا غايةً في الطاعة والخضوع ، فما الذي جدّ حتى أصبحا غاية في التمرد والعصيان ؟

أيرجع السبب إلى وسوسة إبليس ؟

ولكن إبليس كان يوسوس من أزمان ولم يصل إلى شيء ، فكيف وصل بعد اليأس ؟

هنالك أدرك آدم أن السر يرجع إلى النموّ الملحوظ في جسده وجسد حواء ، وأيقن أن اضطرام الأجسام يصنع ما تعجز عنه ألوف الأباليس ... وهل تنجح الغزوات الخارجية إن لم تصادف قبولاً من الأهواء الداخلية ؟

وزاد في اقتناع آدم بهذه النظرية ما كان يلاحظ على فصائل الطير والحيوان ، فقد كان يشاهد أنها لينة رقيقة في أول عهدها بالوجود ثم تغلب عليها القسوة والشراسة حين تصير إلى النضج والاستحصاد !

وإذن؟ وإذن يكون تطوّر الفاعلية الجسدية مصدر التطور في الفاعلية العقلية!

ثم ؟

ثم يكون في كل تطور جديد إبليس جديد

وعلى هذا يكون لحواء في طغيانها عذرٌ مقبول .

وما ذنبُ حواء ؟ ما ذنبها وقد استحالت إلى دوافع ونوازع وأهواء ؟

نظرت مرة إلى نهر الكوثر في لحظة سكون فرأت خيال وجهها الجميل وقد استدار في هالة من السحر والفتون ، فقدرت أن سيكون لها تاريخ ، وعجبت من

أن يتعامى آدم عـن حسـنها الفتّـان ، كأنهـا تجهـل أن آدم صـار ألعوبـة في زمامهـا المخبول .

وخلاصة ما قرأت في كتاب شيث أن آدم لا يقيم وزنًا لنزعات إبليس ، وإنمـا يرى أن الجسد هو الأصـل ، وإن ألفافـه مكوّنـة مـن أبـاليس ، وان ثمـر الشـجرة المحرمة قد يزيده فورة إلى فورة وجموحا إلى جموح .

وهل غاب عن آدم أن ثمرات التين سريعة العطب والفساد ؟

لقد تأملها مرة ومرتين ومرات ، فعرف أنها معرضة لأخطر الجراثيم ، وأدرك أن سمها قد يؤرث ما في الأجسام من السم المكنون فتستشري وتهتاج [1] .

وإذا كان آدم عجز عن رياضة حواء وهي صـحيحة ، فكيـف يروضـها وهـي مريضة ؟

خطرت لآدم هذه الخواطر وهو يبحث عن السر في تمرد حواء ... لقد كانـت طفلة وديعة ، فكيف صارت امرأة خبيثة ؟ تطور الجسد صنع بها ما صنع ، فأمست وهي أخطر من الحية النضناض ، ولن يكون إبليس بأمكر من حواء ، بعد أن تبلـغ مبلغ النساء .

وكان آدم يعرف أنه يحمل الجانـب الأخطـر مـن المسـؤولية ؛ فهـو السـبب الأصيل في تمرّد حواء ، وبفضل شبابه وصياله ذاقت أفاويق الضلال .

والذي ينتظر أن تهدأ المرأة وأمام عينيها رجل ، شـبيه بالـذي ينتظـر أن تهـدأ النار وقد ألقمت أكداس الحلفاء ... لقد كان آدم يطرد حواء ثم تعـود إليـه لتـأنس بضربه الوجيع ، كما ترجع الفراشة إلى أقباس اللهيب .

المرأة تدرك ما في الرجل من المعاني ، ولو كان من الخاملين ، فكيـف تصـدّ عنه وهو من الأنبياء ؟

(١) تحرير هذه الفكرة أن الانحراف في الطبائع هو الأصل في انحراف الأخلاق . (زكي مبارك)

كانت حواء سمعت أن الله لم يخلق آدم إلا بعد أن دار بينه وبين الملائكة حوار طريف ، فكيف يفوتها أن تنتفع بشهرته ، وهي تعرف أن الشهرة مغنمٌ عظيمٌ، وإن اعتمدت على أضاليل وأباطيل ؟

وهل تقوم الشهرة بلا أصل ؟

إن آدم رجل ، والرجولة من أعظم الأرزاق ، فما زهدها فيه وهو من أمثلة العزة والجبروت ؟ وهل تنسى أنه صرعها فوق شط الكوثر ألوف المرات ؟

القوة هي سحر آدم ، والضعف هو سر حواء ، يقوم على أسس كثيرة ولكنها ترجعه إلى أساسين هما القوة والضعف ؛ والعشق العارم لا يقع إلا بين عاشقين مختلفين في العرض والطول ، والدمامة والجمال ، والقسوة واللين .

ومع هذا كان آدم هو البادئ بإعلان شوقه إلى حواء ، وكانت حواء تنكر شوقها إليه . وتفسير ذلك سهل : فأسرع الناس إلى الاعتراف بالحق هم الأقوياء .

ويزعم شيث بن عربانوس أن آدم قال وهو يحاور تلك اللعوب :

أما والله لو تجدين وجدي   لطِرت إليَّ خالعة العذار[1]

وقد فات آدم أن حواء ضعيفة ، والضعف يتسلح بالرياء .

والقول الفصل أن آدم قد انتهى إلى حقيقة لا تحتاج إلى برهان ، وهي صدور الأهواء عن الأجساد قبل صدورها عن الأرواح ، لأن الجسد أداة الروح ، ولأنه يحفظ قواها كما تحفظ الكأس سر الرحيق .

ثم ماذا ؟ ثم التفت آدم إلى وحي النبوة فقال :

«لم أكن أدرك تكاليف النبوة حين أراد الله أن أكون من الأنبياء ، فقد فهمت

(١) كذلك ورد هذا البيت في كتب شيث ، ورواية الأغاني تخالف هذه الرواية في الكلمة الأولى من الشطر الثاني (زكي مبارك) .

أول الأمر أن النبوة لا تصح إلا لمن يقف موقف الراعي من الرعية ، وليس في الجنة جنود وأتباع يحتاجون إلى من ينظر في شؤونهم بعين المدبّر الحصيف ... ثم عرفت أن الله جعلني نبياً لحكمة سامية : فحواء شخصٌ فرد ، ولكنها مؤلفة من شخوص يعدّون بالألوف ، بفضل ما يصطرع في جسدها وروحها ، وقلبها وعقلها، من أشتات النوازع والأحاسيس ... هي شخص فرد ، ولكن أوقاتي تضيق عن الطب لأهواء ذلك الشخص الفرد ، فكيف أصنع لو أضيف إليها أفراد يحملون ما تحمل من أوقار النزق والطيش والجموح ؟ إنها تتعبني في الحوار ، وأكاد أوقن بأن كل كلمة من كلماتها ترمز إلى شيء ، فهذه الكلمة عتاب ، وتلك الكلمة اتهام ، وهذا اللفظ وعد ، وهذا اللفظ إغراء ، وذلك اللفظ تجريح ... ومن عجيب الأمر في سياسة هذه الشقية أن خطبها لا يهون إلا حين تنطق ، مع أن المفهوم أن نطقها في أغلب أحواله وعيد مخيف ... أخطر ما تكون حواء حين تصمت ، فعند ذلك أدرك أنها تضمر أشياء ، وأنا أخاف أشد الخوف من النذير الصّموت ... لو أن الله جعلني نبيا في أمة كثيرة العدد لخفَّ الخطب وهان ، فقد كنت أستطيع الاعتذار بالعجز عن رعاية الألوف من الرجال والنساء ، ولكن الله جعلني نبيا على مخلوق تحار في رياضته العقول ... من أي طرق أصل إلى اكتناه قلب حواء ؟ وكيف أؤدي الواجب في تهذيب تلك الشقية ؟ وهل نجحتُ في التخلق بأخلاق النبوة وأنا أروض تلك الفرَس الشَّموس ؟ الله يعلم أني لم أقصّر ولم أفرّط ، ولكن ما هذا البلاء الذي أعانيه ؟ واجب النبي أن يَهدي الجميع في حدود ما يطيق ؛ وقد يتلطف الله به حين يعجز عن هداية من يحب ، لأنه يعلم أن الأحباب هم في الحقيقة أعداء ؛ وهل يعرف مقاتل المحب غير الحبيب ؟ كان يكفي أن أعجز عن هداية حواء فأسلمها إلى الشياطين ، ولكن البلاء كل البلاء أن هذه المرأة لا تكتفي بنجاتها من يدي ، وإنما تريد أن تضلني فآكل معها الثمر الممنوع ، وبهذا يصبح الهادي وهو من الضالين ! إن نجحت حواء في اختتالي واختلابي فسأكون عِبرة لمن يأتي بعدي من الأنبياء ... وهل أضمن حفظ مكانتي في التاريخ ؟ إنْ تطاول الزمان فسيقول قوم إن آدم شخصية خرافية أريدَ بها تصوير انهزام الرجال أمام النساء . وهل

يؤذيني أن يقال ذلك ؟ أنا أول ضحية بشرية إن هزمتني حواء ، ومن حق من يجيئـون بعدي أن يرتابوا في حقيقتي التاريخية . فالرجل الذي يعجز عن كبح المرأة لا يستحق شرف الوجود ... وأنا أعيذ من تصل إلـيهم هـذه الأخبـار أن يسـيئوا الظـن بجـدهم المظلوم ، فليس عندي أوامر صريحة أتولى بها زجر حواء ، ولست أعرف المصـير إن عاقبتها بالقتل ، فما لي صديق غير هذا المخلوق ، والصديق الواحد جدير بالاستبقاء وإن تردَّى بالعيوب . من أخصب تخيَّر ، وأنا في الصداقة مُجدب لا مخصب . فهل أُلام إذا استجزت المعصية طاعةً لمحبوب لا أجـد غيـره حـين يضـيع ؟ سـأقرب الشجرة رعاية لحواء ، وليصنع الله بنا ما يشاء ... وماذا يريد الله ! أيريد أن نشـاركه في السموّ المطلق ؟ أيريد أن نتنزه كما تنزه عن جميع الشُبهات ؟ أيـن نحـن مـن الله وهو قوة أزلية لا يعتريها نقص ولا خمود ، بأمر الله سأعصي الله فأقرب الشجرة مع حواء . سأعصيه بأمره وإن كان نهاني ، فهو يعلم أن المخلوق المؤلف مـن أحـلام وأهواء لا يعظم عليه العصيان »[1] .

وانخرط آدم في البكاء ، فلم يوقظه غير حواء .

ـ آدم ، آدم ، ماذا بك ؟

ـ حواء ؟

ـ نعم ، حواء ، هل فرغت من صلاتك ؟

ـ أي صلاة ؟

ـ صلاة الشكر ، ألم تحدثني أنك من أجلها أردت الاعتكاف

ـ لقد صليت صلاة لا تخطر لك في بال

ـ هل صليت كما تصلي الملائكة ؟

(١) هذه الوثيقة التاريخية تشهد بأن آدم ظل مدة طويلة في أسر القلق والخوف ، ومنها نعرف انـه كـان في عراك دائم بين عقله وهواه ، وأن حواء لم تفتنه إلا بعد أن بذل في جهادها فوق ما يطيق .

ـ أعظم مما يصلّون

ـ وكيف ؟

ـ ناقشتُ الله !

ـ من ناقشَ الله هَلَك

ـ قولي هذا لنفسك ، يا حواء !

ـ أحب أن أعرف كيف تكون المجادلات من ضروب الصلوات ؟

ـ حين تكون شاهداً على شروق العقل

ـ لا أفهم ما تريد أن تقول

ـ أريد أن أقول : إن الله يكره لعباده أن يلوذوا بالصمت والجمود

ـ ومعنى هذا أنه يحب أن نتكلم ونتحرك في كل وقت ؟

ـ إذا أشار العقل

ـ وما العقل ؟

ـ أن تسكتي إلى الأبد الأبيد !

ـ أتريد أن تتمتع بنعمة الكلام وحدك ؟

ـ لأنني أشقى بنعمة العقل وحدي ، ولأن الله لن يسأل غير «آدم» عن نزق «حواء»

ـ وما رأيك في شجرة التين ؟

ـ المرأة حين تولع بشيء لا تنفك تدور حوله ولو نهاها عنه الأنبياء

ـ وأنت نبيٌّ يا «آدم» ؟ لم يبق إلا هذا الزعم الطريف !

ـ إن صوت الله قرع أذنيك ولم تنتهي ، فهل تسمعين صوت النبيّ المسكين ؟!

ـ ومتى نهاني الله عن الشجرة ؟

ـ كيف نسيت يا حواء أننا سمعنا ألف مرة هاتفاً يصيح :

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

ـ هو نداء موجه إليك

ـ إليّ وحدي ؟ وكيف ؟

ـ لأنك رجل !

ـ وإذن يكون من حقي أن أقرب الشجرة وحدي

ـ لن تذوق ثمارها إلا من يديّ

ـ وهل أذوق من يديك غير العلقم والصاب ؟

ـ اسمع يا آدم ، اسمع : يظهر أنك أغلف القلب ، وأنك في احتياج إلى من يزيل الغشاوة عن عينيك . ما هذا التمرد على الله ؟ وما هذا العصيان ؟ مزيتك أنك رجل ، ورجولة آدم رهينة بشهادة حواء ، ولن أعترف لك بشيء إلا إن عصيت وغويت .

ـ ويقول الله : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ؟

ـ ومن أنت حتى تصل إلى أن ينالك بالغمز والتجريح ؟

ـ اسكتي ، يا حواء !

ـ لن أسكت قبل أن أزلزل قلبك جزاءً بما احتكرت من دعوى الفضيلة والشرف والنبل ؛ كأن سلوكي معك رذيلةٌ وضعفٌ وإسفاف . أنت تصور نفسك دائما بصورة المظلوم وتنسى انك في أغلب أحوالك من الظالمين .

ـ ومتى ظلمتك ، يا حواء ؟

ـ حين تناسيت فضلي عليك ، فان أُضرم أهواءك لتشعر بعنفوان الرجولة

الحق ، وستموت حسيًّا ومعنويًّا يوم أعجز عن إغوائك . فيوم ذاك تعرف يا جاهل أن طيش حواء ليس بالمغنم القليل .

ـ كفى . كفى !

ـ لا ، لا ، لن أتركك أو تعترف بفضلي عليك

ـ أمِنَ الفضل أن تزيِّني المعصية ؟

ـ ما زيّنت لك شيئا غير جميل

ـ وشجرة التين ؟

ـ ما تهمني شجرة التين بالذات فسأحاول هدايتك إن امتنعت عن شجرة الجميز ، لأملك نقل قلبك من مكان إلى مكان ، لأطمئن إلى انك بعافية تجعلك في طليعة الفحول ، فما ينجو من كيد المرأة إلا العِنِّين أو المجبوب .

ـ أنت يا حواء شقية !

ـ وأنت يا آدم جهول !

***

ومرت لحظات صمت فيها آدم صمت الأموات ، ثم ثاب إلى صحوة فأيقن أن نجاته من كيد حواء أمل عزيز المنال ... ولكنه جمع قواه ليصدها عن الغواية بأسلوب لم يفكر فيه من قبل . فهل يصل إلى ما يريد ؟

للحديث شجون

٦- قبل أن تثور القواصف فوق أثباج الكوثر [1]



ارتاح آدم إلى كيد حواء بعض الارتيـاح، وأدرك أن الرجـل لا يعيبـه أن يُفـتن بالمرأة من حين إلى حين ، على شـرط أن يظـل في الحـدود التـي لا تجـرح كرامـة الرجال .

وفطِن إبليس ، لعنه الله ، إلى أن آدم أخذ يؤول كيد المرأة ويقسـمه إلى أقسـام فيها المكروه والمباح ... فطن إبليس إلى هذه الثغرة فجدد مـن نشـاطه واسـتأنف الوسواس فهتف : «هل أدلكما على شجرة الخلـد ؟ ... هـل أدلكمـا عـلى شـجرة الخُلد ؟ ... ألا تسمعان ؟»

قالت حواء : سمعنا وسنطيع . وقال آدم : سمعنا ولن نطيع .

فغضبت حواء من جواب آدم واتهمته بالزهد في الخلود ، وهـو زهـدٌ دمـيم ، فما يليق بالرجل أن يضيع فرصة تنجيه من الفنـاء ، ولـو ارتكـب في سـبيلها مـا لا يليق.

وغضب آدم من سفاهة حواء فقال : من أين عـرف إبلـيس أن شـجرة الخلـد هي شجرة التين ؟ وعلى فرض أن كلامه صدق في صدق ، فكيف يجوز أن نعصـي الله لنظفر بالخلود ؟

---

(١) الرسالة ٣٠ مارس ١٩٤٢ .

اعلمي ، يا حواء ، أن الرزق والجاه قسمان : حرام وحلال ، وأنا لا أقبل أن نرزق الخلد عن طريق الحرام ... إن اللقمة المسروقة تقف في الحلق لحظة ، ثم تزدرد برفق أو بعنف . ومع هذا تبقى لها عقابيل تحزّ في القلب إلى آماد طوال ، فكيف نستجيز الظفر بنعمة الخلود عن طريق العصيان ؟ وكيف نرضى أن نعيش أبد الآبدين في أسر الحرام الممقوت ؟

ـ آدم ، أنت أحمق !

ـ لأني أزهد في الخلد المكسوب بالعصيان ؟

ـ لا ، بل لأنك تجهل ان الخلد أنفس وأثمن وأعز من أن تتقى في سبيله الشُّبهات

ـ النص صريح في تحريم الشجرة يا حواء

ـ التأويل يلحق جميع النصوص

ـ إذا وجدت الغاية التي تبيح الممنوع من التأويل !

ـ وأي غاية أشرف من الخلود ؟

ـ اسمعي يا حواء ، إن الخلد غاية شريفة ـ كما تقولين ـ ولكني أبغضه أشنع البغض ، لأنه يوجب أن أعيش في صحبة عقلك الأجوف إلى ما لا نهاية له من الآباد ... وإني ضَجرت ، ضجرت ، مع أن صحبتنا في الجنة قريبة العهد ، فكيف أصنع إذا كتب عليَّ أن أكون من الخالدين في جوارك يا حواء ؟

ـ تغضب مني يا آدم وأنا أدعوك إلى الخُلد ؟

ـ هو خُلدٌ حرام لا حلال ... وما يليق بنا أن نعامل الله في كرمه بغير الامتثال

ـ أتصف الله بالكرم وهو يبخل علينا بشجرة لا يساوي حطبها درهمين ؟

ـ ألم أقل : إن الله يختبر قُوانا النفسية بتحريم تلك الشجرة ؟ وإذا عجزنا عن كبح النفس في البعد عن شجرة لا يساوي حطبها درهمين ، فكيف يكون المصير لو

نُهينا عن شجرة مصوغة من عيون العذارى وخدود الملاح ؟ المعصية بغيضة يا حواء ، لأنها تضيفنا إلى أهل الكفران ، وما يجوز لمن يعيش في مثل هذا النعيم أن يفكر لحظة واحدة في عصيان المنعم الوهاب .

ـ الله منعم وهاب ، وهو يبخل بشجرة لا يساوي حطبها درهمين [1] ؟

ـ الآن عرفت أنك امرأة سليمة الأعصاب والحواس إلى أبعد الحدود .

ـ وكيف ؟

ـ لأنك تنكرين الجميل ، والمرأة لا تنكر الجميل إلا حين تكون في عنفوان الصحة والعافية

ـ وإذن ؟

ـ وإذن أعصي الله من أجلك يا حواء !

ـ فتأكل من شجرة التين ؟

ـ وأترك طبعات على هذه الخدود المقبوسة من جمر الوجود

ـ تحبني ، يا آدم ؟

ـ أحب المرأة الحلوة الجميلة التي زلزلت فؤادي . أحب المرأة التي نقلت قلبي من مكان إلى مكان . أحب الغادة اللعوب بالعقل والروح . أحبك يا حواء حبًا أمتن من الصدق وأروح من اليقين . أحبك يا حواء حبًّا سيُفسدُ ما بيني وبين ربي ، إلا أن تشاء إرادته السامية أن أتقرب إليه بعبادة الجمال ... ولعله يشاء !

ـ وإذا لم يشأ ، فماذا تصنع ؟

ـ آكل من شجرة الخلد ، لأحمي هذا الجبين من الأفول

(١) هل كان في جنة آدم وحواء دراهم ودنانير ؟ إن هذا يؤيد الطعن في صحة كتاب «شيث» . (زكي مبارك)

ـ بالعصيان ؟

ـ هنا المشكلة يا حواء ، فما يُسيغ ذهني أن ينهانا الله عن رعاية الجمال

ـ أراك اهتديت !

ـ وأراني ضللت !

ـ أفِق ، يا نشْوان

ـ إن جاز للموقوذ بسكر الجمال أن يفيق !

ـ تحبني يا آدم ؟ تحبني ؟

ـ أحب النار التي صهرت روحي ، ولن أطمئن إلا يوم أنهشك يا حواء لتعودي نقطة من دمي

ـ ما هذه الوحشية ؟

ـ أي وحشية ؟ ألم تؤخذي من ضلعي ؟

ـ أنا من ضلعك أخذت يا كذَاب ؟

ـ اسألي الملائكة ، فعندهم الخبر اليقين

ـ لهذا جئت جميلة ؟

ـ وأجمل من الأفعى الملتوية على الشجرة الزهراء !

ـ أراك تبغضني يا آدم !

ـ هو ذلك : فأنا أبغض العيون الجوارح ، وأبغض الجبين الوضاح ، وأمقت القد الرشيق ، وأستعيذ بالله من السحر المتموج فوق الثنايا البيض

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم أكره الصوت الذي يشبه وسواس الحُليّ فوق النحور ، والذي يفوق

غمغمة الكأس عند فورة الرحيق

ـ ثم ؟

ـ ثم أثور على التفاتة الجيد عند العتاب

ـ ثم ؟

ـ ثم أبغض حواء لأنها حواء !

وبعد الأنس بقبلتين محرقتين مضى آدم لشهود حفلة الطيران ، وهي حفلة موسمية كانت تقيمها الحمائم والبلابل والعنادل في «غابة الصنوبر» لتروض أفراخها على النهوض والتحليق . ويحدثنا شيث أن حفلات الطيران هذه كانت تجتذب جميع سكان الجنة بلا استثناء . وقد نص على أن السباع كانت تراها عجبا من العجب ، لأنها تشهد بتنوع المواهب ، وإلا فكيف جاز أن يقدر الطائر الضعيف على ما يعجز عنه الأسد الصوّال ؟

مضى آدم وحده لشهود حفلة الطيران ، وهو مبتسم جذلان ، فقد أعفى نفسه من الحيرة في قرب شجرة التين ، وأسلم مصيره إلى خالق الأنوار والظلمات ، فللأقدار أن تصنع به ما تشاء .

أما حواء فشعرت بحزن وانقباض حين رأت آدم لا يمانع في قرب الشجرة المحرمة ، ولهذا قلّت بشاشتها لشهود حفلة الطيران ، وكذلك آثرت الاعتكاف لتنظر فيما هي مقبلة عليه ... فما الذي تأذّت به حواء وقد بلغت من ختل آدم فوق ما كانت تريد ؟

نظرت حواء فرأت أن الشقاق حول الشجرة المحرمة كان فرصة لشغل آدم بزوجته شغلا غير مقطوع ، والمرأة يرضيها ويسرها ويشوقها أن يعيش الزوج وهو بها مشغول ، فكيف تكون الحال بعد أكل الثمرة الممنوعة حين يصبح جميع ما في الجنة حلالاً في حلال ؟

ونظرت فرأت أن الجدال حول الشجرة المحرمة ألان لسان آدم وعلَّمه الحوار بأساليب لا تخلو من البراعة والظرف ، وقد تصل إلى السِّحر في بعض الأحيان ، فكيف المصير إذا تساوت قِيمُ الأشياء واستغنى آدم عن الجدال ؟

سيكون الصمت من نصيب آدم حين تنعدم أسباب الخلاف ، فكيف تعيش حواء مع رجل صَمُوت ؟ وهل قلّ صمت آدم برغم ذلك الخلاف ؟ لقد كانت له تأملات طويلة ينسى بها ما حواليه حتى لتحسب زوجته أنه لا يشعر بأن لها من الوجود أي نصيب ، فأي بلاء ينتظر حواء يوم تنقطع موجبات اللجاجة مع فارسها الجميل ؟

في تلك الحومة كانت حواء تنتقل من المعصية إلى الكفران ، والعياذ بالله ، فقد جاز لها أن تعترض على نظام الجنة ، وأن ترى أنه لا يخلو من اختلال ، والثورة النفسية تحيل النعيم إلى الجحيم ، وذلك ما وقعت فيه حواء .

نظرت فرأت أن الجنة قليلة المحرمات ، فهي قليلة الطيبات ، وهل يستطيب الناس غير الممنوعات ؟

نظرت في هذا المعنى مليًّا ثم صرختْ :

أرى طِيبَ الحلال عليّ خُبثاً وطِيبَ العيش في خُبث الحرام

وهمّت باقتلاع شجرة التين لتحوّل الجنة إلى خراب يباب ، فما كانت الجنة في نظرها غير تلك الشجرة الممنوعة ، وإذا اقتلعت تلك الشجرة فسوف يرى الله أن عنايته بخلق الجنة ذهبت أدراج الرياح !

ولكن شجرة التين التي لا يساوي حطبها درهمين أعجزت حواء فلم تستطع اقتلاعها برغم ما بذلت من الجهد «المحمود» فنكصت على عقبيها وقد نال منها الإعياء ما نال .

وكان المفهوم أن تخجل من الهزيمة أمام شجرة التين ، وأن يزيد حقدها على الله ، ولكنها فرحت حين عرفت بالتجربة أن «شجرة الشرّ» قوية الجذور ، وأن

الأمل في اقتلاعها ضعيف ، وتمنّت أن تصبح الجنة وفيها لهذه الشجرة أمثال وأمثال .

ذلك ما كان من أمر حواء ، فما أمرُ آدم وقد ذهب وحده لشهود حفلة الطيران؟

رأى جميع المتفرجين يتحدث بعضهم من بعض ، وهاله أن يرى الثعلب يناجي أنثاه بجذل وانشراح ، كأنه يدرك الدقائق من طيران أفراخ العندليب ، ورأى الأفعى تخاطب الأفعوان بعبارات فهِمَ منها أن حفر الجُحر في أصل الشجرة لا يقل خطرا عن بناء العش في أعالي الأغصان.

أراد آدم أن يتكلم ، ولكن مع مَن ؟

لو كانت حواء حاضرة لحدثها عن ذكائه في استكشاف ما بين الخشب والماء، فقد اهتدى إلى أن من يمتطي الخشبة لا تهوله أمواج الكوثر في كثير ولا قليل ، وهل يكون امتطاء الهواء أوثق من امتطاء الماء ؟[1]

لو كانت حواء حاضرة لقال لها وقال ، ولكن أين حواء ؟

هنا أدرك آدم أن الحياة بلا رفيق لفظٌ بلا مدلول

ألم يكن يجرّد من نفسه شخصاً يحاوره حين يعتكف ؟

ألم تكن أشعاره تبدأ بعبارة «يا خليليّ» أو «يا صاحبيَّ» كأنه يرى بضوء البصيرة انه يحتاج إلى عدد من الأصحاب والخلان ؟

ألم يلاحظ أن الله حين اختصه بالنطق قد أوحى إليه أن حياته لن تكون بلا رفيق أو رفاق ؟!

أين حواء ليبادلها الأحاديث ؟ وأين ماضيه في الطيران بأجواء الحقائق

(١) من هذا نعرف أن آدم سبق نوحاً إلى اختراع السفينة ، وإن لم يسبقه إلى ربطها بالدسر والألواح . (زكي مبارك)

والأباطيل ؟

إلى حواء ، إلى حواء ، إلى حواء !!

فماذا يرى آدم، وماذا يسمع ؟

يرى فتاة خامدة بجوار شجرة التين ، ويسمع أنينًا يذيب لفائف القلوب .

ـ حواء !

ـ ...

ـ حواء ؟

ـ ...

ـ حواء ؟

ـ آدم ؟

ـ نعم ، آدم ، ماذا بك يا حواء ؟

ـ لا شيء ،ولكن أين كنت ؟

ـ كنت أشهد حفلة الطيران

ـ ورأيت عدل الله ؟

ـ في ماذا ؟

ـ في تزويد الطير بنعمة لن نظفر بها أبداً ، فهو يطير عن هذه الجنة حين يشاء !

ـ وهل مللت الثواء بالجنة يا حواء ؟

ـ أي جنة تريد ؟ أتريد هذا العيش الرتيب ، العيش الذي لا يحرّم فيه غير طعام واحد ؟ العيش المملول ، العيش الذي يقدِّم فيه التفاح بلا حساب ؟

ـ وما عيب هذا العيش يا حواء ؟

ـ عيب أنه حلال في حلال

ـ وماذا تريدين ؟

ـ أريد أن يكون لي جموح يُغضب الله

ـ وماذا تستفيدين من غضب الله ؟

ـ أريد أن أشغله بنفسي

ـ لك الويل ، يا شقية !

ـ لك أنت الويل ، يا بليد !

ـ حواء ، أنت حمقاء !

ـ الأحمق هو الذي يشهد حفلة الطيران ولا يستفيد

ـ وماذا يستفيد المرء من شهود حفلة الطيران ؟

ـ ألم تر مئات الأفراخ من الحمائم والبلابل والعنادل والصقور والعقبان وهي مجرَّحة بسبب العنف في التمرين على الطيران

ـ نعم ، رأيت ، ثم رأيت !

ـ تقول إنك رأيت ، فهل فهمت أن تلك الجراح هي سرّ القدرة على التحليق؟

ـ وإذن ؟

ـ وإذن نجرَّح مرة أو مرتين أو مرات ...

ـ لماذا ؟

ـ لنطير في أجواء الرشد والغيّ والهدى والضلال

ـ إن كنت تريدين شجرة التين فلن أقرب شجرة التين

ـ حدثني أحد الملائكة ...

ـ وتحدثك الملائكة يا حواء ؟

ـ وتحدثك أيضا ولكنك لا تسمع !

ـ وماذا قالت الملائكة ؟

ـ قالت إن الله أخبرهم أنه سيجعل في الأرض خليفة وأنهم كرهوا أن يجعل في الأرض من يُفسد فيها ويسفك الدماء

ـ وبماذا أجاب الله ؟

ـ قال : إني أعلم ما لا تعلمون

ـ ومعنى ذلك ؟

ـ معناه أننا سنصير إلى الأرض

ـ بعد هذا النعيم ؟

ـ وهل نحن في نعيم ؟

ـ اتقي الله يا حواء

ـ اتق الله أنت

***

ـ الأرض ، الأرض ، الأرض !!!

ـ الأرض ، الأرض ، الأرض !!!

كذلك دار ذهن آدم وحواء بهذه الكلمات ، واشتهى آدم واشتهت حواء رؤية ذلك العالم المجهول .

ـ إلى شجرة التين ، يا آدم

ـ إلى شجرة التين ، يا حواء

ـ ولكن احذر من أن تقول إني أغريتك !

ـ لم يغرني غير العينين النجلاوين ، والخدين الأسيلين ، والثغر المعطَّر بأنفاس الرحيق

ـ اعترف صراحة بأني ما أغويتك ولا أضللتك ولا زينت لك العصيان

ـ أعترف بأن حواء لا تُسأل عما يجني قدها الرشيق

ـ ولا خصرها الأهيف ؟

ـ ولا جيدها الأغيد !

ـ ولا ثغرها الرَّشوف ؟

ـ ولا طرفها الكحيل !

ـ ولا تثنيها وهي تتخطر فوق شط الكوثر ؟

ـ ولا سحر اللون الذي يتموج بساقيها حين تتمدد فوق الأعشاب !

ـ ولا بلؤمها حين تثور ؟

ـ ولا بكرمها حين تطيع !

ـ آدم ، آدم ، أنت مخلوق نبيل

ـ معاذ الله أن أكون كذلك ، فما يوصف الرجل بالنبل إلا حين يملك ما يـأتي وما يدع . وقد قلت حيلتي في رياضتك يا حواء ، فأنا بفضل هواك من الهالكين .

ـ لن تهلك وأنا معك

ـ ولن أهلك إلا لأنك معي ، فالرفيق الفاسد يجرّ صاحبه إلى الهلاك

ـ الله قدَّر أن يكون مصيرنا إلى الأرض ، فما خوفُك وتلك إرادته السامية ؟

ـ للجنة أسوار وحدود وأنا أخشى أن تكون الأرض بلا أسوار ولا حدود

ـ عند ذلك تستطيع أن تفر مني حين تشاء

ـ أنا في الجنة مقهور على صحبتك بفضل الأسوار وسأكون في الأرض مقهورا على صحبتك بفضل الأهواء ، والفرق بين الحالتين بعيد

ـ لك أن تتحرر من هواي

ـ لو أصبحتِ تراباً يا شقية لكان من واجبي أن أستاف ذلك التراب

ـ تحبني يا آدم ؟

ـ أحب اللسان الذي يتلجلج بفم الحية النضناض

ـ أنت وقح !

ـ الوقاحة لن تكون إلا من نصيب الجمال النشوان !

ـ النشوة العارمة لم تعرف إهابًا غير إهابك

ـ ولهذا أخضع للشهوة وأطيع

ـ إذن تأكل من شجرة التين

ـ وأستبيح المعصية في سبيل الجمال

ـ خذ هذه التينة يا آدم

ـ ابدئي بنفسك

ـ هذه واحدة وثانية وثالثة ورابعة وخامسة ، فهل وقع شيء ؟

ـ لم يقع شيء !

ـ وإذن يكون التين من الثمر المباح

عند ذلك مد آدم فالتهم ثمرة التين وهو يرجو أن يكون مصيره مصير حواء ، ولكن الجنة زلزلت من جميع الجوانب فأدرك أن الله لا يقيم وزناً لغير هفوات الرجال.

٧- أحزان الأسود وأفراح القرود يوم فضيحة «آدم» و«حواء» [(١)]



سارت الأمور إلى ما شاء القدر أن تسير إليه ، وذاق آدم لأول مرة لذعة النـدم الأليم ، فقد كان يملك زجر حواء عن قرب شجرة التين ، لو قُـدِّر لـه أن يتماسـك فلم يخضع لسلطان حُسنها الوهَّاج ...

وانزعجت حواء لما أصاب الجنة من زلزال ، فعرفت من أخطار الخطيئة مـا لم تكن تعرف ، وأدركت أن المزاح في تفسير الحرام والحلال عَبَثُ أطفال .

ـ آدم ، لا تبتئس ، فقد عجل الله بالعقوبة ، ولم يبق إلا أن نأنس بالاطمئنان .

ـ وما هي العقوبة التي عجّل الله بها يا حواء ؟

ـ هي ما أصاب الجنة من زلزال ، فقد هدأت العواصف والقواصـف ، وعـاد كل شيء إلى قراره المألوف

ـ الزلزال الخطر هو البلبلة التي تثور في صـدري ، ومـا أحسـبني سأسـتريح ، وهل أنت مطمئنة يا حواء ؟

ـ لا ، وإنما أردت أن أهوّن عليك وقْع ما نحن فيه ، فما زال قلبي يرتعـد مـن هول الصدمة ، وليتني متُّ قبل الخطيئة وكنت نسيا منسيّا !

---

(١) الرسالة : ١٦ إبريل ١٩٤٢ .

ـ أرأيت يا حواء عواقب الإصاخة لأقوال المفسدين ؟ ألم أنهكِ عن صحبة الحية ؟ ألم أخوّفك من الاستماع إلى إبليس ؟

ـ ليتني أطعتك ! ليتني أطعتك !

ـ وهل تنفع شيئًا ليت ؟

ـ في ليت تعزيةٌ للخائبين ، فلنتعزّ بها إلى حين !

وفي أثناء هذا الحوار كان آدم يلاحظ أن أسراباً من الطير والحيوان تنظر إليه وإلى حواء ثم تنصرف ، فما الذي جدّ عليه وعلى حواء بعد الزلزال حتى يقع ذلك الاستغراب ؟

وحانت من آدم التفاتة فرأى سوأة حواء بادية ، وأطرق فرأى سوأته قد انكشفت والعياذ بالذوق ، وكذلك أدرك أن أسراب الطير والحيوان قد هالها أن يمسى آدم وحواء وهما في حال تسر العدو وتحزن الصديق .

كانت الفاجعة أعنف مما يتصوره الخيال ، فقد فُطر آدم على الحياء ، ألم يكن أول مخلوق ستر ذلك الشيء ؟ أما الكلام عن حياء حواء ، فهو حديثٌ مُعاد ، فما استطاع أحد من سكان الفردوس أن يتوهم صورة المنطقة المحرمة في جسمها الجميل .

ـ أتصنع المعصية كل هذا يا آدم ؟

ـ وأشنع من هذا ، فقد يعاقب العصاة بالقتل

ـ الفضيحة أبشع من القتل

ـ أنا لا أراها كذلك ، فالقتل أخطر وأعنف

ـ الرجل يُقتل بالسيف ، والمرأة تُقتل بالفضيحة ، فأنا وحدي المقتولة بعقوبة اليوم

ـ وما المخرج يا حواء ؟

ـ نخصف على هاتين السوأتين من ورق الجنة ، إلى أن يقضي الله في أمرنا بما يشاء .

***

لا موجب للإطالة في تصوير جزع آدم وفزع حواء مما صارا إليه ، فالوصف لا يحيط بصورة الحزن الذي يساور النفس النقية حين تسقط أول مرة ، فهي تتخيل أن شبح الفضيحة يلاحقها في كل طريق ، وأن الموجودات كلها عيون تنظر إليها باحتقار وازدراء ، ولا كذلك النفس الخبيثة ، فهي لا تتأثر بالفضيحة إلا بمقدار ما يتأثر الصخر الأصم بهبوب الريح .

كان آدم على فطرته الأولى يوم اقترف ما اقترف ، وكان وحيداً في بلواه ، فلم يجد من أصدقاء السوء من يهوّن عليه مصيبة العصيان .

وحواء ؟ وحواء ؟

كانت زهرة نضيرة لم تسمع بأن في الوجود لوافح ترزأ الأزهار بالذبول .

وهل كانت حواء تجدّ وهي تدعو رفيقها إلى قرب الثمر الممنوع ؟

إن شيث حدثتنا أن تمردها على الأوامر الربانية لم يكن إلا فنًّا من فنون الدلال. ولعل هذا هو السبب في أن الجنة لم تُصب بأذى بعد أكلها من شجرة التين، وإنما وقع ما وقع حين هفا آدم ، لأنه رُزق من العقل ما يكفي للتمييز بين المحرَّم والمباح .

وزاد في هم حواء عرفانُها بخطورة النزق بعد الذي كان ، فصارت تصرخ من وقت إلى وقت صراخاً يصل إلى مسامع سكان الفردوس بأعنف مما يصل صوت المظلوم إلى آذان القضاة العادلين ... وكذلك لطف الله بحواء ، فأمر ورق الجنة أن يكون عندما تريد ليحميها من فضول العيون .

لا موجب للإطالة بتلخيص الصفحات التي دوَّنها شيث بن عربانوس في هذا

المقام ، فما نطيق ولا يطيق القراء مواجهة ما انطوت عليه من أحزان وكروب ، فلننظر كيف تسامع سكان الجنة بفضيحة آدم وحواء في لحظات .

في لحظات ؟ وكيف ؟

كان جمهور أهل الجنة في ذلك الوقت جمهوراً قليل الأهمية من الوجهة العدَدية؛ وللجماهير الصغيرة محاسن وعيوب ، فمن السهل أن نكوِّن رأياً عاماً في الجمهور الصغير بخطبة أو خطبتين وأن نروضه على الفضائل المنشودة حين نشاء بأيسر عناء ، ولكن من الصعب أن نصدّه عن تسمعّ الأخبار السيئة ، فهو يُقبل عليها بشهية عجيبة ، وهو يجد لذة في مضغ أحاديث الإفك والبهتان ، وقد يتزيد فيضيف المآثم إلى الأبرياء ، ليظفر بالقوت المحبوب وهو الاغتياب ، فما يطيب للرجل الحقير أو الجمهور الصغير غير الخوض في الأحاديث التي تشوّه أقدار الأكابر من الرجال !

وعلى هذا وصلت أخبار آدم وحواء ـ أخبارهما المزعجة ـ إلى جميع سكان الجنة في لمحات معدودات ، وصار الحديث عن مصيرهما الفاجع زاد الألسنة في كل مكان .

فكيف تلقَّى الفردوسيون ذلك النبأ الفظيع ؟

انقسموا إلى فريقين : فريق الجازعين وفريق الشامتين

فمن الذي جزِع ؟ ومن الذي شمِت ؟

جزع الأسود ، وفرح القرود ، ولذلك حديثٌ يستحق التسجيل :

لم يكد يتسامع الأسود بفضيحة آدم حتى صاموا عن الطعام حزناً لبلية ذلك المخلوق النبيل ؛ ثم اجتمعوا في «غابة العَرِين» ليسمعوا خطبة كبيرهم غَضَنْفَلُوث، وقد خطبهم فقال :

«سجرائي وأشبالي

ترامتْ إليَّ وإليكم أخبار الفضيحة التي رُزئ بها آدم ، وقد جزعتُ لها كما جزعتم ، برغم اختلاف الجنس ؛ فنحن نمشي على أربع وهو يمشي على اثنتين ، وقوّتنا بالظفر والناب ، وقوّته بالقلب واللسان ؛ ولكن هنالك آصرة تجمع بيننا وبين ذلك المخلوق ، وهي الكرامة الذاتية ، فهو يأبى الضيم كما نأباه ، وهو يُزهى ويختال كما نُزهى ونختال . ولست أعرف قيمة شجرة التين حين أحكم له أو عليه، فنحن لحميُّون لا نباتيون ، ومن الصعب أن ندرك ما في التين من دواعي الاشتهاء ، وقد حلّ به ما حل ، وذاق من علقم الفضيحة ما ذاق ، وسيقضي الله في أمره بما يشاء ، فهل ترون من الجرأة على الله أن نعلن الحداد لمصيبة آدم المظلوم؟».

أحد الأسود : أنحزن لمصيبة مخلوق عصى الله ؟

غضنفلوث : إذا كان مخلوقاً كريماً ، وآدم مخلوق كريم ، فهو وحده الذي يستتر حين يلامس أنثاه ، ما رأيته أبدا في موقف ينافي الأدب والحياء .

أسدٌ آخر : وكيف نجيب إذا عد الله حزننا لآدم ضربا من العصيان ؟

غضنفلوث : الله أكبر من أن يستظهر على عباده المذنبين بشماتة حيوان .

أسد ثالث : العطف على المذنبين إغراءٌ بالذنوب .

غضنفلوث : هنا دقيقة تخفى عليك ، وهي أن العطف على المذنب يجتث من صدره بذور العصيان ، ويضيفه إلى أهل الطاعة والامتثال .

أسد رابع : نحن مع الله في التنكيل بالمجرمين .

غضنفلوث : ومن نحن حتى نشارك الله في الجبروت ؟

أسد خامس : نحن أسود .

غضنفلوث : والأسود تحفظ الأدب مع الله فتترك له التفرد بالثواب والعقاب.

أسد سادس : لا يجوز العطف على مخلوق خدعته أنثاه .

وهنا انبرت لَبّوْلوث زوجة غصنفلوث فقالت في زئير يوقظ الأموات :

«لعلكم تريدون التعريض بحواء ، فهل تعرفون حواء ؟ اسألوني أخبركم : لقد كانت تجيء من لحظة إلى لحظة تداعب الأشبال بأناملها اللطاف . وكنت أقدر أول الأمر أنها تفعل ذلك بسبب حرمانها من النسل ، ثم عرفت أنها مفطورة على الرفق والحنان ، وأنها لا تعيش إلا في ظلال الرفق والحنان ... ويلي عليك يا حواء ، فما رأيت أرخم منك صوتاً ، ولا أنضر وجهاً ، ولا ألطف مِشية ! كنت أنظر إلى نهديك الكاعبين فأعجب وأطرب وأشاق ، ما أجمل نهديك يا حواء ! وما أشد جزعي حين أتذكر انك لم تُرزقي طفلاً يباغم حَلَمَتَيْك في جذل وانشراح ! وهل أنسى أن حواء أرشق مخلوقة تمشي على اثنتين ؟ لقد كان تثنيها وهي تتخطر فوق شط الكوثر يخلع قلبي » .

غضنفلوث : حواء جميلة إلى هذه الدرجة ؟

لبولوث : وأجمل من الغزال المكحول بمرود السحر والفتون .

ـ عطف الأنثى على الأنثى معروف !

ـ وتحامل الذكر على الأنثى لا يحتاج إلى تعريف ... ويلي عليك يا حواء ! أأنت تُفضحين بين سكان الفردوس فضيحة جديدة ؟

ـ وهل كانت لحواء فضائح قديمة ؟

ـ من يومها وهي فضيحة الفضائح ، فمشيتها فضيحة ، ونظرتها فضيحة ، ونبرتها فضيحة ، ودلالها فضّاح فضّاح فضّاح . ويلي عليك يا حواء ، ويلي عليك يا أختي !

ـ يظهر أنك مفتونة بحواء !

ـ وكيف لا أفتن بأنثى تفردت بالجسم الأمثل إلا بعض شعرات ولو جازت

الغيرة على مثلي لأصبحت من الهوالك .

ثم تعكّر هذا الحوار الرقيق بأصوات غليظة وصل صداها البغيض إلى ساحة العرين ، فما تلك الأصوات ؟

تلك أصوات القرود وقد شمتوا بآدم وحواء ، فكانوا يثبون إلى الأشجار ثم ينزلون ، في انجذاب يشهد بأنهم صاروا من الفرح مجانين ، ثم بدا لهم أن يضعوا أخشاباً في الكوثر ليركبوها ، كما كان يصنع آدم وهو يداعب حواء .

وسمع الأسد الأكبر بهذا الضجيج فأقبل يعنّف شيخ القرود .

ـ ما هذه الضجة ، أيها القرد ؟

ـ نحن نحتفل بعدل الله

ـ وما ذلك العدل ؟

ـ هو الحكم على آدم بما هو له أهل

ـ ما خطر ذلك الحكم الذي استوجب أن تقيموا من أجله هذا الاحتفال ؟

ـ لقد كُشفت سوأة آدم ، ولله الحمد !

ـ إن سوأة آدم من أمام ، فهو يسترها بلا عناء ، وسوأتك من خلف أيها القرد ، وستظل إلى الأبد وأنت مفضوح ، لأنك شمتّ بآدم المظلوم

ـ كيف يكون مظلوماً وقد عصى الله ؟

ـ ذلك شرف لن تناله . لأنك ضعيف

ـ وهل تحتاج المعصية إلى قدرة ؟

ـ نعم ، ولأجل هذا سأعصي الله كما عصاه آدم

ـ فتأكل من شجرة التين ؟

ـ أي تين يا قرد ؟ إن لي في العصيان مذهباً لا يخطر للقرود في بال

ـ وما هو ذلك المذهب ؟

ـ هو أن أبطش بكم جميعاً في لحظة واحدة فأريح الوجود من وجوهكم القباح

ـ أنت إذن لا تخاف الله ؟

ـ وكيف أخاف من يسمح بأن تكون للقرود دولة ؟ أنا كافر بالله ، كافر ، كافر، إن جاز عنده أن تقوم دولة للقرود أو أشباه القرود ؛ ففضوا هذا الاحتفال السخيف، وعودوا إلى حظائركم صاغرين ، وإلا نكلت بكم أشنع تنكيل .

ـ وهل صنعت شيئا يعاب ؟

ـ إن الشماتة إثمٌ حقير وخسيس ، وهي لا تقع إلا من الأوشاب ، فانزووا أيها القرود قبل أن يحل عليكم غضبي ، فأنتم أحقر من أن تبوءوا بغضب الله ، ولعله منحني من الشراسة ما منح لأؤدب ما يجلّ عن تأديبه من القرود والثعالب والذئاب .

***

حين وقع الزلزال في الجنة نظر رضوان فرأى الحية تزحف بسرعة تفوق المألوف من زحفها الممقوت ، فأدرك أن عليها جانباً من المسؤولية ، فمنعها من الخروج إلى أن تنجلي الأمور . ونظر فرأى إبليس يهرول ليقتحم باب النجاة ، فردَّه على عقبيه إلى أن يأذن الله لأن يكون من الناجين .

ثم سُمع هاتفٌ يصيح :

ـ ماذا تستفيد يا آدم من الاختباء في تلك الألفاف ؟ (١)

ـ لأنجو من حسابك يا مولاي

(١) إشارة إلى ما جاء في كتاب «شيث» وما جاء في «التوراة» من أن آدم وحواء اختبئا في ألفاف الأشجار حياء من الله بعد انكشاف الستر عن السوأتين المجهولتين . (زكي مبارك)

ـ وكيف تنجو من حسابي ، وأنت جان أثيم ؟

ـ لك الأمر من قبل ومن بعد

ـ ولهذا أدعوك إلى الوقـوف غـداً في سـاحة العـدل ، فاحضـر مـن تريـد مـن الشهود، ومن تشاء من المحامين ، ليرتفع اللبس في تقدير ما لك وما عليك .

ـ أنت الشاهد وأنت الوكيل ، فاقض بعدلك ورحمتك ما أنت قاض

ـ هو ذلك ، ولكني أريد أن أقيم بنفسي أول محكمة في الوجود .

٨- اجتماع الملائكة في مسجد الفردوس [١]



سمع الملائكة بما صار إليه أمر آدم ، وعرفوا أنه سيقدَّم للمحاكمة بلا تسويف ، وترامى إليهم أنه قد يتخذ منهم شهوداً على براءته من تهمة العصيان . فاجتمعوا بمسجد الفردوس ليتشاوروا فيما يليق بهم أن يصنعوه إن دُعي فريقٌ منهم للشهادة في ساحة العدل ... فما الذي دار من الأحاديث في ذلك الاجتماع ؟

قبل أن ندون هذا المشهد نذكر أن شيث بن عربانوس يدير كلامه على أساس يخالف ما تعارف عليه جمهور المؤرخين ، فهو لا يرى أن آدم صاحب حواء كان أول آدم ، وإنما سبقته أوادم تعد بالمئات أو بالألوف . وسنرى كيف يحدثنا أن آدم حين هبط الأرض وجد فيها جماجم بشرية تشهد بأن الأرض سُكنت قبله بأمم لا يعرف أخبارها غير علام الغيوب .

وقد هالني هذا الرأي ، فمضيت استفتى المؤلفات الإسلامية لأعرف حظه من الصحة أو البطلان ، فماذا وجدت ؟

رأيت من يحكم بأن في قول الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ دليلاً على أنهم رأوا قبل ذلك أجناساً آدمية تفسد في الأرض وتسفك الدماء . ورأيت من يجعل «الخليفة» في قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(١) الرسالة : ١٣ إبريل ١٩٤٢ .

آدم جديداً يخلف الأوادم القدماء [1] .

ومع أن هذه الأقوال لا تستند إلى نصّ قطعيّ الثبوت والدلالة ـ كما قال أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار ، رضي الله عنه وأرضاه ـ فهي تؤيد مذهب شيث بن عربانوس ، أو تجعله مذهباً لا يتأثم الباحث من الاعتماد عليه وهو يقص أخبار آدم الرسول .

والحق أن عبارة القرآن وعبارة التوراة صريحتان في أن آدم صاحب حواء هو أبو البشر . وعبارة القرآن أصرح في هذا المعنى ، فالمألوف في أسلوب القرآن أنه ينهي كل نبي عن الوقوع فيما وقع فيه من سبقوه . ولو أن آدم كان سُبق بأمم بائدة لقص الله عليه أخبارها كما صنع مع سائر الأنبياء ، فلم يبق إلا أن نعدّ شيث بن عربانوس مسؤولاً عن القول بأن آدم صاحب حواء ليس أول إنسان شهد هذا الوجود .

ويظهر أن كتاب شيث بن عربانوس كان معروفا في بعض البيئات الإسلامية قبل أزمان طوال ، فقد رأينا أبا العلاء المعري يقول :

جائزٌ أن يكون آدم هذا	قبلهُ آدمٌ على إثْر آدم

ويقول :

وما آدمٌ في مذهب العقل واحداً	ولكنه عند القياس أوادمُ

ويقول في شيء من الخُبث :

قال قومٌ ولا أدينُ بما قا	لوه : إن ابن آدم كابن عرسِ
جَهِلَ الناس من أبوه على	الدهر ولكنه مسمَّى بحرس
في حدثٍ رواه قومٌ لقوم	رهنِ طرس مستنسخ إثر طرس

(١) آدم في هذه العبارة ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل ، فسنرى بعد قليل أن هذه اللفظة عربية الأصل . (زكي مبارك)

ولعل «الطرس» الذي عناه أبو العلاء هو كتاب شيث بن عربانوس واسمه «تاريخ البشرية» وإن لم نجد فيه ذلك الاستهزاء البغيض .

وقد أسرف أبو العلاء في الغض من شأن آدم حين يقول :

قالوا وآدم مثلُ أوبرَ ، وابنُهُ كبناته ، جَهِلَ امرؤٌ ما أوبرُ

وهو قول لا يعتمد على بينة ولا برهان . وأسخفُ منه زعم فريق من قدماء الهنود بان آدم كان عبداً من عبيدهم ثم هرب إلى الغرب ، ولم يَعد إلا حين أثقلته تكاليف الأبناء !

وبهذه المناسبة أقول : كان المرحوم مصطفى كمال زعم أن آدم وحواء من أصل تركيّ ، وقد أزعجني هذا الزعم الفظيع ، فكتبت إليه خطاباً أثبتّ فيه أن آدم وحواء من أصل عربيّ ، بشهادة الاشتقاق ؛ فآدم على وزن أفعل ، من الأُدمة وهي السُّمرة المشبعة بالسواد ، وحواء على وزن فعلاء ، من الحوّة وهي سمرة الشفتين، ثم رجحت أنهما من أهل نجد ، بدليل ما في أشعار آدم من الإقواء . وقد انتظرت أن يجيبني مصطفى كمال ولكنه لم يفعل . فسألت بعض الأتراك المقيمين بالقاهرة فأخبروني أن مصطفى كمال لم يكن يقبل الاطلاع على خطاب مكتوب بالحروف العربية بعد أن فرض على قومه جميعاً أن يكتبوا بالحروف اللاتينية .

ما لي ولهذا ؟

إنما أريد أن يعرف قرائي أن كتاب شيث يقوم على أساس القول بأن آدم سبقته أوادم ، ليعرفوا كيف اشتجر الملائكة وهم ينظرون فيما صار إليه بعد العصيان .

في مسجد الفردوس

تنادى الملائكة للاجتماع في مسجد الفردوس ، فحضر فريق وتخلّف فريق ، وكانت حجة من تخلفوا أنهم أبدوا رأيهم في آدم قبل أن يُخلق ، فهم لا يحبون التدخل في أمر مخلوق شرس لا يرضيه إلا أن يكون الوجود منادح شقاق ونضال

وصيال . وقد خلقه الله برغم رأيهم فيه فليصنع الله به ما يشاء . فهـو المنـتقم وهـو الغفور !

ورأى الذين حضروا أن يصلّوا قبـل الكـلام في قضـية آدم ، لتـزداد نفوسـهم صفاءً إلى صفاء ، فيسلموا من أوضار التطاول والإسراف ، فمـا يجـوز أن يجلـس أحدٌ مجلس القضاء إلا بعد الصلاة والقنوت ، وبعد التحرر من شوائب الأهواء !

أحد الملائكة ـ هل ترون أن يكون لهذه الجلسة رئيس ؟

ملك آخر ـ إنما هلك الآدميون بسبب الرؤساء .

ملك ثالث ـ كنت أحب أن تقول بسبب استبداد الرؤساء . أو تناحر الرؤسـاء ، فالرياسة مأخوذة من الرأس ، وهو في العرف مجتمع العقـل ، فمـن الواجـب أن يكون لكل جماعة رئيس !

ـ ولكن ما حاجتنا إلى رئيس ؟!

ـ لينظم الكلام عند اشتجار الجدال

ـ لا يحتاج المتكلمون إلى رئيس إلا حين تغلب عليهم شـهوة الثرثـرة ... إن وجود الرئيس هو في ذاته شهادة بضعف المجتمع الذي يحتاج إليه ، ولو أدّى كـل مخلوقٍ واجبه تأديةً صحيحة لتساوت أقدار المخلوقين . ولن تنجح أمة إلا حـين يصبح كل فرد من أفرادها وهو مرءوس لعقله ورئيس علي هواه . وقد حمانا الله من الأهواء فلن نحتاج إلي رئيس . وعلى هذا أرجـو أن يـدور الكـلام بـلا ترتيـب ولا تنسيق ، علي أسلوب الغابات لا أسلوب البساتين .

ـ ماذا تريد ؟

ـ أريد أن يكون كلامنا طبيعيًّا على نحو ما تكـون الغابـة ، ولا أريـد أن يكـون منسقًا على نحو ما يكون البستان ، فالفطرة في الغابات أقوى من الجمال المصـنوع في البساتين .

ثم دار الحديث على الصورة الآتية بلا تمييز بين الآراء [1] :

ـ أرأيتم كيف صحت فِراستنا في آدم فعصى ربَّه وغوّى ؟

ـ تريد الرجوع إلى التاريخ القديم يوم حاورنا الله في خلق «آدم» ؟

ـ هذا ما أريد

ـ ولكن فاتك أن مضغ حوادث التاريخ عملٌ ضائع ، فآدم خُلق بالفعل، وهو شرٌّ موجود ، أو خيرٌ عتيد ، والمهم هو أن نحدد موقفنا بالنسبة إليه .

ـ نحن من نور وهو من طين

ـ ولكنه أحدث في الجنة زلزلة لن نستطيع مثلها أبداً ، وستجعل له مكانة في التاريخ

ـ تحسده على ذلك ؟

ـ ومن أحسد إذا لم أحسد آدم ؟ نحن جميعا موكلون بعدّ ما له وما عليه ، مع أنه خُلِق من طين ، فهل تكون للطين فاعلية يخفى علينا سرها المكنون ؟

ـ إن تحقير الطين بدعةٌ أذاعها إبليس اللعين ، ويكفي الطين شرفًا أنه أصل آدم .

ـ وآدم مخلوقٌ شريف ؟

ـ بالتأكيد

ـ وبرغم العصيان ؟

ـ أي عصيان ؟

(١) معنى ذلك أن الحوار لن يكون دائما بين شخصين ، وإنما هو حوار مرسل يقول فيه كل ملك ما يريد ، ومجموع أقوال الملائكة يصور في جملته آراءهم المختلفة في نكبة آدم الجديد . (زكي مبارك)

ـ الأكل من شجرة التين

ـ إنما أراد الله أن يأكل من الشجرة المحرمة لنجد عملاً ، ولو نزَّه الله آدم عن المعاصي لبقينا بلا أعمال . وهل يعيش القضاة والمحامون والشهود إلا بفضل انحراف الناس عن سواء السبيل ؟

ـ إن رأسي يدور من هول ما تقول

ـ وهل قلت غير الحق ؟ إن آدم هو مصدر الفاعلية في جميع أرجاء الوجود ، ومن أجل ضلاله وهداه تُنصب الموازين

ـ نحن مقبلون على متاعب جديدة بسبب آدم الجديد

ـ وهل أنت راض عن الراحة التي عانيناها بعد انقراض آدم القديم ؟

ـ شكرا لك ، أيها الرفيق ، فقد خطر في بالي مرةً أن الله قد يسرِّح جيوش الملائكة بعد انقضاء مهمتهم في مراقبة السلالات الآدمية .

ـ أخطأت أخطأت ، فما كنا جنود شرطة ولا جنود استطلاعات ، وإنما خُلقنا للتسبيح والتقديس .

ـ خُلقنا للتسبيح والتقديس ؟ يظهر أنك لم تفهم السخرية الملفوفة في قوله تعالى : ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ .

ـ وكيف سَخِر الله منا بهذه العبارة ؟

ـ حين عقّب بها على قولنا : ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فهو لا يرى التسبيح والتقديس أفضل من الإفساد وسفك الدماء ، بدليل انه سكت عما اتهمنا به الطبيعة البشرية .

ـ تأدبْ أيها الملك ، فأنت في غفلة عما يعنيه صاحب العزة والجبروت ، ولو قضيت دهْرك في الاستغفار لعجزت عن محو هذا التطاول الممقوت .

ـ أريد أن أعرف كيف لا يكتفي الله بالتسبيح والتقديس ؟

ـ وما حاجة الله إلى التسبيح والتقديس من أقوام لا تعتلج في صدورهم معـاني الكفر والإيمان ، والشك واليقين ؟ إنما يرضـى الله عـن تسـبيح مـن يهتـدي بعـد ضلال ، ويؤمن بعد كفران .

ـ إن رأسي يدور من هذا التخريج .

ـ سَلِم رأسك إن كان لك رأس ، أيها الشرطيُّ الذي يريد الإقامة بمنطقة ليس فيها خلائق .

ـ أتفهم من هذا أن البشر أفضل منا ؟

ـ لك أن تذكر أن الله يعاقبهم بالانقراض ، ثم يتلطف فـيخلقهم مـن جديـد ، لحكمة سامية ، وكيف يغيب عنك المعنى الـذي اسـتوجب خلـق آدم الجديـد في الفردوس ؟

ـ كنت أحب أن أعرف هذا السر العجيب .

ـ خلقه الله في الجنة ليأخذ فكرة عن النظام والترتيب والعدل ، وليكون له مثلٌ أعلى يدور حوله حين يقيم مملكته الجديدة على الأرض . ولو أن الله أنشـأ الأوادم القديمة هذه النشأة لقلّ بغيُ بعضهم على بعض وسلموا من آفة الانقراض .

ـ غضبة الله عليهم ، فما كانوا إلا وحوشاً في ثياب ناس !

ـ هل تذكر بعض أعمالهم القباح ؟

ـ أعمالهم القبيحة تفوق العد والإحصـاء ، ولكنـي أرجـح أن الله لم يعـاقبهم بالهلاك إلا حين عاملوه بما لا يليق .

ـ وكيف ؟

ـ كانوا يضيفون إليه أوامر ونواهي لم ينزل بها وحْي ، ولا صَدَرَتْ عن شـرع ، ليسوموا رعاياهم سوء العذاب ، باسم الله وهم كاذبون .

ـ كما صنع آدم الجديد ؟

ـ آدم الجديد لم يصل إلى ذلك الدَّرَك ، فقد عصى الله عن جهل .

ـ إنما عصاه عن حذلقة .

ـ وما حذلقة آدم الجديد ؟

ـ قال الله : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فترك ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ بعينها ثم قرب شجرة من ذات الجنس ، وهو يتوهم أن في هذه الحذلقة ما ينجيه من العقاب .

ـ إن آدم حيوان لئيم !!

ـ وبلا عقل ، فلو كان يعقل لأدرك أن الله لا تخفى عليه خافية من حِيل الفقهاء ، وسنرى كيف يدافع غداً عن إثمه في ساحة العدل .

ـ لا يَبعُد أن يرضى الله عن بلاغته وهو يصوّر الدميم بصورة الجميل .

ـ الجمال في نظر الله هو الحق ، وذلَّ من يزعم انه يستطيع مخادعة الله ، هلك آدم القديم بسبب الحذلقة الفقهية ، وسيهلك آدم الجديد بسبب الحذلقة الفقهية . وسنقول فيه كلمة الحق والصدق إن دُعينا للشهادة في ساحة العدل .

ـ تذكر أنه صاحب حواء !

ـ ماذا ؟

ـ آدم الجديد هو صاحب حواء .

ـ لا أفهم ما تريد أن تقول .

ـ أريد أن أقول أن آدم لن يهبط الأرض إلا ومعه حواء .

ـ وتظن أننا نزور الشهادة من أجل حواء ؟

ـ أنا لا أدعو إلى تزوير الشهادة ، وإنما أدعو إلى الترفق بمن يملك امرأة جميلة .

ـ بهذا هَلَك بنو آدم الأول ، فقد كان فيهم من يحالف أمةً تعادي أمته من أجل وجهٍ جميل ، والجمال سهم يصيب صدر الأسد الرابض في حمى العرين .

ـ وما رأيك في المَلك الذي نظّم باقةً من أزهار الفردوس ليتحف بها حواء ؟

ـ كان ذلك بوحي الله .

ـ إنما كان ذلك بوحي الجمال .

ـ هذا تخريج لا أرضاه .

ـ إنما هو حساب يساق إليك .

ـ الآدميون الأغبياء يهيمون بالجمال ، فكيف يعاب علينا أن نهيم بالجمال ؟

ـ ومن أجل الجمال عصى آدم ربه طاعة لحواء ، أفلا يستحق العطف ؟

ـ سأنظر في هذه القضية .

ـ العجيب أن تُخلق بلا شهوات ثم تهيم بحواء ، فما حال آدم المظلوم في حب حواء وهو مخلوقٌ موقّر بأوزار الشهوات ؟

ـ نهاه الله عن الانخداع لحواء وما نهاني .

ـ كان الظن أن تفهم أن النهي لا يوجه إلا لمن تغيب عنهم دقائق الأدب الرفيع .

ـ أتتّهم الملائكة بالغباوة ؟

ـ اتهمك وحدك .

ـ أنا ملكٌ مِثلك .

ـ لن تكون مثلي إلا حين تعترف اعترافاً صريحاً يزيغ البصائر والعقول .

ـ ولن أعترف إلا إذا سمح جمهور الملائكة بان أتهم الله بالغَرَض .

ـ ماذا تريد ، يا زنديق ؟

ـ أريد القول بأن الله خصّ حواء بأشياء .

ـ لتحلو في عيني آدم ، لا في عينيك .

ـ أمركم عجّبٌ من العجب ، أنتم تعرفون أن الجمال في ذاته شريعة أزلية ، ولا ينظر إليه إلا أصحّاء القلوب ، كالشمس لا ينظر إليها إلا أصحاء العيون ، ونحن مطالبون بالنظر إلى جميع ما في الوجود ، لنزداد يقينًا إلى يقين ، فكيف يجب النظر إلى زهرة نضيرة ولا يباح النظر إلى وجه جميل ؟

ـ أُترك هذه الفلسفة وحدِّد رأيك في آدم .

ـ هو من المذنبين .

ـ لأنه غريمك في حواء ؟

ـ غريمي في حواء ؟ كيف ؟ وهل جُنِنْتُ حتى أهيم بمخلوقة لا تملك غير عينين نجلاوين ، ولا تعتزّ بغير قدها الرشيق وأنا أعرف أنها سرقت سواد عينيها من عيون الظباء ، ونهبتْ مرونة قدها من أعواد البان ؟ أنا أحب مخلوقةً مقتولة اللحظ مبحوحة الصوت ؟

ـ هي سبب نكبة آدم فلتهبط معه إلى الأرض .

ـ يهبط وحده ، وتبقى حواء ، فما عددت عليها ذنباً يستوجب العقاب .

ـ هذا ما أردنا أن نصل إليه ، فقد زعم خصومك أنك لم تراع الأمانة في عدّ أعمال حواء .

ـ اسمعوا ، أيها الملائكة ، اسمعوا ، هل تظنون أن الله يحتاج إلى من يعدّ على عباده الذنوب ؟ إنه عزّ شأنه يعلم من سرائر القلوب ما لا نعلم ؛ وهو لم يوكّلنا بعدّ الأعمال إلا ليختبر ما نحن عليه من الأدب والذوق ، فهو يبغض أن نكون

جواسيس ، وهو يرجو أن نتخلق بأخلاقه فنتغاضى عن أشياء .

ـ وهل يتغاضى الله عن أشياء !!

ـ لو حاسبَ الله مخلوقاته بالعدل الحاسم لأهلك طوائف من الملائكة والناس .

ـ من الملائكة ؟

ـ نعم ، من الملائكة ، الملائكة الذين يتعقبون رفيقاً من رفاقهم فيأخذون عليه أنه قدَّم باقةً من الزهر إلى حواء !

ـ لا تنس أنهم الملائكة الذين يرجون أن تتناسى ذنب آدم كما نسيت ذنوب حواء !

وهنا وقف أحد كبار الملائكة وصاح :

«أيها الرفاق المصطَفَوْن :

«لا أحب أن نحترب في شأن آدم أكثر مما احتربنا ، فلنا مع أسلاف هذا المخلوق تاريخ ، وستكون لنا معه تواريخ ، وأنا أدعوكم إلى الرفق به إن دعيتم إلى الشهادة غداً في ساحة العدل ، فالصدق في الشهادة يُطلب في حالة واحدة ، هي الحالة التي يقضي فيها كتمان الشهادة بضياع الحقوق ، والترفق بآدم لن ينتصر به باطل ، ولن ينهزم به حق ، وأنا أخشى أن يغضب الله علينا إن أدينا الشهادة تأديةً حرفية . وهل يحتاج القاضي العالم بالسرائر إلى شهود ؟!

ـ ونُذنب بالكتمان ؟!

ـ قد يكون الكتمان في بعض الأحوال أشرف من البلاغ[1] !!!

ـ أوضِحْ ، أوضح .

(١) البلاغ من معانيه الوشاية ، ومنه : «قدم فلان بلاغًا إلى النيابة العمومية» . (زكي مبارك)

ـ آدم متهم بالعصيان ، ولهذه التهمة إن صحّت عواقبُ سود ، فعلينا أن نقـف في صفه صادقين أو مرائين .

ـ وماذا يقول الله ؟

ـ سيقول إن سَتْر العيوب فضيلة لا يتحلى بها غير الملائكة والأنبياء !

(للحديث شجون)



٩- قبل اليوم المشهود [١]



قضى آدم في صحبة حواء ساعات وهو ينتظر اليوم المشهود في ساحة العدل ، وهي ساعات كانت أطول من الدهر وأثقل من الجبال .

وزاد في كروب تلك الساعات ، إن آدم لم يكن في حقيقته إلا خِلقة فطرية يُعوزها الصقل والتهذيب ، فكان يبدئ ويعيد في حكاية شجرة التين ، بعبارات محمَّلة بعُنجهية الملامة وفظاظة التريث ؛ وكانت حوّاء تصبر على أذاه في حين ، وتثور في أحايين ، وكذلك كانت تلك الساعات أعنف وأفظع من الحساب المرتقب في ساحة العدل .

ـ آدم ، هل وصلت إليك الأنباء الأخيرة ؟

ـ أيّ أنباء ؟

ـ لقد اختصم الأسود والقرود

ـ ثم ؟

ـ ثم اختصم الملائكة المقرَّبون

ـ وفيم اختصم أولئك وهؤلاء ؟

ـ في أمرنا بعد العصيان

ـ وما قيمة ذلك ؟

(١) الرسالة : ٢٠ إبريل ١٩٤٢

ـ لقد فهمت مما سمعت أن الرأي العام يعطف على قضيتنا كل العطف

ـ الرأي العام كله ؟ كل سكان الجنة ينظرون إلى قضيتنا برفق ؟

ـ ليسوا جميعاً سواءً ، وإنما عطف علينا الأكابر من أولئك السكان

ـ والأصاغر ؟

ـ هم دائما أصاغر ، ولا قيمة لضجيجهم الصخّاب

ـ ليس في هذا ما يزيل مخاوفي ، يا حواء ، فما خشيت يوماً أن يصيبني أذى من أكابر الخلائق ، ولا جاز في وهمي أن تُصدر كلمة الإفك عن مخلوق جمّله الله بالقوة أو بالعقل ، وإنما الخوف كل الخوف من الأصاغر ، فهم الذين يذيعون الصحيح والعليل من أخبار السوء ، وهم الذين يطمسون محاسن الأكابر بالإفك والإرجاف ، ليقال إن الوجود ليس فيه فاضل ومفضول.

ـ لا عليك من هؤلاء ، فلن يسمع أحدٌ ما يأفكِون ... وهل ضعفت العقول حتى تُسيغ أقاويل المرجفين ؟

ـ لو كانت العقول تَنقُد كل ما تسمع ، وفي كل وقت ، لرجوت ان تسقط أراجيف الكاذبين ، ولكن العقول لا تَنقُد كل ما تسمع ، ولا تنصب ميزانًا لكل ما يقال ، وسترين يا حواء أن أصحاب العقول أقلية ضئيلة وهم مع ذلك لا يشغلون أنفسهم بإنصاف المظلومين ، وليس فيهم من يترك أعماله ليرفع الشبهات المفتراة من طريق المروَّعين بالبهتان .

ـ ألم تسمع أن الأسود غضبت من تطاول القرود ؟

ـ سمعت ، ولكني أعتقد أنها غضبة وقتية ، فستجد للأسود شواغل تصرفهم عن تأديب أولئك الأنذال .

ـ وقد غضبت البلابل أيضاً

ـ أعرف ذلك فقد سمعتها تقول إن آدم هو المخلوق الوحيد الذي يطرب

لصوتها الرخيم ، وإنه إن خرج من الجنة فلن تهش للتغريد ... ولكن من يضمن أن يدوم هذا العطف ؟ نحن شجعنّا البلابل والعنادل على الغناء ، وأقمنا لهم دولـة ، ونبّهنا الخلائق إلى ما يملكون من جـواهر السـجع والـرنين . فهـل يـذكرون هـذا الفضل بعد أن نخرج من الفردوس ؟ أنا أخشى أن تصـفق لهـم الضـفادع فيـرون النقيق من صور الثناء !

ـ هل بلغك ما قالت الببغاوات ؟

ـ نعم سمعت أنها قالـت «إن مخـارج الحـروف عنـد آدم سـهلةٌ لينـة ، وأنهـا تحاكيه في النطق بلا عناء ، فهو بذلك أجمل مخلوق » وأنا من هذا أخاف يا حواء .

ـ وكيف ؟

ـ ستستطيع الببغاوات أن تزعم أنها خلائفُ

ـ خلائفُ مَنْ ؟

ـ خلائف الحيوان الناطق .

ـ خلائف آدم ؟

ـ إي ، إي ، أليست تنطق كما ينطق ؟

ـ ولكنها لا تفقه شيئًا مما تنطق ؟

ـ من حق الببغاوات أن تدّعي لأنفسـها مـا تشـاء ، حـين يغيـب أهـل العقـل والبيان .

ـ ولكن أهل الجنة سيذكرون دائماً انك وحدك الشاعر والخطيب .

ـ أهل الجنة لن يذكروا شيئا ، وسوف تعلمين .

ـ خبلتني ، خبلتني !

ـ إن كنتِ في حاجة إلى تزيد من الخبال ، أيتها المخبولة الحسناء ... اسمعي .

ـ إنك تُرعبني حين تقول اسمعي .

ـ اسمعي يا حواء ، ثم اسمعي ، المجد يحتاج إلى حراسة ، والأصدقاء يحتاجون إلى حراسة ، وقد تكون رعاية الغنم أسهل من رعاية الأصدقاء ، ولن يحفظ عهدَنا أحدٌ حين نغيب .

ـ ولا الظبي الذي ربيناه منذ أسابيع ؟

ـ سيجد ذئبًا يرعاه ، وسيأنس بالأنياب الحداد ، أضعاف ما أنس بالأنامل اللطاف .

ـ هي أناملي ، لا أناملُك .

ـ حتى في أوقات الكرب الماحق لا تنسى المرأة أنها مخلوق لطيف !

ـ ترتاب في جمالي ؟

ـ أستغفر الله !

ـ ولا تستغفر الحب ؟

ـ وأستغفر الحب وأتوب إليه !

ـ صِدق ، صِدق ؟

ـ وهل كذبتُ عليك يوماً يا حواء ؟

ـ أنا إذن جميلة وأنت تحبني ؟

ـ ما أحببتُك يوماً ، ولا رأيتك جديرة بالحب ، لأن عقلك أصغر من عقلي ، والحب تفاهم بين عقلين ، قبل أن يكون تلامسًا بين جسمين ، ولكن صوتًا يزعجني يا حواء .

ـ وما ذلك الصوت المزعج ؟

ـ هو الصوت الذي يصرخ بأن لا بد لآدم من حواء .

ـ تقول هذا وأنت الذي يُشغل عني بما في الفردوس من شجر ونبات وطير وحيوان ؟

ـ أنا شُغِلت عنك بتلك الخلائق ؟ هيهات ثم هيهات ! كنت أتأمل الأشجار لأعانق الغصن الذي يشبه قدك النشوان ، وكنت أداعب الأزهار لأرى فيها شمائل من خدك الوهاج ، وكنت ألاعب الأطيار لأسمع سجعاً يذكّر بصوتك المقتول ، وكنت أناغي فصائل الحيوان لأعرف أن لك صوراً في عيون الجآذر وأجياد الظباء. حبك يا حواء أذواني وأضناني وأبلاني ، وستسمعين من أخباري ما تكرهين .

ـ عَدَتْك العوادي ، أيها الفارس الجميل !

ـ سأصبح فارساً بلا فَرَس .

ـ أنت ؟

ـ نعم ، أنا ، فقد حدثني أحد الملائكة أن الله لا يقيم وزناً لهفوات النساء ، فإن القضاء الذي سيقام في ساحة العدل سيجعلني المدين .

ـ وحدك ؟

ـ وحدي !

ـ وإذن ؟

ـ وإذن أهبط الأرض وتَبْقَيْنَ في الفردوس .

ـ مع من ؟

ـ مع جميع هذه الخلائق من شجر ونبات وطير وحيوان ومع نهر الكوثر ، ومع الملائكة المقرَّبين .

ـ أهذه خلائق ؟

ـ بالتأكيد ، وفيها الكفاية لمن يحتاج إلى أنيس .

ـ وأصير كالدَّجاجة الحائرة عند غياب الديك ؟

ـ كيف تحارين وأنت بين المهتدين ؟

ـ هداية حواء في غيبة آدم هي أقبح صورة من صور الضلال .

ـ سيقضي الله في أمرنا بما يشاء .

ـ الله سيقضي بأن تعيش المرأة بلا رجل ؟

ـ سيقضي الله بالعدل ، فالرجل أذنب والمرأة لم تذنب ، والعقاب لا يحق على غير المذنبين .

ـ تخرج من الجنة وأبقى وحدي بحجة أنك المذنب ؟

ـ بالطبع !

ـ وهذا عدل ؟

ـ هذا هو العدل .

ـ والله يريد ذلك ؟

ـ يقال !

ـ آدم ، سترى أنني أشجع منك ، وأوفى منك !

ـ من السهل أن تكوني أشجع مني ، ولكن من الصعب أن تكوني أوفى مني .

ـ المرأة لا تعتصم بالدلال إلا في أوقات الصفاء ، وهي عند الخطر فداء الرجل من جميع الأسواء . ألم تسمع حديث الصائد ؟

ـ وما حديث الصائد ؟

ـ إذا ساور الصائد أسداً ولَبُؤة ، كان عليه أن يقتل اللبؤة قبل أن يقتل الأسد .

ـ ولماذا ؟

ـ لأن الأسد ينسحب بعد انصراع اللبؤة ، أما اللبؤة فتقاتل بعد انصراع الأسد إلى أن تموت .

ـ وأنا سأجادل الله يا آدم .

ـ وتجادلينه يا حواء ؟

ـ أنا أفصح من جميع المحامين ، والمرأة تحارب بالدمع حين تعجز عن المحاربة باللسان .

ـ ولكن الله أكبر من أن ينخدع بدمع المرأة ولسانها .

ـ أنا أعرف الله أكثر مما تعرف .

ـ كل شيء جائز إلا أن تصل المرأة إلى معرفة الله على الوجه الحق .

ـ أنت لا تعرف خطر المرأة حين تصرخ وتولول .

ـ أو ينزعج الله عزّ وجل شأنه بالولولة والصراخ ؟

ـ سترى كيف أصنع ، سترى ، سترى ، سأقيم مناحة في ساحة العدل ، وسيبكي معي جميع الإناث من الطير والحيوان .

ـ والنتيجة ؟

ـ النتيجة معروفة منذ هذا الوقت ، فسيصفح الله عنك ، ليريح اهل الجنة من الولولة والصراخ .

ـ ويقول التاريخ إن آدم نجا من العقاب لأن امرأته بكت في ساحة العدل ؟

ـ ما قيمة التاريخ ، وهو لفظٌ بلا مدلول ، ولا يعتزُّ به غير الضعفاء ؟

ـ وتقولين كلما اختصمنا إنك سبب نجاتي !

ـ هل يؤذيك أن تعترف بفضلي عليك ؟

ـ تمنّين عليّ قبل أن يقع الفضل المزعوم ؟ أنت السبب فيما أعاني من البلاء

مع هذا تطالبين بالثمن لدفع نكبةٍ جناها عقلُك المنخوب !

ـ أنا أعقل منك !

ـ لأنك أغريتني بالأكل من شجرة التين ؟

ـ وهل في الجنة شيء اسمه شجرة التين ؟

ـ تكذّبين الواقع الملموس ؟

ـ واقع ملموس ؟ ما هذا الكلام الأجوف ؟

ـ شجرة التين ، يا حواء ، شجرة التين .

ـ قلت لك إن الجنة ليس فيها شيء بهذا الاسم الغريب .

ـ ولم نقع في العصيان ؟

ـ أي عصيان ؟

ـ العصيان الذي أوجب أن نفتضح ، يا حواء .

ـ وكيف افتضحنا ، يا آدم ؟

ـ بظهور السوأتين .

ـ الطير والحيوان لا تعرف السوأتين ، فأرح نفسك من هذا العناء .

ـ أترين أن أواجه الله بهذا القول ؟

ـ واجه الله بما تشاء ، ولا تخف من غضبه عليك !

ـ وكيف ؟

ـ لأنه لن يصنع بك أشد مما صنع .

ـ ماذا ؟ ماذا ؟

ـ لقد خلق لك ضميراً ، ثم خلق لك ضميراً ، لتقضي حياتك في عذاب !

ـ وإذن ؟

ـ وإذن تكفر بالله وتثور عليه .

ـ لأصير ...

ـ لتصير حيواناً سعيدًا كسائر أصناف الحيوان .

ـ الفضيحة الأبدية ، ولا هذا المصير ، يا حواء .

ـ ماذا تريد بنفسك يا آدم ؟

ـ أريد أن أكون أول مسؤول أمام الله في هذا الوجود .

ـ وما غنيمتك من هذه المسؤولية ؟

ـ هي أن أتشرف بالثواب والعقاب .

ـ الله قد يعاقب ولا يُثيب .

ـ يهمني أن أُعاقب ولا يهمني أن أُثاب .

ـ لأنك ...

ـ لأني رجل ، وسعادة الرجولة في احتمال التبعات .

ـ وبهذه العقيدة ستلقَى الله في ساحة العدل ؟

ـ نعم ، نعم .

ـ وإذن يكون من حقي أن أقول إني في صحبة رجل هو أشجع الرجال وأشرف الرجال !

١٠- في ساحة العدل [1]



قبل أن أمضي في الكلام عما وقع في «ساحة العدل» أذكر أن فرصة جميلة أتاحت لي مقابلة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر «محمد مصطفى المراغي» فتلطّف ـ حفظه الله ـ وقدَّم إليَّ ملاحظات سديدة على بعض ما مرَّ من الآراء في هذه الأحاديث ؛ وكان من كلامه ما نصُّه بالحرف :

«أنت متجه إلى إلقاء تبعة المعصية على حواء ، وفاتك أن تذكر أن عدم تماسك آدم هو السبب في تمرُّد حواء » .

والواقع أني طفت بهذا المعنى في «حديث السِّدرة» . ولكن عبارة الأستاذ الأكبر دقيقة جدًّا ، وهي من الإيجاز النفيس ، ولعل فيها ردًا على من غضبوا جاهلين يوم دعوناهم إلى الحزم في معاملة النساء .

سريرة آدم

ضاق صدر آدم بما وقع من قرب الشجرة المحرَّمة ، وفاض كربه حين تذكر أن حديث الله مع الملائكة كان مقصوراً عليه فقد قال : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ولم يذكر حواء ، وكذلك سكتت الملائكة عن حواء ، فكيف يفوته ان يلتفت إلى هذا التفرد بالتكليف وهو غاية في التشريف ؟

ثم تذكّر أن الله عرض الأمَانة على السموات والأرض والجبال فأَبَين أن

(١) الرسالة : ٢٧ إبريل ١٩٤٢ .

يحملنها ؛ وتشجَّع آدم فحملها وهو لا يـدري أن شـجاعته لم تكـن إلا ضـربا مـن الظلم والجهل .

لو كان آدم يعلم الغيب لأعلن عجزه عن حمل الأمانة بعد نكـوص السـموات والأرض والجبال ، ولكن شبابه فتنه وأغواه فتوهم أنه يقدر على حمل جميع الأثقال.

سيقف آدم في ساحة العـدل وهـو نـادم خَزْيـان ... ألم يضـيِّع الثقـة بمواهبـه السامية ؟ ألم ينهزم أمام امرأة أعظم أسلحتها البكاء ؟

في ساحة العدل ستحتشد الخلائق من الملائكة والطيـر والجـن والحيـوان ، وذلك أول معرض يعرفه التاريخ . ولن يكون آدم متفرجا في هذا المعرض ؛ ولكنه مع الأسف الموجع سيكون مَسْلاة المتفرجين . والويـل كـل الويـل لمـن يصـبح فرجةً لأهل الفضول ، ولو كانوا من الأشراف ، إن جاز لأهل الشـرف أن يشـهدوا موقفاً يتأذّى به رجل شريفٌ .

سيقف آدم متهماً ، آدم الـذي اصـطفاه الله ، ولم يسـمع فيـه أقـوال الملائكـة المقربين ؛ فبأي وجهٍ يقف في قفص الاتهام ، وأمام القاضي الذي منَّ عليـه بنعمـة الوجود ؟

جهنم أروح من الوقوف في ساحة العدل بالفردوس .

كان آدم يتمثل من لمحة إلى لمحة شماتة الشامتين ، ثم يخـفّ كربـه كثيـرا أو قليلا حين يتذكر أن الذين اعترضوا على خلقه هم الملائكـة ، والشـماتة لا تجـوز من أصحاب الأرواح النورانية .

ولكن الجنة فيها سكان لا يمتّون إلى النور بعِرق ، ومن حقهـم أن يشـمتوا في المخلوق الذي يفوقهم بمراحل أبعد مما بين الأرض والسماء .

أتستطيع المعصية وهي حقيرة وخسيسـة ودميمـة أن تمـنح الأنـذال فرصـة التعالي على الأبطال؟

لو كان آدم يعرف أن المعصية ستجعل من حق الحشرات أن تتسابق في الزحف على البطون لتشهد موقفه في ساحة العدل ... لو كان آدم يعرف أن إبليس المطرود سيتبجَّح بأنه أغواه بلا عناء ... لو كان آدم يعرف أن الله يحبه ، وأن استهانة المحبوب بأوامر الحبيب من علائم الخذلان ... لو كان آدم يعرف أن الموت في الطاعة أشرف من الحياة في العصيان ... لو كان آدم يعرف ، لو كان آدم يعرف !!

طافت هذه الخواطر بآدم وهو في الطريق إلى ساحة العدل فكاد يُصعق من هول الموقف . وكاد يتمنى لو تحول إلى حيوان أعجم لا يفقه كنه التكاليف . وهل يستطيع مع المعصية أن يقول إنه أشرف من أي حيوان ؟

لقد عصى ربّه فغوى ، فما استعلاؤه وقد هوت به المعصية إلى الحضيض ؟

المعصية إثمٌ موبق ، لو جازت على الجبل لحوَّلته إلى هباء . عصى آدم ربه فغوى ، فليستعد آدم لحمل جريرة العصيان . وكيف يعصي الله من يعرف أنه خالق الأنوار والظلمات ؟ وكيف يعصي الله من يعرف أنه واهب القدرة على العصيان ؟ وهل تكون الشهوة الأثيمة أعذب مذاقاً من العلقم الذي يجترعه من يصد نفسه عن الآثام ؟ إن حرمان النفس من أهوائها في سبيل الطاعة له طعم شهيٌّ جداً ، فكيف غابت هذه الحقيقة عن آدم ؟ وكيف رضي أن يضام بسبب هواه في مسايرة حواء ؟ لو كان يملك محو هذه الخطيئة بأي ثمن لكانت روحه أول مبذول ولكنه لا يملك محو ما وقع ، وسيؤدي ثمناً أعظم من الروح ، هو سمعته بين سكان الفردوس ، فسيشهدون جميعاً أنه مَدين ، وأن عقله لم يعصمه من الانحراف عن جادة الرشاد . وسيرى بعينيه وجوهاً لا تعيش إلا من اغتياب الأحرار ، وهو الذي قدّم الزاد بنفسه لتلك الوجوه الشوهاء .

جَلْجَلتْ هذه المعاني في صدر آدم فجلس يستريح تحت إحدى الشجيرات وهو يتمنى لو ضلّ الطريق إلى ساحة العدل ، وخطرت له فكرة الهرب ولكن إلى

أين ؟ وهل من عدالة الله مهرَب ؟

ثم تشجع فجأة لخاطر جميل طاف بنهاه ، فما ذلك الخاطر الجميل ؟

تذكر آدم أن الله يعاقب مرة واحدة ثم يصفح لأنه عظيم ، أما الـذين يعـاقبون على الهفوة الواحدة مرات كثيرة فهم صغار الخلائق . وما على آدم بأس من عقوبـة تمر وتمضي ثم يواجه أعماله من جديد وقد تطهَّر بالعقاب.

وقاضي اليوم هو الله ، والعـدل مضـمون مضـمون ، ولا خـوف مـن التزيـد والإسراف ، فليمض آدم إلى المحكمة وهو ثابت القدم رابط الجأش ، فمـا في كـل وقت تكون المحاكم إلى ذلك الجبار الرؤوف ... وفي أثنـاء الطريـق ثـارت نفسـه فدمدم :

«إن الله لا يحكم على آثم إلا بعد أن يتـيح لـه الألـوف مـن فـرص المتـاب . فكيف يعاقبني لأول هفوة تبدُر مني ؟»

فهتف هاتف : تأدب يا آدم ، واذكر نعمة الله عليك ، فما عاجَلك بالعقوبـة إن كان سيعاقبك إلا ليؤكد كرامتك الذاتية بين الخلائق .

ـ التعجيل بالعقوبة مزية ؟

ـ مزية عظيمة ، لو كنت تعرف .

ـ أحب أن أعرف .

ـ العقوبة حكمٌ لك لا عليك .

ـ لم أفهم شيئًا ، أيها الهاتف .

ـ ستفهم بعد لُحَيْظات ، وسـتندم عـلى أنـك لم تأكـل شـجرة التـين بفروعهـا وجذورها .

ـ أرجعُ فآكلها أكلاً لَمًّا ؟

ـ احترس ، ثم احترس ، فأنت نبيّ ، والأنبياء يراعون ظواهر الشرائع قبـل أن يراعوا بواطن الحقائق ، ترفقًا بمن يغيب عنهم إدراك اللباب من أسرار الوجود .

ـ إذن كان من حقي ...

ـ لا حق لك في شيء ، فامض خاشعًا إلى ساحة العدل .

ـ بدون خوف ؟

ـ بأعنف صورة من صور الخوف ، لأن الله يبغض الآمنين أشد البغض .

ـ وكيف ؟ كيف أيها الهاتف ؟

ـ لأن الشعور بالأمان بداية الخذلان، والله لا يرضى لك أن تسير إلى الانحلال.

سريرة حواء

رأت حواء بجزع وارتياع أنها لم تُدْع لحضور «ساحة العدل» إلا مع الشـهود ، فما معنى ذلك ؟ معناه أنها لم ترتـق إلى منزلـة العقـاب ، معنـاه أن منزلتهـا في هـذه القضية منزلة ثانوية ، ومعناه أنها لم تجترح غير الإغواء ، وهو ذنبٌ مقسَّم على ثلاثة شخوص: الحية وإبليس وحواء ... ثم صرختْ:

ـ أنا الجانية ، أنا الجانية ، وآدم لم يأكل ثمرة التين إلا من يدي .

ـ فهتف هاتف ، لن يُنصب للمرأة ميزان ، وهي التي تفـرّق بـين الابـن وأبيـه والأخ وأخيه ، ولن يغفر الله للمرأة أنها لا تدخل بيتاً إلا شطرته إلى شِيعَ وأحزاب ، وقد كانت وستكون أول مصدر للنزاع والشقاق .

ـ لعلك تريد حواء الأولى ، أيها الهاتف ؟

ـ حواء الأولى لم تعرف التبرّج .

ـ وأنا متبرجَة .. أنا ؟؟

ـ نعم ، فقد شهدتُك تَنْظمين من حبوب البسلة عِقداً تزيّنين به جِيدك الأغيد ،

ورأيتك تعصرين الزهر بين كفيك ثم تمسحين بعصيره أجزاء من جسـمك البـديع لتظهر عليه خطوط وردية أو عسْجَدِية .

ـ وما العيبُ في ذلك ؟

ـ العيب أنك لا ترضين بما قسم لك الله من الحظوظ .

ـ وماذا أعطاني الله ؟ ماذا أعطاني ؟

ـ كل امرأة تقول هذا القول ، وما رضيت امرأةٌ عن نصيبها أبداً .

ـ وما نصيبي ؟ وهل كان لي من النعيم نصيب ؟

ـ لك آدم يا حواء .

ـ آدم الذي يريد أن يتمتع وحده بجريرة العصيان ؟

ـ تريدين أن تقاسميه أعباء الجريرة ؟

ـ هي جريرتي وحدي ، وأنا صاحبة الحـق الأول في الوقـوف جانيـةً «بسـاحة العدل» .

ـ وترين موقف الجناية من مواقف التشريف ؟

ـ هو فرصة لأن يصبح الجاني على ألسنة جميع الخلائق .

ـ إن كان هذا ما تريدين فاطمئني ، فلن تقع جريمة في شرق أو غـرب إلا قيـل «فتِّش عن المرأة» . ولن يتنسّك عابد ، أو يترهب زاهد ، إلا طلبًا للسلامة من كيـد المرأة . ولن تخلو شريعة من التحذير المخيف ، التحذير من حبائل النساء . ولـن يرتفع مرتفـع أو يـنخفض مـنخفض إلا وفي خيالـه أن امـرأة نصـحتْه فـارتفع ، أو خدعته فانخفض . ولن يبرع أديـبٌ أو فنّـان إلا وهـو مَـدين لمخلوقـة سـفيهة أو حليمة من بناتك يا حواء . لن ينبغ كاتب أو شاعر إلا بوحي يُوحى إليه من إنسـانة عليلة الطرف أو صحيحة الفؤاد . ولن يخلو كتـابٌ مـن اسـم المـرأة ، ولـو كـان شريعة تتلقاها الأرض عن السماء .

ـ أرَحْتني ، أرحتني ، أيها الهاتف .

ـ إنما نريح مصدر التعب لنستريح !

جلسة علنية

صدر القرار بان يحاكم آدم في جلسة علنية يشهدها جميع سكان الفردوس ، فكان على الملائكة أن يهيئوا ساحة العدل تهيئة تسمح بأن يشهدها أولئك الخلائق بلا عناء .

وكيف تحضُر جميع الخلائق ؟

في الطيور طوائف من الحواضن ، والطيور الحواضن لا تترك البيض المحضون ولو تعرضت للموت من الظمأ والجوع ، فمن المستحيل أن تترك أعشاشها لتشهد محاكمة آدم صاحب حواء .

وفي الأنعام بهائم تأكل الطعام وهي مطعونة بسهم الموت ، فلا أمل في أن تتحرك لشهود القضاء في ساحة العدل .

وهنالك الحمير ، وهي لا تعلن عن سرورها بغير النهيق ، فمن الخير ألا تحضر مجلس القضاء وصوتُها أنكر الأصوات .

وفي الوجود خلائق لها أبصار ، وليس لها بصائر ، فمن الحزم أن تُراح من شهود جلسة لا يستفيد منها غير أرباب القلوب .

ثم اتفقت آراء الملائكة على أن المراد بعلنية الجلسة إعطاء الفرصة لمن يستطيع الحضور ،وليس المراد أن تحضر الخلائق جمعاء ، وهل يتيسر لأسماك الكوثر أن تشهد محاكمة آدم وهي تُعرَّض للموت إن طال ثواؤها بالعَرَاء ؟

والحق أن الملائكة لم يشهدوا في ماضيهم القديم أصعب من ذلك الموقف ، فقد كان عليهم أن يراعوا في تهيئة ساحة العدل طبائع الطير والحيوان والحشرات ، فمن الطير أنواع تستريح إلى الأرض ، أمثال الحَجَل والكروان والهداهد والطيور المائية ،

ومن الطير أنواع لا تستريح بغير الوقوف فوق أعواد ، فكيف تُعدّ الساحة لأولئك وهؤلاء؟ إن ذلك لا يتم بغير متاعب ، والجلسة مستعجلة، ولا يمكن طلب التأجيل .

وعرضت للملائكة مشكلتان في غاية من الخطورة : المشكلة الأولى مشكلة النزاع الذي ثار بين الأسود والقرود بعد فضيحة آدم وحواء ، وهو نزاع قد يثور من جديد إن قضى الله على آدم بما يشرح صدور القرود .

أما المشكلة الثانية فهي الخوف على الطيور المغردة من عدوان الطيور الجارحة، فالصقر يشتهي الطير المغرد شهوة عارمة ، ويكاد يتوهم أن لحم الطير المغرد أطيب من خدود الملاح ، وتلك الطيور لن تسكت عن التغريد ، لأنها مفطورة على حب الغناء ، ولو في حضور الشواهين ، والجمال قد يجني على الجميل .

قال أحد الملائكة : ولكن نحن في الجنة ولا خوف من بطش الأقوياء بالضعفاء .

فقاله له صاحبه وهو يحاوره : كنا في الجنة !

ـ كنا ؟

ـ نعم ، كنا ، وما فات مات .

ـ أوضِحْ ، يا رفيقي . أوضح .

ـ كانت الجنة جنة .

ـ فصارت ؟

ـ فصارت كما ترى ، ألا تعرف أن آدم عصى ربه فغوى ؟

ـ وما خطرُ ذلك ؟

ـ هو خطرٌ فظيع فظيع ، وأنا أخشى أن تكون معصيته قدوة سيئة لجميع سكان الفردوس ، فسيقول قائلهم : إن ما جاز صدوره عن الكبار يجب صدوره عن الصغار .

ـ وآدم كبير ؟

ـ هو كبير الكبراء ، وستعرف صدق ما أقول بعد حين .

ـ وإذن تكون معصيته شرًّا مستطيراً ، وأغلب الظن أن الله سيطرده من الجنة بلا إمهال .

ـ برغم منزلته العالية ؟

ـ خفضته المعصية ، فلينزل إلى الحضيض ، إلى الأرض التي لا يعرف فيها السعادة غير الديدان ، فهي وحدها التي تُرزق في الأرض بغير حساب .

ـ والنتيجة ؟

ـ والنتيجة أن جلسة اليوم تحتاج إلى حزم ، وهي تجربة قاسية ، فلنحاول تقسيم الحاضرين إلى طوائف تَفْصِل بينها حواجز ، لنأمن الثورة المرتقبة من هياج الغرائز الغافية في صدور الطير والحيوان . ولهذا اليوم ما بعده يا رفيقي ، فإن نجحنا في تنظيم هذه الجلسة إلى أن تمر بسلام ، فسنكون أهلاُ للثقة التي تمنحنا الحق في أن نكون عل جميع الخلائق رقباء .

اليوم المشهود

كان سكان الجنة تسامعوا بأخبار حواء ، ولم يرها منهم إلا الأقلون ، بسبب احتجازها بين البواسق ، وبسبب نفرتها من أهل اللغو والفُضول ، وبفضل ما فُطرت عليه من الدلال المدوف بالكبرياء .

والفرصة الوحيدة لأن يروها أجمعون هي حضور محاكمة آدم في ساحة العدل، فمن المؤكد أنها ستحضر لمواساة فارسها الجميل .

خفَّ سكان الفردوس لمشاهدة حواء ، ولم يختلف إلا من صدَّته الرعاية الواجبة للأفراخ أو الأشبال .

من كان يظن أن الأسماك رحَّبَتْ بالموت لتقضي ساعة أو ساعتين في

مشاهدة حواء ؟

وتقدم غضنفلوث لتمتطي حواء ظهره المنيع ، فدخلت الساحة في عِزة لا يظفر بمثلها الملوك.

فكيف كانت حواء في ذلك اليوم ؟

كانت وكانت وكانت :

كان طرفها الكحيل يعد ويخلف في اللمحة الواحدة ألوف المرات ، وكأنه جذوات تقتتل في هدوء وسكون .

وكان أنفها في ملاحته يتموج تموجاً نورانياً في حدود يوحي بها لحنُها الرنّان .

وكان صوتها ـ صوت حواء الجميلة ـ يشهد بان حناجر البلابل والعنادل أودعت حلقها الرخيم .

وكان نحرها ـ نحر حواء ـ مرمراً ينطق . وما أخطر المرمر الذي ينطق !

وكان لثناياها بريق يفوق بريق الحَبَب عند فورة الرحيق .

وكان لذراعيها استدارة فنية تهتف بأن الله يزيد في الخلق ما يشاء .

أما جسم حواء في جملته بلا تفصيل ، فهو الوجود في جملته بلا تفصيل .

كانت أرقّ من الأزهار في آذار ، وأعذب من الأعناب في آب .

كانت أحلى من وسوسة الأماني في الصدر المكروب ، وأشهى من جلجلة المعاني في القلب الموهوب .

وكان تثنّيها يوهم بأن قوامها أُلِّف من خطرات تفوق العدَّ والإحصاء .

في المكان المحدود من جسمها البديع ألوان وألوان ، فكأن كل جزء من أجزاء ذلك الجسم قصيدة تحترب فيها القوافي والأوزان ، والألفاظ في الشعر الرائع تشبه الأوصال في الجسم الفينان .

كانت حواء في ذلك اليوم ... كانت وكانت وكانت .

فكيف كانت ؟ كيف لا كيف ، ألم يكف أنها حواء ؟

قال الصقر : لو كانت هذه أنثاي لنذرت الصوم عن لحوم الكنار شكرا لله على هذه المنحة الغالية .

وقال الأسد : لو كانت هذه أنثاي لشكرتُ الله بالصفح عن القرود .

وقال البلبل : لو كانت هذه أليفتي لابتدعت لحنًا يسكر سكان الفردوس .

فهتف هاتف : حواء لآدم ، وآدم لحواء ، وليس في الإمكان أبدع مما كان . فغضُّوا أبصاركم عن حسنٍ هو عزاء آدم في بلواه ، وهو حجته في استباحة العصيان .

محكمة ، محكمة !!

ونظر آدم فرأى جلال الله يسيطر على الموقف ، ورأى أنه سيحاسب أمام جميع الخلائق .

ـ رباه ، أجِرني !

ـ وكيف أجيرك وأنت مذنب ؟

ـ أحب أن يكون الحساب في جلسة سرية .

ـ لماذا ؟

لأدافع عن نفسي بحرية ، فعندي كلام لا أحب أن يسمعه القرود ولأني أخاف أن تنصعق حواء من شماتة الشامتين ، وهي أرق من الوهم الذي يساور القلب الأوَّاب .

ـ لك يا مخلوقي الأثير ما تريد على شرط أن تكتم ما سيدور في الجلسة السرية ، فأنا أعلم أنك ستفوه بأقوال تزلزل عزائم الآساد في رعاية الأشبال .

١١- محاكمة «آدم» و «حواء» في جلسة سرية [١]



بين المحسوس والمعقول

سنجد في حديث اليوم أن الله ظهر «لآدم» و «حواء» بصورة حسية ، وذلك يخالف العقيدة الإسلامية ، فكيف نقبل تلك الصورة مع تنزيه الله عن أن تراه الأبصار ؟

الحل سهل : فنحن نلخّص كتاب شيث بن عربانوس ، وهو كتاب وُضعت أصوله في عهود فطرية لا تُدرك المعقولات إلا عن طريق المحسوسات ، فهي لا تتمثل الله إلا بصورة حسية تراها العيون .

وما وقع في كتاب «شيث» وقع مثله في النسخة الموجودة بين أيدي الناس من «التوراة» ، فعبارة التوراة الصريحة في أن الله ظهر لآدم ، وان آدم وامرأته اختفيا بين أشجار الجنة حياء من ملاقاة الله وجها لوجه بعد العصيان .

وعل فرض أن التوراة الموجودة بين أيدي الناس هي التوراة الحقيقية ، وأنها لم تُصّب بتحريف ولا تبديل ، فمن الممكن أن نرجع نصوصها إلى الاستعارة التمثيلية ، كما صنع المفسرون حين وجدوا في القرآن ألفاظاً لا تساير الروح الإسلامي إلا بعد التأويل .

---

(١) الرسالة : ٤ مايو ١٩٤٢ .

والواقع أن الإنسانية في عهودها الفِطرية جسَّمت جميع المعاني ، فقد جعلت لله وجها ويدين ، وصورته بألوان لا نراها اليوم ، بعد أن ارتقت العقول فصار من السهل أن نؤمن بان الله ليس كمثله شيء ، وانه فوق ما تتصور الأوهام والظنون .

وما سُقنا هذا التمهيد لقراء (الرسالة) وهم من الخواص ، وإنما أردنا أن نحرر الموقف تحريرًا يرفع من طريقنا جميع العقبات لنصل إلى الغرض بسلام وأمان .

الجلسة السرية

انزعج فريق من الذين حضروا الجلسة حين طلب آدم أن يحاكم في «جلسة سرية» وأخذ منهم الغيظ كل مأخذ حين انطوت إجابة الله على ما طلب ، فقد كانوا يشتهون أن يُشبعوا ما انطوت عليه جوانحهم من شهوات الفُضول ، وكانوا يتوقون إلى معرفة ما سيدافع به آدم عن نفسه في ذلك المقام الرهيب ، وربما كان فيهم من تسوقه ثائرة الحقد إلى رغبة التشفي من آدم وهو مأخوذ بجريرة العصيان .

جزع آدم

كان الخوف من شماتة القرود هو الذي حمل آدم على طلب الجلسة السرية ، وفاته أن يذكر أن لعلنية الجلسة حكمة عالية ، فهي تدعو القاضي إلى التلطف في الاستجواب ، ترفقاً بمن يحاسب أمام جماهير لا تخلو من أعداء وأغبياء ، وفاته أيضا أن يذكر أنه سيقف وحده أمام قاضيه ، وللوحدة رهبةٌ تُزيغ البصر وتعقل اللسان .

آدم يقف وحده أمام الله في جلسة سرية ؟

وأين المحرّضون على المعصية وهم ثلاثة شُخُوص : إبليس والحية وحواء ؟

فإن كان الله يريد إقامة العدل فليطلب حضور المحرّضين ليلقوا جزاءهم على التحريض .

وما كاد هذا الخاطر يطوف بقلب آدم حتى صاح الهاتف :

ـ آدم ، لا تجمع بين المعصية والجهل .

ـ أنا من العُصاة ولست من الجاهلين .

ـ إن اعتراضك على الله هو الغاية في الجهل .

ـ أنا لا أعترض على الله ، ولكني أطلب إقامة العدل .

ـ وما العدل عندك ؟

ـ هو أن يحاسب المحرضون قبل أن أحاسب .

ـ ومن هؤلاء المحرضون ؟

ـ الحية وإبليس وحواء . ومهما يكن فلا أقل من أن يحاكم إبليس اللعين .

ـ اترك إبليس في غفوته ، يا آدم ، ولا توقظ الشر الوسنان .

ـ لا بد من محاكمة هذا اللعين على التحريض .

ـ إبليس لعين ؟

ـ بشهادة الله .

ـ وكيف انخدعت بأحابيله وأنت تعرف أن الله شهد بأنه لعين ؟

ـ تلك هفوة أوقعني فيها الجَدُّ العاثر .

ـ آدم ، لا تجمع بين المعصية والجهل .

ـ أراك تكرر هذه العبارة ، أيها الهاتف ، فماذا تريد ؟

ـ أريد القول بأن الله لم يعلن غضبه على إبليس إلا لحكمة سامية .

ـ وما تلك الحكمة ؟

ـ هي أن يرفع الغشاوة عن أصحاب الغرور والغفلة والانخداع .

ـ أوضح ، أيها الهاتف .

ـ إن الله سخّر إبليس لامتحانك ، يا آدم ، وشاءت رحمتُه بك أن يعلن أن إبليس شيطانٌ رجيم ، لتنقطع حجتك في الانخداع أو لتأخذ الحيطة لنفسك فتحترس من ذلك الناصح الظنين ... فإذا استطاع إبليس على سوء سمعته أن يجرّك إلى العصيان ، فكيف تكون حالك لو كلّف الله بامتحانك أحد الملائكة المقرَّبين؟

ـ آه ، آه ، آه ، صعقتني أيها الهاتف !

ـ ما صعقتك ، ولكنني نصحتك ؛ فاترك إبليس في غفوته ـ ولا توقظ الشر الوسنان .

ـ وماذا يقول إبليس لو ألححتُ في محاكمته على تهمة التحريض ؟

ـ سيصمتُ صمت الأموات .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه على رأسه الشُّرطة السرية .

ـ هو إذن جاسوس ؟

ـ إن كانت هذه اللفظة تشفي غليلك فاملأ بها مسامع الأرض والسماء !

ـ أراك تعطف على إبليس مع أنه شاقَّ الله بعناد وكبرياء .

ـ لا يستطيع مخلوق أن يشاق الله ، ثم يترك له الله أي فرصة للتمتع بنعمة الوجود .

ـ أيرضى الله عن نزعات إبليس ؟

ـ لو أعلن رضاه لضاعت الفرصة في امتحانك .

ـ إن رأسي يدور من هول هذا المنطق .

ـ كنت أنتظر أن يدور رأسك من هول ما صنعت بنفسك .

ـ وماذا صنعتُ بنفسي ؟

ـ انخدعت بنصيحة مخلوق كتب الله عليه اللعنة إلى يوم الدِّين ، فكيف يكون حالك لو خدعك مخلوق غير ملعون ؟ إن إبليس فضح نفسه حين قَصَر دعوته على العصيان ، وكان في ذلك ما يكفي لرفع الغشاوة عن عينيك .

ـ آه ، آه ، آه ، صعقتني ، أيها الهاتف !

ـ وسأصعقك مرة ثالثة فأقول : إنك شهدت على نفسك بالغفلة والحمق حين انخدعت لمخلوق مفضوح ، فقد أعلن على رؤوس الأشهاد أنه سيزيّن لك ولذريتك وأنه سيغويكم أجمعين ، فما دفاعك عن نفسك وقد صلصل الناقوس بأن إبليس غريمك وأنه سيصرعك حين يستطيع ؟ ما دفاعك وقد وضعت قدميك فوق أشواك سمعتْ أخبارها أذناك ورأتها عيناك ؟

ـ وترى أيها الهاتف أن أسكت فلا أطلب محاكمة إبليس على التحريض ؟

ـ ذلك ما أراه ، فأنا أخشى أن يظهر لسكان الفردوس أن إبليس أشرف منك .

ـ أشرف مني ؟ وكيف ؟

ـ لأنه خادعٌ وأنت مخدوع ، فإن لم يكن أشرف منك فهو أقوى منك ، والقوة من علائم التشريف .

ـ وألقي الله وحدي وجهاً لوجه في هذا المقام الرهيب ؟

ـ كما لقيته وحدك وجهاً لوجه حين عصيته .

ـ أكان الله يراني عند العصيان ؟

ـ ألم تكن تعرف أنه يراك ؟ إن أوزارك بالجهل أوزارٌ ثقال !

ـ يظهر أني سأخسر القضية في ساحة العدل .

ـ لا خسران في ساحة العدل ، فستفوز بأعظم ربح وهو التأديب .

ـ اترك الحية واترك إبليس ، واكتفي بحضور حواء .

ـ لتحاسب ؟

ـ لتشهد محاسبتي ، فقد يرى كرم الله أن يعفيني من الذل فما تكرم امرأةٌ زوجها إلا إذا كان من الأعزّاء ، وما أحسب الله يريد أن أهان .

يوم الحساب

ـ من أنت يا هذا ؟

ـ عبدُك آدم .

ـ وما تلك بيمينك ؟

ـ أَمَتُك حواء .

ـ وفيم حضرتما ؟

ـ لنقول : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ .

ـ من علَّمكما هذا الأسلوب من المتاب ؟

ـ هو بعض ما تلقينا من فيض هدايتك الربانية .

ـ وما الذي كان يمنع من إعلان هذا المتاب بحضور سكان الفردوس ؟

ـ منع من ذلك الخوف من رفض هذه التوبة على مرأى ومسمع من القرود .

ـ ولكن القرود خلقٌ من خلقي ، ومن حقهم أن يشمتوا بالآثمين .

ـ هذه بداية مرعبة ، وأنا أدعوا الله أن يتفضل بإمهالي يوماً أو يومين لأستعد

للدفاع .

ـ أمهلتك أسبوعًا .

ـ وخرج آدم من الجلسة السرية وهو موقن بأن الأمل في نجاته عزيز المنال !

فما الذي سيقع بعد أسبوع ؟ وهل يُفلح آدم وهو صاحب حواء ؟

نسأل الله الصفح عن آدم ، فما عرفناه إلا فتىً وهّاج الروح والفؤاد .

***

توقف زكي مبارك عند هذه الحلقة من حلقات «بين آدم وحواء» بعد أن أوعزت وزارة المعارف عن طريق بعض الشيوخ بوقف هذه الحلقات ، واستجاب الأديب أحمد حسن الزيات رئيس تحرير مجلة الرسالة لطلب وزارة المعارف حتى يتجنب غضب بعض الشيوخ المتزمتين والأهم حتى لا تقطع وزارة المعارف اشتراكها في مجلة الرسالة وكان اشتراكًا مؤثرًا وكبيرًا في استمرار صدور مجلة الرسالة ، وحاول زكي مبارك أن يستكمل حلقات هذه الفنتازيا الأدبية الخيالية لكن دون جدوى فلم يجد وسيلة أمامه إلا الدوران حول الموضوع فكانت سبحاته في أجواء عالم الجن والملائكة سابحًا في فضاءات خيالية مفعمة بالأطياف النورانية المستلهمة من عالم الأساطير القديمة والأقاصيص الشعبية المثيرة لتعويض حرمانه عن استكمال هذه الفنتازيا القصصية الرائعة التي شدت القراء وفوجئوا بتوقفها بعد الحلقة الحادية عشرة.

رسائل مجنون سعاد



رسائل مجنون سعاد[1]



من الملهمات اللاتي كان لهن دور كبير في حياته وأدبه شاعرة حسناء من مدينة المنصورة وطن الشعر والفن والجمال ، وكانت تنظم شعرا وجدانيا رقيقا . هي «جيمي»

أحبها زكي مبارك بصدق وعاطفة قوية بعد عودته من باريس عام ١٩٣١ ...

فقد دخل المنصورة ذات صباح وكانت أول مرة يرى فيها المنصورة وكان يشعر بمتاعب وجدانية أثقل من رواسي الجبال ثم جلس على الشط (وأطلقت العنان لروحي وقلبي وعيني كان ذلك والنهر المبارك في طغيان ، والعبور بين المنصورة وطلخا يحتاج إلى سابح ماهر كالذي كنت في مطلع شبابي ، فقد عبرت النيل مرة من روض الفرج إلى وردان جلست على الشط أمام قهوة ثم حضر أحد باعة السمك .

(وكان فطورا شهيا لا يظفر الجائع بمثله إلا في القليل من الأحايين وبعد أعوام كانت لي في المنصورة بلطية جديدة لم تكن سمكة ، وإنما كانت فتاة أوحت إلي قلبي أطايب المعاني . لقد ماتت هذه الفتاة .. ماتت في قلبي وإن كانت لا تزال تتمتع بنسيم الحياة ومن مات في قلبي لا يجوز له أن يتوهم أنه من الأحياء إن كان لتلك الفتاة هوى ليشغلها عني فأنا عنها مشغول بألوف وألوف من الأهواء ... ولكن برغم هذا التجني أشعر من حين إلى حين بثورة في صدري تشابه ثورة

(١) مجلة الصباح : رسائل مجنون السعادة / ١٩٣٩ .

البراكين ... أيكون معنى هذا أنني لن أتوب من حب هذه اللعوب ؟ وماذا يبقى في الحياة أن تبت من حب تلك الفتاة)؟

وقد تحدث عن ظروف كتابة هذه الرسائل الوجدانية الرفيعة ، فقال :

«هناك كتاب لم يسبق له مثيل ولا نظير وهو «رسائل مجنون سعاد» تلك التي أنشأها الدكتور بديع الزمان ...

«أما ذلك الدكتور ـ وأنا ذلك المجنون وأنا ذلك البديع ـ فقد كانت ترسل بطريقة سرية إلى صاحب مجلة «الصباح» لأنني كنت من أكابر المفتشين بوزارة المعارف ولا يجوز لرجل من أكابر المفتشين أن يتحدث عن الحب والجمال ... بدأت تلك الرسائل في بغداد ... لم تكن الموحية ليلى البغدادية وإنما كانت ليلى قاهرية رمت سهمها فأصمتني وأنا في بغداد . لقد اعتصرت فؤادي وأودعته تلك الرسائل» .

وشهدت روابي المنصورة الفيح ليالي الحب والشعر والنغم لمحبين صادقين ... واستمرت هذه العاطفة بين مد وجزر لبضع سنوات ...

وعندما سافر إلى العراق منتدبا للتدريس في دار المعلمين العليا ببغداد في نهاية عام ١٩٣٧ اجتاحه الوجد والحنين ، فبدأ في نشر سلسلة من رسائل الحب والجمال سماها «رسائل مجنون سعاد» وآثر أن يخفي اسمه وينشرها بتوقيع «الدكتور بديع الزمان» وقد انتحل في هذه الرسائل شخصية طبيب أبدان بالرغم من أنه طبيب أرواح إمعانا في إخفاء شخصيته ... وانتحل لمحبوبته الشاعرة الحسناء اسم «سعاد» ...

وقد استغرق نشر هذه الرسائل فترة طويلة امتدت إلى ست سنوات كاملة تماوجت فيها أنغام الهجر والوصال والحب والحنين والوجد ...

ولكن من هي سعاد ؟..

هل تكون شخصية خيالية ؟ ..

هذا مستحيل .. فما يقضي شاعر عاشق مفتون مثل الدكتور زكي مبارك السنوات الطوال في التغني بهوى محبوبة من صنع الخيال !

وبالرغم من أنه قد أعلن أنها من أسيوط إلا أن الحقيقة تؤكد أنها من المنصورة واسمها «جيمي» . وقد بدأ هذه الرسائل عام ١٩٣٨ وهو يقترب من السابعة والأربعين من عمره ، في ذروة نضجه الفني والنفسي والوجداني .

وقد قال زكي مبارك عن هذه الرسائل أنها تصور أعنف مأساة غرامية في العصر الحديث . وقد قبس هذه الرسائل من نار روحه ونور وجدانه ، فكانت أقباسا وجدانية في الحب والجمال..

ومن هذه الرسائل الرقيقة هذه الرسالة النابضة بالصدق والحرارة يقول فيها مناجيا سعاد :[(١)]

«أنا حزين ، يا سعاد ، والحزن مرض لا يدرس في كلية الطب ، وليس له أطباء فيما علمت، فأين الوجه الذي أغرق في سناه همومي وأحزاني ؟

«أين ؟.. أين ؟.. فقد طال بالحزن بلائي ! ..

«إلى أين أذهب بهمومي يا سعاد ؟ .. وفي أي بيداء أعتصم بالحيرة والضلال ؟

«لو كنت من الشعراء لقتلت حزني بالغناء ..

«ولو كنت من الصوفية لدفنت حزني في تربة الوجد مع الصابرين المصابرين في جيش الخلاص . ولكني ـ واأسفاه ـ شاب مفتون بمخلوقة صيغ جسمها من النور ، وصيغ روحها من الظلام ! ..

وقد عكست «رسائل مجنون سعاد» الملامح الوجدانية والنفسية والأخلاقية للدكتور بديع الزمان التي تخفى وراءها الدكتور زكي مبارك ليستطيع الإفصاح عن أسرار روحه وسرائر وجدانه بصدق وتجرد ، بعد أن حورب كثيرا من بعض

(١) هذه الرسالة : بتاريخ ٥ مايو ١٩٣٩ .

الأقلام الجامدة بسبب صراحته في الحديث عن بواطنه وأحاسيس قلبه وتموجات روحه الواثقة منذ بدأ يكتب أحاديث الحب بعد أن أصدر كتابه «مدامع العشاق» الذي أثار عليه الأراجيف والأباطيل من أساطين النفاق .

وعلى مدى اثنين وستين رسالة عبر زكي مبارك عن كل ما يجول في نفسه وقلبه من مشاعر وأحاسيس وأفكار وخواطر وجدانية وفلسفية جسدت ملامح شخصية زكي مبارك الحقيقية بصدق وصراحة مطلقة .

الرسالة الأولى

مولاتي سعاد ..

ليتني أعرف كيف وقع ما وقع بالأمس !

ليتني أعرف كيف كنت لي وحدي بعد تناول العشاء في حفلة نادي القلم المصري !

بل ليتني أعرف كيف أمكن أن يتسامح أولئك الأدباء الأغبياء فيجعلونا متجاورين على المائدة لأداعبك برجلي على طريقة «ميسيه» مع معشوقته «صاند» ؟

لقد كنت أحسبها لحظة عابرة لا تعود ، ثم دهشت حين رأيت من المفهوم عند أولئك الأدباء الأغبياء أنك لي وحدي ، وإني صاحب الحق المطلق في أن أصحبك إلى حيث أشاء ، وكانت لحظة سعيدة عرفت فيها أنني أملك أجمل إنسانة شربت ماء النيل ، نعم كنت أجمل إنسانة في حفلة ذلك المساء ، وهل كان هناك إلا دميمات أو عجائز لا يليق بهن غير التصون بالتزام كسر البيت ؟

لقد كنت عروس النادي في ذلك المساء وكان النساء ينظرن إليك حاقدات غاضبات . أما الرجال فكانوا ينظرون إلينا متأدبين خاشعين ، فمن الذي أعلمهم أني أحبك يا سعاد ؟

وهل بلغ من أدب محرر الليبرتيه أن يفهم أني أحبك يا معبودتي ، وأن من الواجب أن نكون على المائدة متجاورين ؟

حدثيني كيف اتفق ذلك ، فقد أصبحت مجنونا أو كالمجنون ؟

أحب أن أعرف كيف جلسنا متجاورين على المائدة ، وكيف أمكن أن نتناجى برجلينا ، وهو تناج طريف في دولة الحب والفتون ؟

وما أنكر غمزات محمد عوض ، والدكتور كامل حسين ، ولكن ماذا يعنيني؟ .. المهم أنك أصبحت لي وحدي ، وأني خرجت معك إلى سينما البوريتنيير يا سعاد ..

خرجت من النادي وذراعك في ذراعي ، وخرج الزملاء خروج المساكين ، فالشيخ مصطفى عبد الرازق لم يكن في صحبته غير نسخة من جريدة «البلاغ» ، والدكتور هيكل لم يكن في صحبتهم غير زوجات هزيلات فيهن الدميمة وفيهن الحيزبون ، وكنت وحدي أسعد الزملاء لأنك كنت في صحبتي يا سعاد ...

وأنت تعرفين ما وقع في السينما ، فهل تذكرين ؟ ..

هل تذكرين أننا مثلنا رواية أجمل وأودع من الرواية التي مثلت على الشاشة البيضاء ؟ ..

هل تذكرين أن النجوم وقفت مسالكها لتنظر كيف يأنس العاشق بمعشوقته أول مرة ؟ ..

هل تذكرين أننا قرأنا كتاب الحب في لحظة واحدة حين التقينا في تلك الليلة؟..

تذكري ما وقع في تلك اللحظة ، ثم تصوري كيف عاد أولئك المغبونون إلى منازلهم وهم بين أبله لم يذق طعم الحب ، وأديب فنان حرم لذة الحب ، وقد خرجنا من السينما قبل أن تتم الرواية ، ومضيت معك إلى الفندق ، وكنت ظالمة يا

سعاد ، فقد قهرتني قهراً على الاكتفاء بالماء ، ولا زلت أذكر كيف شرقت بالطعام ، وكيف أزدرده وأنا أسوغه بماء الدورق في فندق الكونتننتال ؟ ..

وهل رأى الناس عاشقا قبلي يشرب الماء في فندق الكونتننتال ؟ ..

اعترفي يا سعاد أنك كنت قاسية في تلك الليلة ! ..

اعترفي يا سعاد أك ظلمتني أقبح الظلم حين قضيت بأن تظل صحيفة ذنوبي بيضاء ، ولكن لا بأي ، فحسبي أنني كنت الرجل الوحيد الذي خرج من نادي القلم وفي ذراعه فتاة ساحرة العينين معشوقة البسمات ...

سيفنى كل شيء ، وتبقى الذكرى ، ذكرى تلك الليلة يا سعاد ...

أريد أن أعود مرة ثانية إلى غرفتنا بالكونتننتال ، فقد جنيت على نفسي أشنع جناية ، حين رحمتك فلم أقتلك بالعناق ، وحين لبست ثياب المغفلين فصحبتك في مساء اليوم التالي إلى محطة باب الحديد لتعودي إلى أسيوط ، ولو كنت أعقل لحبستك في بيتي إلى يوم الحساب !!

سعاد ، سعاد ..

لك على محبوك الغالي نعمة لن ينساها ما عاش ، فقد كان أعضاء نادي القلم يختالون بمراكزهم في المجتمع ، فقد كان فيهم عميد كلية الآداب ، وكنت بفضلك سيدهم جميعاً ، فقد كنت وحدي عاشق سعاد ..

مولاتي ...

أعلن لك حبي ، فتفضلي عليّ بصورتك المحبوبة لأؤنس بها وحشتي ولأؤمن بأن الحب قد جمع بين أعظم شاب في القاهرة وأعظم شابة في أسيوط ...

بديع الزمان

مصر الجديدة

الرسالة الثانية

سعاد ..

كانت ليلتي مملوءة بالصخب والضجيج .. فقد اشتركت في أكثر من عشرين معركة في هذا المساء ، وكانت حجتي في غاية من القوة ، وكان صوتي أقوى الأصوات ، لأني لا أزال أذكر أني كنت منذ أربع ليال سيد الناس جميعا في القاهرة ..

وقد رآني جماعة من أعضاء نادي القلم المصري في مشرب جروبي ، وشهدت ملامحهم وألحان أقوالهم أنهم يحقدون عليّ حقداً شديداً ، لأني كنت على رغم أنوفهم فارس سعاد ، ولكن هل يؤذيني ذلك ؟ وكيف أتأذى ، وأنا أرى طبيبا من المتشاعرين لا يتورع عن إيذاء عاشق مثلي ، وأنا كما يعرف وتعرفين من أصدق الناس ؟ ..

ليس من العجب أن أعشق ، ولكن العجيب أن ينسى قوم مراكزهم في المجتمع ، فيقفون مواقف العذال وفيهم من يشغل منصب الأستاذية في الجامعة المصرية منذ عشر سنين ..

ومن المؤلم أن أعجز عن دفع أولئك السفهاء . فقد أديت امتحاناتي النهائية أمام اثنين منهم سنة ١٩٣٢ ، والاستاذية لها حقوق يا سعاد . حقوق أعظم من حقوق الحب ، ولا تؤاخذيني على هذه الصراحة ، فما يسرك أن أكون من أهل العقوق ..

حدثتك إني كنت في معارك هذه الليلة من المنتصرين ، ولم يؤذني غير فضول الدكتور «...والدكتور «...» وقد صبرت على تفاهة هذين الطبيبين . صبرت صبر الساخر ، لا صبر الجبان ، وقد أفهمتهما بصراحة أن رعايتي لحقوق التلمذة لن

تطول ، وأشرت إشارة خفيفة إلى ما لهما من صلات العطف على ما في القصر العيني من الجمال الذي يداوي ويجرح القلوب !

وقد وقف الدكتور «...» عند حده ، أما الدكتور «...» فأخذ يلاحيني ، وستعرفين بعد قليل كيف أصفى ما بيننا من حساب ، وغضبة الله على من يتطلعون إلى بسط السيطرة على تلاميذهم بعد أن يصبحوا من رجال الأعمال !

سعاد ..

هل قرأت ما وصفت به الجرائد سهرة النادي ؟ .. لقد طنطنت بأسماء الزملاء ونسيت اسمي ولكن لا بأس ، فقد كان فيهم «...» وكان من الكتاب المبرزين قبل أن أولد ، وتفردت «الأهرام» بالإشارة إلى زوجات الأعضاء . فتمنيت لو كنا زوجين في تلك الليلة .. ولكن هيهات أن أقبل من «الأهرام» أن تقول بديع ومدامته ، كما قالت عن الدكتور «...» وإنما كنت أهتم أن تقول بديع وأهله ، أو بديع وسعاده ، فمتى تكونين سعادي ، أو متى أكون بديعك ، بل متى يسير في الدنيا كلها أنني مجنون سعاد !

وقد غاظني أن يهجم المازني على حفلة نادي القلم المصري ، أستغفر الله ، فما هجم على الحفلة وإنما هجم على النادي نفسه وتنبأ له بالموت ..

فهل يعلم هذا الكاتب المتحذلق أن نادي القلم كان السبب في عشق متوهج لم يقع مثله في الشرق ؟ ..

هل يعلم هذا الكاتب أنني بفضل نادي القلم عرفتك يا سعاد ؟ ..

وماذا يعيبون على نادينا ؟ وماذا يعيبون عليه وهو أصدق شاهد لحلاوة الانسجام بين الجنسين ؟ .. إن المازني في مقاله «بالبلاغ» يقول بأنه لا يمثل مصر ، لأن فيه كثيرا من الشخصيات الأجنبية ، وهذا حق ولكن هل من الصدق أن نحكم بأن محرري الجرائد الأجنبية في مصر بالقياس إلى اللغة ، أما محرروها فهم قوم يعيشون في مصر ، وفيهم المحسن والمسيء ، كما يحسن المصريون أو يسيئون ..

سعاد ..

لا يحملنك التعصب الوطني على الغضب من كلامي ، فقد علمت أن الذي اقترح دعوة الأديبات لحضور ذلك العشاء محرر إحدى الجرائد التي تصدر في مصر بلغة أجنبية ، وبفضل اقتراحه وجهوا إليك الدعوة مع أنك في مدينة نائية ، وأين القاهرة من أسيوط ؟ وبفضل حضورك يا سعاد عقدت أكبر وثيقة غرامية في العصر الحديث ..

كان في نيتي أن أرد على المازني في «البلاغ» ، ولكني خشيت أن يتأرث عناده فيلفح النادي بمقالة ثانية ، فيتخاذل الأعضاء ثم لا تكون سهرة ثانية ولا أذوق لذة الغزل بالرجلين على المائدة يا سعاد ..

وقد أصبحت أخشى أن يتقوض هذا النادي ، لأن أعضاءه كهول وزوجاتهم عجائز ، ونادي القلم في أصل نشأته لا يرمي إلا إلى غاية واحدة .. هي إرهاف الذوق .

وكان يكفي أن تكون جذوته المشبوبة ، ولكني لن أمكن أحداً من الاقتراب منك ... ولن أسمح لعبقرية أن تتفتح بالنظر إليك ... وقد آن أن أصرح بأن حياة هذا النادي لم تعد تهمني ، فقد صار من الحتم أن تكوني أسيرة هواي ، وأن تحضري لزيارتي بالقاهرة حين أشاء ، أتفهمين يا شقية ؟ أتفهمين ؟..

حدثيني كيف سكت عن رسالتي الأولى ؟ .. هل من الكثير على شاب مثلي أن يتهتك في الحب ؟..

أنا أعرف أن الرسالة الأولى وقعت فيها كلمات نابية ، وهو كذبك ، وهل يمكن أن أميز بين ما يليق وبين ما لا يليق بعد أن تعانق قلبانا بإخلاص ساعة من زمان ؟ ..

اعترفي بحبي يا شقية !..

فإن لم تفعلي فسأتركك فريسة للحزن طول حياتك فقد أرسلت إلى صدرك نظرات من السهام المسمومة ، وما رشقت فتاة بسهامي إلا عزت عليها النجاة وعز عليها الخلاص ..

سعاد ..

إن هذا الحب فرصة حياتك لا فرصة حياتي ، فأنا أستطيع إن أجد ألف سعاد، أما أنتِ فلن تجدي فتى مثل بديع الزمان ..

آه ، ثم آه ..

وهل من الأدب أن أفوه بمثل هذا القول ؟ .. إنني أهدد ، وأنسى من أهدد ، أن أنسى أنك قد تغضبين وأنسى أن مصيري أصبح في يديك ، وأن كلمة منك قد تقذف بي في الهاوية أو ترفعني إلى سموات النعيم ..

توكلي على الهوى وانطقي كلمة الحب ، فقد كان مجلسنا بنادي القلم المصري مجلسًا مكشوفًا ، وأدباء القاهرة لئام لا تخفى عليهم حركات الأرجل ولا غمزات العيون ، فإن لم تعترفي بالحب راضية فستعترفين كارهة ، وسوف تعلمين !..

مصر الجديدة «بديع الزمان ، بل مجنون سعاد »

الرسالة الثالثة

أما شبعت من الصمت ، يا ناكثة العهد ؟..

هل يكون حبك سرابا في سراب ؟..

بئس ما صنعت حين رأيتك أهلا لحبي ..

بديع الزمان

الرسالة الرابعة

سعاد ..

من المؤكد أنك تلقيت رسالتي الأولى ، ورسالتي الثانية ، ورسالتي الثالثة ، فليس من المعقول أن يضل ساعي البريد عن منزلك في شارع الحمراء ، ومع هذا لم يصل منك جواب ..

وأعترف بأن عذرك مقبول ، فقد يكون في اجتماعنا في تلك البيئة المخضرمة التي جمعت بين المصريين والأجانب سببا في أن ترق منك الحاشية ..

واجتماع المصريين بالأجانب يفتح أبوابًا من الشر الظريف وأعترف أيضا أنك حين رجعت إلى أسيوط غلبت عليك حصانة أهل الصعيد ، فرأيت أن تنسي إلى الأبد لحظات الحب مع الطبيب الناشئ بديع الزمان الذي قضى ظلم المجتمع بأن يظل اسمه مجهولا بين الأسماء ..

أرأيت كيف أعتذر عنك أيتها المحبوبة الجافية ؟.. أن مطامعي فيك ، أيتها الغادة اللعوب ، لن تنسيني الواجب نحو وطني ، فأنا أتمنى أن يظل الصعيد قلعة حصينة لا يغزوها إثم ولا فتون..

ولكن هذه العاطفة الوطنية لا تنسيني شهوات النفس يا سعاد، وللنفس شهوات، ولو كانت العواطف الوطنية تنسى الرجال شهواتهم النفسية لأصبحت مصر عظيمة، فبأي حق تطلبين أن أكون وحدي مثال التضحية في الحب والوطنية ؟..

سعاد ..

أعترف بأن رسالتي الأولى وقعت فيها عبارات يأباها الذوق وقد يكون هذا هو السبب في اعتصامك بالسكوت ، ولكن كيف نسيت يا محبوبتي أني أعيش في زمن يغلب عليه الزيغ والارتياب ؟.. كيف نسيت أني أقرأ فيما أقرأ عبارات لم يكن

يحتملها ذوق الأسلاف ؟ فاعـذريني إذا طـاش لبـي ، واحتملينـي كمـا احتملـت الأقطار العربية سخرية المازني ، وغرام زكي مبارك ، ولغـو طـه حسـين ، وإيمـان هيكل ، وشطحات العقاد ..

سعاد ..

أنا ضحية هذا الزمن الذي يسود فيه الإسفاف ، فلا تؤاخـذيني عـلى السـفاهة الأثيمة التي وقعت مني يوم اجتمعنا في سهرة نادي القلم المصري ، وصدقيني إذا قلت أنني أرضى أن تكون زميلتي في حدود التصون والعفاف ..

اسمعي يا سعاد ..

أن سكوتك عني صار فرصة طيبـة أدرس فيهـا نفسـي ، فقـد كنـت في جميـع الأندية أعلن إعجابي بما تنشرين من القصائد والأقاصيص ، واليوم لا أراك كاتبـة ولا شاعرة ، وإنما أراك فتاة غبية لا تصلح لشيء ، وإن كان القدر الساخر أضافك إلى الفتيات المثقفات ، ومنحك إجازة فنية تسيطرين بها على معاهـد التعلـيم حـين تشاءين ..

سعاد ، يا غبية ، اسمعي ..

إن ما تدعين من التفوق في الأدب العربي والأدب الغربي لن ينفعك عنـدي ، وسـتظلين في نظـري جاهلـة غبيـة إلى أن تسـتطيعي قـراءة النقـوش المرسـومة في صحائف قلبي فإن لم تفعلي ـ وستفعلين ـ فسيحل عليك غضب الحب ..

أنتظر جوابك يا سعاد قبل يوم الخميس ، فإن لم يصل فسأقضي ليلـة الجمعـة في قطار الصعيد ، وعندئذ تشهدين كيف تكون المفاجأة حـين يطـرق بـابكم فتـى غريب قبل تباشير الصباح ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة الخامسة

سعاد ..

أرسلت إليك خطابا في الصباح ، وما أشد حـزني كلمـا تـذكرت أنـه سيصـل إليك قبل هذا الخطاب .. كان خطاب الصباح يهددك بالفضيحة بين أهل أسيوط ، فقد كتبته في لحظة تموج بالرعونة والطيش ، والشبان يا معبودتي لهم أحوال ! ..

ثم ذهبت إلى عملي بمستشفى الملك ، فرأيت الدكتور محمد شـرف ينتظـرني في حجرة العمليات ، وأنـا كمـا تعلمـين جـراح مبتـدئ ، لا يعتمـد عليـه في غيـر التعقيم، ولا يطلب منه غير المعاونة الخفيفة التي لا تجر إلى تبعات ومسئوليات .. وكانت العملية شق بطن امرأة أو بقر بطن امرأة ، كما يعبر المجمع اللغوي ، وكان لا بد من البنج ، وللبنج مقدمات ثقال ، أرجو أن يرعـاك الله فـلا تعرفيهـا أبـدًا يـا سعاد ..

وكان الدكتور شرف في تلـك اللحظـة سـيئ الخلـق ، فكـان يرغـي ويزبـد ، وكانت المرأة المسكينة تتحمـل سـوء خلقـه بصـبر عجيـب ، وفي تلـك اللحظـة تذكرتك يا سعاد ، تذكرتك بالجنس لا بالشخص فقد صح عندي أن المرأة أصـبر من الرجل ، وأقدر على تحمل المتاعب والأرزاء .

ثم أخذ ذهني يدرس ويحلل فانتهيت إلى ما يمكن أن تتصـوريه حـين يصـح التهديد فأطرق بابكم قبل تباشير الصباح ، وحين يستيقظ سعادة الوالد فيرى فتـى غريبا في ثياب الغرماء ، فتى غريباً وقحاً يسأل قبل الفجـر عـن سـعاد ، ومـا الـذي يمكن أن تتصوريه في مثل تلك الحال ؟ ..

ستقولين هذا فتى آنست وحشته في سهرة نادي القلم المصـري ، وهـو الآن يرد الدين فيفضحني في أسيوط .

والرجل يا معبودتي مخلوق سخيف ، فهو لا يعترف أبداً بأن المرأة تتصدق عليه بالحنان ، ولا يخطر بباله أنه ما تملك المرأة من الضعف قد يكون أشرف مما يملك من القوة ، ولا يتصور أن نبل المرأة في بعض الأحيان قد يكون فيه تضحية أعظم من جوده بالنفس وهو يتقدم إلى ميادين القتال ..

هذه خواطر طافت برأسي وأنا أشاهد تلك المرأة فكدت أهوى على يدها وأقبلها لأنها من الجنس الصبور الذي تشرفه سعاد ، تذكرت أختي مريم ، الأخت النبيلة التي ابتلاها الله بالتوائم ، فكانت لا تنجو من كرب الولادة في أقل من ثلاثة أيام ، وأي أيام ؟.. إن الحي كله كان ينزعج من صرخاتها بالليل ، والجهال لا يعرفون أنها تشقى لتسعد الحياة ..

سعاد .. اغفري ذنبي ، فلن تصل إليك الفضيحة من بديع ، ولن تفضحي أبداً، ولن يعرف أحد أنني أسير هواك إلا يوم يشاء الكرم أن تشرفيني فتذيعي بين أهلك أنني فارس سعاد ..

ومتى يجيء ذلك اليوم ؟..

متى يكتب «الليبرتيه» انه كان من الملهمين حين أجلس سعاد بجانب بديع الزمان في العشاء الذي أقامه نادي القلم المصري ؟..

متى يعرف الناس في جميع بقاع الأرض أننا أصبحنا رفيقين لا يفصل بينهما شرع ولا قانون؟..

إنها لكلمة سخيفة ألقاها القلم بلا وعي من الكاتب ولا إحساس ..

أأكون أنا الذي يسوقك إلى مهاوي الفضيحة ؟..

أنا الطبيب الناشئ الذي يتفجر دمعه كل يوم في حجرة العمليات والذي يقول رؤساءه بأنه لا يصلح للجراحة لأنه رقيق القلب ..

إنني ما تصورت المباضع والمشارط وهي تمزق الأجسام إلا تذكرت

الألسنة الأثيمة وهي تمزق الأعراض .

وما رأيت امرأة تحتضر عندنا في المستشفى إلا تذكرت أمي حين كانت تحتضر !..

ولا رأيت سيدة تعاني ألم الولادة إلا تذكرت أختي مريم ، ولا جاءت فتاة تعود أمها العليلة أو أباها العليل إلا تذكرتك يا سعاد ..

محبوبتي .. آه .. بل معبودتي ..

لا يهمني أن تحبيني ، ولا يهمني أن تعودي فتغازليني برجليك كما تفضلت يوم سهرة نادي القلم المصري .. ولا يهمني أن نرجع إلى غرفتنا بالكونتننتال ..

وإنما يهمني شيء واحد : هو أن تثقي بأنني لست فتى لئيما كأكثر فتيان هذا الزمان ..

إن كرامتي لا يجرحها الجفاء يا سعاد ، وإنما يجرحها سوء الظن ، فاكتبي إليّ سطرًا واحداً تقولين فيه : إنك تأمنيني على نفسك ، وإنك تقبلين أن تكوني في رعاية مروءتي وأدبي ..

أريد أن أرى في حياتي فتاة تأتمنني على عرضها وشرفها ..

أحب أن أرى ولو في الخيال فتاة تؤمن بأنني ملك كريم آه .. آه .. آه ..

ما أشوقني إلى الشرف .. ما أشوقني إلى الشرف. إنني لم أسعد في حياتي إلا مرة واحدة ، حين وثق عمي بأدبي فترك ابنته في ضيافتي أسبوعين ، وكنت يومئذ أسكن في حارة الزعفران بشارع الخليج ، فقد استيقظت مرة فوجدت الغطاء قد سقط عن جسمها النبيل فغطيتها برفق كما أغطي أختي .. ثم عدت إلى فراشي في طهارة الأنبياء ..

ودارت الأيام .. وتزوجت تلك الفتاة برجل من أعيان سملاي فكانت تتحدث عني في كل لحظة ولا يغار زوجها مني . وأرجو أن تصدقيني إذا قلت أنه

يتقرب إلى قلبها باسمي ، لأنه يعرف أنني أحبُّ إليها من أخيها فؤاد ..

هل فهمت ما أريد يا شقية ؟..

هل فهمت أن بديع الزمان هو فرصة العمر في حياتك الغالية ؟..

لست شابًا فاسداً ، وإن كنت نشأت في زمن فاسد ، فقد ورثت الشهامة عن أبي ، وورثت الطهارة عن أمي ، ولي أجداد كانوا من أعاظم الرجال ..

سعاد ..

اغفري ذنبي ، ثم اغفري ذنبي . إن كلمة الفضيحة جرى بها قلمي من حيث لا أريد ..

والفرصة أمامك يا سعاد ، فإن استجبت لدعوة هذا القلب الصادق فسوف تذكرينني بالخير الجزيل ..

وإن كان هناك فتى غيري يعرف كيف يضلل الفتيات في ساعة العصرية فوق خزان أسيوط فطيري إليه بلا تهيب ولا استحياء ..

أم أنا فسأعرف كيف أنساك يا لئيمة ، ففي القاهرة ألوف من الفتيات الجميلات ، وسوف تسمعين بأخباري في المخاطرات الغرامية بعد حين ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة السادسة

محبوبتي الغالية ..

هذا هو لقبك عندي ، رضيت أم كرهت، هذا هو اسمك الغالي ، يا سعاد ..

أنت محبوبتي الغالية ، وإن شردت نومي ، وأطلت سقمي ، وتمرد فيك

بلائي ..

حدثيني : أيكون المحبون جميعاً في مثل حالي ؟..

إنهم إذن سعداء !..

بديع الزمان

الرسالة السابعة

محبوبتي الغالية ..

في صباح هذا اليوم زار المستشفى رجل مدهش ، رجل مجذوب ، أي والله رجل مجذوب ، ولا أدري كيف سمح له البواب بالدخول !..

وقد طاب لهذا المجذوب أن يزور المرضى جميعاً ، ولكن أتدرين ماذا صنع؟..

كان جيبه مملوءا ، بل كانت جيوبه مملوءة بالشكولاتة والسجائر ، وكان له عشرة جيوب ، جيبان في البنطلون ، وأربعة جيوب في الجاكتة ، وأربعة جيوب في المعطف ..

ولا تؤاخذيني في عد الجيوب فلم أكن وحق عينيك من قدماء اللصوص !!

وكان هذا المجذوب يتوسم إلى الوجوه فيقدم الشكولاتة إلى ناس .. والسجاير إلى ناس ..

وفي نهاية الطواف رأيته يقف وقفة طويلة أمام سرير أحد الأطفال .. وكانت وقفة رائعة جداً ، فقد أخذ يقبل الطفل ويبكي ، وقد انزعج الطفل لحظة .. ثم استأنس ، كأنه أحس في مداعبة ذلك المجذوب روحا من عواطف الآباء ..

وفي تلك اللحظة تذكرتك يا سعاد ، تذكرت إني طفل في الحب ، وتذكرت أن

قلبك لن يصل إلى ما وصل إليه قلب ذلك المجذوب إلا بعد أعوام طوال ..

بديع الزمان

الرسالة الثامنة

محبوبتي الغالية ..

وقع اليوم حادث لم يقع مثله في أساطير الأولين ، قد أخبرتنا إدارة المباحث السرية أن مستشفى الملك قد تقع فيه حادثة قتل ، ولم نفهم حقيقة المراد من ذلك، ولم نشأ أن نستفهم لئلا نتهم بالغباء والجهل ، وقد فهمنا على وجه التقريب أن بعض المرضى قد تكون لهم في الخارج ضغائن وأحقاد ، ولكن ماذا نصنع ؟

أنفتش الزائرين باسم التخوف من حوادث القتل ؟

لقد وجدنا الحيلة ، وهي تفتيش الزائرين باسم التخوف من السجاير والكيوف ..

وهي حبكة لطيفة ، أليس كذلك ؟

قولي الحق يا غادة أسيوط !

وقد طاب لي ، ولا أدري كيف ، أن أكون من المفتشين ، وكانت فرصة عرفت فيها ألوانا من الوجوه الصباح ..

وفي أثناء هذه العملية السخيفة رأيت امرأة تدخل بعينين ترسلان السحر والفتون ، فرأيت أن أعترض ، ولكن أين من يسمع ؟

فإن سمعت بان مستشفى الملك وقعت فيه حادث قتل فافهمي منذ الآن أن تلك الحادثة لم تقع إلا بفضل هاتين العينين ، وأخشى أن أكون ذلك القتيل ..

أراك تغارين؟ لا بأس ، فمحبوبك يا سعاد لن يموت إلا وهو شهيد العيون ..

بديع الزمان

الرسالة التاسعة

محبوبتي الغالية ..

لم أؤد عملا نافعاً في هذا اليوم ، فقد تمارضت وهربت من منظر الدماء في حجرة العمليات ، ثم علمت بعد فوات الوقت أن المستشفى أجريت فيه عملية خطيرة لشاب كان ينافسني في المدرسة السعيدية ، سقاها الغيث ، كان ينافسني في اللعب لا في الحب ، لو أنني حضرت لعاونت في تضميد جروحه ، وكفرت عن بعض ذنوبي يوم كنت أغتابه بين الرفاق بلا سبب معقول ..

المدرسة السعيدية ؟ المدرسة السعيدية ؟

تذكري يا سعاد أنها مدرستي الجميلة التي تحترم عبقرية الفتوة وعبقرية الأجسام والتي قهرت فهيم بك على احترام آراء التلاميذ ..

مدرستي المحبوبة التي هزمت ثانوية أسيوط سنة ١٩٢٤ ، وكنت صاحب الفضل في انتصار السعيدية على ثانوية أسيوط ..

لا تحتدي على محبوبك الغالي ، يا محبوبتي الغالية .

بديع الزمان

الرسالة العاشرة

محبوبتي الغالية ..

وقعت اليوم حادث مضحك ترامت أنباؤه إلى جميع الزملاء ، فقد شاع في أرجاء المستشفى أني أحضرت سكران ، وهذا يقع أحيانا ، لكنه لا يقع مني وإنما يقع من زميلي أنور ، ومن أجل ذلك طارت الإشاعة بين الممرضين والممرضات

بسرعة البرق ، ونظر الأطباء بعضهم إلى بعض نظرات فيما معاني الشماتة والازدراء ، وقد تركت الإشاعة تنساب بين أروقة المستشفى كما تنساب الحية الرقطاء بين الأدغال ، وكانت لي سياسة في السكوت عن هذه الإشاعة ، فقد كنت أحب أن أعرف كيف يعطف الناس على من تزل قدمه وكيف يشمتون ، وساءني يا سعاد ألا يتقدم لتهدئة الخواطر غير رجل واحد ، وهو ممرض عجوز اسمه عبد الستار ، فقد سمعته يقول من حيث لا يراني . هذا مستحيل ، هذا مستحيل ، إن الدكتور بديع رجل مهذب وابن ناس طيبين ، ولا يشيع عنه السوء غير أولاد الحرام ..

تركت الإشاعة تركض من حجرة إلى حجرة وأنا أبتسم ابتسام السخرية من سخف الناس ، وإنما تركتها بلا صد ولا دفع لأني لم أحضر سكران ، وما أذكر أبداً أني شربت مرة إلى حد السكر حتى أقع في مثل هذا السخف ، وإنما رأيت محبوبتي الغالية أن أجرب أدب المخلوقات التي لا تنقد ما تسمع ، ولو كانت تنقد ما تسمع لعرفت أن من المستحيل على مثلي أن يحضر إلى مستشفى الملك وهو سكران ، وأشهد أن متعتي كانت عظيمة بمناظر اللؤم الفاضح الذي وقع فيه الزملاء ، ولم يؤذني إلا شيء واحد هو ما علمته من جزع الجراح العظيم ، فقد هام على وجهه كالمجنون ليراني ، فلما وقع بصره عليَّ قال : ما هذا الذي تصنع بنفسك يا بديع ؟

تذكر يا بني أن الذي اقترح تعيينك في مستشفى الملك هو محمد شرف ، وتذكر جيداً أني لا أثق بأحد من شبان هذا العصر ، وإنما وثقت بك مراعاة لعمك، وهو صديق لا تسعني مخالفته ، وسأتصل به الآن تليفونيا ليفصل بيني وبينك ..

والحق يا محبوبتي أني حضرت إلى مستشفى الملك سكران ولكني كنت سكران بغير الكأس ، كما في أغاني عبد الوهاب .. كنت سكران لأني تلقيت خطابا جاء فيه ما نصه بالحرف :

«... والآن أعود إلى رسائلك العذبة يا بديع ، لقد كانت نسمة شذية عاطرة بعثها قلبك الكبير ، ولم أعجب لصراحتك ، فإني أعرف أن قلبك يعيش بالحب ،

وكم كنت أتمنى أن أكون فتاة هذا القلب أوحي إليه فيشدو ، وأحبوه بالعطف فيسعد، ولكن شاء القدر أن يمر عليَّ عابراً ، وله العذر ، لأنه ولد في غير موطني ، ودرج في غير رياضي ، وشاهد من الغيد الحسان ما يفوقني »..

وإنما سكرت من هذا الخطاب لأنه ورد من أسيوط ، وختم البريد يشهد بذلك ، وهل في أسيوط من يخاطبني غيرك يا سعاد ؟

سكرت وانتشيت وعربدت ، وفي الحياة لحظات يباح فيها السكر والنشوة والعربدة ، ولو رأيتك في هذه اللحظة لقتلتك يا سعاد ، والطبيب يستبيح قتل مرضاه في بعض الأحيان ..

ما هذا الذي تقولين ؟ لقد صرعت قلبي ، إنك يا شقية تفهمين انك توحي عليّ الوحي بالعطف ، والفتاة التي تعرف كيف توحي وتعطف هي ملك كريم أو شيطان رجيم ، والأمر في الدنيا كلها إلى قوتين : قوة الملائكة وقوة الشياطين ..

فمن أنت يا سعاد ؟ من أنت ؟ تعالي إلي ، أنا أحبك وأشتهيك ..

أتغضبين من كلمة الاشتهاء ؟ هي كلمة لا معنى لها في ذهني غير العبادة ، أنا العاشق المسكين الذي أضرعه الحب فقضى بأن يكون مجنون سعاد ..

أفي الحق أنك تؤمنين بأنك تملكين سعادتي وشقائي ؟ تعالي إليَّ ، فإن لم تفعلي فسأحضر إليك ، ولكن كيف ؟

إن شبان أسيوط يعرفونني جميعاً ، فقد هزمتهم في ملعب الكرة سنة ١٩٢٤ ، ولن ينسوا وجهي إلا بعد أزمان ..

تعالي إليَّ ، تعالي ، فقد سئمت من الحب المزيف الذي اقترفه في شارع عماد الدين ، سئمت من الجري خلف الممثلات والراقصات ، واشتقت إلى الحسن المصون الذي ترفعين رايته يا سعاد ، تعالي إلى القلب المعذب والفؤاد المشوق ، تعالي واختبري أدبي ، تعالي يا محبوبتي تعالي ، تعالي إلى المحب الصادق الذي

سيخلد اسم القاهرة واسم أسيوط ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة الحادية عشرة

سعاد ..

كنا حفرنا الأساس لبناء الحب ، فشاء اللؤم أن تطمري ذلك الأساس ..

أنا أوقدت في صدرك جذوة الحب ثم سكت عني ، وشاء لك النزق أن تنشري رسائل الغرام وقصائد الحب في الجرائد والمجلات .. فلمن تنصبين تلك الحبائل يا رقطاء ؟

ومن هو الأبله المخدوع الذي تقدرين على اقتناصه بعد اليوم ؟

أحب أن أعرف من أي الصخور نحتت المقادير قلبك القاسي ؟

يا بنت حواء ، يا بنت المرأة التي شهد القرآن بأنها كانت السبب في شقاء الإنسانية ، ماذا تريدين مني ؟

طلبت قلبي فقدمته ، طلبت شرفي فوهبته ، وفي يديك رسائل تملكين بها تشويه سمعتي في الخافقين ؟ فماذا تنتظرين ؟

أتنتظرين دمي ؟ لم يبق إلا ذلك يا رقطاء ..

اسمعي يا غادرة ، يا شقية ، يا لئيمة ..

أتدرين لماذا أصبر عليك ؟ أتدرين ؟

إنني أصبر عليك لغرض واحد : هو أن تعرفي يا غادرة ويا شقية ويا لئيمة ، أن المروءة لا تزال لها جذور باقية في صدور الرجال ..

ويهمني أن تعلمي إني خليق بأن أقتل نفسي يوم يغلبني الحقد فأذيع ما بيننا من أسرار ..

إن الشرف عندي وحدي يا لئيمة ، فانشري ما شئت من القصائد والأقاصيص ، وكاديني كيف شئت ، فسأشرب دموعي وآلامي ، وسأساهر النجوم وأنا أتعزى بقلمي وكتابي ..

يهمني يا غادرة أن أفضي إلى قلبك بمعضلتين ، إن كان لك قلب ..

أما المعضلة الأولى فهي هواك ، وهو أخطر ما صادفت من المعضلات في حياتي ، وقد حاولت أن أتحلل من هواك فلم أفلح ، ولعل الله يرحمني فيمطر على قلبي شآبيب النسيان ..

أما المعضلة الثانية فهي مستقبلي يا سعاد ، ففي يديك رسائل أثيمة خطها قلمي ، ولك أب غيور يبرم وينقض وهو قادر على أن يخرجني من خدمة الحكومة بإشارة تليفونية ..

وما يهمني وحياة عينيك أن أخرج من خدمة الحكومة ، ولكن يؤذيني أن أعرض أبي وأمي وأخوتي إلى الجزع والفزع ، فقد يكون من العسير أن أظفر في الحياة الحرة بنصف ما أكسب من الحكومة ، ومرتبي في الحكومة هو عشرون جنيها ، وهو مبلغ ضئيل ، ولكن من أين أكسبه إذا فتحت عيادتي في شارع الغورية، أو شارع المغربلين ؟

ارحمي مستقبلي يا سعاد ، فأنا جراح مبتدئ ، وأهل مصر لا يستهويهم غير الشهرة ، والموت على يد جراح مشهور أحب إليهم من الشفاء على يد جراح ناشئ مثل بديع الزمان !

سعاد ..

ما كان لي أن أنبهك إلى هذه المعاني ، ولكننا مقبلون على قطيعة يا محبوبتي ،

والقطيعة مرة ، وقد تسمعين بعد حين أنني عشقت سواك فتغارين وتحقدين ، ثم تحملك الغيرة والحقد على الانتقام مني ..

فإن ثارت في صدرك هذه الفكرة البغيضة فتذكري أبي وأمي وأخوتي ، تذكري أنني لا أعيش لنفسي ، بل أعيش لأهلي ، وكنت أحب أن أعيش لك أيضا يا سعاد ، ولكن قضى غدرك أن نفترق ، فلنفترق ، وإلى الله تصير الأمور ..

بديع الزمان

الرسالة الثانية عشر

يا ويح نفسي .. أتنسوني وأذكركم

مقرح الجفن .. في صبح وإمساء

إن الذين بأمر الحب قد ملكوا

لم يتقوا الحب .. في ضري وإيذائي

لم يرمني الشوق يوما من منازلهم

إلا تولوا من الأيام إقصائي

كم رحت أحمل آمالي لحبهمو

وعدت أحمل آلامي وإيذائي

***

يا لوعة القلب لا شكواي نافعة

ولا بكائي بشاف مس ضرائي

أبيت اندب عهدًا مر طيبه

كلمحة البرق في أعطاف ظلماء

وأرســـل الزفـــرة الحـــراء لافحـــة
كوقـــدة الجمـــر في آجـــام قصـــباء

***

يـــا مـــن يعـــز علينـــا أن نجـــازيهم
صـــدا بصـــد وإغضـــاء بإغضـــاء
لـــو ترحمـــون وصـــلت شـــيقا كلفـــا
ألقـــى جفـــاكم عليـــه بـــألف بأســـاء

***

والدكتور ناجي زميل عزيز لا يسوءني أن أتمثل بشعره يا سعاد ، وهو لن يستطيع أن ينافسني في غرامي ، فعليه أن يبكي ، وعليّ أن أحب ..

إنه يوم واحد قضيته مشرد القلب في أسيوط ، ثم رجعت في قطار المساء ..

ولم يفتني أن أزور ملعب الكرة بمحطة الخزان ، وأنا دامع العين ودامع القلب..

وكيف أنسى أنني حضرت على رأس فريق المدرسة السعيدية في سنة ١٩٢٤، وكنت صاحب الفضل في أن تنتصر السعيدية على ثانوية أسيوط ..

حملت لواء النصر في سنة ١٩٢٤ ، ثم نكست لوائي في أسيوط سنة ١٩٣٤ ..

آه ، ثم آه !

وآه ، ثم آه !

والآن عرفت أن اللعب بالكرة غير اللعب بالحب !

مصر الجديدة بديع الزمان

الرسالة الثالثة عشرة

سعاد ...

حدثتك بالأمس كيف رحلت عن أسيوط ، وقد اكتفيت بقصيدة الدكتور ناجي في شرح همومي وأحزاني

فهل أستطيع يا شقيه أن أشرح بقلمي كيف فارقت أسيوط ؟

ولمن أشرح ؟ ولمن أبين ؟

إن أملي في هواك قد انقطع ، وكان الوهم يخدعني بان أكون «ميسيه» وأن تكوني «أيمية دالتون» ، كما تواعدنا في سهرة نادي القلم المصري ، وما كنت أعرف من هو ميسيه ومن دالتون ، لأني انتهيت من البكالوريا قبل أن تقرر دراسة اللغة الفرنسية في المدارس الثانوية ، وإنما نقلت هذه الأسماء عنك يا شقية ، ثم راجعت ما كتب عن أصحابها في اللغة الإنجليزية ، وكان في نيتي أن أتعلم لغة «ميسيه» لأحاورك بها عند التلاقي ، ولغة الإنجليز وهم خصوم أحب إلى من لغة الفرنسيين ، ولو انك دخلت لهربت منها وآثرت الجحيم !

هذا آخر خطاب أكتبه إليك يا سعاد ، فليكن فيه كل ما أشتهي أن أقول ، أنا الجاني على روحي ، أنا الذي أراد أن يقترب من كوثر الحب فغرق .

أنا الذي أراد أن يقترب من نور الحب فاحترق ، أنا الذي أراد أن يصافح النعيم فلطمه الشقاء!

أحب أن أقول كل شيء ..

أحب أن ألفظ النفس الأخير في الحب ..

وأشتهي أن يكون حالي كحال التي مدت خرطومها لتشرب من كأس الصهباء فغرقت في كأس الصهباء ..

سعاد ، يا شقية ..

اسمعي كيف فارقت أسيوط ..

وليس عندي فصاحة ولا بلاغة ، يا شقية ، فقد قضيت سبع سنين في كلية الطب وأنا لا أقرأ غير الإنجليزية ، حتى ضاع ما تلقيته عن الشيخ حمودة في المدرسة السعيدية ..

فصاحتي يا سعاد من قلبي ، وبلاغتي يا سعاد من قلبي .. وأصدق الحديث ما صدر عن القلب ..

اسمعي يا سعاد ، إن كانت حواء تركت فتاة تفهم أسرار الرجال ..

اسمعي يا سعاد ..

ثم اسمعي يا سعاد ..

ولكن هل تسمعين ؟ هل تسمعين ؟

انتظرت القطار القادم من الأقصر على أحر من الجمر ، كما يعبر أدباء آخر الزمان ..

وأين الجمر من اللهب المقدس الذي كان يشتعل في صدري ؟

إن العشاق من عهد آدم إلى اليوم كانوا يرون الجمر نهاية النهايات في التوقد ، فكانوا يشبهون لوعة قلوبهم بالجمر المشبوب ، أما أنا فخلق آخر ، أنا دنيا تموج بالفتن والغرائب والأعاجيب ، ومن يدري فلعلي أصبح مثلا في الحب فيهجر الناس كلمة «الجمر» ويضعون مكانها «بديع الزمان» ..

اسمعي يا سعاد ..

طفت بأرجاء أسيوط .. ثم طفت حتى مللت ، ورأيت أن أشتري شيئاً من ذخائر أسيوط فلم يرق لعيني غير عصا غليظة ثقيلة تقتل بضربة واحدة حيتين أو

ثلاث حيات ، فمتى أضربك بهذه العصا ؟

يا شقية ؟.. متى ؟.. متى ؟..

غربت الشمس وبيني وبين قطار القاهرة ثلاث ساعات ، فلم يكن بد من أن أقضي ساعات الانتظار على الخزان ، وياله من قنطرة عجيبة تشبه الصراط بين الجنة والنار !

وكيف لا يكون كذلك وهو يفصل بين المدينة التي انهزمت فيها .. والملعب الذي انتصرت فيه ؟

وقفت على تلك القنطرة غريباً وحيداً ، فما مر فتى ولا فتاة إلا أدرت وجهي خشية أن يعرفوني ، ومن الذي يجهل بديع الزمان .. الذي قهر ثانوية أسيوط في ملعب الكرة سنة ١٩٢٤؟

من الذي يجهلني في أسيوط .. وكنت مثار السمر في منازل الأمجاد آل خشبة، وآل الهلالي ، وآل ويصا ومن إليهم من الأقطاب ؟

كل من في أسيوط يعرفونني .. إلا أنت يا سعاد !

ثم حل الظلام فاستأنست ، وحاولت أن أنظم الشعر كما يفعل زميلي الدكتور ناجي ، ولكني عجزت. إن قلبي كله شعر ، فكيف أعجز عن القوافي والأوزان ؟

ذلك منتهى العجب !

وبعد لحظات طلع القمر ..

وعندئذ رأيت الخزان يموج بالعشاق والمحبين .. فتذكرت أغنية عبد الوهاب ..

«صعبان عليّ أشوف غيري متهني ..»

وكانت لحظة لن أنساها طول حياتي ..

فكيف كنت في تلك اللحظة يا سعاد ؟ كيف كنت وكيف كان الشعار الشفاف الذي يتغزل بجسمك الجميل ؟

وكيف كانت الأحلام التي تمرح وتلعب في قلبك الجميل ؟

وكيف كان الديوان الهزاز الذي يحتوي أخصب جسم عرفته أسيوط ؟

كيف كنت في تلك اللحظة ؟ خبريني كيف كنت ؟.. فإنه يسرني أن أعلم إن كنت سعيدة يا شقائي ويا بلائي ؟

لقد تسمعت إلى العشاق فوق الخزان .. وتسمعت حتى وصل إلى أذني رنين القبلات ..

آه ، ثم آه !

إن عشت فسوف أرجع إلى تلك القنطرة ومعي فتاة ولو زنجية لأجرب التقبيل على مشهد من النيل فوق خزان أسيوط ..

ويسرني في مثل ذلك اليوم أن تكوني في القبر يا شقية ، لتغاري عليّ وأنت تحت التراب ، غضبة الله عليك وعلى جدتك القديمة حواء ؟

وطال الوقت وأنا أشاهد نعيم العشاق والمحبين في حسرة ولوعة ، ومر إنسان .. فسألني عن الساعة فأخرجت ساعتي .. فإذا القطار لم يبق عليه غير دقائق فمضيت إلى القطار كالمجنون من غير أن أجيب سائلي عن الوقت ..

صعدت إلى القطار يا سعاد بدون عشاء ، صعدت وحدي بلا مودع ولا مشيع، وهو نفس القطار الذي ودعني عنده أكثر من خمسين شابا منذ تسع سنوات، والحق كل الحق عند شبان أسيوط ، فقد كنت يومئذ منتصرًا في الكرة ، وأنا اليوم منهزم في الحب !!

ألم أقل لك يا سعاد أن اللعب بالكرة غير اللعب بالحب ؟

آه ، ثم آه !

لقد تمنيت أن يطول مكث القطار لأتمتع بمناظر الأنوار في أسيوط ، ولكنه أسرع فنقلني بلا ترفق ولا تلطف ..

وما كادت أنوار أسيوط تختفي عن عيني حتى استسلمت للنوم العميق ..

وفي ذلك اليوم رأيت أحلاماً جميلة .. كأحلام الطفل العليل الذي يرى صورة الحية وهو في مرض الموت ..

***

وقبيل الشروق رأيت الركاب يهرجون ويمرحون .. فصحوت ، وكنت أحب أن أذهب رأسا إلى البيت لأرى كيف تترفق أختي فتحية فتنفض التراب عن ثيابي ، ولكني آثرت الذهاب إلى عملي بمستشفى الملك .. فوصلت إليه قبل الميعاد بنحو تسعين دقيقة أو تزيد ..

وفي الساعة التاسعة صادفني الدكتور شرف فقال :

مالي أراك أشعث أغبر يا بديع ؟

فقلت : لا تؤاخذني يا مولاي ، فقد دفنت أكرم أعزائي بالأمس ، وقضيت ليلتي بالبكاء عليه !

وأنت تعرفين يا سعاد أني ما كذبت . فقد دفنت حبي ، وسأقضي عمري بالبكاء عليه ! وسأظل من أجله أشعث أغبر طول حياتي ، إن كان لي بعد هجرك الظالم حياة .

بديع الزمان

مصر الجديدة

الرسالة الرابعة عشرة

سعاد ..

أنا غضبان ، فما الذي يداوي غضبي ؟

كنت أظن أن مصيري انتهى إليك يا شقية ، ثم خانني أملي .. خانني زماني .. أتعرفين ما صنعت بعد رجوعي من أسيوط ؟

كنت أحسبني نجوت إلى الأبد من بلائي ، ثم شاء الهوى أن أظل عبداً لمخلوقة لا تحفظ الجميل ..

ما استطاع أهلي أن يواسوني ، ولا استطاعت أختي فتحية أن تمسح همومي وأحزاني ، ولا استطاعت أمي الغالية أن تمحو كروبي وأشجاني ..

الآن عرفت أن الرجل أشرف من المرأة ، فأنا أجدّ في هواي وأنت تلعبين ..

وأقسم صادقا أن الدنيا كلها طوع يدي ، فلي شباب ما عرفه أحد من أهلك في أسيوط يا سعاد ، ولو شئت لسحرت صبايا القاهرة في هواي ..

وما يصرفني عن ذلك غير الشعور بأنك مسكينة ، فقد تقعين في يد شاب سافل لئيم لا يعرف الواجب في حفظ أسرار الملاح ..

أنت مسكينة يا سعاد ، ومن واجبي أن أرحم المساكين .. اسمعي .. رجعت مبلبل الخاطر والوجدان

ذهبت إلى القناطر الخيرية في يوم الأحد فما شفتني وتجولت ساعتين في شارع فؤاد فما شفاني ..

وذهبت أعبث بحمامات المعادي وحلوان فما زادني ذلك إلا كربا إلى كرب ، ورأيت أن أقف في منتصف الساعة التاسعة مساء لأرى أسراب الملاح بعد

الخروج من السينما في شارع عباس بمصر الجديدة .. فما شفاني ذلك ..

وذهبت إلى غرفتي لأتلهي بالنظر إلى السائرين في شارع الأهرام .. فما شفاني ذلك ..

أنا عليل ، أنا يا محبوبتي عليل ..

أكتب هذا الخطاب في الظهيرة ، وفي غرفة فيها أربع نوافذ ..

فالغرفة تطل على ثلاثة شوارع في مصر الجديدة ، ومع ذلك أراني في حاجة إلى إيقاد المصباح ..

لا تستغربي ذلك يا شقية ، فقد ملأت حياتي بالظلمات ..

أحب أن أرى النور ، وأين النور ؟ أين النور الذي يبدد ظلام قلبي ؟

إن الشمس تبهر جميع العيون في مصر الجديدة ، وأعيش وحدي في ظلام ..

كل من في مصر الجديدة يلهون ويلعبون ، وأنا وحدي أسير الأحزان ..

في مصر الجديدة ألف فتاة يهمها أن تأنس بوجهي وبعيوني ، ولكن القدر عاندني فاقتص من كبريائي وقضى أن أعيش تحت رحمة فتاة سخيفة تقيم في أسيوط.

سعاد .. أنا عليل ، أنا يا محبوبتي عليل ..

أنا الفتى الوحيد الذي يريد أن يقف هواه على فتاة وحيدة هي سعاد .. فأحسني إليّ ، قولي بصراحة أنك تحبين شابا غيري ، لأنطلق من عقالي وأمضي في الدنيا بلا رقيب من الهوى ولا حسيب ..

سعاد .. اسمعي ، اسمعي يا روحي ..

أفي الحق أن رسائلي إليك سمع بأخبارها ناس من أهل أسيوط ؟

أجيبي ، أجيبي يا شقية ، أجيبي يا سعاد ..

فقد كنت أصدق كل محال إلا أن تفضحي أسراري ..

كنت أظن أنني أخاطب فتاة قرأت ميسيه ولا مرتين ، ثم شاء القدر الظلوم أن أعرف أني أخاطب فتاة أجهل من فتيات بولاق ، وما في بـولاق فتيـات جـاهلات، فقد علقت بهن أعوما طوالا وظل سري مصونا، فمن أنت بين الملاح يا رقطاء ؟

أحب أن أعرف من أنت ؟ فبفضلك استطال همي وبلائي ..

أنت سخيفة ولا ريب ، أنت تحبين الاستطالة على أترابك فتقولي انك معشـوقة بديع الزمان .. فهل تظنين أني لوحة إعلانات يا أسخف من أنجبت أسيوط ؟

من أنت يا لئيمة حتى أضيع من أجلك نعيم أبي وأمي وإخوتي وأخواتي ؟

من أنت يا بنت حواء ؟

من أنت يا حلوة يا جميلة ، يا أعذب فتاة ملكت قلبي وعقلي ..

أحبك يا سعاد ، ولو رأيتك لقبلت قدميك بلا تورع ولا استحياء ..

أحبك يا مسكينة ، لأني سأكون آخر من يعطف على المساكين ..

أحبك يا سعاد ، وفيك أتقي الله وأتقي الحب ..

أحبك لأنك لئيمة ، واللئام ضعفاء ، ومن واجبي أن أعطف على الضعفاء ..

أحبك لطرفك الساحر وجسمك الفينان ..

أحبك لما تعرفين وما تجهلين ..

أحبك لسبب واحد .. هو أنك لئيمة ، وما قاسيت من لؤم الناس هـو السـبب في عبقريتي ونبوغي ..

أحبك يا سعاد ، فمتى أقبل قدميك يا محبوبتي الغالية ؟

متى ؟ متى ؟

مصر الجديدة بديع الزمان

الرسالة الخامسة عشرة

إليك أرجع ، يا سعاد ، وما كنت أحسب أنني سأرجع ..

إليك أرجع ، يا سعاد ، بعد عامين من أعوام الصدود ، وبعد أعوام من الأهوال ..

كان تجافينا محنة قاسية ، يا سعاد ، وكانت أيامي بعد التجافي أيام بؤس ..

ألم تعلمي بما وقع للمحب المسكين في مستشفى الملك ؟

لقد فسد ما بيني وبين رؤسائي أقبح فساد ، وتطلعت نفسي إلى الأستاذية بكلية الطب في جامعة الإسكندرية ، ثم وقفت العوائق دون ما تسامت إليه نفسي ، لأني فيما يقال لا أصل لأمثال هذه الشئون !

والحق أني أصلح لأعاظم الواجبات ، ولكن تصدني قلة الحيلة في التقرب إلى من يملكون زمام الأمور في وزارة المعارف . وقد علموا أني افتضحت بهوى الغادة التي تقيم بشارع الحمراء في أسيوط .. وكان في نيتي أن أتخذ من هواك سناداً لحياتي . كان في نيتي أن أنقلك إلى القاهرة لنعيش عروسين في مصر الجديدة ، أو حدائق القبة ، أو الزيتون ، ولكني خشيت ألا تملكي من القناعة ما أملك ، فأنا طبيب فقير ، وإن تظاهرت بالغني والثراء ، والفتاة التي ترضى بالقليل لم تخلق بعد. لأن عمار القلوب لا ينسجم مع خراب الجيوب ..

في قلبي ثروة عظيمة من العطف ، وفي عزيمتي ثروة هائلة من الرجولة ، وفي روحي كنوز من المعاني ، فإلي من أقدم هذه الثروات المعنوية يا سعاد ؟

أمن الحق أن كنوز المعاني ليست عند أهل مصر إلا سرابا يخدع الظمآن ؟

إن صح ذلك فما يقهرني على التعلق بهواك، وهو لم يكن إلا سرابا في سراب؟..

بديع الزمان

الرسالة السادسة عشرة

محبوبتي الغالية ..

نسيت أن أتحدث عن رسائلك الأولى بعد الصدود الذي دام عامين ..

تقولين أنك افتقدتني ولم تجديني يوم عيد الميلاد ، ميلاد سعاد ؟

وتقولين أنك ولدت مع الربيع ..

أنت يا سعاد ولدت مع الربيع ؟

آمنت بالله ، لقد كنت أظن أنك ولدت في الليلة التي تفصل بين الخريف والشتاء !

وما الذي فيك من شمائل الربيع ؟

في الربيع أزهار ورياحين ، وفي الربيع أغان وألحان ، وفي الربيع تعطف القلوب على القلوب ، فهل يجد قلبي في هذه الأيام نفحة روحانية ليصدق أنك ولدت مع الربيع ؟

أنت ولدت مع الربيع يا سعاد ؟

ومتى ولدت ثلوج الشمال ، إن صح ما تدعين ؟

الربيع لا يعرف البلادة والغباوة والحمق ، وأنت بليدة وغبية وحمقاء ..

فيك من الربيع معنى واحد : هو قوامك الفينان فهل أنت كما عهدت ، يوم التقينا بنادي القلم سنة ١٩٣٥ ؟

وهل أستطيع أن أكابر بك الدنيا حين أراك ثانية بالقاهرة ؟

وهل أستطيع أن أنظم الشعر ولو مرة في التسبيح بقوامك الفينان ؟

أنا طبيب جاهل ، والطبيب الجاهل يدرس الأجسام قبل أن يدرس الأرواح .

لو كنت شاعراً لأهديت إلى جسمك الفاني نفثة من نفثات الخلود ..

اعذريني ، فأنا طبيب جاهل ، والحمد لله والحب على نعمة الجهل ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة السابعة عشرة

محبوبتي الغالية ..

هل تذكرين أني تحدثت في الرسالة الماضية عن قوامك الفينان ؟

لقد نسيت أن أقول أن لك مع ذلك شطحات روحانية تشبه شطحات أفروديت ؟

ومن هي أفروديت ؟

أنت أجهل من أن أتحدث إليك عن هذه الدقائق الذوقية ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة الثامنة عشر

محبوبتي الغالية ..

عليك وعلى جميع بنات حواء غضبة الحب !

كنت ليلة الأمس في سهرة أقامها نادي (....) وكانت سهرة راقصة حضرها نحو عشرين من بنات حواء ، وكان فيهن فتاة تشبه سعاد ، وكانت تجلس على

ناحية مع أمها الحيزبون ، فتقدمت إليها وقلت :

بونسوار سعاد !

وهجمت على يدها فقبلتها بشوق وعنف .. ثم علمت بعد لحظة أن اسمها سعاد ، وأمسينا رفيقين ، ولم أتركها إلا بعد أن وصلت لبيتها بسلام .. فما رأيك في هذا الحب الجديد ؟

أتغارين ؟ اشربي ما شئت من عباب النيل عند خزان أسيوط !

أنت تغارين ، يا سعاد ؟

إن الغيرة لها معاني لا تعرفها الثلوج ..

بديع الزمان

الرسالة التاسعة عشرة

محبوبتي الغالية ..

أنا اليوم على صلات وثيقة بسعاد جديدة ، فماذا ترين ؟

ولد الحب في لحظة واحدة .. كما ولدت أفروديت على شاطئ المحيط ..

وسعاد الجديدة لها مزايا كمزاياك ..

فماذا ترين ؟

حدثيني ماذا ترين ؟ فأنا أشتهي أن أعيش !

بديع الزمان

الرسالة العشرون

محبوبتي ..

أنا اليوم سعيد بفضل الحب المزيف ، فكيف أكون لو ظفرت بالحب الصحيح ؟

كل هوى دون هواك ضلال في ضلال ، وخداع في خداع ..

سأظل في هواي إلى أن ترحميني من هواي ..

بديع الزمان

الرسالة الواحدة والعشرون

سعاد ..

أنت ولدت مع الربيع ؟

ربما كان ذلك ، فقد ولد غرامي الجديد في الربيع ومع الربيع ولدت آلامي وأحزاني ، ومع الربيع الجديد ودعت هواي القديم ..

ويا ويح من يستشفي من الغرام القديم بغرام جديد .

بديع الزمان

الرسالة الثانية والعشرون

سعاد ..

قضيت الليلة في حزن موجع ، ولم يخرجني من بلواي إلا إنشاد قول العباس بن الأحنف :

ما أراني إلا سأهجر من ليس يراني أقوى على الهجران

علني واثق بحسن إخاء ما أضر الأخاء بالإنسان

فأنت تهجرينني ظالمة . لأنك تثقين بأني مملوك خاضع مطيع يرجع إليك بإشارة حين تشاءين ..

وأنا والله مملوك خاضع مطيع ، فما تمثلت قوامك الفينان إلا ضاع رشدي وطار صوابي ..

ليتني أعرف كيف ابتليت بهذه اللوثة الأرضية !

ليتني أعرف كيف عجزت عن رفع روحي إلى الآفاق السماوية !

خلقت لنفسي محبوبة جديدة لأسلم من هواك ، ولكني لم أفلح ، فحدثيني ماذا أصنع ؟

حدثيني ماذا أصنع ؟ حدثيني ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة الثالثة والعشرون

سعاد ..

ابتسمت وأنا أطالع خطابك الذي وصل في صباح اليوم ، ابتسمت لأنك تقولين إن في رسائلي وثبات وجدانية تنقلني إلى صفوف العباقرة من أهل البيان ..

والحق أني أصبحت أثق بقدرتي على التعبير الجميل ، ولكني لا أعرف كيف أثق بقدرتي إلى هذه المقدرة البيانية ، فقد كنت من المتخلفين في الإنشاء يوم كنت تلميذاً بالسعيدية ، على أيامها وعلى الجيزة أطيب التحيات !

والدراسة في كلية الطب كانت بالإنجليزية ، ولم يكن هناك ما يساعد على التفوق في اللغة العربية ، فما الذي أوصل إلى عقلي هذه الأقباس من ضياء الأدب والبيان ؟ لذلك أسباب يا محبوبتي الغالية أفصلها بعض التفصيل في هذا الخطاب..

كان نظام الجامعة المصرية في سنة ١٩٢٥ ، يوجب على طلبة الطب أن يقضوا سنة في كلية العلوم وكانت ـ بقصر الزعفران ـ كانت كلية الآداب في ذلك العهد تقيم في قصر الزعفران ، وفي ربيع سنة ١٩٢٦ ، قامت معركة حول آراء الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي ، وكانت جريدة «البلاغ» وجريدة «كوكب الشرق» توجهان إليه أعنف الهجوم وأشنع التجريح ، فكانت تلك المعارك فرصة تنبه فيها طلبة كلية العلوم إلى ما يقع في كلية الآداب ، وكنت أتسلل من وقت إلى وقت لسماع محاضرات طه حسين ، فصح عندي أن الأدب قد يخلق لصاحبه مكانة في المجتمع ، وإن كانت نسبته إلى العلم أضعف من أن توضع في الميزان ، فالعلم في جملته حقائق ، والأدب في جملته أباطيل، إلا أن كان على نحو ما أكتب إليك يا سعاد، وإنما احترست هذا الاحتراس لئلا يضاف أدبي إلى التزييف، وهو من فيض القلب والوجدان.

وكنت أظن أن انتقالي من قصر الزعفران إلى قصر العيني سيقطع صلتي بالحياة الأدبية ، وشاء حسن الحظ أن أكون عضوا بالحياة الأدبية ، وشاء حسن الحظ أن أكون عضوا في اتحاد الجامعة المصرية ، وإنما كان ذلك من حسن الحظ لأن مندوبي كلية الآداب كانوا يغرونني بالحرص على فصاحة القلم واللسان ، فقد كان يوكل إليهم تحرير محاضرات الجلسات ، وكانوا أسبق منا إلى الخوض في المناوشات الكلامية ..

الأدب سخيف يا سعاد ، ولكنه مع ذلك شائق وجذاب «بالجيم لا بالكاف» وقد تفوقت كلية الآداب على سائر الكليات بفضل الثرثرة وتزويق الكلام ، وزخرفة المعاني ، والمعاني تزخرف كما تزخرف الألفاظ ، وهذه الفكرة من مبتكرات الطبيب الولهان ..

بديع الزمان

الرسالة الرابعة والعشرون

سعاد ..

هل أستطيع أن أبثك اليوم بعض ما أعاني ؟

كنت حدثتك أني تعلقت بهوى فتاة اسمها سعاد ، وكنت أتوهم أني أتداوى من الحب بالحب ، كما يتداوى شارب الخمر بالخمر ، وهو علاج شرعه مجنون ليلى ، رحمه الله ، ورحم ليلاه !

فما الذي جنيت من سعاد الجديدة ؟

لم أجن غير مرارة الخيبة وظلمات اليأس ..

فماذا أقول ؟

إن قلبي يتمزق كلما تصورت ما صرت إليه بعد ليال قضيتها في صحبة تلك الجميلة الرعناء ..

جميلة ؟ جميلة ؟

نعم جميلة ، جميلة ، جميلة !

ولكن أي جمال ؟ هو جمال الصور والتماثيل ، لا جمال الأرواح والقلوب ..

تقيم هذه الرعناء في «....» بمنزل رقيق الحواشي ، فله حديقة غناء ، تزدان بمجموعات نفيسة من غرائب الأزهار والرياحين ..

وفيها أبراج لأنواع من الطيور الصادحات ، وفي أبهاء المنزل أطايب من روائع الفنون ، وفيه مكتبة عامرة بنوادر المؤلفات الفرنسية والعربية ، وفيه مقصف تأوي إليه أحاسيس القلوب حين تشاء ..

ولكن .. ولكن .. ماذا أريد أن أقول ؟

إن هذه الرعناء تملك من أسباب النضرة والنعيم ما ينقل العاشـق إلى رحـاب الفراديس ..

ولكن .. ولكن .. ماذا أريد أن أقول ؟

أقل إن هذه الجميلة الفتانة الخلابة مريضة بـداء عضـال هـو الغـرام بالنكتـة المصرية ..

والنكتة يا محبوبتي من أطيب فنون الحديث ، ولكن النكتة المصرية بالـذات تحتاج إلى ذكاء ، وهذه الفتاة محرومة من الذكاء الذي يمكنها مـن عـرض النكتـة المصرية عرضا يخلب الأذواق ..

أتدرين لماذا تحرص هذه الرعناء على النكتة المصـرية ؟ إنمـا تحـرص عـلى النكتة لأنها سمعت أن أم كلثوم تجيد التنكيت !

وأم كلثوم أميرة الطرب ، بلا جدال ، وأظنها تعرف كما أعرف أن النكتـة مـن خصائص الروح المصري ، ولكن يجب حمايتهـا مـن الابتـذال ، ولا سـيما حـين تجري على ألسنة الملاح ..

أصبحت أبغض سعاد الجديدة أقـبح الـبغض ، فحولهـا صـواحب رقيعـات يتقربن إلى قلبها الأجوف بالتنكيت الأحمق المرذول ..

ليتك تعرفين كيف خاب أملي في هـذه الحسـناء يـا سـعاد ! لهـذه المخلوقـة لحظات من الرفق والإيناس ، ولهـا أحيانـا شـمائل مـن عذوبـة الـروح ، ولكنهـا كالمجنون الذي يثور جنونه من وقت إلى وقت فينتقل مـن العقـل إلى الخيـال بـلا استئذان ..

وأنا يا محبوبتي أحتمل كل شيء إلا الخـروج عـلى قواعـد الـذوق ، لأن الله صاغ قلبي صياغة دقيقة جداً ، وأخشى أن يكون لـذلك تـأثير في مسـتقبل حيـاتي ، فقد أصبحت أعامل المرضى بأساليب مختلفات وفقاً لمـا يملكـون مـن عناصـر الذوق، ولولا بقية من العقل لقتلت كل من أصادف من المرضـى الـذين يتقربـون

إلى الحذلقة في اختراع النكت والمطايبات ..

وما خلق الله أسخف ممن يتظرفون وهم ثقلاء ..

أفتيني ، يا سعاد ، أفتني ، فأنا أحب أن يكون إليك الفضل في هذه القضية ..

أترين أن أهجر هذه الرعناء ؟

فقد تحملك الغيرة على دعوتي إلى هجر تلك الرعناء ، ولكن ذلك مستحيل ما دمت بعيدة عني ، فأنا بصراحة لا أستطيع الحياة بلا حب ، وكيف أحيا بلا حب وبين ضلوعي ذلك القلب الذي تعرفين ؟

هل ترين أن أحتمل سخف تلك الفتاة في التنكيت ؟ حدثيني ماذا ترين ؟ أترين أن أحتمل سخف تلك الفتاة وأقول :«حفت الجنة بالمكاره؟»

أنا مجذوب إلى هذه الفتاة بجواذب من الكهرباء ، ولكنها سخيفة .. فحدثيني ماذا أصنع ؟

بديع الزمان

الرسالة الخامسة والعشرون

لم يصل جوابك يا سعاد ، فما الذي وقع ؟

أنا أعرف ذنبي ؟ أعرف أني كنت مثال النزق والطيش حين حدثتك عن سرائر قلبي ، والمجنون المخبول هو الذي يخاطب النساء بأساليب لا خداع فيها ولا رياء .

أنا أستاهل التأديب يا سعاد ، فقد أردت أن أرفع عن الحياة أوزار التلفيق والتزوير والتضليل ، وكان جزائي أن أشرب العلقم من أيدي من عاملتهم بالصراحة والطهارة والإخلاص ..

لقد عاملت الرجال بالصراحة فخيبوا أملي ، فكيف جاز أن أصارح النساء بعد

التجارب التي اكتوت بها يداي ؟

كان يجب أن أكذب عليك ليبقى مكاني في قلبك الصغير !

كان يجب أن أقول أن الشمس لم تطلع على وجه أنضر من وجهك ، وأن القمر لم يصافح جبينا أكرم من جبينك ، وأن القاهرة لم تعرف من المحاسن بعض ما عرفت أسيوط !

كان يجب أن أقول أني لم أتذوق كأس الحب إلا منذ اكتشفت الأطايب في قوامك الفينان ..

كان يجب أن أموت مقتولا بالعشق لأظفر منك بنظرة عطف يا سفيهة ..

أنت امرأة ؟ أنت امرأة يا سعاد ؟

أنت كتلة من الصخر الأسود الأصم الذي لا يبتسم لأنداء الصباح ..

باسم الحب المزور المكذوب يصل إلى قلبك من يشاء ..

وباسم الحب الصادق الصحيح أشرب من يديك كأس الموت .. غضبة الله عليك وعلى جميع بنات حواء !

قلبي .. لطف الله بك وهداك ..

بديع الزمان

الرسالة السادسة والعشرون

سعاد ..

أؤكد لك أنني غير غضبان من سكوتك الأثيم ..

وكيف أغضب وأنا أعرف أن الحب لعب في لعب وخداع في خداع ؟

لا يؤذيني إلا شيء واحد : هو الشعور بذهاب الصدق من هذا الوجود ..

ومعنى ذلك أن أفهم مقهوراً أن النوازع الوجدانية لم تكن إلا أضاليل وأحابيل.

معنى ذلك يا شقية أن أحول أدبي وذكائي إلى وجوه جديدة من الختل والمكر والخداع ..

معنى ذلك أني أصير مخلوقا حيوانيا لا يعرف غير الفتك والافتراس ..

وسأتأدب بالأدب الذي تلقيته على يديك الكريمتين فأفعل بأسراب الظباء ما يفعل الذئب الجائع بقطعان النعاج ؟

أنا بعد اليوم مخلوق لا قلب له ولا ضمير ولا وجدان سأكون أحمق الناس إن عرفت حسن الأدب بعد الذي عانيت من غدر الملاح ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة السابعة والعشرون

سعاد ..

أنا في هذه الأيام شديد الحقد على الدنيا والناس كل شيء في الوجود يثير غضبي ، ويهيج حقدي ..

ويؤذيني أن أعيش في القاهرة عيش المحرومين من نعيم الحب ..

وقد تعبت قدماي بالأمس وأنا أطوف بأندية القاهرة عساني أجد ما يؤنس روحي ، ثم رجعت إلى البيت أجر أذيال الخيبة واليأس .. وكيف يكون ذلك وقد خلت دنياي من أسباب البهجة والانشراح ؟

قضيت أمس لحظات في مشرب الأمريكين مع ناس لا يعرفون غير نهش

الأعراض وأكل لحوم الغائبين ، وكان فيهم شاب تافه الحديث فقير الروح ، فأخذ يتقرب إليّ باغتياب بعض من أعادي ، فسمج في عيني منظره ، وضاق بحضوره صدري ، ولم أستطع النجاة من سماجته إلا بالانصراف ..

وهذا صنف من الناس له بالقاهرة سوق ، فهل يوجد عندكم مثله في أسيوط ؟

هذا الصنف خبير كل الخبرة بنفوس الضعفاء ، وهو يتعقب أخبار المشهورين من الرجال فيعرف ما يحيط بهم من أحقاد وعداوات ، ثم يعيش في أكنافهم بفضل ما يحسن من اختراع الأقاصيص لتحقير من يعادون ..

وأفراد هذا الصنف هم في الأغلب من أنصاف المتعلمين ، ولكن خبرتهم بأهواء من يتصلون بهم تجعلهم في الصف الأول من علماء الغرائز والطباع ، أما مهاراتهم في اختراع الأراجيف فتضعهم في طبقة القصاصين الكبار ، ولو استطاع أديب أن يدون ما يسمع من تلفيقاتهم لخلق منها صورا شائقة يسجد لها الخيال !

وقد عرفت من هؤلاء شاباً رقيق الحواشي ، عذب اللسان، جميل الهندام ، مأنوس المحضر ، مقتول النظرات ، يمشي إلى السامرين مشي الثعبان الأهتم فوق الرمال ، فإذا آنسوا به وسكنوا إليه نفث سمومه من فم أدرد ملعون ، ومزق ما بينهم وبين العظماء من صلات ، ثم انصرف خفيف الرأس ثقيل الجيب ..

وقد وثقت بهذا المخلوق مرة واحدة ، وكان فيها الكفاية لإفساد ما بيني وبين زملائي ..

فإن سمعت يا سعاد أنني لقيت شراً فسيكون وزر هذا الشر على ذلك المخلوق الرقيع ..

قد تقولين أني أخطأت ، ولكن أين الأذن التي تقاوم ما تسمع ؟

وأين العقل الذي يحمي صاحبه في كل وقت ؟

نحن جميعاً عرضة للانخداع ، فمتى أخدعك باسم الحب يا غادة أسيوط ..

بديع الزمان

الرسالة الثامنة والعشرون

سعاد ..

أخبرك ، وأنا آسف ، أني صرت أثقل الناس عند رواد الأمريكيين ، لأنهم عرفوا أني أبغض مضغ الأحاديث في اغتياب الرفاق ..

وقد آن أن أعترف بأن هذا الخلق ضيعني أقبح تضييع ، فهل ترين أن أرتاب في أصول الأخلاق ؟

إن الدكتور «....» محبوب من الجميع ، وهو مع ذلك سليط اللسان ، فهل تكون البذاءة مما ينفع في التقرب إلى المجتمع ؟ وهل ترين من الخير أن أفتح أذني لسماع الزور والبهتان ، وان أروض لساني على نهش الأعراض ؟

أحب أن أعرف رأيك في هذه القضية ، لأن نفرتي من التعرض لعيوب الناس هي التي جعلتني موضع السخرية عند من يملكون مصاير الأمور في بعض الجهات ، وأنا شديد الرغبة في الظفر بثقة هؤلاء ..

حدثيني ماذا أصنع يا سعاد ؟

وأرجو أن يصل الجواب برجوع البريد ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة التاسعة والعشرون

عرفت شيئا من طباعك يا لئيمة ، فأنت تحبين أن تكوني فيلسوفة على حسابي، ومن أجل هذا أطلت الكلام في تفصيل الرذائل والفضائل ، وبيان

المقبول والمردود من أخلاق الناس ..

كان خطابك الأخير تحفة من الوجهة الخلقية ، ولكنه كان خفيف الوزن من الوجهة الروحية ، والفتاة التي تحدث محبوبها عن الأخلاق وتسكت عن الحب .. هي فتاة زودها المجتمع بزاد نافع من الرياء ..

أنا في هذه اللحظات .. أحيا حياة شقية سوداء ، لأن روحي يعيش بلا رفيق ولا أنيس ، وقد تعبت يدي من العبث الذي يجريه المشرط في كل صباح ، وهل يرضيني أن يسعد الناس بيدي وأشقى بنفسي ؟

كانت يدي بالأمس بلسما شافيا لرجل برَّح به الداء ، وقد تأوه آهة الارتياح ، وجرت على لسانه دعوات تمثل فيها العطف والشكران ، وأنا داويت ، روحك مرات ومرات ، يا سعاد ، ولم أظفر منك بكلمة ثناء ..

فهل تدرين ما الذي وقع بعد أن خرجت من حجرة العمليات ؟

سارعت إلى معطفي أفتش فيه عن بريد أسيوط فوجدت رسائلك كلها خالية من الروح .. ألا تذكريني يا سعاد ؟

ألا تذكرين أني استجديت منك كلمة واحدة .. فلم ينفع الاستجداء ؟

استجديتك كلمة «حبيبي» فلم تجودي بها يا بخيلة ، وظلت خطاباتك كلها مفتتحة بهذا التعبير المملول ..«حضرة الطبيب النطاسي..»

نطاسي ؟ هي كلمة تقولينها كما يقولها سائر الناس ، وهي كلمة عديمة المعنى والمدلول ..

أنا حزين ، يا سعاد ، والحزن مرض لا يدرس في كلية الطب وليس له أطباء فيما علمت ..

فأين الوجه الذي أغرق في سناه همومي وأحزاني ؟

أين الروح الذي يعدي روحي بالجذل والفرح والابتهاج ؟

أين ؟ أين ؟ فقد طال بالحزن بلائي !

إلى أين أذهب بهمومي يا سعاد ؟

وفي أي بيداء أعتصم بالحيرة والضلال ؟

لو كنت من الشعراء لقتلت حزني بالغناء ، ولو كنت من الصوفية لدفنت حزني في تربة الوجد ، مع الصابرين المصابرين في عيش الخلاص ، ولكني ـ وا أسفاه ـ أنا شاب مفتون بمخلوقة صيغ جسمها من النور ، وصيغ روحها من الظلام..

فأين المفر من أحزاني ؟ وبمن أستنجد ؟

وإلى من أتوجه ؟

وإلى أين أصير وفوق صدري شجون لا تحملها الجبال ؟ لم يبق إلا أمل واحد يا سعاد .. هو الحب أو الموت .. أما الموت فهو مطلب سهل المنال ، لأني أتوقع في كل يوم أني أستشهد في سبيل الواجب .. وأما الحب فهو الغاية التي لا أصل إليها إلا بعد أن أحترق في سعير الوجود ..

وأنا سائر في طريق الوصول إلى تلك الغاية المشبوبة بأرواح الرجال ، فاطمئني على محبوبك الغالي ، يا سعاد ، فلن أموت قبل أن أشرب تلك الكأس ..

ألمثلي يخلق الأمل الكاذب في هوى مخلوقة سخيفة لا تميز بين الزائف والصحيح من جواهر القلوب؟

أيموت مثلي وجدا بإنسانة جادت عليها المقادير بما لا تستحق حين وهبتها عينين نجلاوين ، وحين أضفت على جسمها الفينان تهاويل السحر والفتون ؟

سنلتقي بإذن الهوى ، يا سعاد ، وسترين كيف يكون العتاب ..

أنا أشعر بأني فوق قمة تشرف على هاوية الحب ..

فمتى أتردى في تلك الهاوية ؟

ومتى أحترق في كوثر الوصال ؟

أنا حزين ، يا سعاد ، حزين على الشباب المضيع في هواك ، حزين على الوقت المضيع في تدبيج هذه الرسائل الطوال ، حـزين عـلى العمـر الـذي انفـق منـه بـلا حساب في التغريد فوق أفنان الجمال ..

أستجديك للمـرة الأولى بعـد الألـف كلمـة «حبيبـي» فخطيهـا مـرة واحـدة لأعرف أني أخاطـب إنسـانة ولـدت مـع الربيـع ، ولم تولـد مـع «ثلـوج الشـمال» وتذكري الحكمة التي تقول :«الرحمة فوق العدل» ...

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة الثلاثون

سعاد ..

أرجوك باسم الهوى أن تكفي عن العتاب ، فما سكوتي عن نجواك بالرسـائل إلا محنة من محن الصبابة والوجد ، والقلم قد ينحبس عن الإنشـاء كمـا تنحـبس العيون عن المدامع ..

والحق أني نادم على ما صنعت مع نفسي ، فلو كنت سجلت كـل مـا جـال في الخاطر من صور وأطياف لأصبحت بفضل الهوى من أعلام البيان ..

أين أيامي ؟ أين ؟

أين أيامي وأنا أقضي جميع الأوقات في دراسة عواطفي وشجوني ؟

أين ؟ أين ؟

إن البحر ليعجز عن إطفاء ما يتسعر في صدري من حريق بسبب اللوعة التي أعاني جحيمها في الصباح والمساء .. كل ما في الدنيا خداع في خداع إلا هيامي بوجهك الأصبح وطرفك الكحيل ..

وكأن الله لطف فخمدت تلك الجذوة في بعض أيام الصيف ثم تسعرت في هذه الأيام .. فهل تعرفين كيف عاودني جنوني ؟

اسمعي ، يا سعاد ..

في ليلة من ليالي الأسبوع الماضي أطفئت الأنوار في القاهرة وضواحيها لتجربة الغارات الجوية ، فأمست مصر الجديدة ظلاما في ظلام ، وشاء شيطان النزق والطيش أن أخرج إلى الصحراء لأرى كيف يكون جمالها في الظلمات .. ما أروع تلك الليلة ، يا سعاد ، ففيها تذكرت ليالي الطفولة والحداثة في أشمون ، حين كنت أسير مع أهلي في حراسة المحصول ، أو إدارة السواقي ، وحين كنت أخاطب النجوم وتخاطبني ، وحين كنت طفلا كثير الأحلام لا ينتظر ان تريه الأيام أهوال الهجر والصدود ..

وقضيت في صحراء مصر الجديدة أخاطب النجوم من جديد ، فراعني أن أرى نجوم السماء كعهدي بها منذ أكثر من عشرين عاما ..

أنا وحدي الذي تغيرت ، يا سعاد ، أما نجوم السماء فبقيت على العهد ، وهي لا تزال تداعب أخيلة الأطفال والأحداث !

أنا وحدي الذي تغيرت ، يا سعاد !

كنت في أيام الطفولة والحداثة أصدق كل شيء ، فأرى كل شيء ..

كان الناس في بلدنا يعتقدون رؤية صور الأولياء يوم العيد في مقام سيدي مدين ، فدخلت مرة ذلك المقام في صباح يوم عيد وهتفت :«يا سيدة زينب» فظهرت صورة السيدة زينب وهي ملثمة فوق ظهر جواد ، فخفق قلبي أشد

الخفوق ، وكاد يثب لتقبيل ذلك الشبح المحبوب ، وهل كنت أظنه شبحا يومذاك؟

كانت هي نفسها السيدة زينب يتخطر بها الجواد في خفر ودلال ..

ثم تغيرت ، يا سعاد ، فصرت أعتقد أن الأموات لا يسمعون أصوات الأحياء، وبذلك صار من المستحيل أن أرى في مقام سيدي مدين أية صورة من صور الأولياء ..

وقفت في ظلمات الصحراء أتأمل كيف كنت وكيف صرت ..

كنت من البسامين ، فصرت من البكائين ..

كنت أملك بالأمان كل شيء ، ثم فقدت باليأس كل شيء ..

ولو كان لي بخت لصار هواي من هواك يا سعاد، فقضينا العمر معاً في أشمون .. أو أسيوط ..

وقفت أفكر وأنا محزون القلب ، مفطور الفؤاد فكرت في شبابي ، الشباب الذي لفحه هجير الفراق ، فصوحت أزهاره الضواحك ..

فكرت في آمالي ، الآمال التي صرعها اليأس فأمست وهي أطلال هوامد ..

فكرت في تلاقينا أول مرة بمصر الجديدة في سنة ١٩٣٢ .. أتذكرين ، يا سعاد؟

أتذكرين كيف أسرينا إلى سماء السعادة في لحظة واحدة برعاية الوجد المشبوب ؟

ليت الدنيا دامت ، كما عهدنا ، وليت بياض الحظ لم يتحول إلى سواد !!

بديع الزمان

الرسالة الواحدة والثلاثون

سعاد ..

لم أستطع أن أقول في الرسالة الماضية كل شيء ، وهل أستطيع أن أحدثك عن قلبي بكل شيء ؟

إن ظلام الصحراء جدد أحزاني وأشجاني ، فقد تدافعت جيوش الوجد من كل جانب ، وتخيلت أن الغارة الجوية لن تسقط إلا فوق رأسي ، وهل يملك الأعداء من إيذائنا بعض ما تملك قلوبنا الخوافق ؟ وأين جيوش الأعداء من جيوش العواطف ؟

إننا نقدر على مصارعة أعدائنا بلا تخوف ولا تهيب ، ولكن متى قدرنا على مصارعة ما في صدورنا من عواطف ؟

إن العدو الخطر ، العدو المزعج المخيف ، هو القلب .. فكيف السلامة من أهواء القلوب ؟

إن لي زملاء يقضون الليل والنهار في حياكة الدسائس ، ولم ينالوا مني أي منال، ولكن قلبي على قربه مني ليؤذيني أبغ إيذاء ، وسيفتح أمامي باب القبر بعد قليل ، فهل تترحمين عليّ ، يا سعاد ، يوم أموت ؟

إن قضى الله أن يحرم قبري من دمعة غالية تسكبينها عليه .. فسأشقى بعد موتي بالغليل ، كما شقيت في حياتي بالغليل ، أنا العاشق الصادق ، الذي رأى الحب من أكرم شرائع الوجود ..

بديع الزمان

الرسالة الثانية والثلاثون

سعاد ..

هل قرأت الجرائد اليومية .. ورأيت مصير مخزن الأقلام للموسيقار محمد عبد الوهاب ؟

لقد سئل عبد الوهاب عن سبب الحريق .. فقال : إنه بفعل فاعل .. ولم يتهم أحداً ..

وكان في نيتي أن أبلغ الشرطة عن سبب الحريق .. ثم سكت رغبة في السلامة من القيل والقال ، فهل أستطيع أن أبلغك أنت ؟

أنا يا محبوبتي السبب في ذلك الحريق ، فقد زرت عبد الوهاب في مكتبه وتركت هناك زفرة من زفرات قلبي .. فكان الحريق الذي تحدثت به الجرائد ؟

فهل ترين أني مسئول ، أم تكون المسئولية على من أشعلوا النار في فؤادي ؟

متى أراك ، يا سعاد ، ولو أمام القضاء ، متى ؟ متى ؟ سأبلغ الأمر إلى النيابة ، لأجد الفرصة لدفع ظلمات الأحزان بالنظر إلى جبينك الوضاء ..

بديع الزمان

الرسالة الثالثة والثلاثون

سعاد ..

إن محبوبك الغالي يقتل نفسه بلا ترفق .. لم يعد محبوبك الغالي إلا قيثارة رنانة تصدح بألحان الألم والحنين ..

أنا اليوم جذوة تتوقد فتحرق ما حولها من صور الآمال والأماني .. فهل ترين

ذلك من أدلة العافية ؟ أم ترينه مرضا من أمراض الروح ؟

إن الوجود يظهر لي في كل يوم بألوان مختلفات من صور البؤس والنعيم ..

فأين أنا مما أريد ؟ أين .. أين ؟

لقد أصبحت من عباد النار ، وأخشى أن احترق ، لأن النار على جمالها حمقاء .. لا تفرق بين العاصين والطائعين ..

أنا اليوم قوة كهربائية تصنع ما تصنع بلا ترفق ولا استبقاء ، فإن أهلكتك بأنفاسي الحرار ، يا سعاد ، وصيرتك قبسًا حائراً بين أقباس الوجود ، فلا تعتبي ولا تلومي ، فأنت أهل لكل بلاء بفضل ما تملكين من غطرسة وكبرياء ..

سعاد ..

ماذا تريدين مني ؟

إن محبوبك الغالي لم يتغير ولم يتبدل ، وإن عضه ناب الزمان ..

فتعالي إليّ ، يا محبوبتي الغالية ، تعالي .. علني أستصبح بجبينك المشرق فأستطيع تبديد ما في الوجود من ظلمات تكرب صدري وتبدد ما أنتظر من سلام وأمان ..

إليّ ، إليّ ، يا أكرم ذخيرة أعددتها لأيام البؤس والشقاء ..

إليّ ، إليّ ، فإني فقير إلى نظرة طرفك الأحور ، وبسمة من ثغرك الوضاح ..

إلىّ ، إلىّ ، قبل أن يجف عودي وأستريح في مقابر المطرية .. أو مقابر أشمون.

بديع الزمان

الرسالة الرابعة والثلاثون

سعاد ..

ما أعتقد أن الله خلق روح ألأم من روحك ، أو قلبا أظلم من قلبك ، وما يخطر في البال أن الدنيا شهدت إنسانة غافلة قبل أن يعرف أديم الأرض أقدامك الخفيفة التي تشبه أقدام الظبي الرعديد ..

أنت يا سعاد غبية بليدة ، وأنا أبغض الأغبياء البلداء .. فما الذي يجذبني إليك .. وقد رأيتك مثلاً في بلادة الطبع وخمود الروح ..

ما الذي يجذبني إليك .. وأنت الشاهد الحي على سخافة بنات حواء ؟

تقولين في خطابك الأخير أنك أصدق مني ، وشاء لك سوء الأدب والفهم أن تقولي أن قلبي مبدد بين معشوقاتي ، وأن وجدك على هدوئه أصح من وجدي لأن الجانب الذي خصصتني به من قلبك أكبر من الجانب الذي وقفته عليك من قلبي..

فهل تذكرين يا غبية أني دعوتك من نار الصبابة والوجد ؟

هل تذكرين يا بليدة إنني أنذرتك بالمصير المحتوم يوم أعرف أنك ميتة الوجدان ؟

واحر قلباه !. واحر قلباه!

سبع سنين قضيتها وأنا مغمور الفؤاد بهواك الموهوم في صباحي ومسائي ..

فما الذي غنمت من جهاد تلك السنين الطوال ؟

غنمت الحسرة .. والألم .. والبكاء ..

ولو كان هواي موجها إلى صخرة لذابت من نار الوجد أو ماء الدموع ..

فمن أنت بين الحجارة السود .. يا ألأم مخلوق بين ذرية آدم وحواء ؟

إن الله لطيف بـي في جميـع أدوار حيـاتي ، فهـل أرجـو أن يرحمنـي مـن هـواك الظلوم ..

بديع الزمان

الرسالة الخامسة والثلاثون

سعاد ..

ماذا تريد بنا الأيام ؟ ماذا تريد ؟

لا ينقضي يوم .. إلا وأنا أشعر بأن هوانـا معـرض للخمـود ، فقـد جـدت لي شواغل جديدة في دنياي ، ومن المنتظر أن يكون لي مكـان بـين أطبـاء الجـيش إن تعرضت مصر لخطر الحرب .. وإذا وقع ذلك فسأنسى هواي وألتفت إلى التوجـع لمصاير الإنسانية .. وقد أنضم إلى صفوف الجنود ، ولكن هـل أنسـى مـا بيننـا إذا كتب الله أن يقع شيء من ذلك ؟

إنني لمؤمن يا شقية بـأني سـأرى وجهـك في كـل مكـان .. وسـألقاك حيثمـا توجهت ، ولو ثار من حولي لهب الحرب وسعير القتال ..

وفي الحق يا سعاد أن المرء ينسى شجونه حين يصارع أهوال المجتمع ؟

أفي الحـق أن الجنـود المـرابطين في الجبهـة الغربيـة ينسـون الشـجون التـي خلفوها في ديارهم يوم السفر إلى الميدان .. قد يكون ذلك ، وقد يكون مـن الحـق أن العواطف الوطنية تطغى في بعض الأحيـان فتغـرق العواطـف الذاتيـة .. وهنـا أشعر يا سعاد بحقد متضرم على من يثيرون الحروب .. ويحرمـون الإنسـانية مـن التمتع بنوازعها الأصلية وهي تشرب كأس الحب أو تسكن إلى نعيم البيت ..

فالعواطف التي تخمد بانتقال الرجل من دار الأمان إلى ميدان الحرب .. هـي من الذخائر النفيسة التـي نفتقـدها طـائعين أو كـارهين .. والآمـال التـي يبـددها

الانتقال من حال إلى حال .. كانت من الحوافز التي تدفعنا إلى اغتنام ما في الوجـود من منافع وطيبات ..

ولكن ما الذي يخيفني من الحرب ؟

وهل عرفت السلام في دنياي .. حتى أفزع من الحرب ؟

نعم ، عرفت السلام ، يا سعاد .. عرفته يـوم كنـت تفـرحين بلقـائي .. فمتـى تفرحين بلقائي مرة ثانية ؟ متى أرى تلك العيون وهي نواطق بالأنس والارتياح ؟

وهل في الدنيا سعادة أعظم من سعادة المحب حـين يقـرأ في عيـون محبوبتـه معاني الفرح والابتهاج ؟ لم نكن نتعانق ، يا سعاد ، عند التلاقي ، ولكني كنت أشعر أن روحي يضم روحك ضمة قوية ، وكنت أحس أن تـوهج عينيـك لـيس إلا أثـراً لاشتباك الروح بالروح ..

أنا أعرف ذنوبي ، يـا سـعاد ، وأعـرف أسـباب العتـاب ، والاعتـراف يهـدم الاقتراف ؟

فمتى تصفحين وتغفرين ؟

أما لك في الله أسوة ، يا شقية ؟

فلو كان الله عز شأنه يعاقب على ذنب .. لسحق الناس جميعا منذ أزمان طـوال .. ولكنه يعاقب مـرة .. ويعفـو مـرات .. وبفضـل رحمتـه وعفـوه عـاش الآثمـون والأشقياء ..

وهل يئست من صلاحي يا سعاد ؟

أنا يا محبوبتي شاب رقيق القلـب والوجـدان ، ومسـتعد لأعظـم تضـحية في الحب .. إلا أن تكون التضحية موجهة إلى الزهد الأثيم الذي يوجب أن أنسى أنك فتاة رائعة الحسن .. بارعة الجمال .. وهل في الدنيا فتاة يؤذيها أن يتطلـع الحبيـب إلى حسنها الرائع .. وجمالها الفتان ؟

أنا أخشى أن تكوني مريضة ، يا سعاد ، فالنفرة من بشاشة الغزل لا تصدر عن فتاة صحيحة الجسم والروح .. حدثيني عن أدق الشئون في حياتك الخصوصية ، فقد أعرف السبب فيما ابتلاك به القدر من زهادة حسية لا تلتئم مع فتاة تشهد طلائع جسمها الفينان بأنها تنكر خمود الفؤاد .. أأنت التي تقولين : طهر قلبك .. ثم تعال ؟ وكيف أطهر قلبي من الصبوة والفتون ؟

وبأي حق أعيش .. إذا وقعت في الدنس ، دنس الجمود عن فهم روائع الصبابة والملاحة والجمال ؟

وكيف ألقي الله وقد اقترفت الإثم المنكر حين غفلت عن سحر العيون ؟

اسمعي يا شقية .. إن الضلال الذي تنكريه عليَّ هو عندي أفضل وأشرف من الهوى الأثيم الذي يقترحه ذهنك الخامد وقلبك العليل ..

أنت والله غبية وبليدة ، ومن نكد الحظ أن أبتلى بحب فتاة غبية العقل .. وبليدة الروح .. فإن رزقك الله شيئا من صحة العقل ولطف الذوق فاسألي عني ، وإلا فهو الفراق إلى غير تلاق .. الوداع ، الوداع .. يا ربة الصون والعفاف ..

بديع الزمان

الرسالة السادسة والثلاثون

سعاد ..

كم حاولت أن تصح القطيعة التي أعلنتها في رسالتي الماضية .. لقد التفت إلى واجباتي وشئوني أعظم التفات .. راجيا أن أستعين بالواجب على الحب .. فهل أفلحت ؟ وكيف يفلح من ابتلاه الله بهوى الملاح ؟

إني لأحسد الغافلين الذين أعماهم الجهل عن رؤية اللؤلؤ المنثور فوق بساط الوجود ، فأولئك قوم يعيشون في سلام وأمان كما تعيش الأنعام .. وما

أسعد الأنعام في هـذا الوجـود ! أكـاد أؤمـن بـأن الحيـوان لا يتـذكر ولا يحـزن ، والتذكر والحزن هما أساس ما نعاني من بـلاء .. والمـوت مـريح لأنـه يعفينـا مـن الذكريات والأشجان .. فالحياة التي يحسها روحي وعقلي وقلبي هي مصـدر مـا أنا فيه من لواعج وشجون .. وهذا هو السر في أني أرجع إليك في عقب كل ثورة .. لأني أرى الثورة عليك من شواهد العافية فاصنعي ، يـا شـقية ، كـل مـا يـوحي بـه جنون الشباب وسكر الدلال .. فلـن أقـف إلا حيـث تشـير الحيـاة التـي منحتـك بفضلها من الحب ما لا تستحقين.. أنت مجنونة ، يا سعاد ، وأنا مجنون .. وما لذة العيش إلا للمجانين ! هذه الثورة العاصفة وهذا العتاب العنيف هما الشاهد الناطق بأنني أتشبث بالحياة .. الحياة التي تجري في دمي وعروقي جريان المـاء في العـود الرطيب .. سأخترق جميع المصاعب ، وسأكسر جميع الحواجز لأصـل مـن هـواك إلى ما أريد .. فلا تظني أنني سأكتفي بالأشجان والمدامع ..

هيهات ! ثم هيهات !

فلو كان بيني وبينك ألف خط من أمثال خط ماجينو لوصلت إليك بلا جهـد ولا عناء ..

أنت لي يا سعاد .. والعزيمة القوية تفل الحديد وتخمد النار وتذيب الجلاميد .. جربي عنادك .. واعتصمي بشواهد الغطرسة والكبرياء .. فلن يكون إلا ما يشاء الهوى العارم .. والوجد المشبوب ، وسـوف تعلمـين .. وإلى اللقـاء فـوق جسـر إسماعيل ، أو فوق خزان أسيوط ، إلى اللقاء يا منية القلب ويـا عزيمـة الـروح ويـا بلبلة الخاطر وعذاب الفؤاد ..

بديع الزمان

الرسالة السابعة والثلاثون

سعاد ..

لقد آذاني ما أوجه إليك من الرسائل أعنف الإيذاء فأكثر الناس يحسبونني أمزح ..

وهل يمكن المزاح مع الحب يا سعاد ؟

كانت تلك العواطف نكبة من نكبات الدهر سقطت فوق رأسي فأفزعتني ، وعلمتني أن الدنيا ليست دائما ملاعب غواية ومواسم جموح ..

أي والله ! فقد عرفت أن الدنيا فيها لواعج وشجون ومآس دامية تتفطر لها قاسيات القلوب .. ويكفيني أن يكون في الدنيا فجيعة مثل فجيعتي في هواك لتصير كالنبات المر الذي يروق العيش ويؤذي الذوق !

كانت الدنيا في عيني ورداً بلا شوك فأصبحت شوكا بلا ورق .. وكذلك دنيا الحب لا يبقى فيها من الأزاهير غير الأشواك . ما تمثلت فجيعتي في هواك يا سعاد إلا شيعت الدنيا بنظرة الاحتقار والامتهان ، فالدنيا التي يشقى فيها قلب مثل قلبي خليقة بالكره والبغض والمقت ، وهي والله أحقر من أن ينصب لأهلها ميزان يوم يقوم الحساب .. أين ما كان عليه يوم كان ابتهاجك بلقائي يراقص أزاهير الأرض ونجوم السماء ؟

وأين العهد الذي كانت تبدد فيه الدنيا وهي ملاعب لأهواء الأفئدة ، ومراقص لأحلام القلوب ؟

ضاع كل ذلك يا سعاد .. وبقيت أسير الحزن واليأس .. وخلت يدي من زمامك الطيع الذلول .. فمتى تهب نسمات الحب لتذكري محبوبك اليائس الحزين ؟

بديع الزمان

الرسالة الثامنة والثلاثون

سعاد ..

إليك بعد الله أشكو بثي وحزني .. لم تعد لي طاقة لمقاومة الدسائس والوشايات .. ولم يبق لي صبر على تحمل مكاره الذنوب التي تختلق اختلاقا لإفساد ما بيني وبين رؤسائي .. وقد فكرت في مقابلة الدس بالدس .. والبهتان بالبهتان .. ولكني لم أستطع لأن الله حرمني المقدرة على حياكة الدسائس والأراجيف .. وهو لم يمنع هذه القدرة لغير الضعفاء وقد تسأليني يا شيطانة عن شرح هذه الفكرة الفلسفية وأجيب بأن الله وهب لكل مخلوق سلاحا ما يدفع به عدوان المعتدين .. فوهب السم للثعبان ليخدر به ما يفترس .. وليخيف به من يعتدون عليه ، ومنح الأسماك ضروبا من الأشواك تقاوم بها الصيادين .. ومنح الكهرباء للسمكة النيلية التي تسمى «الرعاد» وهي سمكة بلا شوك .. وهي تدفع الشر بتلك الكهرباء .. هل رأيت «الرعاد» يا سعاد؟

ومنح الأسود والنمور ما أعرف وتعرفين من مخالب وأنياب .. وخص الأقوياء من الرجال بمزايا جسدية وعقلية وروحية .. يسيطرون بها على الناس .. فهل تعرفين ما هو السلاح الذي تفضل به الله على الضعفاء ؟

لقد لطف بهم عز شأنه فمنحهم القدرة على الدس والكيد .. كما منح السم لبعض صغار الحشرات .. تباركت يا ربي وتعاليت ولك في كل شيء حكمة ، وفي كل شيء دليل على انك خالق السم والترياق .. وفاطر الداء والدواء ، ونحن بحكمك راضون .. وأقول يا سعاد إن الله حرمني القدرة على حياكة الدسائس والأراجيف لأنه منحني سلاحا غير هذا السلاح الذي لا يمنحه لغير الضعفاء ..

وقد شكوت إليك مرة ما يصنعه الدساسون في محاربتي .. فكان رأيك يا شيطانة أن أجزيهم كيدا بكيد ، وإرجافا بإرجاف .. فلتعلمي أن نفسي عزت عليّ

فلم أقابلهم بغير الصفح والغفران .. ولكن إسفافهم زاد حتى طفح به الكيل ..

فما الذي أصنع ؟ هل أرجع إلى رأيك الخاطئ .. فأدفع الدس بالدس ، والكيد بالكيد ؟ وهل اختلت موازين الوجود حتى أصير من الدساسين .. وأنا فارس سعاد ؟ إن الحب رفعني عن الدنايا والصغائر وكاد يعصمني من الهفوات .. فما الذي يمنع من أن أنظر إلى الدساسين بعين الشفقة والعطف ؟

لقد شتمني أحد الأدباء بمقال سخيف نشره في إحدى المجلات .. ثم جاء يعتذر إليّ .. فقلت : أنا أعلم يا هذا أنك أديب فقير .. فأن كنت أخذت أجراً على ذلك المقال .. فبالهناء والعافية .. وإن كنت نشرته بغير أجر .. فسأجزيك عليه لتعرف أن الدكتور بديع الزمان يعاون فقراء الأدباء على العيش ، وطبيب الأبدان يجب أن يكون أيضا طبيب الجيوب ، ومرض الجسم قد ينشأ عن مرض الجيب..

وهل تصدقين يا سعاد أني عاونت واحدا من هؤلاء على إنشاء مقال في شتمي ليتقرب به إلى أحد خصومي عساه يعينه على الظفر بوظيفة في وزارة الأوقاف ؟

أنا أريد أن أسمو إلى منازل الأخلاق .. فهل أستطيع بفضلك أن أسمو إلى أعلى منازل الحب لأصير أشرف الرجال وأعظم الرجال ؟ ويلي منك ومن الناس يا سعاد !

لقد انتصرت على أعدائي ، فهل أنتصر على أحبابي ؟

وكيف .. وقد عجزت كل العجز عن الانتصار على قلبي ..

بديع الزمان

الرسالة التاسعة والثلاثون

سعاد ..

انقضى شهر رمضان .. ولم أخرج فيه من داري غير مرتين .. وهل في القاهرة

ما يشوقني إلى سهرات رمضان ؟ كان لي صديق عزيز يستقبل الزوار في داره في جميع ليالي رمضان .. وكانت داره في ليالي شهر الصوم أشبه الأشياء بسوق عكاظ الذي سمعت أخباره من «خوجة» العربي يوم كنت تلميذاً بالسعيدية .. ثم شاء القدر أن يصير هذا الصديق وزيراً منذ سنتين .. فمضيت للسمر عنده في رمضان الفائت .. فوجدت داره في حراسة الظلماء ، وعلى بابها جندي يتلقى بطاقات الزائرين .. فلعنت المناصب التي تخرج الرجال عن سجاياهم ، وتحولهم إلى آلات صماء لا تسمع ولا تجيب إلا بمحرك تقذفه الأرض أو تنشق عنه السماء .. وقد ضاعت الوزارة من يد هذا الصديق ورجع إلى استقبال الزوار في رمضان !

فهل أزوره في رمضان ؟ مستحيل.. مستحيل .. مستحيل ..

نريد رجالا أوفياء لا تغيرهم المناصب .. ولا تحولهم الأيام ..

بديع الزمان

الرسالة الأربعون

سعاد ..

أنا في يوم العيد يا سعاد .. ولم تزوريني في مصر الجديدة .. ولم أزرك في أسيوط .. فكم عيداً في الحياة يا سعاد حتى يجوز أن أحرم منك أو تحرمي مني في أيام هذا العيد ؟ كم عيداً في الحياة يا سعاد ؟ إنها أيام نودعها طائعين أو كارهين وسنعض بنان الندم على ما فرطنا في جنب الحب ، فأعدي عدة الصبر الجميل ! فقد يشاء القدر بعد أشهر أو أعوام أن تلبسي ثياب الحداد على حبيبك الغالي .. أنا حزين يا سعاد ، والعيد بأفراحه وملاهيه لا يرفع عن صدري أثقال الشجون ، فهل أجد عندك دواء لهمومي وأحزاني ؟

تلقيت البريد في هذه اللحظة يا سعاد .. وليس فيه شيء من أسيوط ، فما الذي وقع ؟ أتكونين مريضة ؟ أيكون السلوان مسح قلبك بيده الرقيقة ؟

أتكون الدنيا فسدت حتى لا يعطف فيها قلب على قلب ؟ سأقوم بواجب الحب يا سعاد .. حتى لا يغضب الله على هذه الدنيا فيحولها إلى ميادين من البغض ، والحقد ، واللؤم ، والكفران .. سأغضب على نفسي فأجشمها السفر إلى أسيوط لتحية الحب .. في دار سعاد .. إن كانت سعاد لا تزال في شوق إلى حبيبها الوفي الأمين الذي ردته مكاره الصدود إلى روح يأس حزين لا يعرف أيكون العيد في يوم الأحد أو يوم الخميس .. ولا يدري أيكون في مطلع رمضان أو في استهلال شوال .. وعند الله جزاء الوفي الصادق .

بديع الزمان

الرسالة الواحدة والأربعون

سعاد ..

مضت أسابيع وأسابيع .. وأنا محروم من نعيم الأنس بالكتابة إليك ، وقد دفعت ثمن التقصير يا سعاد .. دفعته من راحتي وعافيتي .. وإلى قلبك الرقيق أقدم شرح هذا المعنى الدقيق..

كنت أحسبني أتفضل أني لم أكن أتفضل عليك ، وإنما كنت أتفضل على نفسي.

كان التفكير فيك يا سعاد يشعرني بأني رجل فاتك يسيطر على قلب امرأة عصماء ، وكان يدلني على مزايا نفسية تقوى بها عزيمتي ، وينشط بها جناني ..

وأهل الغفلة لا يدركون قيمة الشعور بالرجولة العاتية ، الشعور الذي يوحيه تعرض المرأة الآبدة لعرامة الرجل الفحل ، وهو شعور يدفع الرجل إلى جلائل الأعمال .. فإن اعترفت اليوم بأني كنت من الخاسرين حين أردت تأديبي بالسكوت .. فاعرفي أني لم أقل غير الحق .. وكيف أغالط نفسي وقد رأيت أن أيام

السكوت لم تكن بالنسبة إلى محبوبك الغالي إلا أعوام خمود ؟

هل يغلق الرجل قلبه عن صوت المرأة إلا وهو جاهل بمنافعه الصحيحة في دنياه ؟

إن مرارة الحياة التي أتجرع كؤوسها في كل وقت .. ليست شيئا بجانب الحرمان من عطفك يا سعاد ، فمتى تغفرين ذنوبي لأشعر أن في الدنيا قلبا يسامر قلبي ؟

أنت عاتبة يا «سعاد» ولكنك تنسين كيف يجوز لمثلي أن يتغطرس وهو يرى فتاة عبقرية تؤثره بهواها القهار قبل أن تخصه بجمالها الفضاح .. وما الذي يمنع من أن يقع الدلال من جانب العاشق ؟ ما الذي يمنع وهو في حقيقة الأمر معشوق من أجمل زهرة أنبتتها أسيوط ؟

أنا مجنون بالعظمة قبل أن أجن بالعشق ، فعظمتي في صدرك يا سعاد هي سبب جنوني ، وسأشرك بهواك ، إن لم أكن أشركت لتشهد الدنيا والناس أني فتى له تاريخ في تعذيب قلوب الملاح ..

بديع الزمان

الرسالة الثانية والأربعون

سعاد ..

هل تفتحين صدرك لمن يستغفر ويتوب ؟

كانت رسالتي الماضية فنا من الحمق ، وهل رأى الناس قبلي عاشقا يصارح معشوقته بأنه يشرك بهوى من يحب ؟

تلك دعابة يا سعاد ، فلا تغضبي ولا تعتبي ، فلن يقع هواي إلا حيث تحبين .

وهل تسمح الدنيا وهي غدارة ظلوم بأن تسوق إلى قلبي هوى أقوى وأعنف

من هوى سعاد ؟

أعتذر ، أعتذر ، فاصفحي عني ، يا كل من أملك من مصادر البهجة والانشراح في شبابي ..

بديع الزمان

الرسالة الثالثة والأربعون

سعاد ..

أنا مع الدنيا في حرب ، مع الأهل في قتال ، مع الزملاء في نضال ..

فكوني في صفي ، يا سعاد ، لأنتصر على الدنيا والأهل والزملاء ..

كوني في صفي ، يا سعاد ، فلم يبق لي نصير غير قلبك العطوف ..

بديع الزمان

الرسالة الرابعة والأربعون

سعاد ..

أفي الحق أنك راضية عن أسلوبي في شرح معاني الحب ؟

إن رضاك عن أسلوبي سيدفعني إلى منافسة أدباء مصر أجمعين اكتعين أبصعين «ذلك هو التوكيد الذي علمونا إياه في المدارس الابتدائية والثانوية» .

وأنا أعرف السر في الفصاحة التي يمتاز بها قلمي ، والسر كل السر هو الصدق ، فما عرفت يوما زخرف القول ، ولا رضيت نفسي عن زور الحديث في جد أو في هزل ..

ألا ترين كيف صبرت على هواك ..وأنت غدارة ظلوم ؟ إن صبري عليك يا شقية هو أعظم الشواهد على أني لا أعرف المزاح في الحب ..

وهل يمزح في الحب إلا الكاذبون ؟

وكيف كان أسلوبي أفضل شمائلي عندك يا سعاد ؟

ألم تكن نظراتي إليك أفصح وأبلغ وأبرع وأصدق من سائر ما تفوه به أهل الفصاحة والبلاغة والبراعة والصدق؟

هل تذكرين يوم وقفنا نناجي الشمس عند الأصيل فوق خزان أسوان ؟

لقد قضيت ساعة كاملة وعيناي تصبان في عينيك رحيق الحب والعشق ، وهي ساعة لن أنساها وإن صنع الغدر بقلبك ما صنع ، فكيف تكون رسائلي أفصح مما نطقت به عيناي ؟

تعالي إليّ ، يا سعاد ، لتعرفي كيف تكون فهاهة الألسنة بجانب فصاحة العيون .. سعاد تشهد أني فتى فصيح بليغ ، لأني أمتعت قلبها وذوقها برسائل أربت على الثلاثين ، فأين كانت سعاد من فصاحتي وبياني يوم أسرت فؤادي أسراً أبديا بنظرة واحدة حين التقينا في نادي القلم المصري على غير ميعاد ؟

اسمعي أيتها الغدارة الظلوم ..

إن الدنيا ضاقت في وجهي بفضل هواك الثائر العصوف ، فمتى ترجعين إليّ ، ومتى تعطفين عليّ ، يا أعظم الوارثات لجبروت حواء ؟

أنا مقبل على مكاره ومعاطب ، بسبب هواك يا سعاد ، فكوني في صفي لأنتصر على الأهل والزملاء والرفاق ..

سعاد .. كل شيء ما خلا الحب عبث ، كما قال شوقي ، فأين نحن من الحب ؟ وأين نحن من النعيم ؟

أنا واثق بأن بلائي بهواك سيطول ، ولكني مع ذلك واثق بأن ذلك البلاء هو

سبيلي إلى الخلود ، وسيحفظ الدهر اسم الفتى الشهيد ..

بديع الزمان

الرسالة الخامسة والأربعون

سعاد ..

إن اليأس الذي يصارعني من حين إلى حين يكاد ينطق بأن لقاءنا الأخير كـان القطرة الأخيرة من كأس الحب ، وما أمر بقايا الكؤوس في فم النشوان من عثـرات الزمان !

فإن اخترمتني المنية قبل أن أراك ، يـا ريحانـة القلـب ، فتـذكري أن روحـي سيحوم حول دارك في كل وقت وهو ظمآن ، وسيستمع في كل لحظة عساه يسـمع منك شهقة وجيعة على ذهابي ، ذهاب الطائر الغريب الذي ضـنت عليـه المقـادير بأن يغرد فوق أفنان الجمال ..

وما آسى على شيء يوم أموت كما آسي على ذهاب البهجة والبشاشة من دنيـا محبوبتي الغالية ، المحبوبة التي تجيد فن التغاضي عن جمـرات القلـوب ليحتـرق محبوبها وحيداً فريداً بدون أن يأنس روحه بصرخة عزاء ..

من أنت ، يا سعاد ، حتى ألقي في هواك ما لقيت ؟

وهل تستطيع فتاة يجرح خدها النسيم أن تسيطر على قلب فتى عارم فاتـك .. إلا أن يكون الضعف من القواعد التي قام عليها بناء هذا الوجود ؟ الضعف قـدرة عاتية ، وبفضل الضعف عاشت مخلوقات تفوق العد والإحصاء ، فهنيئا لك تلـك القدرة السخيفة التي تصولين بها على قلبي ، يا أنضـر زهـرة تعطـر بشـذاها بسـتان الحب .. أنت سخيفة ، يا سعاد ، ومن بلايا الزمن أنة يكون لأهـل السـخف قـدرة على الحلم والجهل ، والهجر ، والوصل ..

رباه ! متى ترحمني من سيطرة أهل السخف ولو كانوا في حلاوة سعاد ؟

وهل هنت عندك ، يا ربي ، حتى يكون شقائي ونعيمي بيد أحد من عبادك الفانين ؟

رباه ! أنت صاحب الحول والطول ، وبيدك أمر الأقوياء والضعفاء ، ومن فضل جودك صار النهر الصغير أنفع لخلقك من البحر المحيط ، وبفضل حكمتك صار من حق النمال أن تعيش في أرض يصول فيها الأفيال ، وصار من حق الطير الضعيف أن ينقر أنياب التماسيح ليظفر بحاجته من القوت ..

فكيف تكلني إلى خلقك .. وأنت قادر على حمايتي منهم ؟

وكيف يرضيك أن ألجأ إلى نصير سواك ؟

بديع الزمان

الرسالة السادسة والأربعون

سعاد ..

إليك أعتذر ، يا محبوبتي الغالية ، ففي الخطاب السالف أشياء تخطت حديث الحب إلى حديث الإيمان ، وأنت زهرة قصيرة العمر لا يجب إرهاقها بالأفكار التي تؤرق غفوات الرجال.

ولا يبعد مع هذا ان يكون خطابي السالف كلمات تنقل إلى قلبك الفاني شرارة من لهب اليقين ..

وإلى متى أتركك في عمايات الجهل يا سعاد ؟ أنا أراك كالنملة التي تقف فوق البطيخة فتحسبها أعظم وأضخم وأعرض وأطول من الكرة الأرضية !

أراك ، امرأة ، يا سعاد ، وهل أنت إلا امرأة ؟ والمرأة ، كما تعرفين ، ضعيفة العقل ، بشهادة الشرع الشريف ، أليست المرأة هي التي أخرجت أبانا آدم من نعيم

الجنة إلى جحيم الأرض ؟

فماذا تريدين أن تصنعي معي ؟ يا بنت حواء ؟

أتريدين أن تكون رسائلي إليك مقصورة على شهوات الحواس ؟

وما الحواس ، يا سعاد ؟ أليست من نعم الله .. واجب الوجود ؟

بفضل البصر رأيت وجهك الأزهر اللماح ، ورأيت زبد الأمواج ، ورأيت ألوان الأزاهير ، ورأيت وجه الشمس ، والقمر ، والنجوم ، ورأيت أسر الظباء وهي تعدو في الصحراء عدو المرح والجنون ..

رأيت ، ورأيت ، ورأيت !!! ألم نر معا وجه القمر في مرآة النيل ؟

وبفضل السمع .. سمعت نجوى عينيك ، وأنا أول من سمع نجوى العيون ، وسمعت خفقان قلبك ، وإن لم أكن أول طبيب سمع خفقات القلوب ، والأطباء يسمعون خفقة القلب بسماعة ، وأنا أسمع خفقة قلبك بأذني يا سعاد ، وأنتهز هذه الفرصة فأقول أن لقلبك خفقات أدق وزنا من الرقص التوقيعي ، وأحلى وأعذب من نبرات عبد الوهاب ، وسجعات أم كلثوم ..

وبفضل السمع .. سمعت تسبيح الأرض وهي تحمد الله على أن مكنها من مصافحة قدميك اللطيفتين .

وبفضل السمع.. آنست بحفيف الأشجار، وخرير الينابيع، وهدير الأمواج ..

وبنعمة السمع .. نعمت بوسواس الحلى وهو يهتف بأغاريد الحب فوق جيدك الجميل ..

وبحاسة السمع .. عرفت عن طريق الوشايات أنك تخطرت مرة أو مرتين في شارع الحمراء لتدلي العيون ، عيون العمى من بني آدم ، على انك أنت سعاد

وفي أذنيّ الواعيتين .. سكب اللائمون والعاذلون أحاديث سأشقى بها إلى أن

أموت ..

وبأذني سمعت افتراءاتك الأثيمة على محبوبك الغالي ..

وبأذني سمعت صفير الأعاصير في قلبي ، القلب الذي حولته القطيعة إلى خراب ويباب !

أما حاسة الشم عندي فأمرها عجيب ، وهل بعد جدائلك المعطرة مجال للأنف الذواق ؟

وأين أنفاس الأزهار في أسحار الربيع من أنفاسك العطرة في ليالي الوصال ؟

وحاسة اللمس ؟

حدثيني أنت ، يا سعاد ، عن حاسة اللمس ؟

حدثيني عن الكهرباء التي ترعد جسمي وقلبي وروحي حين نتصافح صادقين لا عابثين ..

في يدك كهرباء ، يا سعاد ، فمن يبلغ أهلي يوم أموت أني مصعوق بمصافحة سعاد ؟

أنا أعرف سبب شقائي وبلائي ، والطبيب أعرف الناس بمصادر الشقاء والبلاء ..

لمست يدك مصافحا يوم التقينا على غير ميعاد بسهرة نادي القلم المصري ، فأمسيت ملموسا ، والملموس في لغة الريف المصري هو المجنون ، فأنا إذن مجنون سعاد ..

بديع الزمان

الرسالة السابعة والأربعون

سعاد ..

سنصل إليك هذه الرسالة الدامية صبيحة الإفاقة من نشوة «شم النسيم» وهي رسالة أكتبها بدم قلبي في لحظات أشهد فيها أهلي وهم يلونون البيض بلون الدم النجيع ، أكتب هذه الرسالة وأنا مقتول الأماني والآمال بعد أن كتبت إليك ثلاث رسائل ولم أتلق طيفًا من جواب ..

وأنا أعرف ذنبي ، يا سعاد ، وهل لي ذنب غير الثقة بوعود الملاح ؟

ما ذنبي ؟ ما ذنبي وقد وقفت عليك أهواء فؤادي ؟

ما ذنبي وقد رأيت جسمك الفينان وثناً تباح في حبه الذنوب ؟

سأذكر وستذكرين ، يا سعاد ، سنذكر معا أيام تصافينا ، وهي أيام مضت وكأنها بروق خواطف لا رجع لها ولا معاد ، سنذكر أيامنا التي مضت وكأنها خفقات قلب مبهور في حلم رائع لن تسمح بعودته الليالي ..

سنذكر ، ولكن متى ؟

فقد صرت أخشى ألا نعرف التصافي بعد أن أبتليت من هجرك بما ابتليت ، وهو هجر سيهد عزيمتي أن قضى الدهر بأن يطول ..

لا نفع من العتاب ولا غناء ، فلنمض في الهجران إلى آخر الشوط ، ولننتظر ما تصنع الأقدار بمصاير الحب المعتدي عليه بلا جريرة ولا ذنب ، وهو أطهر من الماء ، وأرق من الهواء . .

لا أكاد أصدق أنك نسيت العهد ، يا سعاد ، فما كان عهدنا بأهل للنسيان ، إلا أن تكون الدنيا فسدت فسادًا لا يرجى بعده صلاح ..

لا أكاد أصدق أن الهجر قد ينتهي إلى قطيعة مجرمة لا يكون بعدها لقاء ..

فإن وقع ذلك – وهو ما أخشاه – فستكون نهايتنا عبرة لجميع العاشقين ..

والخسران سيكون من نصيبك وحدك ، يا سعاد ، أما أنا فسأتخذ من فجيعتي في الحب قيثارة أرجع عليها ألحان الوجد والحنين ، لأخلد على الزمان .. كما خلد قيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح ، والخلود صورة وهمية ، ولكنها من مشتهيات الرجال ..

أترين أن تعرفي كيف أحول فجيعتي في الحب إلى ثروة أدبية ؟

إليك هذا القصيد:

في مثل هذه الأيام من السنة الماضية حدثتني النفس بأن أقضى معك يوم «شم النسيم » في أسيوط ، ورأيت أن يكون قدومي مفاجأة طريفة فلم أكتب إليك عن موعد حضوري لتذوقي لذة النعيم الذي يفد على غير ميعاد . . وركبت قطار الصعيد في الساعة الرابعة بعد الظهر في يوم صائف لا أتنسم فيه الهواء إلا بشق النفس ، وبعد ساعات طوال تعللت فيها بما تعللت من البرتقال الذي يباع في المحطات . . بعد أن صنع القيظ ما صنع ، وبعد أن أضناني التعب وصلت إلى أسيوط قبيل انتصاف الليل . .

والله وحده يعلم . . كيف فرحت بمصافحة الظلام في أسيوط ، وما كان في أسيوط ظلام ، وإنما كان فيها ليل مضاء بالكهرباء ، والليل هو الليل ، و إن طرزوا حواشيه بخيوط النور الوهاج!

بعد أن حفظت مكاني في الفندق ، وبعد أن تزودت بعشاء خفيف ، مضيت للطواف بدارك يا سعاد .. وقد هممت ألف مرة بطرق الباب ، ولكن كيف وأنا أتخيل أن يكون كله في نوم عميق ؟

ورجعت .. فقضيت الليلة ، ليلة الأحد ، في أحلام شوائق لألقاك عند الصباح، فهل لقيتك عند الصباح ؟

حدثوني أنك ذهبت لقضاء يوم شم النسيم في القاهرة ، فما هذا البلاء ؟

أتذهبين أنت إلى القاهرة .. وأذهب أنا إلى أسيوط فيكون هذا الخذلان الفظيع ؟

ومع من تقضين عيد الربيع في القاهرة ؟

ومع من أقضيه في أسيوط ؟

تلك بلية وفجيعة ، والحب كله بلايا وفواجع !

وانتظرت .. فرأيت أسيوط في أفراح ، ورأيتني في أحزان ، رأيت مدينة تمرح بالبهجة والجذل والانشراح وهي مع ذلك لا تخجل من أن يشقى فيها عاشق غريب ، وللعاشق حق .. وللغريب حقوق !

وهل تعرف أسيوط هذه المعاني .. وهي مدينة مجنونة بحب المال وحب الذات .

هل تعرف أسيوط معنى الحب ومعنى العشق ومعنى الوفاء ..

وأكثر أهلها يجمع القرش إلى القرش والجنيه إلى الجنيه .. والألف إلى الألف .. والمليون إلى المليون .. حتى جاز أن يقال أن أهل أسيوط هم خلفاء قارون ، عليه تحية الأصفر الرنان ؟

أين أذهب ؟ أين أذهب ؟

وأين يذهب بديع وقد فرت من وجهه سعاد ؟

أذهب إلى الجبل لآنس بالأموات بعد أن استوحشت من الأحياء ..

وفي أسيوط جبل موحش ، ولكنه مؤنس لأنه يحفظ جماجم عجز عن إبلائها صرف الزمان ..

وانطلقت إلى الجبل أحاوره وأناجيه ..

وأي جبل ؟ هل جبل أسيوط الذي شهد ما شهد من عدوان الفراعين بعضهم على بعض .

هل تعرفين تاريخ بلدك يا سعاد ؟

أسيوط في لغة العرب اسمها سيوط ، وإليها ينسب جلال الدين السيوطي ، وفي لغة المصريين اسمها سووط ، ومعناها الحارس لأنها في بعض العهود كانت الفيصل بين مملكة الشمال ومملكة الجنوب ..

وجبل أسيوط، أو سيوط، أو سووط ، كان مقبرة لسكانها في عهد الفراعين ..

صعدت ذلك الجبل في طريق عبدته مصلحة الآثار في سنة ١٩٢٢ ، صعدته وأنا مكروب لأن سعاد غائبة عن أسيوط !

صعدته وفي قلبي لوعة ، لو خرجت من صدري لاندك بها ذلك الجبل وصار ترابًا تذروه الرياح ..

صعدت الجبل وحدي ، فقد كان حراسه مشغولين بالاستعداد لليلة شم النسيم ..

فماذا رأيت ؟ رأيت ما يسمونه «اسطبل عنتر» وهو حفرة منقورة في الجبل تذكر من يراها بحفرة منقورة في جبل المقطم ، فعرفت أن نقر الجبال شنشنة عرفناها عن مصر من قديم الأجيال ..

وترقيت خطوات ودرجات .. فرأيت القبور المنقورة في جبل أسيوط ، فدخلت وأنا خائف أترقب لأني كنت سمعت أنها مسكونة بالعفاريت والثعابين ، فرأيت جماجم محنطة بقيت شعورها وجباهها وأسنانها ، جماجم لا يعوزها غير النطق لتقول أنها ابتليت في حياتها بهوى أعنف من هواي يا سعاد . .

ودار رأسي مما رأيت ، ولكن أين الطبيب وقد أذهلني الحب عن الطب ؟

تلك جماجم عانت من الوجد بعض ما عانيت ..

تلك جماجم لم يغنها التحنيط عن البلاء بجمود الموت .

تلك جماجم لم يبق من هواها غير أشلاء ..

تلك جماجم أعجزها الفناء عن الاستجابة .. لصوت العاشق المكروب ..

وتلفت فرأيت رجلاً بدويًا يسألني عما أريد ؟

فقلت : أريد أن أعرف أسرار هذه الجماجم ؟

فقال :

عندنا من هذه الجماجم مئات الألوف ..

ورجعت إلى نفسي .. فتذكرت أن التحنيط كان من حظ المياسير ، أما الفقراء فلم يكن لهم من التحنيط نصيب ..

فيا فاطر الأرض والسموات .. كيف سترت الفقراء وفضحت الأغنياء ؟

الفقير بلى جسمه وباد فصار ترابًا تعيش فيه الأزهار والرياحين ، والغني تحجر جسمه بفضل التحنيط فلم تبق منه غير عبرة يلهو بها السائح حين يشاء ..

وأقبل الليل وأنا مشغول بدرس الجماجم .. فسمعت كلابًا تنبح فوق ما اطمأن من أرض أسيوط ، فقلت :

لم يبق في الكون من خلود .. غير نباح الكلاب !

ثم انحدرت إلى النيل لأرى هيام الناس في ليلة شم النسيم ..

والنيل في أسيوط أعجب من العجب ، هو سحر قهار ..

ولكن أين من يفهم معناه ؟

النيل في أسيوط جميل ، جميل ، جميل ، ومع ذلك لم يقم على شاطئه قصر فاخر ، أو ملهى بديع .

النيل في أسيوط زهرة نبتت في الصحراء !

على الشاطئ الجميل في أسيوط تقوم قرية اسمها «الوليدية» ومع ذلك يقال أن أسيوط هي وطن محمود بسيوني ، ونجيب الهلالي ، ومحمد على علوبة ، وسيد خشبة ، والمنقبادي ، وتوفيق دوس ، وسعاد ، فأين مظهر الحضارة على شط النيل هناك ؟

أسيوط تنحاز إلى الجبل وهو مقر الأموات .. وتجانب النيل .. وهو مقر الأحياء ..

وفي ليلة «شم النسيم » كان النيل في أسيوط يعرف من العربدة ما لم تعرف دجلة في عهد الرشيد ، وكانت أحشاؤه تعرف من الخفوق ما لم تعرف أحشاء الفرات في عهد الطغيان ..

كان الفرح من نصيب السامرين فوق أمواج النيل ، وكنت وحدي صورة للعاشق الغريب ..

فيا سعاد ، إلى متى الصدود ؟

ومتى نفرح معًا في ليلة «شم النسيم » ؟

لك دنيا الغدر ، ولي دنيا الوفاء . .

أنا الصابر على كرب الهجر ومكاره الصد والحرمان .

بديع الزمان .

الرسالة الثامنة والأربعون

سعاد ..

سعاد ، طال العهد بالتحدث إلى قلبك الرقيق ، إن كان للرفق مكان في صدور الملاح ! وهل أفدت شيئًا من الشكوى والأنين حتى أرجع إلى بث الأشواق من

جديد ؟

وما قيمة الصداقة والحب في هذه الدنيا الجدوب ؟

وهل كان أصدقائي إلا أقوامًا أسخياء بالهجر والصدود ؟

كم ليلة قضيتها في كرب وضيق وأنا أنتظر من يسأل عني ، ثم انقضت الليـالي .. وأنا وحيد فريد لا سمير لي غير وساوس القلب ولواعج الفؤاد ..

هل تنسم هذا العصر روح الصداقة ، يا محبـوبتي الغاليـة ، إن كانـت الأيـام أبقت عندي من الحياة ما يسمح بالشعور بأن لي في الدنيا محبوبة غالية ؟!

الصداقة كلمة خرافية حفظتها المعاجم كما تحفظ المتاحف جماجم الأجسام الخالية ، وسيكون لتلك الكلمة مدلول يوم يكون لهذه الجماجم أرواح ، وهيهات هيهات !

ما أعظم شقائي ! وما أضخم بلواي في دنياي !

كنت أظن الصداقة فكرة صحيحة ، ومن أجل ذلك عانيت ما عانيـت في البـر بأصدقائي ، فأين أنا مما ظننت ؟

ومتى أسترد الثقة بصلاحية الدنيا للصداقة والحب ؟

ما خطر في بالي أن الصداقة باب من أبـواب المنـافع ، ولا رجـوت أن تكـون الصداقة مفتاحًا من مفاتيح المغانم ، فقد أغناني الله عن الوصولية ، وصان وجهـي عن التعرض لمكرمات الأصدقاء ..

ولكن كيف قضت الأقدار بأن أسأل الله السلامة من شر أصدقائي؟

وما قيمة الدنيا إذا جاز فيها أن يتخوف الصديق عواقب الثقة بالصديق ؟

أهذا هو المصير المحتوم لكل من يفد على الوجود بقلب سليم ؟

أتلك هي الصحائف البيض التي نلقى بها الله يوم يقوم الحساب ؟

من يبلغ بني آدم في هذه البلاد أنهم على شفا الهاوية ، لأن حيواتهم خلت من مبادئ الصدق في الأخوة والحب؟

من يبلغ بني آدم في هذه البلاد أن التآلف هو ملاك الوجود ؟

من يبلغ بعض الناس أن الذي يفرط في حق الصديق يخطو خطوات سريعة مخبولة إلى الانحطاط والانحلال ؟

ومن أجل هذا المعنى أحرص على هواك ، يا سعاد ، فما أحب أن يقال أن الدنيا فسدت حتى خمد الحب في صدر العاشق الولهان ..

بديع الزمان .

الرسالة التاسعة والأربعون

سعاد ..

لا تعجبي من الضجر الذي احتوته رسالتي الماضية ، فقد كنت مكروبًا ، وكان صدري في غاية من الانقباض ، والأدب صورة النفس ، وهو يتلون بما فيها من قلق وهدوء ، كما يتلون الماء بلون الإناء ، وكم تمنيت إلا أكتب إليك إلا وأنا طروب جذلان ، ولكن من يضمن دوام الطرب والجذل لرجل يعايش أبناء الزمان؟

كان يقال : لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة » فما الذي يمنع من أن يقال : « لكل طريق حفرة ، ولكل صدر غل ، ولكل قلب ملال» ..

كذلك نسير في دنيانا فوق طرائق فيها حفرات وعقبات ، وبين ناس فيهم العدو قبل أن يكون فيهم الصديق ، وفيهم الغوى قبل أن يكون فيهم الرشيد .

من الصحيح ، يا سعاد ، أنه يجب أن نقبل العالم على علاته الفوادح ، وأن نرضى بأن يكون حالنا فيه حال من رضوا بالإقامة في أرض معرضة لأخطار الزلازل والبراكين ، وهم مع تخوف تلك الأخطار لا يفكرون في الرحيل ..

هذا صحيح ، لكن هل قدت قلوبنا من الصخر حتى نسلم من التـأثر بمكايـد الزملاء والرؤساء ؟

قيل أن الأطباء هم البلسم الشافي لجراح الإنسانية .

فمن يداوي الطبيب إذا كان جراحه أثـرًا لدسـائس صـوبها إليـه صـديق مـن الأطباء ؟

وكيف يرضى الخير في زمن يكون آسيه طبيبًا يداوي الناس وهو عليل ؟!

بديع الزمان .

الرسالة الخمسون

سعاد ..

في هذه الليلة تذوقت ألوانًا من الحزن الموجع .. ولكن كيف ؟

أراد الأطباء أن يقيموا حفلة تكريمية لمعالي الدكتور علي باشا إبراهيم بمناسبة بلوغه الستين ، أطال الله عمره ، وأدام عليه نعمة العافية ، وقد تسابقنا إلى الاشتراك في هذا الاحتفال ، رغبة لا رهبة ، فليس منصب الـوزارة بقـادر عـلى أن يسـوقنا إلى تكريم رجل لا نحبه وعلى إبراهيم رجل محبوب ، لأن فيه شمائل ذاتية تفـرض أن يحب ، وإن لم يستطع أن يظفر مني بغير الإعجاب ، والتصريح بهـذا المعنـى كـان السبب في أن تبخل لجنة التكريم بأن أكون من خطباء الاحتفال ..

لو سمحت اللجنـة بـأن ألقـي خطبـة لأتيـت بالعجـب العجـاب في وصـف مواهب الدكتور علي إبراهيم ، لأن العظماء كاللوحات الفنيـة لا يـدرك أخطـارهم إلا من كان ينظر إليهم من بعيد ، وأنا لم أحظ بشـرف الاقتـراب مـن الـدكتور عـلى إبراهيم ، فكان من أثر ذلك أن تظهر لي مواهبه واضحة جلية ، كالذي ينظر من بعد إلى لوحة تصور شاطيء نهر ، أو قمة جبل ، أو مسقط شلال ..

إن الذي ينظر إلى اللوحة الفنية من قرب لا يرى غير الألوان التي خطتها ريشة المصور ، أما الذي ينظر إلى اللوحة الفنية من بعد فيرى الألوان التي خطتها ريشة الوجود ، وكذلك من مواهب على إبراهيم ما لا يعرف الأقربون إليه وما لا يعرف خطباء الاحتفال ..

وهذا هو السر إلى نفرتي من التعرف إلى الدكتور على إبراهيم ، مع أنه يعرفني ، ولكن كيف يعرفني ؟

يعرفني من ملف خدمتي ، فأنا عنده طبيب أهوج يدعي الأدب ويشاغب الزملاء والرؤساء ، وهي صفات تؤكدها زعزعة الحيرة بين مستشفيات القاهرة ، والإسكندرية ، وبني سويف ، وقد يزيدها تأكيدًا ما سمعت من أني قد أنقل إلى أسوان ، والنقل إلى أسوان لا يؤذيني ، فأسوان بلد جميل وهو صلة الوصل بين مصر والسودان ، ولكن هذا النقل «إن وقع» لن يكون إلا من صور الاضطهاد ، ويومئذ يكون من حقي أن أنفض يدي من الثقة بوزير الصحة العمومية ، وإن كان اسمه على إبراهيم ، ثم يكون من حقي أيضًا أن أقول في وزارة الصحة ما أقول ، فأنا أشرف من جميع من يضطهدونني بلا بينة ولا يقين ، وإذا كان الرسول ﷺ أمر باتقاء غضب الحليم فسأكون ذلك الحليم الغضبان .

أين أنا مما أريد أن أقول ، يا سعاد ؟

لم يكن من همي في مطلع هذا الخطاب أن أتحدث عن اضطهاد الأبرياء ، وإنما كان همي أن أتحدث عن الاحتفال بتكريم الدكتور على باشا إبراهيم ..

كانت الحفلة الأولى نهارية ، ونحن في رمضان ، فهل كان من الحتم أن يقام الاحتفال في شهر رمضان ؟

وما الذي يمنع من إقامة الاحتفال في أيام العيد ليتساقى المحتفلون كئوس الليمون والبرتقال ، وليتناولوا معا طعام الغداء في كلية الطب ، تذكيرًا بعهد التلمذة ، عهد المرح والطرب والفنون ؟

كنت صائمًا ، والمحتفلون صائمين ، أو كنت وكانوا من الذين يراعون آداب الصيام ، والأمر واحد في الحالين ، فما استطعت ولا استطاع أحد من زملائي أن يجد ذوق المرح والطرب في ذلك الاحتفال ، وإنما قضينا كما نقضي بعض الواجبات في أدب وصمت وخشوع ، ولو أجلنا الاحتفال مدة لا تصل إلى ثلاثة أسابيع لقضيناه في طرب ، وفرح وانشراح ..

والأطباء هم أعرف الناس بقيمة الطعام والشراب في تحريك الأوردة والشرايين وتنبيه القلوب والأحاسيس .

وقد عرضت هذه الفكرة على أعضاء لجنة الاحتفال ، فما سمع سامع ولا أجاب مجيب ، لأني فيما قيل شاب حديث العهد بوقار «الحكماء» . .

أما حفلة المساء فكانت في قاعة الحفلات بالجامعة المصرية ، وهي قاعة عظيمة جدًا ، وكان يجب أن تكون في القاهرة لا في الجيزة ، ليكون الوصول إليها سهلا على الجميع من رجال ونساء ، في أمثال هذه الليالي «البيض» ..

ليالي الظلمات بسبب الغارات ..

كان في الحفلة اثنان وعشرون خطيبًا .. أعوذ بالله ..

أعوذ بالله ..

وأين من يصبر على سماع اثنين وعشرين خطيبًا في ليلة من ليالي رمضان .. وهي ليال لا يطيب فيها غير السمر والحديث ؟

وهنا أذكر كيف تألمت وتضجرت ..

عز عليّ أولاً أن أتصور كيف يمكث الدكتور على باشا إبراهيم في مكان واحد أكثر من خمس ساعات وقد قيل أنه بلغ الستين !

وعز عليّ ثانيًا أن أشهد جماعة من الزعماء ينصرفون فرارًا من طول الاحتفال .. وما تألمت من لحظة إلى لحظة بلا موجب معقول ، فقد تذكرت «شقاوتي» حين

كنت تلميذًا بالسعيدية ، فقد كنت مع الأسف زعيم التلامذة المشاغبين ، وبـذلك تعثرت في امتحان البكالوريا مرتين ، لا ثلاث مرات كما يزعم بعض السفهاء !

تألمت لأني كنت تلميذًا كهؤلاء التلاميذ .. تألمت لأني كنت مجنونًا كهـؤلاء المجانين .. فمن يردني إلى عهد التلمذة لأكفر عن ذنـوبي ، ولأقنـع بـأني كنـت في عهد التلمذة من العقلاء ؟

ثم حان الوقت لسماع قصيدة الدكتور إبراهيم ناجي .

فصرخ طلبة الجامعة بصوت بغيض : «عاوزين أسمهان .. عاوزين أسمهان » .. فمن يدافع عن سمعة مصر يوم يقال إن فيها شـبانًا يصـمون آذانهـم عـن سـماع قصيدة للدكتور ناجي ، وكان أكثر هؤلاء الشبان من كلية الطب ، وناجي من كبـار الشعراء ، وهو بلا جدال أشعر الأطباء ؟

وهل يكون غناء أسمهان أعذب من شعر ناجي ؟

إن أم كلثوم لا تستطيع الزعم بأن غناءها أعذب من شعر ناجي ، فكيف يقـال إن شعره أقل بشاشة من غناء أسمهان في نفوس أولئك الشبان ؟

أولئك طلبة اليوم ، يا سعاد ، وهم تلاميذي في «الشقاوة» ..

فليرحمهم الله وليرحمني ..

كان فيهم «بك» حفظه الله يعرف كيف يكف شري ، يوم كان ناظر السعيدية ، فكان يدعوني إلى مكتبه ليقول لي :

«يا بديع ، لا تخيب ظني فيك .. » وكانت هذه الكلمة الكريمة تصـرفني عـن الشغب أسبوعًا ، أو أسبوعين ، ثم أعود للتحالف مع الشيطان الرجيم ..

ألم أكن السبب الأصيل في صـد الشـيخ عـلى الجـارم عـن تفتـيش المدرسـة السعيدية ، مع أنه كان من أكابر المفتشين ؟

وأنا حاول تلطيف الحدة المشبوبة في صدور طلبة الطب ..

فأقول :

«لا تخيبوا ظنوني فيكم يا زملائي ، باعتبار ما سيكون ، فلن يبق للرجال غير كرائم الأعمال .. وسوف تعلمون أن أدب النفس هو الذخيرة الباقية لأحرار الرجال ..

وإن عشنا للاحتفال بالعيد السبعيني للدكتور علي باشا إبراهيم .. فسيكون لي معكم حديث أعمق من هذا الحديث ..

بديع الزمان .

الرسالة الواحدة والخمسون

سعاد ..

نسيت في الرسالة الماضية أن أذكر فكرة ملأت خواطري حين حضرت الاحتفال بتكريم الدكتور علي باشا إبراهيم ، فقد غنت أسمهان تغريدة بعيدة عن ذكريات الشعر الموصول بتاريخ هذا الطبيب المفضال . فما هي تلك الذكرى الشعرية ؟

في صباح يوم الجمعة ٢٩ فبراير سنة ١٩٢٩ ، نشرت جريدة «الأهرام» قصيدة غراء لأمير الشعراء شوقي بك في تكريم الدكتور علي إبراهيم .. وكان مبضعه قد استأصل علة في جسم الشاب حسين شوقي ، وكان حسين كما وصفته جريدة «الأهرام» يومئذ زهرة بيت أمير الشعراء النضرة الزاهية ..

فهل تعرفين يا سعاد كيف صار حسين شوقي ؟

لمحته في أحد الأماكن منذ أيام .. فرأيته أشيب الرأس ذاوي العود ..

هي الدنيا يا سعاد لا يبقى فيها أحد على حال ولو نشأ في «كرمه ابن هاني » فماذا قال أحمد شوقي في علي إبراهيم ؟

تلك قصيدة رائعة ختمها بهذه الأبيات :

يــا أخــب ، والــذخر في الــدنيا أخ

حاضــر الخيــر عــلى الخيــر أعانــا

لــك عنــد ابنــي ، أو عنــدي يــد

لســت آلوهــا ادكــارًا او صــيانا

حســنت منــي ومنــه موقعــا

فجعلنــا حرزهــا الشــكر الحســانا

هــل تــرى أنــت ؟ فــإني لم أجــد

كجميــل الصــنع بالشــكر اقترانــا

وإذا الــدنيا خلــت مــن خيــر

وخلــت مــن شــاكر هانــت هوانــا

دفــع الله « حســينا » في يــد

كيــد الألطــاف وفقــا واحتضــانا

لــو تناولــت الــذي قــد لمســت

منــه مــا زدت حــذارًا أو حنانــا

جرحــه كــان بقلبــي ، يــا أبــا

لا أنبيــه بجرحــي كيــف كانــا

لطــف الله فعوفينــا معــا

وارتهنــا لــك بالشــكر لســانا

وهي القصيدة التي خطرت في بـال ريـاض السـنباطي ، أدام الله عليـه نعمـة

الصوت الحنان !

قد تسألين عن السبب في تنبيه لجنة الاحتفال إلى هذا القصيد ؟

وأقول : كان ذلك في بالي ، ولم أبخل عليهم بهذا التنبيه السديد ، وإن كان صدري مملوءًا قيحًا من الحقد على بعض الزملاء ، ومن عانى من زمانه بعض ما عانيت .. يبخل عليهم بالهداية إلى مورد الماء وهم ظماء ..

بديع الزمان

الرسالة الثانية والخمسون

سعاد ..

كان أمس يوم عيد ، عيد الفطر ، فهل كنت في عيد ؟ وكيف يعرف يوم العيد من يقضي الأيام والأعوام وهو مصدود عن مرابع الهواء ؟

كنت أعرف العيد لو قضيته معك في أسيوط ، أو قضيته معي في أشمون ، ولكني بقيت حيث كنت في رجب ، وشعبان ، ورمضان ، وحيث أكون فيما بقى من مواسم حياتي ، بقيت مهجورًا مجفوًا لا أرى وجه الدنيا إلا من نافذة ضيقة أشد الضيق ، هي نافذة الأمل المهدد بعواصف اليأس ، اليأس من روح المودة والصفاء ..

فمتى تشهد الدنيا مواكب أفراحنا ، يا ظلوم ؟

ومتى نهتف كما تهتف أم كلثوم « حرام النوم في ليلة العيد » ؟

إن عيدي يوم ألقاك ، يا سعاد ، فمتى نلتقي ؟

متى نلتقي قبل أن يشيب فؤادي، والفؤاد يشيب كما يشيب الرأس ؟

لقد ابتسمت لبرقية التهنئة بالعيد ، وهي برقية مزخرفة ، وفيها تشابه من

لفظك المزخرف المصقول ، فمتى أنبأك أن هذه الزخارف تغنيني أو تلهيني عن اللوعة إلى الاصطباح والاغتباق بوجهك الجميل ؟

أجل ، يا سعاد ، واسأل الله أن يجعل مصيرك إلى جهنم لتذوقي عذاب الحريق كما يذوقه فؤادي ، فلن أعفو عنك أبدًا ، ولن أنسى ما صنع معي قلبك المقدود من الجلمود !!

وعند الله أحتسب ما قضيت من الصد الضائع في البر بأهل الغدر ، والوفاء لأرباب العقوق ..

بديع الزمان

الرسالة الثالثة والخمسون

سعاد ..

إليك رجعت ، يا سعاد ، بعد اليأس من الرجوع إلى اصطلاء الجمر ، جمر الهوى المشبوب ..

ولا تسألين كيف رجعت ، فلست أملك الجواب الصريح ..

وهل أستطيع أن أجيب بأني رجل مجنون لا يملك الصبر عن هوى الغيد الرعابيب ؟

اسمعي ، يا سعاد ، هل تعرفين من اين جاءت كلمة العشق في اللغة العربية ؟

جاءت من « العشقة » بفتح العين والشين ، والعشقة هي «اللبلاب» وهو يتلوى على الشجرة ويلزمها لزوم الغريم فلا يتركها ولو قصفتها الرياح ، فهو يطوقها وهي مطروحة على الأرض ، كأن بينه وبينها «معاهدة عدم انفصال» .

والشجرة التي تصاب بتطويق اللبلاب شقية كل الشقاء ، فليس لها يد تنحي ذلك المعتدي الأثيم ، وليس لها ذيل تطرده ، كما تصنع الأنعام في دفع الذباب ،

وإنما تحتمله على كره وانقباض ، بدون أن تملك التخلص من كابوسه الثقيل ..

وكذلك يصنع العشق بألباب الرجال ، فهو يطوقها بلا تلطف ، ولا ترفق ، ثم يظل على سجيته في الغرام بالتطويق العنيف ، فلا ينفصل ولو ذهب الموت بصرعاه ، لأن به شوقًا إلى تعذيب المحبين في الحياة وبعد الممات ..

كيف السبيل إلى الخلاص من هذه الآفة الروحية ، آفة العشق ، وهي لا ترحم من ابتلته الأقدار بظلمها الأثيم ؟

وهل نجا من شرها أحد في العالمين »

من كرب العشق أستعيذ بفاطر الأعناب والنخيل !

بديع الزمان .

الرسالة الرابعة والخمسون

سعاد ..

إليك أسوق هذا الخبر الظريف :

أجريت بحديقة منزلي بأشمون تجربة علمية في العشقة وهي اللبلاب ، وقد انتهت التجربة بأن العشقة تتخير الأشجار ، فتترك الشجرة الضعيفة ، وتطوق الشجرة القوية ، أفلا يكون معنى ذلك أن العشق يسلك هذا المسلك فيتخير القلوب ؟

هو ذلك ، يا سعاد ، فما حل العشق بقلب ضعيف ، وإنما يصوب سهامه إلى أقوياء القلوب ..

وذلك شاهد جديد على عظمة العاشقين ..

بديع الزمان

الرسالة الخامسة والخمسون

سعاد ..

عنك يا شقية ، تلقيت درسًا لن أنساه ، ولو طال الزمان ..

منذ شهرين أو ثلاثة جاءت الأخبار بأنك رهينة المرض في مستشفى أسيوط ، فماذا كان يجب أن أصنع ؟

أكان يجب أن أترك عملي وأسافر لأرى وجه البدر عند الخسوف ؟

لم يهن عليَّ أن أراك مريضة ، يا سعاد ، لم يهن عليَّ أن أشاهد وجهك الأصبح وقد نال منه الداء ، لم يهن عليَّ أن أتمثلك في صورة حزينة تزاحم صورك البواسم في روحي وفؤادي ، لم يهن عليَّ أني أدخل عليك بعد استئذان الأطباء ، ولم يكن بيني وبينك حجاب ، ولا توهمت أن الأقدار قد تقضي بألا أدخل عليك إلا بعد استئذان ، ولأي سبب ؟

لأنك مريضة ، وقد يؤذيك التلطف بالعائدين ، إذ كان يفرض مجهودًا ينتهي أحيانًا بالإعياء ..

لهذه الأسباب أعفيت نفسي من السفر، ورحمتها من عبادة سعاد.

ولكن سعاد الغبية بتودد المتوددين ، وترفق المترفقين ، فلم تخرج من المستشفى بعد أن أقامت فيه شهرين اثنين إلا ولها ألف صديق وصديق !

يا غبية ، متى تعقلين ؟

أتكون بطاقة يتركها أحمق لم يسمع باسم الحب إلا كما يسمع باسم البقلة الحمقاء دليل مودة وإخلاص ؟

أتكون زيارة من أبله معتوه لا يهمه إلا أن يقال أنه زار سعاد شاهدًا على أنه من أرباب القلوب ؟

أيكون خطاب من رجل أغلف القلب علامة على أنه من أصحاب الأذواق

الروحية ؟

يا غبية ، متى تعقلين ؟

وما الذي أسمع من أخبار العطف الـذي تبذلينـه بـلا حسـاب لمـن عـادوك متطفلين على وجهك الرائع ؟

كان يقال أن الجمال دليل على اكتمال المواهب في أهل الجمال ؟

فأين الشاهد على صحة هذا القول ، وأنت الآية على ما فيه من بطلان ؟

أنا وحدي أكتويت بنيران الأحزان حين علمت أنك من المرض في لأواء ..

أنا وحدي بكيت حين سمعت أن زهرة أسيوط قد يعتريها الذبول ..

أنا وحدي الذي توجعت حين عرفت أنك من الألم في عناء ..

ولو سئل البدر لشهد ، ولو سئلت النجوم لشـهدت بـأني قضـيت شـهرين في أشجان تعجز عن حملها الجبـال ، لأن سـعاد أقامـت في المستشـفى شـهرين ، ثـم نشطت من عقالي حين جاء البشير بأن سعاد أصبحت من المرض في أمان ..

فهل سألت عني سعاد حين برئت من علتها العاتية ؟

وكيف ولم أعدها مع العائدين ، ولم أقدم لها باقة من الأزهار والرياحين ؟

كل هدية مقبولة ، إلا هدية القلب .. فمتى أجد من يعرف قيمتك ، يا قلبي ؟

الزهرة التي تذبل بعد لحظة أو لحظتين يستحق مهديها نظرة عطف ، أو كلمة ثناء ، أما القلب الذي أهديته إلى سعاد ليقضي العمر في التسبيح بنورها الوهاج فهو هدية تافهة لا يقام لها ميزان ..

وما كان ذلك إلا لأن سعاد غبية برغم نشأتها في أسيوط ، فكيف قضى الحـظ العاثر بأن تكون محبوبتي غبية وحمقاء ؟

بديع الزمان .

الرسالة السادسة والخمسون

سعاد ..

هل تألمت من رسالتي الماضية ؟

لم أكذب في حرف واحد مما سطرت في تلك الرسالة الدامية ، فأنت كما صورتك بلا تزيد أو افتراء ، وأنا كما صورت نفسي بلا تكبر ولا استعلاء ، أنا العاشق الصادق الذي بذل ما بذل بدون أن ينتظر الجزاء ، وهل من العيب أن أنتظر الجزاء وهو النصيب المشروع لأهل الصدق والوفاء ؟

متى تستغفرين من ذلك ، يا سعاد ؟

متى أراك وقد اعترفت بأنني وحدي الصديق الوفي الأمين !

بديع الزمان .

الرسالة السابعة والخمسون

سعاد ..

إليك رجعت بعد الطواف .. بأودية الغدر والعقوق .

رجعت كارها غير طائع ، فما استطاعت الدنيا بما فيها من مال وصباحة أن تقنعني بأن لك شبيهًا بين الملاح ، يا أجمل من سيتغنى بفتنتها شعراء الحب في دار الخلود ، إن استطاع شاعر أن يهتف بحبك ، وأنا فارسك الصوال ..

رجعتُ ، يا سعاد ، رجعتُ ..

رجعتُ إلى طرفك الساحر ، وصوتك البغوم ..

رجعتُ إلى شقائي في الحب ، وبلائي بالصدود ..

رجعتُ إلى فتنة النهار ، ومحنة الليل ..

رجعتُ إلى الحبيبة المكلفة بتعذيبي وإيلامي ..

رجعتُ على من إليها المرجع ، لو قضيت الأعوام في الهرب من نورها الوهاج . .

سعاد ..

كيف أفر من طلعتك البهية ؟

كيف أنجو من خبال ذلك اللون ؟

وما ذلك اللون ؟

هل أقول ما أريد فأفضح نفسي ؟

إن جبال الذهب والفضة والعقيق في أساطير الأولين لا تساوي عندي لمحة واحدة من النظر إلى بعض ما يستر ثوبك الشفاف عند اعتراك العواطف في حومة العتاب ..

رأيتُ ما رأيتُ ، وعرفتُ ما عرفتُ ..

وسأموت احترافًا من هول ما رأيتُ وما عرفتُ ..

سأسأل ضمير الوجود كيف سمح أن يهبك ذلك اللون ، وهو غريبة الغرائب بين الألوان ..

لون ينطق ، فماذا يقول ؟

وما لحنه بين الألحان ؟

سعاد ..

ألا ترين أني أول شاعر يحوم حول معان لم يفطن لأمثالها الشعراء ؟

لن أتكلم بعد اليوم في غير فلسفة اللون ، اللون الذي رأيت ، اللون الذي

زلزل قلبي ، وزعزع كياني ، اللون الذي رأيته يترقرق فوق جسد سعاد.

دنياي ، كما ستعرفين ، ظلمات من فوقها ظلمات ، فهل يشرق الوجود من حولي بفضل ذلك اللون ، وهو أسحر ما زاغت به البصائر والقلوب ؟

أهو لون خمري ؟ كذلك قيل !

ولكن هل تصنع الخمر ما يصنع هذا اللون ، مع أن المنسوب أضعف من المنسوب إليه . كما قال أستاذ اللغة العربية في المدرسة السعيدية ؟

لو كان الشفق هو الذي منح جسمك ذلك اللون ، يا سعاد ، لتوهمت أنه عارية وصلت إليك من التجرد بعد الغروب .

ولكنه فيما أرى منحة ربانية لا تعرف الزمان ولا المكان ، فهو خصيصة من الخصائص السعادية ، وأنت تعرفين ما أريد ..

سعاد ، سعاد !!

الله الذي خصك بذلك اللون هو الذي خصني بذلك الحب ، فإن كان لونك غاية في السحر فحبي غاية في الصدق ..

وإلى اللقاء ، يا سعاد ، في جحيم ذلك اللون ، إن شاءت المقادير أن أرى منه ما رأيت ، وأن أعرف منه ما عرفت ..

إلى اللقاء في أسيوط أو أشمون ..

بديع الزمان .

الرسالة الثامنة والخمسون

سعاد ..

حدثتك في رسالتي الماضية عن اللون ، وأحدثك في هذه الرسالة عن الصوت ، وأي لون ؟ وأي صوت ؟

ذلك لونك يا سعاد ، وهذا صوتك يا سعاد ، وما أحلى اسمك على لساني وقلمي ، أكاد والله أعض ، لساني وأقضم قلمي حين يهتفان باسمك الحلو الجميل، يا ريحانة حياتي في هذا الوجود ..

تحدثت عن اللون في الرسالة الماضية ، فهل شفيت صدري بذلك الحديث؟

أغلب الظن أني سأرجع إلى وصف ذلك اللون يوم نلتقي في عيد الميلاد ، فهل تحضرين يا بخيلة لننير ظلام القاهرة في ليلة عيد الميلاد ؟

أتحدث اليوم عن الصوت ، صوت سعاد ..

وهي تباغمني من قريب أو من بعيد ، فما سمع مثله السامعون ، ولا رأت الدنيا مثل ما في نبراته من رنين .

ألو .. ألو .. ألو ..

كل الناس يقولون هذه الكلمات حين يهتفون بالتليفون ، ولكن صوت سعاد له سجع ينقل القلب من مكان إلى مكان ، وقد يبلبل النفس والروح ، ومن لم يسمع صوت سعاد فليس من حقه أن يقول أنه تنسم أرواح النعيم ..

وحين نجلس في لحظة غضب أو ساعة صفاء ، تتحدث سعاد ، وفي حلقها بلبل يغرد أغاريد العتب أو أغاريد الارتياح ، وما أعذب صوت سعاد ، فهو جميل في جميع الأحوال ، ولو سجع باللوم والتثريب ..

بلبل يسكن في حلق سعاد ولتهتف بصوته حين تريد ، وأقول الحلق ولا أقول الحنجرة كما يقول من يصفون صوت أم كلثوم ..

لأن الحلق ورد في بعض القراءات «يزيد في الحلق ما يشاء » ..

وجل من خلق صوت سعاد !

أيكون صوتها وسواس الحلى على نحور الملاح ؟

أيكون صوتها نميمة الحبب عند فورة الرحيق ؟

أيكون صوتها خفق الأماني في صدر العاشق الملهوف ؟

أيكون صوتها نجوى الأزهار وهي تداعب الندى ؟

أيكون صوتها صرير القلم وهو يكتب رسالة استهداء ؟

أيكون صوتها صوت النار وهي تعاني الاضطرام والالتهاب ؟

أيكون صوتها صوت الماء وقد بحه التهدر من خزان أسوان ؟

أيكون صوتها رجع الشعر المكبوت في قلب الشاعر المهدد بالافتضاح ؟

ماذا يكون هذا الصوت ؟

ماذا يكون ؟

فكرت ، وفكرت ، ثم فكرت ، فلم أجده غير صوت سعاد ، سعاد التي جعلتني مثلا في الحيرة والهيام والتشريد ..

كانت سعاد ترأف بحالي ، كما يعبر أهلي في أشمون ، فلا تزوني إلا في الحين بعد الحين ، لئلا أصاب بالجنون .

فهل تعرف سعاد أن رنين صوتها يلاحقني في الصباح والمساء ؟

هل تعرف سعاد أن صوتها مصدر شقوتي وخبالي ؟

آه ، آه ، آه ، أحب لون سعاد ، وأعشق صوت سعاد ، وأتمنى أن يكون لونها وصوتها غاية ما أملك في عالم الخلود ، إن قضى الله أن يكون لي في الجنة نصيب ، وهل تكون الجنة إلا من نصيب مجنون سعاد ؟

أنا وحدي الحائر في بيداء الوجود ، وسعاد هي القمر الذي أهتدى به في الظلمات ..

ولكن القمر يضل الساري لأنه يحجب النجوم ، وهي المرشد والدليل ، وسعاد قمري وشمسي ، فإلى أين أتجه ؟

ومن نورها كان ضلالي ؟

لكل امريء غاية ، فما غايتي ؟

وما مصيري ؟

وأين الشاطئ الذي ينجيني من طوفان الوجد والحنين ؟

وأين السبيل إلى السلامة من وقدة القلب الخفاق ؟

انقذيني يا سعاد من هول ما أعاني ، ليسلم فارسك الصوال ..

بديع الزمان

الرسالة التاسعة الخمسون

سعاد ..

كانت ليلة «رأس السنة » من الليالي المشهودة في التاريخ ، تاريخ الهوى والوجد ، فما أذكر أني تذوقت طعم النعيم إلا حين قضينا أول ليلة من تلك الليالي، فهل تذكرين ما وقع في تلك الليلة ؟

أخذنا نراقب الساعة من دقيقة إلى دقيقة لنعرف متي ينتصف الليل ، ثم تلاقت روحانا في آخر ثانية من العام الذاهب وأول ثانية من العام القادم ، بأسلوب لا أنسى روعته ما حييت ، ولن تذهب حلاوته ، وإن طال على عهده الزمان . .

وأنا في هذه اللحظة أراقب الساعة لأعرف متى ينتصف الليل ، عساي أتمثل ذلك المنظر في وقته المعهود ، فمتى ينتصف الليل وأشارف العام الجديد بمثل ذلك المنظر الجميل ؟

انتصف الليل ، يا سعاد ، وأنت من صياحي في أمان ثم مضت دقائق بعد منتصف الليل ، وأنا من نواك في عناء ..

فكيف تكونين في هذه اللحظات ، ولنا في أمثالها تاريخ ؟

أن كنت في ضيافة الأحلام فاذكريني عند طروق طيف الخيال ..

وإن كنت في سهرة فاذكري أن الحياة في ابتساماتها الجذاب لن تنفعك بشيء وأنت بعيدة عني ، ولسوف تعلمين عواقب هذا الوعيد ..

كان الظن أن تحفظي العهد ، فتجعلي ليلة رأس السنة من نصيبي ، لتبقى لنا حلاوة اللقاء الأول ، وهو خليق بأن نصد عنه عوادي الفناء ..

أنت صغيرة القلب ، يا سعاد ، وصغار القلوب لا يستحقون نعمة الوجود ..

كم تمنيت أن تحرسي قلبي فلا يتطلع إلى سواك من الملاح ..

ألم أحدثك عشرين مرة أن أسيوط اسمها الصحيح سووط ، ومعناه الحارس؟

كانت سووط تحرس أهل الجنوب من طغيان أهل الشمال في عهد الفراعين .. وأنت غادة أسيوط فهل تحرسين قلبي وهو في كل يوم هدف لطغيان أهل الشرق والغرب والشمال والجنوب ؟

أنا أملك السلوان عنك حين أريد ، ولكن متى أريد ؟

لقد انهزمت في ميدان الهوى ، مع أني انتصرت في سائر الميادين ، فيا رحمة الله أسعفي الشجاع الجريح !

لو كنت أعرف لك منفعة قريبة أو بعيدة في التنصل من غرامي لألقيت حبلك على الغارب ، وتركتك للغرام المجلوب من أرض السفاهة والجهل ، ولكني أعرف أن غرامي هو حارسك الأمين ، وأن اقتران اسمك باسمي هو الذي يجعل لك مكانة سامية بين الملاح ..

وهل رأى منك المعجبون غير الملامح التي صورها بياني ؟

أنت معشوقة بديع الزمان ، وهذا حسب ونسب وتشريف ، وبه تعتزين على جميع الغيد ، وترتفعين إلى أوج الخلود ..

كان يقال إن لشعراء العرب قصائد تزيد عن المئات في الهتاف باسم سعاد .. وأقول أن تلك القصائد ستفنى جميعًا وتبقى رسائل مجنون سعاد ..

ألم تسمعي يا غبية أن هذه الرسائل صافحت جميع القلوب ، وملأت أسماع الزمان ؟

أنت لهذه الرسائل أهل ، يا سعاد ، وإن كان قلبك قطعة من ثلوج الشمال وأنت لغرامي أهل ، ألم تفجري ينابيع الفصاحة في قلب طيب لا يعرف من قواعد اللغة العربية غير أوهام الظنون ؟

عنك تعلمت أن البلاغة تأخذ وقودها من القلب والروح والوجدان ، ولأهل الهوى مواهب لا يعلم أسرارها غير علام الغيوب ..

أحبك يا سعاد ، وإن كنت أخشى أن تكون هذه الليلة خاتمة الهتاف باسمك الجميل ، فما أستطيع أن أتصور كيف ولأي سبب تبعد شفتك عن شفتي عند انتصاف الليل في رأس العام الجديد ؟

أنا أختم هذا الخطاب في نهاية الساعة الأولى من بداية العام الثاني والأربعين ، وكنت ختمت الخطاب الأول في نهاية الساعة الأولى من بداية العام الثاني والثلاثين، ولغرامي يا سعاد تاريخ يسبق ذلك التاريخ ، وليس من البعيد أن أكون تعرفت إليها في عالم الأرواح قبل ملايين الأجيال ..

وإذن يكون هيامي بسعاد محنة أبدية أزلية ، لا أستطيع منها الخلاص ..

بديع الزمان .

الرسالة الستون

سعاد ..

مضت شهور طوال ونحن في نزاع وشقاق ، فكيف انتهت بنا الدنيا إلى هذا المصير الفظيع ؟

وكيف استطاعت الأيام أن تهدم غرامًا كنا نرجو أن يكون عمره أطول من عمر الخلود ؟

والمزعج أن ينهدم صرح الحب ، ثم لا أشعر أنه خليق بدمعة أو دمعتين في توديع عهده الجميل ، فهل كان ذلك الحب وثنًا قوضه الإيمان ؟

هل كان ريبًا مزقه الإيمان ؟

هل كان ظلامًا بدده النور ؟

هل كان مرضًا صرعه الشفاء ؟

لا أعرف كيف انقشعت تلك السحابة الوجدانية ، ولا أتصور كيف أمسيت وأنا في هواك بعافية ، ولا أدري كيف جاز أن أصبح وأنا من ظلم الهوى في أمان .

هو عهد ذهب وباد ، فعليه ألف تحية وألف لعنة ، فما أدري أكنت فيه من السعداء ، أم كنت فيه من الأشقياء ، وإن كنت أومن بأنني خلعت فيه حلل السعادة على من لا يحفظ الجميل ..

لو انتفعت بتأديب الأيام لجازيتك بما أنت أهل له ، قبل أن يصبح هوانا النبيل أو الأثيم حديث أهل الإفك والإرجاف . ولكن الهوى غطى على بصري وقلبي فلم أر إلا أنك دمية تعبدها الأهواء والقلوب ..

انتهينا ، ولا أدري كيف انتهينا ، فليفرح الشامت كيف أراد ، وليهنأ العاذل كيف شاء ، فما فوق نكبتنا نكبة ، ولا فوق بلائنا بلاء ..

انتهينا ، ومضى كل روح حيث يريد ، وغفت عيون كان السهاد شرابها المعسول ..

واطمأنت قلوب كان القلق زادها المأمول ..

انتهينا ، وعرف العاشق كيف يستريح من سهر الليل ، وعرف المعشوق كيف ينجو من عبث الأراجيف ، ولم يبق إلا أن تدرج أشلاء الهوى في مقابر العقوق .

انتهى حلم الحب ، وبيدك الجانية قطع نظام ذلك العهد ، فإلى أي طريق تذهبين ، وإلى أي غاية يتوجه قلبك الحيران ؟؟

لن تفلحي بعد اليوم فقد حل عليك غضبي ، ونزعت السحر الذي أضفاه عليك خيالي ، ولن تكوني إلا امرأة كسائر بنات حواء ..

انتهينا ، ونبا جنب عن جنب ، ونفر قلب من قلب ، وأعلن «بديع» براءته من «سعاد » ..

لقد هدني حبك هدا ، فلم أجد من القوة ما أعتصر به دموعي وأشجاني ، لأودع هواك الذاهب إلى مهاوي الفساد ..

جنى الغدر ما جنى ، وصنع العقوق ما صنع ، فاشربي كأس القطيعة بشهية ، وتناسى أننا تعافينا لحظة من زمان .

كيف أتوهم أن السماء ستسقط على الأرض ، إن وقع بيننا شيء من التجافي ، فكيف يقع ما وقع بلا دمعة تذرفها عيني ، وبلا حسرة يلفظها فؤادي ؟

أنت الجانية ، فعليك تبعات هذا المصير الذميم !

بأنفاسي اطفيء الشمعة التي أوقدتها في محراب الحب ، وكانت الغرة اللائحة في جبين سعاد ، ولعلها كانت الأمل المتألق في ضمير الفؤاد . .

إلى الله أشكو حرماني من هوى سعاد ، وهي ألطف يتيمة رأتها العيون ، وفيها من المعاني ما يحير الألباب والعقول ..

إلى الله أشكو أنني لـن أراهـا ولـن تـراني ، إلا إذا تلاقينـا مصـادفة في عـرض الطريق ..

إلى الله الذي جعل زاد الخلق من الشراب والطعام ، وجعل زادي من الجـوى والهيام ، أشكو الجوع الذي يعانيه قلبـي ، والظمـأ الـذي يقاسـيه روحـي ، فهـل يتفضل فيكرمني بهوى جديد ينسيني هوى سعاد ؟

زمام قلبي وروحي في يديك ، يا خالق الأنوار والظلمات ، فامنحني من القوة ما أنسى به تلك الحسناء الظلوم ..

ولك الحمد ، والثناء

بديع الزمان .

الرسالة الواحدة والستون

سعاد ..

كانت الرسالة الماضية آخر سهم أصوبه إلى صدرك الجميل لا الرفيـق ، فمـا بصدرك رفق ولا حنان ..

وكان الظن أن ينتهي ما بيننا إلى نهاية الآباد ، وأن أثـوب إلى عقـلي فـلا أضيع الوقت في أشواق لا نفع فيها ولا غناء .

ولكن قصة طريفة جرت اليوم بنادينا في نادي الجمعية الطبية ، ونحن الأطباء لا نعرف التحاسد الذي يفسد ما بين الزملاء ..

وخلاصة القصة أن أحد المرضى عولج بأساليب مختلفـة عـلى أيـدي أطبـاء مختلفين ، ومع ذلك ظل من مرضه في عناء ..

ولم يشف إلا بعناية طبيب تخرج في كلية باريس ..

وهو طبيب اهتدى إلى أن علة ذلك المـريض ترجـع إلى عقـدة نفسـية مردهـا

الأصيل «جوع الوجدان» ..

وتلك أول مرة نسمع فيها أن الوجدان يظمأ ويجوع ..

وقد ابتسم أستاذنا الدكتور على باشا إبراهيم .. ثم قال :

هل ترون أن نقترح على مشيخة الأزهر أن تبيح إفطار الوجدان في شهر رمضان حفظًا للصحة العمومية ؟

عند ذلك تنبهت إلى الخطر الذي أحدق بي منذ الرسالة الماضية .

رسالة القطيعة ، فقد رأيت نشاطي تحول إلى جمود ، ورأيتني أباشر أعمالي بفتور لم أعانه من قبل ، ولاحظت أن إشفاقي بالمرض قد استحال إلى استخفاف ..

كنت في الأعوام السوالف افترض أن كل مريض قد تكون له في الدنيا آمال «بديع» وأن كل مريض قد تكون له مآرب «سعاد» وفي ضوء هذا الخاطر اللطيف كنت أعالج مرضاي ..

فكيف صرت اليوم ، بعد الذي كان منك يا ظلوم ؟

صرت أفترض أن الدنيا لؤم ، وخداع في خداع ، وأن لا موجب لأن يسلم مريض من بلواه ، في دنيا لا كرم فيها ولا وفاء ..

كذلك صرت ، وإلى هذا انتهيت ، وآفة الآفات أن يمس الطبيب وهو عليل ..

هواك يا سعاد صحة للروح ، وعافية للوجدان ، والبرء من هواك هو الداء الذي استفاد منه الحكماء ، ومنه أستعيذ ، أن كان من برء الهوى معاذ ..

جاء في خطابك الأخير أنك بكيت بعد قراءة الرسالة الماضية ، وأنك ستبذلين في الاستغفار أقصى ما يطيق المستغفرون ، ويحزنني أن أقول :

إن دموع قلبي جفت قبل أن تجف دموع عيني ، فلن أستمع أو أجيب ، لمستغفر أو منيب ..

ذنوبك معروفة ، يا شقية فاخدعي رجلا غيري ؟

ذنوبك معروفة ، معروفة ، فأنت تؤمنين بالمثل الذي يقول :

«العين لها ألف ، والقلب له واحد » ..

وهو مثل سخيف، لأن العيون رواد القلوب ، وبتلون العيون تتلون القلوب..

فما هذا السخف الذي تصطنعين ؟

وإلى أي هاوية تنحدرين ؟

كيف جاز أن تزوري القاهرة ولا أراك إلا بعد ليلتين ؟

وما أتهمك بشيء يا سعاد ، فأنت فوق التهم والظنون ، يا غاية الروح ويا أمل الفؤاد ، ويا مطمح «بديع» من «سعاد» ..

لو اتهمتك بشيء لمضيت فقتلتك علانية في أحد شوارع أسيوط ، وإنما أعيب عليك الانشغال بالتلطف مع خلائق لا يقام لها في عالم الفكر ميزان ..

لا يجوز للمرأة غير ما يجوز لليمامة ، واليمامة لا تعرف غير أليف ليس له شريك ..

تأدبي ، تأدبي ، يا شقية ، واذكري أني وقفت عليك أحلام فؤادي ..

تأدبي ، تأدبي ، يا سعاد ، ولن أنسى أنك كنت مصدر الوحي لقلمي عددًا من السنين ..

أيتها اليتمية في أسيوط ، تذكري اليتيم في أشمون يا يتيمة الأب ، ترفقي بيتيم الأبوين ، وقد رضيت أمك بأن تكون أمي ، فكيف رفضت أن تكوني أختي ؟

تحيتي إلى أمك الغالية ، وسلام على الحب الذي أبدعناه في سنة ١٩٣١ ، ثم دفناه في سنة ١٩٤٢ ..

بديع الزمان

الرسالة الثانية والستون

سعاد..

ليلة العيد ...

هي ليلة ناجيت فيها الأطياف ، وسامرت فيها الذكريات لأحيي عهد الهـوى الذي لا يموت ..

كنت صبرت فجفوت فسلوت ، ولم أعلم أن الصبر والجفوة والسـلوة ألفـاظ لا يصل صداها إلى سرائر الوجدان . .

هي ليلة عيد ، ويا ويح من يوقد الشموع لذكريات الهوى في ليلة العيد !

لو شئت لمضيت إلى دار الهوى فألقيت عليها تحية ، أو طيف تحية ..

ولكن لا أشاء ، لأني أخشى أن يثور القلب بعد أن ارتاض على الهـدوء ، وأنـا قد ضمنت لنفسي الأمان من احتراق الروح في كوثر الوصال ، بذلك الارتيـاض ، وقد يراض القلب الجموح !

لابد مما ليس منه بد ..

لابد من قطيعة دامية ينحسر بها طغيان الضلال ..

وللحب أسماء كثيرة .. أشهرها الضلال ..

وما الذي يمنع من المجازاة صدودًا بصدود ، وعنادًا بعناد ؟

إن جمرات القلوب أقوى من جمرات الخدود ، فما خوفي مـن حـرب سـأكون فيها الغالب لا المغلوب ؟

إن في قلب الشاعر كنوزًا أنفس وأثمـن مـن كنـوز الجمـال ، فهـو إذن أحـق وأجدر بالدلال ..

أنا أملك الاستغناء عنكم ، ولا تملكون الاستغناء عني ..

إن مصر الجديدة تبدع أمثالكم في كل يوم ، ولكنها لن تبدع قلبًا مثـل قلبـي ، ولو طال الزمان ..

ما هذا الذي أقول ؟

أنا مقبل على الجحود ، إن كنت أعني ما أقول ..

إن مصر الجديدة لم تنجب جمالا في فتنة جمالـك الوهـاج ، الجمـال المـوحى الذي يساور الروح بأعنف مما تصنع الصهباء ..

لن أجحد جميلكم أبدًا ، ولن تروا مني غير الجميل كنا تواعـدنا عـلى التلاقـي في هذه الليلة بذلك المكان ، ولكني سـأخلف الميعـاد ، لتعرفـوا أن للشـعر دلالا أخطر من دلال الجمال ..

لن أعفو عنكم ، أو يعود الوحي ، فلا قيمة لغرام بلا إيحاء ..

أتذكرون أنكم هددتم يومًا بالقطيعة الأبدية ؟

وأنـا أيضًـا أهـددكم كمـا هـددتموني ، فـلي نجيـان كريمـان همـا «القلـم والقرطاس»..

وفي استطاعتي أن أستغني عنكم بهذين النجيبين ، إلى آخر الزمان ..

لا تنزعجوا من إخلاف الميعاد ، فقد أخلفت مع نفسي ألوف المواعيد ..

وما كان حبي لكم إلا صورة من حبي لنفسي ..

هي ليلة عيد أحاول فيها ظلمكـم يـا ظـالمين ، فاشـربوا مـن الكـأس الـذي شعشعتموه بالسم الزعاف ..

ما هذا الذي يزلزل روحي كلما خطرتم في بالي ؟

وما قيمة الدنيا إن لم نعش فيها بمنجاة من الاستعباد ؟

أنا ثائر عليكم ، ثائر ، ثائر ، فما يجوز أن أطالب بالحرية لوطني ، وأرضي العبودية لنفسي ..

ليتني لم أخلف الميعاد ، فقد كنت أحب أن أرى منكم كيف تنسكب أنوار القمر ، في عيد القمر ، وكيف تصير مصر الجديدة أقباسًا من الضياء المسكوب ، في شعاب القلوب .

هل انتظرتموني بذلك المكان ؟

وهل عبتم على العاشق الذي يخلف الميعاد ؟

وهل اعتزمتم التهديد بالقطيعة من جديد ؟

أنا تحررت من هواكم في هذه الليلة ، تحررت ، تحررت ، لأعاني عذاب الأسر في رحاب الأشواق ..

هي ليلة عيد ، لأني عرفت معنى الثورة على الهوى في ليلة عيد ..

ما جال في الخاطر ، ولا طاف بالبال ، إني سألقي عيد القمر ، بلا قمر ، وإني سأواجه عيد القمر بظلمات من العقوق ..

لقد انتصف الليل ، وسألت عنكم ، ولا سألتم عني بعد إخلاف الميعاد ..

لن أعفو عنكم ، أو يعود الوحي ، فلا قيمة لغرام بلا إيحاء ..

ماذا أريد منكم ؟

وماذا تريدون مني ؟

لقد افتضحنا بالحب ، فلتصنع الأقدار ما تشاء ..

أنا أخلفت الميعاد ، أخلفت ، أخلفت ، لأضمن فيكم ثائرة الحقد ، بعد أن يئست من آصرة الود ..

وتأريث نار الغضب ينفعني ، فأنا أعلم وأنتم تعلمون أن الاهتمام بالعدو

أقوى من الاهتمام بالصديق ..

***

انتصف الليل ، وسينتهي .. وقد ابتعد جنب عن جنب ، وإن لم يبتعد قلب عن قلب ..

سيتحدث العشاق في صباح العيد ، عما صنعوا في ليلة العيد ، فماذا الذي أعددناه للحديث عن ليلة العيد ؟

سنقول أننا كنا في جهل الأطفال ، وهو جهل ظفرت منه بأكبر نصيب ، حين أخلفت الميعاد ..

ولكني لن أندم على ما فعلت ، فقد كان يجب أن أذيقكم طعم الصدود ، وأن أذيق نفسي طعم الجفاء ..

ألم أقل أني صبرت فجفوت فسلوت ؟

هو ذلك ، ولكني لم أعلم أن الصبر والجفوة والسلوة .. ألفاظ لا يصل صداها إلى سرائر الوجدان ..

أأنت تملكين كل هذه الفتنة يا سعاد ؟

سأنزع من طلعتك البهية هذا السحر الفتان ، إن استطعت .

وكيف أستطيع وجمالك يا سعاد جذوة مقبوسة من نار الوجود ؟

لم تضع من أيدينا هذه الليلة ، وإن أخلفت الميعاد ،ه فلم أغتبق بلقياك في ذلك المكان ..

ألا يسرك أن تعرفي – ولو مرة واحدة – أني أملك السيطرة على هواي ؟

أنا نجيك في هذه الليلة ، برغم ما اقترفت من إخلاف الميعاد ، ألا ترين كيف آخذ المداد لقلمي من دماء قلبي ؟

ستذهب أحاديث المحبين ، وسينشغل عنها سمع الزمان .. فلا يعي منها غير أصداء ، ثم يخلد الحديث الذي سطرناه بهوانا فوق جبين الخلود ..

الفجر ينبثق عند طلعة العيد .. وأنا بعيد منك وأنت بعيدة مني .. فمتى نلتقي يا سعاد ؟

سأمر على دار هواي مرور الطيف ، لأسلم على الجدران ، لا على المكان ..

نحن في خصومة ، ولن نصطلح ، ولو وفيت بألف ميعاد وميعاد !

ذوقي طعم الهجر ، ذوقيه ، ذوقيه ، فقد كدرت بالهجر حياتي .. وإن كنت أومن بأنك لي وحدي ، فما يستطيع أنس ولا جن أن يثبت في المكان الذي يطوف به خيالي ..

يا نميمة العين على القلب ، ويا شهادة الخد على عافية الجسد وعافية الروح ، ماذا تريدين ؟

وماذا يريد بنا الهوى يا سعاد ؟

لا أستطيع الجموح إليك في هذه اللحظة ، لأني أتوهم أن انتظارك لميعادي طال وطال ، وأنك الآن في غفوة من شرب حتى أفاق ..

والأدب لا يسمح بإزعاج الشارب المفيق ..

وقد سقيتك بيدي كأس الحب ، وأنا أخلف الميعاد في ليلة العيد ..

يا نميمة العين على القلب ، متى نلتقي ؟

متى نلتقي يا نميمة سعاد على ..

بديع الزمان .

السيرة الذاتية

❋ ولد محمد محمود رضوان بمدينة الجمالية – محافظة الدقهلية بمصر في ١٥ سبتمبر ١٩٤٨ .

❋ حصل على ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٧١ وعمل كاتبًا صحفيًا بمجلة الهلال (١٩٧٣) .

❋ عضو نقابة الصحفيين المصريين – عضو اتحاد الصحفيين العرب.

❋ عضو اتحاد كتاب مصر (جوال : ٠١٠٠٦٧٥٩٢٢٤).

❋ من الأدباء والنقاد الذين تناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد والتحليل (صالح جودت – أنيس منصور – أحمد عبد المجيد – عبد العليم القباني – د. مقداد بالجن – كمال نشأت – فاروق شوشة – محمد إبراهيم أبو سنة – حسن فتح الباب – د. يوسف نوفل – ماهر شفيق فريد).

❋ له خبرة في الصحافة الأدبية والسياسية ، حيث عمل في سلطنة عمان رئيسًا لتحرير مجلة السراج الأدبية (١٩٧٦– ١٩٧٧) ، (١٩٩٢– ١٩٩٤) ، ومديرًا لتحرير مجلة (النهضة) السياسية (١٩٨٢– ١٩٩٣) .

❋ ابتدع لنفسه منهجًا أدبيًا في كتابة السير سماه (المنهج الوجداني) يجمع بين الموضوعية والعاطفية ، بين التحليل الأدبي النفسي وذاتية الكاتب وذوقه الأدبي ، ولعل بداياته القصصية هي التي ساعدته في تأصيل هذا المنهج فوصفه السفير الشاعر أحمد عبد المجيد (حين يتولى محمد رضوان كتابه سيرة لشاعر من الشعراء نراه يدلف إلى روحه ويتسرب إلى حياته وما اضطرب فيها من حال إلى حال ، ويتشح برداء عصره الذي عاشه ، ويتنسم ما كان يستنشقه ، فتجيء ترجمته كظل الغصن أو رجع الصدى) .

* له أكثر من عشرين كتابًا في أدب السير منها : صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك – مأساة شاعر البؤس : عبد الحميد الديب – اعترافات شاعر الكرنك أحمد فتحي – شاعر الأطلال ناجي – شاعر الجندول على محمود طه – شاعر النيل والنخيل : صالح جودت – رحلتي مع القلم – عندما يحب الشعراء – شاعر الروابي الخضر – أحمد خميس – شاعر الهمسات : أحمد عبد المجيد - اعترافات السندباد المصري – غزليات العقاد .

قام بجمع وتحقيق ودراسة :

-ديوان شاعر البؤس ، عبد الحميد الديب (المجلس الأعلى للثقافة) – القاهرة ٢٠٠٠ .

-ديوان شاعر الكرنك ، أحمد فتحي (منشورات سندباد الشعر) – القاهرة ٢٠٠٧ .

-ديوان شاعر الجندول ، على محمود طه (هيئة قصور الثقافة) – القاهرة ٢٠١٠ .

-ديوان صالح جودت : شاعر الحب والحرية (جزيرة الورد) ٢٠١٠ .

-شاعر الحب الضائع ، ، عبد الرحمن صدقي (جزيرة الورد) –القاهرة ٢٠١٧.

- شاعر الأطلال ، ناجي : حياته وشعره وقصائده المجهولة (جزيرة الورد – القاهرة ٢٠١٨) .

من مؤلفات محمد رضوان في جزيرة الورد والتي تصدر قريبًا :

-الملاح التائه ، علي محمود طه: حياته وشعره وقصائده المجهولة.

-صالح جودت ، شاعر النيل والنخيل: حياته وشعره وقصائده المجهولة.

-حسن كامل الصيرفي ، شاعر الألحان الضائعة: حياته وشعره وقصائده المجهولة.

الفهرس